المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية أصول الدين
قسم القرآن وعلومه

منهج القرآن الكريم في دفع الفساد

دراسة موضوعية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في القرآن وعلومه

إعداد الطالب
يوسف بن عبدالعزيز بن سليمان العُقيلي

إشراف
د . حجاج عربي رمضان أحمد
الأستاذ المساعد بقسم القرآن وعلومه

العام الجامعي ١٤٢٩-١٤٣٠هـ

المُقَدِّمَةِ

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون،وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الأمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً...أما بعد:

فإن الله جل وعلا بعث رسوله ﷺ على حين فترة من الرسل ﴿شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[الأحزاب:٤٦،٤٥].

وأنزل عليه القرآن تبياناً لكل شيء، كما قال جل وعلا ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[النحل:٨٩].

فبيَّن فيه كل مطلوب يحتاج إليها الخلق، على علم منه – سبحانه - بأحوال عباده في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم، وما لا يصلح، فليس تفصيله – جل وعلا - تفصيل غير عالم بالأمور، فتجهله بعض الأحوال، فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من وسع كل شي رحمةً وعلماً.

فحصل لأهل الإيمان به الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغيّ والرشد، وحصل لهم به الرحمة، وهي الخير والسعادة، في الدنيا والآخرة، فنتفى عنهم بذلك الضلال والشقاء.

وعاشت البشرية على منهاج النبوة سنين عدداً، حتى إذا بَعُدَ العهد، واندرس العلم؛ ظهرت صور متعددة للفساد في الأرض.

والمتأمل في كتاب الله تعالى، يرى منهجًا واضحًا لدفع الفساد، بشتى صورِه، فقد تعددت الآيات في بيان جملة من أنواع الفساد، وأسبابه، وسبل الوقاية منه، والآثار المترتبة عليه.

فقد بيّنَ القرآن الكريم؛ أن من أنواعه: ما يكون في المعتقد، كما قال تعالى في وصف

المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]

وذكر من أنواعه؛ ما يكون في الأخلاق، كما وصف الله بذلك قوم لوط، في إتيانهم الفاحشة، حيث قال سبحانه على لسان نبيه لوط عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

كما ذكر القرآن؛ جملة من أسباب الفساد؛ فبيّن أن من أسبابه الكفر والمعاصي، قال سبحانه وتعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وذكر من أسبابه؛ تزيين الشيطان، كما قال جل وعلا ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

ومن أسبابه أيضاً؛ اتباع الهوى، قال سبحانه ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وبيّن لنا سبل الوقاية منه، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

ومنها أيضاً: المدافعة، قال تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]

وكما ذكر آثار الفساد في الدنيا والآخرة، قال جل وعلا ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴾[محمد:٢٢]. وقوله تعالى ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾[الفجر:١٢،١٤].

وقوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾[النحل:٨٨].

لهذا رأيت أن يكون موضوعي في هذا البحث هو:

" منهج القرآن الكريم في دفع الفساد. دراسة موضوعية "

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١- اشتمال جملة من آي الذكر الحكيم، على أسباب الفساد، وأنواعه، وطرق علاجه، وموانعه، مما يستدعي لمّ شتات الموضوع ببحث مستقل.

٢- حاجة المجتمع لمثل هذا الموضوع الذي يحذّر من الشرّ، ويبصّر بأسبابه، كيف لا؛ والمتأمل يرى صوراً متعددة للفساد في المجتمعات المعاصرة، ومِن ثمّ؛ فهذا الموضوع، زاد للدعاة والمصلحين في تعاملهم مع الناس على منهج مستقيم.

٣- بعد البحث والاطلاع وسؤال أهل الاختصاص، لم أجد بحثاً علمياً استوفى الموضوع؛ بدراسته من جميع أطرافه، وإنما تذكر بعض مسائله، أو جزء منها، في إطار محدد.

٤- بيان أسباب الفساد، وآثاره، للتحذير من الوقوع فيه، وذكر أساليب القرآن الكريم في درء الفساد، للأخذ بذلك.

٥- أهمية بيان الفساد بمفهومه الشامل، وعدم القصور في معناه؛ بحصره في بعض أجزائه، إذ البعض يضيّق دائرة الفساد في بعض صوره؛ كالقتل أو الفواحش... ويجهل أن للفساد صوراً شتى، وأن منها ما يكون أعظم من غيره، كالكفر والشرك بالله تعالى... الخ .

٦- الحاجة لكشف مذاهب الفساد واتجاهاته، والتبصير بشُبه المفسدين، وبيان أساليبهم، وصفاتهم؛ ليكون المجتمع منهم على حذر.

أهداف البحث:

١. بيان كيف عالج القرآن الكريم أنواع الفساد، والوقوف على الدروس والعبر؛ من خلال أثار الفساد الخطيرة على الفرد والمجتمع، وسبل الوقاية منها.

٢. إبراز هذه القضية بجميع مظاهرها، وبمفهومها الشامل والصحيح، وإزاحة الستار عن المفهوم القاصر لدى بعض الناس، لاسيما ونحن نعيش في زمانٍ كثُر فيه خلط الحقائق، وتلبيس الحق بالباطل، فترى من يدَّعى الإصلاح، وهو يتمثل الفساد قولاً وعملاً.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والمطالعة في المراكز العلمية المتخصصة ودور النشر؛ فإني لم أقف على رسائل علمية، أو مؤلفات، تناولت منهج القرآن الكريم في دفع الفساد، ببيان أسبابه، وآثاره وسبل الوقاية منه.

وإن كانت بعض الرسائل والبحوث تحدثت عن هذا الموضوع؛ إلا أنها لم تتسم بطرحه بشموليته، وذكر جميع أطرافه.

فمنها ما سلّط الضوء على نوع من أنواع الفساد، أو تطرَّق لبعض أساليبه، فمن تلك الدراسات:

١." أساليب المجرمين في التصدي لدعوة المرسلين وبيان عاقبة ذلك في ضوء القرآن الكريم".

وهي رسالة تقدم بها الباحث: محمد بن عبد العزيز المسند، لنيل درجة الماجستير في قسم القرآن وعلومه، بجامعة الإمام بالرياض، وأشرف عليها د.عبد العزيز السبر، عام ١٤١٨هـ.

٢."منهج القرآن الكريم في علاج الفساد الاقتصادي".

رسالة من إعداد د.أميرة بنت علي غالب اليماني، تناولت الباحثة مشكلة الفساد الاقتصادي وبيان صوره وعلاجه في ضوء القرآن الكريم.

٣."الفساد الإداري وجرائم إساءة استعمال السلطة الوظيفية".

وهي رسالة أعدّها الباحث: سليمان بن محمد الجريش، لنيل درجة الماجستير في العدالة الجنائية، من جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية بالرياض، وهي دراسة إدارية قانونية بحتة.

٤."جريمة الإفساد في الأرض، وعقوباتها في الفقه والنظام".

وهي رسالة دكتوراه، قدّمها الباحث: علي بن محمد الكندري، في المعهد العالي للقضاء بجامعة الإمام بالرياض، وبإشراف د.سعود بن محمد البشر، عام ١٤٢٠هـ، وهي دراسة فقهية متخصصة، في جانب جرائم الإفساد، وبيان عقوباتها الفقهية والنظامية.

٥. "الضلال، أسبابه وأنواعه وعلاجه".

وهي رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في قسم القرآن وعلومه، بجامعة الإمام بالرياض، للباحث: محمد الضالع، بإشراف د.محمد المديفر. وهي دراسة سلطت الضوء على الضلال؛ كونه من أبرز مظاهر الفساد.

وحيث كانت صور الفساد، ومظاهره، وأسبابه، واسعة النطاق؛ فإنه والحالة هذه؛ أجد من الصعوبة حصر جميع البحوث والدراسات حول هذا الموضوع.

بيد أنّ تلك الرسائل والبحوث، لا تعدو أن تكون دراسة جزئية لجانب من جوانب هذا الموضوع.

حدود البحث:

الدراسة التي سأتناولها - بمشيئة الله - ستكون دراسة موضوعية، تستند إلى آي الذكر الحكيم، التي تُبرز هذا الموضوع؛ ببيان مفهوم الفساد، وذكر أنواعه، وأن منها، ما يكون فساداً عقدياً، ومنها ما يكون عملياً، وإيضاح أساليب القرآن الكريم في بيان الفساد، وكشف من اتصف به، وإبراز أسبابه، وسبل دفعه وعلاجه، وذِكر آثاره.

وهذا ما لم تتطرق إليه الدراسات السابقة.

خطة البحث:

جعلت هذا البحث مشتملاً على مقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وهي كما يلي:

- **المقدمة:** وفيها بيان أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهدافه، وحدوده، والدراسات السابقة فيه، وخطة البحث ومنهجي فيه.

الباب الأول: مفهوم الفساد وإطلاقاته. وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: معنى الفساد وإطلاقاته ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول: معنى الفساد في اللغة والاصطلاح.

المبحث الثاني: إطلاقات الفساد في القرآن الكريم، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الفساد بمعنى العصيان .

المطلب الثاني: الفساد بمعنى الهلاك .

المطلب الثالث: الفساد بمعنى التخريب والتدمير .

المطلب الرابع: الفساد بمعنى القتل .

المطلب الخامس: الفساد بمعنى السحر.

الفصل الثاني: أنواع الفساد، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الفساد العقدي، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول: الكفر والشرك.

المطلب الثاني: النفاق.

المطلب الثالث: السحر.

المطلب الرابع: الابتداع في الدين.

المبحث الثاني: الفساد العملي، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الجنايات.

المطلب الثاني : الفواحش.

المطلب الثالث: المعاملات والعادات.

الفصل الثالث: أساليب القرآن في بيان الفساد، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: النهي عن الفساد .

المبحث الثاني: ذمّ أهله والتشهير بهم.

المبحث الثالث: بيان عاقبته.

المبحث الرابع: ذكر من اتصف بالفساد، وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: الشيطان .

المطلب الثاني : مكذبو الرسل .

المطلب الثالث: أهل الكتاب .

المطلب الرابع: المنافقون.

المطلب الخامس: السحرة .

المطلب السادس: البغاة والمحاربون.

المطلب السابع: الكبراء والأثرياء.

الباب الثاني: أسباب الفساد وموانعه، وفيه فصلان:

الفصل الأول: أسباب الفساد، وفيه أحد عشر مبحثاً:

المبحث الأول: الكفر والذنوب.

المبحث الثاني: تزيين الشيطان.

المبحث الثالث: التـــقليد المذموم.

المبحث الرابع: موالاة المفسدين واتباعهم.

المبحث الخامس: اتباع الهوى.

المبحث السادس: الكبر.

المبحث السابع : الحسد.

المبحث الثامن : الغلو.

المبحث التاسع : الترف.

المبحث العاشر: الظلم والعدوان.

المبحث الحادي عشر: الفتن الدنيوية.

الفصل الثاني: سُبل دفع الفساد وعلاجه، وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول: بيان عاقبة المفسدين.

المبحث الثاني: الإخلاص.

المبحث الثالث: الصلاة.

المبحث الرابع: الدعاء.

المبحث الخامس: التخويف بالله.

المبحث السادس: السمع والطاعة ونبذ الاختلاف.

المبحث السابع: إقامة الحدود والزواجر الشرعية.

المبحث الثامن: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث التاسع: الجهاد والمدافعة.

المبحث العاشر: الأمر بغض البصر وحفظ الفرج.

الباب الثالث: آثار الفساد، وفيه فصلان:

الفصل الأول: آثاره في الدنيا، وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: اختلال الأمن.

المبحث الثاني: الضلال والطبع على القلب.

المبحث الثالث: الاستدراج.

المبحث الرابع: حبوط العمل.

المبحث الخامس: انتفاء محبة الله وتوفيقه.

المبحث السادس: العقوبة والهلاك.

الفصل الثاني: آثاره في الآخرة. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الخسارة والحسرة.

المبحث الثاني: مضاعفة الأوزار والسيئات.

المبحث الثالث: تغليظ العذاب.

الخاتمة: وفيها بيان نتائج البحث وتوصياته.

- **الفهارس:**

١) فهرس الآيات القرآنية.

٢) فهرس الأحاديث النبوية.

٣) فهرس الآثار.

٤) فهرس الأعلام.

٥) فهرس الأشعار.

٦) فهرس الأماكن والفِرق.

٧) ثبت المصادر والمراجع.

٨) فهرس الموضوعات.

• منهج البحث:

سرت في هذا البحث، وفق منهج التفسير الموضوعي على النحو الآتي:

أولاً: جمع الآيات الواردة في موضوع الفساد لفظاً ومعنى، ثم ترتيبها بحسب موضوعاتها.

ثانياً: تفسير الآيات حال عرضها؛ حسب مقاصدها، ومدلولاتها، والمقارنة بينها.

ثالثاً: عرض كلام المفسرين وأهل العلم – حول الآيات – مع الترجيح أو المناقشة لما يلزم، وعزو ذلك إلى مصادره الأصلية.

رابعاً: دراسة منهج القرآن الكريم في دفع الفساد؛ وذلك ببيان أنواعه، وأسبابه، وسبل دفعه، وأثاره، والتعريف بما يلزم بيانه منها.

خامساً: عزوت الآيات إلى مواضعها بذكر اسم السورة ورقم الآية.

سادساً: تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية، فإن كانت في الصحيحين، أو أحدهما؛ اكتفيت بذلك، وإن كانت فيما سواهما؛ خرجتها من مظانها، ونقلت ما وقفت عليه من أقوال العلماء فيها.

سابعاً: توثيق المعلومات المنقولة من مصادها الأصلية، فما نقلته بنصّه؛ جعلته بين علامتي تنصيص "..."، وعزوته لمصدره في الهامش مباشرة، وما نقلته بتصرّف، أو بمعناه؛ أشرت إليه في الهامش، مصدَّراً بكلمة (انظر).

ثامنا: عزوت إلى المصادر بذكر اسم الكتاب كاملاً في أول موضع، ثم أذكره بعد ذلك مختصراً.

تاسعاً: التعريف بالأعلام عدا المشاهير.

عاشراً: عزوت الأبيات الشعرية لمصادرها.

وختاماً:

فإني أحمد الله تعالى، وأثني عليه الخير كلّه؛ على نعمه الظاهرة والباطنة، وبما منَّ به عليّ؛ من تأمل آيات من كتابه، وتدبّر معانيها.

ثم إني أشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ممثلة بقسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين، حيث أتاحت لي بحث هذا الموضوع.

وأثنِّي بالشكر الجزيل لفضيلة الشيخ د.حجاج عربي رمضان أحمد، الأستاذ المساعد بقسم القرآن وعلومه؛ على جهد المتواصل لتسديد هذا البحث وتقويمه، فجزاه الله عني خير الجزاء.

كما أشكر إخواني طلبة العلم الذين أعانوني وأرشدوني إلى مظانّ هذا البحث ومسائله، وأسأل الله تعالى أن يكتب أجرهم، وأن يجزيهم عنّي خير الجزاء.

والله أسأل أن يجعل عملي هذا صالحاً، ولوجهه خالصاً، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباب الأول

مفهوم الفساد وإطلاقاته

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مفهوم الفساد .

الفصل الثاني : أنواع الفساد .

الفصل الثالث: أساليب القرآن في بيان الفساد .

الفصل الأول

مَفْهُومُ الفَسَاد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: معنى الفساد في اللغة والاصطلاح.

المبحث الثاني: إطلاقات الفساد في القرآن الكريم.

المبحث الأول

معنى الفساد في اللغة والاصطلاح

قال ابن فارس[١]:(فسد) الفاء والسين والدال،كلمة واحدة، فَسَد الشيء يفسد فساداً وفسوداً، وهو فاسد وفسيد، والفساد نقيض الصلاح[٢].

وقال الراغب[٣]: الفساد خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضادّه الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة، يقال: فسد فساداً، وفسوداً، وأفسده غيره.

والفساد نقيض الصَّلاح، والفعل فَسَد يَفْسُدُ فساداً. قلتُ ولغة أخرى: فَسُد فُسُوداً.

ويقال: أفسَدَ فلانٌ المالَ يُفسِدُه إفساداً وفساداً، وفَسَّد الشيءَ إذا أَبارَه، واستسفد السلطان قائده؛ إذا ساء إليه حتى استعصى عليه.[٤]

وقيل: الفساد زوال الصورة عن المادة بعد أن كانت حاصلة.

والفساد عند الفقهاء؛ ما كان مشروعاً بأصله غير مشروع بوصفه، وهو مرادف للبطلان عند الشافعي، وقسم ثالث مباين للصحة والبطلان عند الحنفية.[٥]

وحيث كان لفظ الفساد ذا دِلالة واسعة، فإني لم أقف على تعريف جامع لمعنى الفساد، إذ إن فساد كل شيء بحسبه.

وحيث إن الفساد له ارتباط بمصطلحات أخرى، فربما ظنّ البعض؛ أن تلك المصطلحات هي من قبيل المترادف لمعنى الفساد، غير أنه يمكن التفريق بينها وبينه عند التحقيق، ومن ذلك[٦]:

● الفرق بين الفساد والظلم:

الفساد أعم من الظلم، لأن الظلم النقص، فإن من سرق مال الغير مثلاً؛ فقد نقص حق

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين،كان إماماً في رجال خراسان غلب عليه علم النحو ولسان العرب فاشتهر به، وكان أديباً شاعراً، توفي بالريّ سنة ٢٩١هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء ١٠٣/١٧،الديباج المذهب لابن فرحون ٣٥/١.

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥٠٣/٤، لسان العرب لابن منظور ٣٣٥/٣.

(٣) الحسين بن محمد، أبو القاسم الأصفهاني، المعروف بالراغب، أديب لغوي مفسر، له مؤلفات، توفي سنة ٥٠٢هـ

انظر: تاريخ حكماء الإسلام ص١١٢، ومعجم المؤلفين لكحالة ٥٩/٤.

(٤) المفردات في غريب اللغة للراغب ٣٧٩/١. تهذيب اللغة للأزهري ١٢/ ٢٥٧.

(٥) انظر: التعريفات للجرجاني٢١٤/١.

(٦) انظر: الكليّات للكفوي ٥٩٨/١، الفرق لابن فارس ٢٣٥/١.

الغير، أما الفساد؛ فيقع على ذلك وعلى غيره، كالابتداع، واللهو، واللعب.

- الفرق بين الفاسد والباطل:

- الفاسد ما أمكن الانتفاع به رغماً من رداءته، من قولهم: فسد اللحم إذا أنتن، والباطل مالا يمكن أن ينتفع به، من قولهم: بطل اللحم إذا دوّد وسوّس،بحيث لا يمكن الانتفاع به.

الفرق بين الفساد والعثو:

العثو كثرة الفساد، أو أشد الفساد، وأصله من قولك: ضَبع عثواء؛ إذا كثُر الشعر على وجهها، وكذلك الرجل. قال الشاعر:

لولا الحياء وأن رأسي قد عثا   فيه المشيب لزرت أم القاسم[1]

وعاث يعيث لغة، وعثا يعثو أفصح اللغتين، ومنه قوله عز وجل﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[البقرة:٦٠]،والعيث مع الفساد يتفاوتان في التعدي واللزوم، مع قرب معناهما، فإن العيث الإفساد لا الفساد، ويقال: عاث الذئب في الغنم؛ إذا أفسد.

- الفرق بين الفساد والقُبح:

أن الفساد هو التغيير عن المقدار الذي تدعو إليه الحكمة، والشاهد أنه نقيض الصلاح الذي هو الاستقامة على ما تدعو إليه الحكمة، وإذا قَصُر عن المقدار أو أفرط؛ لم يصلح، وإذا كان على المقدار صلح.

والقبيح ما تزجر عنه الحكمة، وليس فيه معنى المقدار.

- الفرق بين الفساد والغيّ:

أن كل غي قبيح، ويجوز أن يكون الفساد ليس بقبيح،كفساد التفاحة بعينها، ويذهب بذلك إلى أنها تغيرت عن الحال التي كانت عليها، وإذا قيل: فلان فاسد؛ اقتضى ذلك أنه فاجر، وإذا قلت: إنه غاوٍ؛ اقتضى فساد المذهب والاعتقاد.

ومما سبق يتلخص أن هذه المصطلحات، لا تدل على معنى الفساد من جميع الوجوه، وإن كان بعضها يصح إطلاقه كوصفٍ للفساد، أو شيء من جوانبه، ويمكن القول إن بعضها بينه وبين الفساد عموم وخصوص. والله أعلم.

---

(١) البيت لعدي بن الرقاع العاملي. انظر: تهذيب اللغة ٩٦/٣، لسان العرب ٢٨/١٥.

المبحث الثاني

إطلاقات الفساد في القرآن الكريم

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الفساد بمعنى العصيان .

المطلب الثاني : الفساد بمعنى الهلاك .

المطلب الثالث: الفساد بمعنى التخريب والتدمير .

المطلب الرابع : الفساد بمعنى القتل .

المطلب الخامس: الفساد بمعنى السحر .

جاء إطلاق لفظ الفساد في كتاب الله جلّ وعلا، على وجوه متعددة، وقد ذكرها من كَتَب في الوجوه والنظائر[١]، كمقاتل بن سليمان[٢] والدامغاني[٣] وابن الجوزي[٤]وغيرهم.

وعند النظر والتأمل في كلام المفسرين؛ نجد إنها تكاد تنحصر في الأوجه التالية، وقد جعلتها في خمسة مطالب:

المطلب الأول: الفساد بمعنى العصيان.

ورد لفظ الفساد بمعنى العصيان في مواضع عدّة من آي الكتاب العزيز، فمن ذلك قوله سبحانه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[البقرة:١١،١٢].

فقد ذكر ابن جرير [٥] عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية.

وعن مجاهد [٦] قوله:"إذا ركبوا معصية،فقيل لهم:لا تفعلوا كذا، قالوا:إنما نحن على الهدى.[٧]

ففسادهم ذلك هو معصية الله – جل ثناؤه – لأن من عصى الله في الأرض، أو أمر بمعصيته؛ فقد أفسد في الأرض، ولا إصلاح للأرض والسماء؛ إلا بطاعة الله تعالى.

---

(١) قال الزركشي:(الوجوه:اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدّة معان كلفظ "الأمّة"، والنظائر كالألفاظ المتواطئة).
انظر: البرهان في علوم القرآن ١٠٢/١.

(٢) هو مقاتل بن سليمان بن بشير البلخي أبو الحسن الأزدي بالولاء الخرساني المروزي،اشتهر بذكائه وسعة علمه، أثنى عليه العلماء في التفسير، واتهم في الحديث. قال الذهبي "أجمعوا على تركه" ت:١٥٠هـ.
انظر: طبقات المفسرين للداودي٣٣٠/٢، سير أعلام النبلاء٢٠١/٧.

(٣) هو الحسين بن محمد أبو الحسين الدامغاني، نسبة إلى دامغان وهي بلدة بين الري ونيسابور،فقيه حنفي، اختُلف في اسمه ومولده ت: ٤٧٨هـ انظر:كشف الظنون ١٠٦٧/٢، إيضاح المكنون ٦١٥/١.

(٤) هو عبدالرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج بن الجوزي، جمال الدين البغدادي، ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقيه حنبلي كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ صنف التصانيف الشهيرة في فنون عديدة. ت: ٥٩٧هـ انظر: وفيات الأعيان، سير أعلام النبلاء ٣٦٥/٢١.

(٥) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري ، الإمام الجليل المفسر ، أحد الأعلام وصاحب التصانيف من أهل آمل طبرستان ، مات ٣١٠هـ. انظر تاريخ بغداد ١٦٢/٢ تذكرة الحفاظ ٧١٠/٢

(٦) هو مجاهد بن جبر المكي ، أبو الحجاج القرشي المخزومي مولاهم ، إمام في القراءة والتفسير ، روى له البخاري ومسلم وغيرهما. مات بمكة ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣، ١٠٤. انظر تهذيب الكمال ٢٢٨/٢٧

(٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري ١٢٥/١.

وقد نزلت الآيتان في المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وإن كان معنياً بهما؛ كل من كان بمثل صفتهم من المنافقين بعدهم إلى يوم القيامة[١].

"ولما كان في قولهم (إنما نحن مصلحون) حصر للإصلاح في جانبهم، وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح؛ قلَب الله عليهم دعواهم بقوله (ألا إنهم هم المفسدون)، فإنه لا فساد أعظم؛ ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله، وخادع الله وأولياءه، ووالى المحاربين لله تعالى ورسوله ﷺ، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساد، ولكن لا يعلمون علماً ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجة الله"[٢].

ومما ورد في هذا المعنى قوله تعالى﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٧٧].

فقد نقل غير واحد من المفسرين أن المراد في تأويل الآية: لا تعمل فيها بالمعاصي.[٣]

وحيث نزلت هذه الآية وما جاء بعدها في قارون حين عصى ربه، وعلا في الأرض، ختم تبارك وتعالى القصة بقوله﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]. أي: لا المفسدين. فغير المتقي فاسد.

ونظير ذلك أيضاً، قوله تعالى﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال البغوي:"أي لا تفسدوا فيها بالمعاصي، والدعاء إلى غير طاعة الله، بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله. وبه قال غير واحد من السلف.

وقيل: لا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث، بمعاصيكم".[٤]

---

(١) انظر: جامع البيان ١/١٢٥، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٥٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٢.

(٣) انظر: جامع البيان١٠/١٠٥، معالم التتريل للبغوي١/٢٢١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي١٣/٢٧٨.

(٤) معالم التتريل للبغوي ٢/١٦٦.

ومن ذلك أيضاً؛ ما أخرجه ابن أبي حاتم[١]عن السدي[٢]في قوله ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]. حيث قال: يعملون فيها بالمعصية.[٣]

وإنما كان العمل بالمعاصي إفساداً للأرض؛ لأنه يتضمّن فساد ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار والنبات؛ بما يحصل فيها من الآفات بسبب المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض؛ أن تُعمر بطاعة الله، والإيمان به، ولهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض وأدرَّ لهم الأرزاق؛ ليستعينوا بها علي طاعته وعبادته، فإذا عُمِل فيها بضده، كان سعياً بالفساد فيها، وتخريباً لها عما خلقت له.

إن المتأمل للنصوص، ليدرك بجلاءٍ عناية الشريعة في ذم المعاصي، وبيان سُبلها الموصلة إليها، ولأجل ذلك؛ تنوع التحذير من الوقوع فيها؛ فمنها ما رُتب عليه الحدود، ومنها ما يصلحه الكفارات، ومنها ما تُوعِدَ عليه بالعقوبة في الآخرة...

وهكذا نجد دلالة الخطاب الشرعي في الترهيب من المعاصي، برهانٌ ظاهر على عِظَم فسادها، وضررها على الفرد والمجتمع.

وأكثر الآيات الواردة في لفظ الفساد، جاءت في هذا المعنى.

ولا غروَ فإن المعاصي – ابتداءً بالإشراك بالله تعالى، وتكذيب رسله، والكفر بآياته؛ وانتهاءً بصغائر الذنوب – كلها فساد وانحراف عن المنهج الحق، الذي رضيه الله لعباده، وإن كان هذا الفساد؛ يتفاوت باختلاف الذنوب كبيرها وصغيرها.

---

(١) عبدالرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي،حافظ الرَّي وابن حافظها، عالم ثبت، صنف في العلوم،له التفسير المسند، توفي سنة٣٢٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٢٦٣/١٣، طبقات المفسرين للداودي ٢٨٥/١.

(٢) إسماعيل بن عبدالرحمن السدي، إمام عارف بالوقائع وأيام العرب، روى عن ابن عباس،توفي سنة ١٢٧هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٣١٣/١،طبقات المفسرين للداودي ١٠٩/١.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٧٢/١.

المطلب الثاني: الفساد بمعنى الهلاك.

جاء الفساد بمعنى الهلاك في قول الله تعالى﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

قال الطبري:"يعني لهلك أهلها بعقوبة الله إياهم؛ ففسدت بذلك الأرض، ولكن الله ذو منٍّ على خلقه، وتطوّلٍ عليهم، بدفعه بالبَر من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم، وبالمؤمن عن الكافر".(١) قال البغوي: هذا قول سائر المفسرين.

وقال ابن كثير (٢):"لولاه يدفع عن قوم بآخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت، وشجاعة داود؛ لهلكوا، كما قال تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾[الحج:٤٠]".(٣)

ومما جاء في معنى الهلاك، قوله تعالى﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٢].

قال الفراء(٤):(إلا) هنا في الموضع؛ بمنزلة (سوى)،كأنك قلت: لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسد أهلها.

وقال غيره: أي لو كان فيهما إلهان لفسد التدبير، لأن أحدهما إن أراد شيئاً، والآخر ضدّه، كان أحدهما عاجزاً.

وقيل:معنى (لفسدتا) أي خربتا وهلك من فيهما، بوقوع التنازع، بالاختلاف الواقع بين الشركاء(٥).

---

(١) جامع البيان ٢/٦٣٩. معالم التنزيل ١/٢٣٦.تفسير القرآن العظيم ١/٣٠٤.

(٢) هو إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الأموي البصري الشيخ عماد الدين المعروف بابن كثير، صاحب التفسير والتاريخ قال الذهبي : إمام محدث مفت بارع. مات ٧٧٤هـ انظر الدرر الكامنة ١/٤٤٧، طبقات المفسرين للداودي ص ٢٠٦

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/٦٩٩

(٤) يحي بن زياد، أبو زكريا، الكوفي النحوي، أخذ عن الكسائي، قال عنه ثعلب:"لولا الفراء لما كانت عربية" انظر: تذكرة الحفاظ ١/٣٧٢، طبقات المفسرين للداودي٢/٣٦٧.

(٥) انظر: معاني القرآن للفراء ٢/٢٠٠، الجامع لأحكام الفرآن ١١/٢٤٦.

وقيل:أي لخربتا وهلك من فيهما بوجود التمانع من الآلهة، لأن كل أمر صدر عن اثنين فأكثر، يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادراً على الاستبداد بالتصرف؛ فيقع عندئذ التنازع والاختلاف، ويحدث بسبب ذلك الهلاك، ثم نزّه - سبحانه — ذاته عن ذلك بقوله ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢](١).

ويدخل في هذا المعنى أيضاً قوله جلّ ذكره﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون:٧١]، فهي كسابقتها في الدلالة على سوء العاقبة، والمعنى: لو أجابهم الله، بأن جعل أمر التشريع، وإرسال الرسل، ونحو ذلك، تابعاً لأهوائهم؛ لفسدت السموات والأرض، ومن فيهن، لأن أهواءهم الفاسدة، وشهواتهم الباطلة، لا يمكن أن تقوم عليها السماء والأرض، بل لو كانت هي المتبعة؛ لهلك الجميع.(٢)

ومما ورد بمعنى الهلاك، قوله تعالى ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾[الإسراء:٤]أي:لتهلكنّ في الأرض مرتين،حيث بيّن جلّ وعلا هذا الإفساد بقوله ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾[الإسراء:٥— ٨].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث الله عليهم في الأولى جالوت(٣)، فجاس خلال ديارهم،

---

(١) انظر: معالم التنزيل ٣١٤/١، زاد المسير ٣٤٥/٥،إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ٦١/٦.

(٢) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٣٤٢/٥.

(٣) من جبابرة الكنعانيين،كان ملكه بجهات فلسطين، وكان من الشدة وطول القامة بمكان عظيم، وكان هو وقومه يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، وهم العمالقة،فظهروا على بني إسرائيل، وغلبوا على كثير من أرضهم، وسبوا كثيراً من ذراريهم، وضربوا عليهم الجزية،وأخذوا توراتهم،ولقي بنو إسرائيل منهم بلاء وشدة. انظر: الأنس الجليل بتاريخ القدس ص ١٠٤، ومعالم التنزيل ٢٢٦/١

وضرب عليهم الخراج والذل، فسألوا الله أن يبعث إليهم ملِكاً يقاتلون معه في سبيل الله، فبعث الله طالوت[(١)]، فنُصِر بنو إسرائيل، وقُتل جالوت بيدي داود عليه السلام، ورجع إلى بني إسرائيل مُلكهم، فلما أفسدوا؛ بعث الله عليهم في المرة الآخرة، بختنصر[(٢)]، فخرّب المساجد وتبّر ما عَلو تتبيراً[(٣)].

وقيل: "كانت الآخِرة، أشد من الأولى بكثير؛ فإن الأولى كانت هزيمة فقط، والآخِرة كانت تدميراً، وحرّق بختنصر التوراة، حتى لم يترك فيها حرفاً واحداً، وخرب بيت المقدس".[(٤)]

"وإسناد الإفساد إلى ضمير بني إسرائيل، مفيد أنه إفساد من جمهورهم، بحيث تُعَدّ الأمة كلها مفسدة؛ وإن كانت لا تخلو من صالحين"[(٥)].

ولا ريب أن الهلاك مرتبطٌ بالفساد؛ بل هو - كما سيأتي - أثرٌ من آثاره، لا يقتصر على آحاد الناس، بل يصيبهم بمجموعهم، سواءٌ قيل: إنه واقع بسبب مباشرتهم له، أو نتيجة عصيانهم وفجورهم.

وهذا التقرير مستلهم من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها: أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول:"لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب، فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: نعم إذا كثر الخبث.[(٦)]

فأقرّ ﷺ بوقوع الهلاك إذا كثر الفساد والفجور والعصيان؛ ولا تكثر هذه؛ إلا إذا باشرها جمع من الناس.

---

(١) كان دباغا وقيل كان سقاء يسقي الماء ويبيعه، واسمه بالسريانية: شاول بن قيس بن أبيال بن ضرار بن بحرت بن أفيح بن أيش بن بنيامين بن يعقوب. انظر: تاريخ الطبري ٢٨٠/١ الكامل لابن الأثير ١٦٥/١

(٢) بختنصر بن نبوزر بن سنحاريف. كان ملكاً على بلاد بابل بالعراق انظر: تاريخ الطبري ٦٥/١

(٣) انظر: جامع البيان ٣٦٦/١٧،٣٧٧

(٤) جامع البيان ٣٨٧/١٧

(٥) التحرير والتنوير ٤٠/٨

(٦) أخرجه البخاري.كتاب المناقب.باب علامات النبوة من الإسلام.ح(٣٤٠٣). ومسلم.كتاب الفتن وأشراط الساعة.باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج. ح(٢٨٨٠).

المطلب الثالث: الفساد بمعنى التخريب والتدمير.

ويدل لهذا المعنى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[البقرة:٢٠٥].

قال الطبري:"إذا خرج هذا المنافق من عندك يا محمد غضبان، عمل في الأرض بما حرم الله عليه، وحاول فيها معصية الله، وقطع الطريق، وإفساد السبيل على عباد الله"(١).

ونقل الواحدي(٢)عن السدي قوله: نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق الثقفي(٣)، وهو حليف بني زهرة، أقبل إلى النبي ﷺ بالمدينة، فأظهر له الإسلام، وأعجب النبي ﷺ ذلك منه، وقال إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم أنني صادق، وذلك قوله ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾[البقرة:٢٠٤].

ثم خرج من عند النبي ﷺ فمرّ بزرع لقوم من المسلمين وحُمر؛ فأحرق الزرع، وعقر الحُمْر، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية.(٤)

قال السعدي(٥)عند هذه الآية:"أي يجتهد في أعمال المعاصي التي هي إفساد في الأرض، (ويهلك) بسبب ذلك (الحرث والنسل)، فالزروع والثمار والمواشي، تتلف وتنقص وتقِل بركتها، بسبب العمل في المعاصي، (والله لا يحب الفساد) وإذا كان لا يحب الفساد، فهو يبغض العبد المُفسِد في الأرض، غاية البغض، وإن قال بلسانه قولاً حسناً".(٦)

والمراد بالحرث هنا الزرع، والنسل: نسلُ كل شيء من الحيوان، هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة.

---

(١) جامع البيان ٢/٣١٦.

(٢) علي بن أحمد بن محمد الواحدي، أبو الحسن النيسابوري، لازم أبا إسحاق الثعلبي، وصنّف التفاسير الثلاثة "البسيط" و" الوسيط" و"الوجيز"، توفي سنة ٤٦٨هـ.

انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٥/٢٤٠، طبقات المفسرين للسيوطي ص٧٨.

(٣) الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب، أبوثعلبة، صحابي جليل ، وكان من المؤلفة قلوبهم، مات في زمن عمر بن الخطاب. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ١/٣٨ .

(٤) انظر: جامع البيان ٤/٢٢٩، أسباب نزول القرآن للواحدي ص٦٦.

(٥) هو عبد الرحمن بن ناصر السعدي التميمي، من كبار علماء نجد المعاصرين،له مؤلفات، اشتغل بالتدريس، عُرف بحسن خلقه وكريم سجاياه، توفي ببلده عنيزة، عام ١٣٧٦هـ.انظر: علماء نجد٢/٤٢٢،الأعلام٣/٣٤٠

(٦) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٣.

وحكى الزجاج[١] عن قوم؛ أن الحرث النساء، والنسل الأولاد؛ قال: وليس هذا بمنكر، لأن المرأة تسمى حرثاً.

وفي معنى إهلاكه للحرث والنسل، أقوال[٢]:

أحدها: أن إهلاك ذلك بالقتل والإحراق والإفساد، قاله الأكثرون.

والثاني: أنه إذا ظلم، كان الظلم سبباً لمنع القطر، فيهلك الحرث والنسل، وهو يخرَّج على قول من قال: إنه من التولي.

والثالث: أن إهلاك ذلك، بالضلال الذي يؤول إلى الهلاك، حكاه بعض المفسرين.

ومما يدخل في هذا المعنى قوله جلّ ذِكره ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[النمل:٣٤].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إذا أخذوها عنوة أخربوها.[٣]

وافتتاح جملة ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ﴾ بحرف التأكيد، للاهتمام بالخبر وتحقيقه، فقولها﴿إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ استدلالٌ بشواهد التاريخ الماضي، ولهذا تكون (إذا) ظرفاً للماضي بقرينة المقام، كقوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾[الجمعة:١١].وقوله﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾[التوبة: ٩٢].

وجملة﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ استدلال على المستقبل بحكم الماضي، على طريقة الاستصحاب، وهو كالنتيجة للدليل الذي في قوله ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾.

والإشارة إلى المذكور من الإفساد وجعل الأعزة أذلة، أي كيف نلقي بأيدينا إلى من لا يألو إفساداً في حالنا.[٤]

---

(١) إبراهيم بن السّريّ بن سهل، الزجاج نسبة إلى خرط الزجاج، من أهل الفضل والدين، حسن الاعتقاد، صنّف في اللغة وعلوم القرآن، توفي ببغداد سنة ٣١١هـ. انظر:تاريخ بغداد ٨٩/٦

(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١٨٩/١.

(٣) جامع البيان ٤٥٤/١٩.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٨٠/١٠

وكما قالت صاحبة سبأ تفعل الملوك، إذا دخلوا قرية عنوة، ولذا أقرَّها سبحانه وتعالى بقوله ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[(١)]

ومما جاء بهذا المعنى – أيضاً– قوله سبحانه﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[المائدة: ٣٣].

فقد نزلت هذه الآية في بيان حدِّ المحاربين، والمحاربة هي المضادة والمخالفة، وهي صادقة على الكفر، وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل، والإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثير من السلف؛ كسعيد بن المسيب[(٢)]: إن قبض الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض.

ولا علاقة لهذه الآية ولا التي بعدها؛ بأخبار بني إسرائيل، وإن كان سياق الآيات في مخاطبتهم والحديث عنهم.

فقد نزلت[(٣)]في العرنيين ــ في قول جمهور المفسرين ــ وبه يُشعر صنيع البخاري، إذ ترجم بهذه الآية، من كتاب التفسير في صحيحه، وأخرج عَقِبه حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في العرنيين.

ونص الحديث من مواضع من صحيحه: قدم على النبي ﷺ نفر من عكل وعرينة، فأسلموا ثم أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا قد استوخمنا[(٤)]هذه الأرض، فقال لهم: هذه نَعَم لنا، فاخرجوا فيها، فاشربوا ألبانها وأبوالها، فخرجوا فيها، فشربوا من أبوالها وألبانها، واستصحوا، فمالوا على الراعي فقتلوه واطردوا الذود[(٥)]وارتدوا، فبعث رسول الله ﷺ في آثارهم، بعث جرير

---

(١) انظر: جامع البيان ١٩/٤٥٤.

(٢) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، فقيه المدينة، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر رضي الله عنه، من أجلّ التابعين،قال علي بن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً من سعيد، توفي سنة٩٠هـ. انظر: تذكرة الحفاظ ١/٤٤، سير أعلام النبلاء ٤/٢١٧

(٣) سيأتي بيان أقوال المفسرين في نزول الآية مفصلاً في موضعه. انظر ص ٢٥٧.

(٤) استوخم الطعام توخمه، والمكان استثقله، ولم يوافقه سكنه. انظر:المعجم الوسيط١٢/١٠١٩

(٥) الذود: يكون من ثلاثة أبعرة إلى عشرة، أو خمس عشرة أو عشرين أو ثلاثين، أو ما بين الثنتين والتسع، ولا يكون إلا من الإناث. انظر:القاموس المحيط ١/٤١٢

بن عبدالله ﵁ في خيل، فأدركوهم، وقد أشرفوا على بلادهم، فما ترجّل النهار؛ حتى جيء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسمرت[١] أعينهم بمسامير أحميت، ثم حبسهم حتى ماتوا.

وقيل: أمر بهم فألقوا في الحرَّة[٢] يستسقون فما يسقون، حتى ماتوا[٣].قال جماعة: وكان ذلك سنة ست من الهجرة.[٤]

---

(١) فقء العين بأي شيء كان. انظر:القاموس المحيط ١٣١٣

(٢) الحَرَّة: هي أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار والجمع حرات.

انظر: لسان العرب:١٧٩/٤، مختار الصحاح:٥٥/١.

(٣) أخرجه البخاري:كتاب الوضوء.باب أبوال الابل.ح(٤٣٣٤)، ومسلم.كتاب القسامة والمحاربين.باب حكم المحاربين والمرتدين.ح(١٦٧١).

(٤) انظر: جامع البيان ٥٥٣/٤، تفسير القرآن العظيم ٦٥/٢.

المطلب الرابع: الفساد بمعنى القتل.

أطلق لفظ الفساد في القرآن وقُصِد به القتل فمن ذلك:

قوله سبحانه ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

والمعنى على زعم فرعون؛ يظهر الفساد بتغيير أحكامنا.

وقيل: يقتل أبناءكم كما تفعلون بهم[١].

وقال النحاس[٢]: أخاف أن يكون أحد الأمرين؛ إما أن يُذهب دينكم البتة، وإما أن يستميل فيفسد عليكم ويحاربكم، ويكون ذلك بالتهارج الذي يَذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب، ويهلك الناس قتلاً وضياعاً.[٣]

واختلف القرّاء في قوله ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[٤]فقرأ عاصم[٥]وحمزة[٦]والكسائي[٧] (أو أن) بألف قبل الواو، على معنى: إن لم يبدل دينكم؛ أوقع الفساد.

وقرأ بقية السبعة (وأن) بغير ألف، والمعنى: يظهر الفساد بتغيير أحكامنا، فجعل ذلك فساداً بزعمه.

وجاء لفظ الفساد بمعنى القتل، في قوله تعالى﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤].

فقد قيل في فسادهم: أنهم يأكلون الناس.

---

(١) انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٧٧/٧، تفسير البيضاوي ٩٠/٥.

(٢) أحمد بن محمد بن إسماعيل، أبو جعفر النحاس،اللغوي، المفسّر، الأديب، كان واسع العلم غزير الرواية، له أكثر من خمسين مصنفاً في علوم القرآن والأدب. توفي سنة ٣٣٨هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء٢٧٤/١٥،طبقات المفسرين للداودي ٦٨/١.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٢١٤/٦.

(٤) انظر: اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر للدمياطي، ص٤٨٥.

(٥) عاصم بن بهدلة و هو ابن أبي النجود ، الأسدى مولاهم ، الكوفى ، أبو بكر المقرىء ، قال ابن حجر: صدوق له أوهام ، حجة فى القراءة.ت/١٢٨هـ. انظر تهذيب الكمال ٢٧٤/١٣

(٦) حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات القارىء ، أبو عمارة الكوفى التيمى مولاهم ، كان من علماء زمانه بالقراءات ، وثقه ابن معين. توفى /١٥٦ ،١٥٨ بحلوان . انظر تهذيب الكمال ٣١٤/٧ تهذيب التهذيب ٢٤/٣

(٧) علي بن حمزة بن عبد الله بن قيس بن فيروز الأسدي مولاهم الكوفي الكسائي أحد أئمة القراءة والتجويد في بغداد. توفي ١٨٩هـ.انظر تهذيب التهذيب ٢٧٥/٧

وقيل: مفسدون في الأرض بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع.

وقيل: معناه أنهم سيفسدون في الأرض عند خروجهم[1].

(١) معالم التنزيل ١/٢٠. الدر المنثور٥/٤٥٩، ، تفسير البيضاوي ١/٥٥.

المطلب الخامس: الفساد بمعنى السحر.

جاء وصف السحر بالفساد - صريحاً - في موضع واحد من كتاب الله، وهو قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس:٨٠- ٨١].

قال أبو السعود[١]﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾"أي عمل جنس المفسدين على الإطلاق، فيدخل فيه السحر دخولاً أولياً، وفيه دليل على أن السحر إفساد".[٢]

قال ابن عاشور[٣]: فجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ معترضة وهي تعليل لمضمون جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ﴾،وتذييل للكلام بما فيه نفي الإصلاح،وتعريف ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ بلام الجنس، من التعميم في جنس الإصلاح المنفي وجنس المفسدين؛ ليعلم أن سحرهم هو من قبيل عمل المفسدين، وإضافة ﴿عَمَلَ﴾ إلى ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ يؤذن بأنه عمل فاسد؛ لأنه فِعل من شأنهم الإفساد، فيكون نسجاً على منوالهم، والمراد بإصلاح عمل المفسدين الذي نفاه؛ أنه لا يؤيده؛ وليس المراد نفي تصييره صالحاً؛ لأن ماهية الإفساد، لا تقبل أن تصير صلاحاً، حتى يُنفى تصييرها كذلك عن الله؛ وإنما إصلاحها هو إعطاؤها الصلاح، فإذا نفى الله إصلاحها، فذلك بتركها وشأنها، ومن شأن الفساد أن يتضاءل مع الزمان حتى يضمحل"[٤].

وكيف لا يكون السحر فساداً؛ وقد أنزل الله في شأنه ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:١٠٢].

فأخبر أنه ضرر محض لا نفع فيه البتة. كما وصِف بأنه كيد لا يفلح صاحبه، قال سبحانه

---

(١) أحمد بن محي الدين بن محمد العمادي، أبو السعود الحنفي، فقيه مفسّر، ولد بقسطنطينية، وتقلّد الإفتاء ثلاثين سنة، ت:٩٨٢هـ انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع١/٢٤٧، هداية العارفين١/٥٨٥

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٤/١٧٠.

(٣) هو أبو عبدالله، محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبدالقادر بن عاشور، عالم أديب، تولى القضاء والفتيا ونقابة الأشراف بتونس، وبها توفي سنة ١٣٩٣هـ، من مؤلفاته؛ تفسير التحرير والتنوير، مقاصد الشريعة الإسلامية، أصول النظام الإجتماعي في الإسلام. انظر: الأعلام للزركلي ٦/١٧٥، معجم المؤلفين لكحالة ٣/٣٦٣.

(٤) التحرير والتنوير ٤/٧

﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

وسيأتي تفصيل ما سبق - بعون الله — في الفصل الثاني والثالث من هذا الباب.

الفصل الثاني

أنوَاعُ الفسَاد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الفساد العقدي.

المبحث الثاني: الفساد العَملي.

المبحث الأول

الفساد العَقَدي

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الكفر والشرك.

المطلب الثاني: النفاق.

المطلب الثالث: السحر.

المطلب الرابع: الابتداع في الدين.

وأعني بالفساد العَقَدي؛ ما كان من الأعمال مُفسِداً لمعتقد العبد، سواءٌ سلَبَه الإيمان بالكلية، أو كان له أثر في كمال الإيمان الواجب.

وإنما قَيّدتُ بذلك، لأن أضرُبَ الفساد كلها؛ لها أثر في إيمان العبد صغيرها وكبيرها، فإنّ مما أجمع عليه أهل السنة؛ أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية(١).

وقد تأملت في أنواع الفساد العقدي، فوجدتها لا تكاد تخرج عن؛ الكفر والشرك، أو النفاق، أو السحر، أو الابتداع في الدين.

ولذا جعلتها في أربعة مطالب:

المطلب الأول: الكفر والشرك.

أصل الكفر(٢) تغطية الشيء، وسمّي الفلاَّح كافراً؛ لتغطيته الحَب، ومنه قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠].

وسمّي الليل كافراً، قال لبيد بن ربيعة(٣):

حتى إذا ألقت يداً في كافر　　　وأجنّ عورات الثغور ظلامها(٤)

يريد بذلك الليل،لأنه يغطي كل شيء بظلامه.

والكفر في الاصطلاح: هو - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية – "عدم الإيمان بالله ورُسلِه، سواء كان معه تكذيب، أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب، أو إعراض عن هذا كله، حسداً، أو كِبراً، أو اتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة، وإن كان الكافر المكذِّب؛ أعظم كفراً؛ وكذلك الجاحد المكذِّب حسداً، مع استيقان صدق الرسل.

والسور المكية كلها خطاب مع هؤلاء".(٥)

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية د. صالح الفوزان.ص١٣٤.

(٢) انظر: تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري ١١٠/١٠، لسان العرب لابن منظور ١٤٤/٥ مادة (كفر).

(٣) لبيد بن ربيعة، الشاعر المشهور، أدرك الإسلام، وهو صحابي جليل، كان فارساً شجاعاً سخياً،توفي سنة ٤١هـ انظر: الإصابة ٦٧٥/٥، البداية والنهاية لابن كثير ٢٢١/٧.

(٤) انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة ص١٥٦.

(٥) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣٣٥/١٢.

وأما الشرك، فالشرك والشركة: مخالطة الشريكين، يقال: اشتركنا، بمعنى تشاركنا، وجمْع الشريك: شركاء، والأشراك أيضاً جمع الشرك، وهو النصيب، ويقال: شـرَكه في الأمر يشركه؛ إذا دخل معه فيه، وأشرك فلان فلانًا في البيع؛ إذا أدخله مع نفسه فيه، والشرك أن يجعل لله شريكاً، تعالى الله عن الشركاء والأنداد(١).

وله في الشرع(٢) معنيان: عام وخاص.

١- المعنى العام: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه، ويندرج تحته ثلاثة أنواع:

الأول: الشرك في الربوبية، وهو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الربوبية، أو نسبة شيء منها إلى غيره، كالخلق، والرزق، والإيجاد، والإماتة، والتدبير لهذا الكون، ونحو ذلك. قال تعالى ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر:٣].

الثاني: الشرك في الأسماء والصفات، وهو تسوية غير الله بالله في شيء منها، قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

الثالث: الشرك في الألوهية، وهو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائص الألوهية، كالصلاة والصيام والدعاء والاستغاثة والذبح والنذر ونحو ذلك، قال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

٢- المعنى الخاص: وهو أن يتخذ لله نداً، يدعوه كما يدعو الله تعالى، ويسأله الشفاعة، كما يسأل الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويحبه كما يحب الله، كدعاء غير الله؛ والتقرب بالذبائح والنذور لأصحاب القبور والجن والشياطين؛ ورجاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ كمن يطلب قضاء الحاجات وتفريج الكُرُبات من أصحاب القبور؛ فيأتي تلك الأضرحة المبنية على قبور الأولياء والصالحين يدعوهم ويستغيث بهم، مما هو مشاهد في كثير من الأمصار.

وهذا هو المعنى المتبادر من كلمة" الشرك" إذا أطلقت في القرآن أو السنة.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة ١٢/١٠، لسان العرب ١٤٤/١٠مادة (شرك)

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ٩١/١، واقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية ٧٠٣/٢، وتيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد،لسليمان بن عبد الله آل الشيخ٤٩٧/١، وغيرها.

الفرق بين الكفر والشرك:

ومما سبق يتبين أن المشرك هو من جعل مع الله إلهاً آخر، ولا شك أن من فعل ذلك فهو كافرٌ بالله أيضاً، غير إن المرء قد يكون كافراً دون مُواقعةٍ للشرك، وعليه: فكل مشرك كافر،وليس كل كافر مشركاً[١].

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:"إن بين الرجل وبين الشرك والكفر؛ ترك الصلاة"[٢].

قال النووي[٣]:"الشرك والكفر قد يطلقان بمعنىً واحد، وهو الكفر بالله تعالى، وقد يفرّق بينهما؛ فيُخَصُّ الشرك بعبادة الأوثان، وغيرها من المخلوقات، مع اعترافهم بالله، ككفار قريش، فيكون الكفر أعمّ من الشرك".[٤]

ولذا قيل: هذا من عطف العام على الخاص؛ إذ الشرك نوع من الكفر.[٥]

ومما يؤيد ذلك قوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون ﴿ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾ [غافر: ٤٢].

فعطَفَ الشرك على الكفر، ومن القواعد المقررة في التفسير: أن العطف يقتضي المغايرة بين المعطوف، والمعطوف عليه[٦].والله أعلم.

وعلى الرغم من إمكان التفريق بينهما، إلا أنهما بمترلة سواء؛ من حيث الحُكم والعاقبة، ومن أجل ذا قرَنتُ بينهما في هذا المطلب.

---

(١) انظر: إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد. للشيخ د. صالح الفوزان. ٢٨٣/٣

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان.باب(بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة) ح(١٣٤).

(٣) هو يحيى بن شرف بن مري النووي أبو زكريا الدمشقي الشافعي،الفقيه المحدث الحافظ،ولد بنوى في الشام، ودرس العلوم، واشتغل بالتدريس، وله مؤلفات كثيرة، توفي بنوى سنة ٦٧٧هـ .
انظر: البداية والنهاية ٢٧٨/١٣، طبقات الشافعية ٣٩٥/٨.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ٦٢/٢.

(٥) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير.للمناوي ٣١٠/٣.

(٦) انظر في بيان هذه القاعدة: مجموع الفتاوى٢١٠/٧،البرهان في علوم القرآن.للزركشي١١٣/٤.

والكفر نقيض الإيمان، والشرك نقيض التوحيد، وحيث كان الإيمان شرط التوحيد، وهـو أصل الدين وقوامه؛ فبضدّها تتبين الأشياء، فمن عرَف أهمية توحيد الله جلّ جلالـه؛ أدرك خطر الكفر والشرك، وعِظم أثرهما في الفساد والإفساد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الشرك أعظم الفساد، كما أن التوحيد أعظم الصلاح، فأصـل الصلاح؛ التوحيد والإيمان، وأصل الفساد؛ الشرك والكفر.(١)

وهل بعث الله الرسل وأنزل الكتب إلا لإقامة هذا الأساس؛ الذي لا نجاة لمن لم يأخذ به؟.

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل:٦ ٣].

قال ابن القيم: وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسولهﷺ، هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها، إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ﷺ ليس إلا،فإن الله أصلح الأرض برسوله ﷺ ودينه، وبالأمر بتوحيده، ونهى عن إفسادها بالشرك به، وبمخالفة رسوله ﷺ.

ومن تدبير أحوال العالم وجد أن كل صلاح في الأرض؛ سببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ﷺ، وأن كل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو، وغير ذلك؛ سببه مخالفة رسوله ﷺ، والدعوة إلى غير الله تعالى ورسوله ﷺ.(٢)

ولقد أخذَت هذه القضية حظاً وافراً في الكتاب العزيز؛ فلا يكاد القرآن ينفك عن الأمر بتحقيق التوحيد لله، والإخلاص له، والتحذير من ضدّ ذلك، بالبعد عن نواقض الإيمان، ومجانبة سبيل المجرمين ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾[الأنعام: ٥٥- ٥٦].

وليس بِدعاً القول: إن رسالة القرآن في مضمونها: تحقيق التوحيد لله رب العالمين.

ولقد عاشت البشرية – من لدن آدمعليه السلام – قروناً على التوحيد؛ حتى اجتالتهم الشياطين، فصرفتهم عن دينهم، فبعث الله رُسله مبشرين ومنذرين، كما أخبر جلّ وعلا بقوله ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾[البقرة: ٢١٣] وقوله ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾[يونس: ١٩].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٦٣/١٨.

(٢) بدائع الفوائد ٥٢٥/٣.

قال الشنقيطي[١]:"معنى ذلك على أصح الأقوال، أنهم كانوا على طريق الإسلام،حتى وقع ما وقع من قوم نوح من الكفر، فبعث الله النبيين ينهون عن ذلك الكفر، مبشرين من أطاعهم بالجنة،ومنذرين من عصاهم بالنار،وأوّلهم في ذلك نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام".[٢]

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال:"كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين".[٣]

وكذلك هي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه- لآية البقرة- (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا)، وكذا رُوي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أنه كان يقرؤها (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين).[٤]

إن دِلالة الآيات في حديثها عن هذا الانحراف؛ تُظهِر بجلاءٍ خطورة هذا المسلك، حتى إنها لا تدع مجالاً للاجتهاد في الحكم على من تلبّس به؛ إلا أنه بلغ من الفساد منتهاه.

وحين نتأمل أساليب القرآن نجد ذلك ظاهراً في أمور، منها ما يلي:

١-أن أعظم ما أُمر به المكلفون؛ تحقيق التوحيد لله تعالى والبعد عن ما يخالف ذلك؛ فإن الله جل وعلا يقول﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات:٥٦]

وهل تتحقق العبادة وفيها شائبة من كفر أو شرك؟

يقول سبحانه﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[الكهف:١١٠].

وما بعث الله من نبيّ إلا قال لقومه ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[الأعراف:٥٩].

وحين أخبر سبحانه عن أمهات الكبائر والموبقات؛ بدأ بأعظمها فقال ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[الأنعام:١٥١].

---

(١) هو محمد الأمين بن محمد المختار الجكني ، ولد بشنقيط، واجتهد في طلب العلم، وكان آية في التفسير والأصول، له جهود في الدعوة والتدريس، وكان زاهداً تقياً، توفي بمكة سنة ١٣٩٣هـ .

انظر:ترجمته في الجزء التاسع من تفسيره أضواء البيان.

(٢) أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٨٠/٣.

(٣) جامع البيان ٣٣٦/٢،والحاكم في المستدرك.وقال:"صحيح على شرط البخاري"٥٩٦/٢

(٤) تفسير القرآن العظيم ٢٥١/١.

٢- بيان أن الشرك أعظم الظلم،وأقبح القبائح؛ لأنه تشبيه للمخلوق بالخالق، ولما كان الظلم وضع الشيء في غير موضعه، فإن من عَبد غير الله؛ فقد وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير مستحقها، يقول تبارك وتعالى﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

فهو هضمٌ لحق الربوبية، وتنقصٌ لعظمة الإلهية، حين زعم مساواة غيره به، قال تعالى عن المشركين ﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٦– ٩٨].

ولا ريب أن من اعتقد ذلك؛فقد أساء الظنِ برب العالمين، قال تعالى ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٦].

فلو أحسنوا الظن بربهم، لوحّدوه حق توحيده، ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين، أنهم ما قدروه حق قدره، في ثلاث مواضع من كتابه.

إذ كيف يَقدره حق قدره من جعل له عَدْلاً ونداً !.

ولما سُئل ﷺ :"أيُّ الذنب أعظم ؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك ...."الحديث(١)

وفي حديث أبي بكرة (٢)رضي الله عنه مرفوعاً:"ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، ثلاثاً. قالوا:بلى يا رسول الله، قال:"الإشراك بالله، وعقوق الوالدين..." (٣).

٣- أنه أخبر أن المشرك لا يُغفر له إذا مات ولم يَتُب، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[النساء:٤٨،١١٦]، وقال في شأن الكفار ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [محمد:٣٤].

---

(١) رواه البخاري. كتاب التفسير. باب:قوله"والذين لا يدعون مع الله إله آخر". ح(٤٤٧٧)،ومسلم. كتاب الإيمان. باب:كون الشرك أقبح الذنوب. ح(٨٦).

(٢) هو نفيع بن الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة ، أبو بكرة الثقفي ، صحابي كناه النبي ﷺ ببكرة للتدليه ببكرة من الطائف، توفي: ٥٠ أو ٥١ بالبصرة. انظر: الإصابة ٤/٤٦

(٣) رواه البخاري. كتاب الأدب. باب:عقوق الوالدين من الكبائر. ح(٥٦٣١)،ومسلم. كتاب الإيمان. باب:بيان الكبائر وأكبرها. ح(١٤٣).

٤- أن الله تعالى أخبر أنه حرّم الجنة على المشرك، وأنه مخلّد في النار، والعياذ بالله.قال سبحانه ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].وقال في شأن الكفار ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾[فاطر:٣٦].

٥- أنه محبطٌ للعمل، قال تعالى﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨]، وقال جل وعلا ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[محمد:١].

ولا ريب أن هؤلاء خالفوا فطرة الله التي فطر عليها خلقه، فإن الخلق كلهم مفطورون على تألّيه بارئهم جل جلاله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

ومِن ثمَّ كان الكافرون شرّ خلق الله،كما قال سبحانه﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنفال:٥٥].

ولقد أتى هؤلاء المشركون بشُبَه فاسدة سوَّغت - بزعمهم- صحة معتقداتهم، فجاء القرآن الكريم على تلك الشُبَه،فكشف زيفها، وبيّن فسادها؛ إذ ليس لها مستند من نقل، ولا عقل.

فمن شبههم: أنهم احتجوا بما كان عليه الآباء والأجداد، فهم — بزعمهم - ورثوا هذه العقيدة؛ خلفاً لأسلافهم ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢- ٢٣].

وهذه حجة باطلة؛ فهؤلاء الآباء لا يجوز تقليدهم واتّباعهم، إذ ليسوا على هدى، قال سبحانه ردّاً عليهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[المائدة:١٠٤].

ومن شُبههم(١): قولهم نحن نشهد بأن الله هو الخالق الرازق، وأنه لا يضر إلا الله وحده، ولكن نحن مذنبون، والصالحون لهم جاهٌ عند الله، فنحن نطلب منهم أن يشفعوا لنا عند الله.

---

(١) للاستزادة انظر:"كشف الشبهات" للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

والجواب: أن الله أنكر عليهم زعمهم هذا، وكفّرهم بذلك،وسمّاهم مشركين، كما في قوله تعالى﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[يونس: ١٨]،وقوله سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[الزمر:٣].

ثمّ إنّ الشفاعة حقٌ لله وحده، لا يملكها إلا هو، فليس لأحد أن يشفع – وإن كان مَلَكاً أو نبياً – إلا بإذن الله تعالى ورضاه،كما أخبر عن ذلك بقوله﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾[النجم:٢٦].

وعند الوقوف على نصوص الشريعة في هذا الباب، ندرك أن الكفر اعتقاداتٌ وأقوال وأفعال؛ حكم الشارع بأنها تناقض الإيمان، فإذا كان الإيمان قولاً وعملاً؛ فكذلك الكفر يكون قولاً وعملاً.

وبيان ذلك(١):أن الكفر قد يكون تكذيباً في القلب، وهذا قليلٌ بالنسبة لما سواه من المكفرات، وتعليل قِلّته كما ذكر ابن القيم: أن الله تعالى أيّد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة،وأزال به المعذرة.(٢)

وقد يكون الكفر عملاً قلبياً، فإن الأعمال القلبية كالحب والتوكل والخوف...لا بدَّ منها في الإيمان، فلو صدَّق الله ورسوله،ولم يكن محبّاً لهما، لم يكن مؤمناً، وكذا لو كان مبغضاً لله ورسوله؛وهو مصدِّق لما جاء عنهما،فهو كافر لبغضه لله ولرسوله ﷺ.

قال ابن تيمية:"فإن من صدَّق الرسول ﷺ، وأبغضه وعاداه بقلبه وبدنه؛ فهو كافر قطعاً بالضرورة".(٣)

وقد يكون الكفر عملاً ظاهراً، كالإعراض عن دين الله تعالى، فقد حَكَم الله تعالى بكفر

---

(١) تنبيه: لست هنا بصدد جمع أو حصر ما ورد في الشرع أنه كفر، فذاك مع أهميته؛ ليس من مفردات هذا البحث، ولو سَلكت ذلك في كل مبحث لتشعب الحديث، غير أن المراد ذكر أنواع الكفر الرئيسة التي يندرج تحتها سائر المكفرات.

(٢) انظر: مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية ٣٣٧/١.

(٣) مجموع الفتاوى ٥٥٦/٧.

الممتنع عن طاعته تعالى وطاعة رسوله ﷺ، إذ إن الطاعة ليست مجرد التصديق، قال تعالى﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:٣٢].

قال ابن كثير:"دلت الآية على أن مخالفة الرسول ﷺ في الطريقة؛ كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادَّعى وزعم في نفسه أنه محبٌّ لله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأميَّ خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقلين".(١)

وقد يكون الكفر قولاً باللسان، وإن كان القلب مصدِّقاً، أو غير معتقد بهذا الكفر القولي، ولذلك أمثلة ،كسبِّ الله تعالى، أو سبِّ رسوله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"إن سبَّ الله أو سب رسوله كفر ظاهراً وباطناً، سواء كان السابُّ يعتقد أن ذلك محرَّم؛ أو كان مستحلاً له، أو كان ذاهلاً عن اعتقاده، هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة، القائلين بأن الإيمان قول وعمل.(٢)

ويدل لذلك قوله في شأن المنافقين ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾[التوبة:٦٥-٦٦].

فأخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم، مع قولهم إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له؛ بل كنا نخوض ونلعب، وبيَّن أن الاستهزاء بآيات الله كفرٌ، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه؛ منعه أن يتكلم بهذا الكلام".(٣)

ومن خلال ما سبق، ندرك أنه كما أن للإيمان شعباً ومراتب، فكذلك الكفر ليس شعبة واحدة - وهي التكذيب الاعتقادي،كما هو عند المرجئة(٤)- بل هو شُعَبٌ متعددة، ومراتب متفاوتة، فمِنه ما يُخرج من الملة؛ ومنه ما لا يخرج من الملة، فإنه يمكن أن يجتمع في الرجل كفر - غير ناقلٍ من الملة - وإيمان.

وهذا أصل عظيم عند أهل السنة، خالفهم فيه أهل البدع، مع أن نصوص الكتاب والسنة والإجماع؛ أدلة ظاهرة على هذا الأصل.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٧٧/١.

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول، لابن تيمية ٥١٣/١.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٢٠/٧.

(٤) المرجئة: فرقة تأخذ بنصوص الوعد والرجاء، وتؤخر العمل عن مسمّى الإيمان، وهم أصناف متعددة.
انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري:٢١٣/١،والملل والنحل للشهرستاني ١٣٩/١.

وعليه، فلا يلزم من قيام شعبة من شُعب الكفر بالعبد؛ أن يصير كافراً الكفر المطلق، حتى تقوم به حقيقة الكفر، كما أنه ليس كل من قام به شعبة من شعب الإيمان؛ يصير مؤمناً، حتى يقوم به أصل الإيمان.(١)

ولئن عُنيت نصوص الشرع ببيان الشرك الأكبر، فإنها كذلك أبرزت خطورة الشرك الأصغر، فجاء التحذير منه، صيانةً للعقيدة، وحماية للتوحيد، فلربما جرّ صاحبه إلى الشرك الأكبر، قال تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢].

قال ابن عباس رضي الله عنه:"الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء، في ظلمة الليل، وهو أن يقول:والله وحياتك يا فلانة، وحياتي، ويقول:لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلان، فإن هذا كله به شرك".(٢)

ولأن كانت الآية عامّة في الشرك الأكبر والأصغر،فإن ابن عباس رضي الله عنه نبَّه بالأدنى – وهو الشرك الأصغر– لأن هذه الألفاظ تجري على ألسِنة الكثير من الناس؛ إما جهلاً، أو تساهلاً.

ومن ذلك؛ شِرك المقاصد والنِّيات، قال سبحانه﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:١١٠].

قال ابن القيم في معنى الآية:"أي كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرّد بالإلهية؛ يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح؛ هو الخالي من الرياء، المقيّد بالسنة".(٣)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى:"أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه".(٤)

والمقصود، أن المسلم أحوج ما يكون إلى محاسبة نفسه في هذا الباب، وتعاهد نيته، وتصحيح قصده لله رب العالمين.

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية ٢٠٨/١.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦٢/١ ،ح(٢٢٩).

(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي. لابن قيم الجوزية ص٩١.

(٤) أخرجه مسلم.كتاب الزهد والرقائق. باب من أشرك في عمله غير الله،ح(٢٩٨٥).

المطلب الثاني: النفاق.

لفظ النفاق مشتق من:"(النافقاء) وهو موضع يرققه اليربوع من جحره، فإذا أُتى من قِبَل بابه الظاهر،وهو(القاصعاء)؛ ضرب بابه الخفيّ - النافقاء - برأسه فانتفق، أي خرج، ومنه اشتقاق النفاق؛ لأن صاحبه يكتمُ خلاف ما يظهر فكأن الإيمان يخرج منه، أو يخرج هو من الإيمان في خفاء".[١]

وأهل النفاق أشدُّ المفسدين خطراً،وأعظمهم بلاءً وشراً؛ ذلك أنهم شاركوا أهل الكفر في كفرهم، وزادوا عليهم حين لبِسوا لباس أهل الإسلام،وأبطنوا الكفر والكذب؛مكراً بالدين، وخديعةً بالمؤمنين، وكشفاً لعوراتهم، وبثاً لأسرارهم، وأوضعوا خِلالهم يبغونهم الفتنة.

وبليَّة المسلمين بهم، أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، ولهذا قال تعالى في حقهم﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾[المنافقون:٤]. ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي: لا عدو إلا هم،ولم يُرِد ها هنا حصر العداوة فيهم،وأنه لا عدو للمسلمين سواهم،بل هذا من باب إثبات الأولوية والأحقيّة لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً، ومخالطتهم إياهم، أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة، ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة، وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم - وهم في الباطن على خلاف دينهم - أشدّ عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة، وألزمُ وأدوم، لأن الحرب مع أولئك ساعةً أو أياماً، ثم ينقضي، ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً، يَدلّون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يُمكنهم مناجزتهم، فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾[المنافقون:٤]، لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى؛ أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدواً من الكفار المجاهرين.[٢]

ولذا فإن النفاق إذا عَظُم؛ كان صاحبه شراً من كفار أهل الكتاب، فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف، وهم فوقهم في دركَات النار، ذلك أن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق، قال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[النساء:١٤٥].

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٥/٤٥٥.

(٢) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن قيم الجوزية ص:٧١٠.

وكيف لا يكون النفاق فساداً؛ وأساسه الذي بُني عليه؛هو أنه لابدّ أن يختلف ظاهره وباطنه، وسريرته وعلانيته، ولهذا وصفهم الله بالكذب فقال سبحانه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[البقرة:١٠]،وقال﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[المنافقون:١].

فهذا برهان ظاهر على خبثهم وفسادهم.

ومما يدل على فساد أهل النفاق؛ دخولهم في مُسمَّى الكفر،ذلك أن ما تَوعّدَ الله به الكافرين؛ هو حقيقٌ بالمنافقين من باب أولى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"إن لفظ الكفر إذا ذُكِر مفرداً في وعيد الآخرة؛ دخل فيه المنافقون كقوله﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[المائدة:٥]، وقوله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا﴾[النساء:١٣٦]، وقوله ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[الليل:١٤-١٦].

وأمثال هذه النصوص كثير في القرآن، فهذه كلها يدخل فيها المنافقون؛ لأنهم في الباطن كفار، ليس معهم من الإيمان شيء، كما يدخل فيها الكفار المظهرون للكفر".[1]

ثم إنه قد جاء اقتران الكفر بالنفاق في مواضع عِدّة، كما قال تعالى﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[النساء:١٤٠]، وقال ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[الحديد:١٣-١٥]،وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ في سورتين [التوبة: ٧٣،التحريم:٩]،وقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾[الحشر:١١].

وحين افتتح – سبحانه – سورة البقرة بأربع آيات في صفة المؤمنين، وآيتين في صفة الكافرين، أعقب ذلك ببضع عشرة آية في صفة المنافقين، جاء فيها الخطاب صريحاً بذم المنافقين، وفساد سلوكهم، فقال سبحانه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ

---

(١) مجموع الفتاوى ٥٣/٧.

مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾[البقرة:١١- ١٢].

قال ابن جرير:"وأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دين الله الذي لا يقبل من أحد عملاً إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غيرَ ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، وبمظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فذلك إفساد المنافقين في أرض الله".(١)

وأما بدء ظهور هذا الصنف من المفسدين فإن ذلك حدث بعد هجرة النبي ﷺ،حيث صار الناس ثلاثة أصناف؛إما مؤمن؛وإما كافر مظهر للكفر؛وإما منافق، بخلاف ما كانوا وهو بمكة، فإنه لم يكن هناك منافق،ولهذا لم يكن من المهاجرين منافق،وإنما كان النفاق في قبائل المدينة، فإن مكة كانت للكفار مستولين عليها، فلا يؤمِن ويهاجر إلا من وقر الإيمان في قلبه، وليس هناك داعٍ يدعو إلى النفاق، والمدينة آمن بها أهل الشوكة، فصار للمؤمنين بها عزٌّ ومنعة بالأنصار، فمن لم يُظهر الإيمان آذوه، فاحتاج المنافقون إلى إظهار الإيمان، مع أن قلوبهم لم تؤمن.

ولهذا، لما كشفهم الله بسورة براءة بقوله (ومنهم...ومنهم...) صارَ يُعرف نفاق ناسٍ منهم لم يكن يعرف نفاقهم قبل ذلك،فإن الله جَلّى فسادهم، ووصفهم بصفات علِمها الناس منهم،وما كان الناس يجزمون بأنها مستلزمة لنفاقهم؛وإن كان بعضهم يظن ذلك وبعضهم يعلمه، فلم يكن نفاقهم معلوماً عند الجماعة، بخلاف حالهم لما نزل القرآن، ولهذا لما نزلت سورة براءة كتموا النفاق، وما بقى يمكنهم من إظهاره أحياناً، ما كان يمكنهم قبل ذلك. ولما قَوى الإيمان، وظهرت قوته عام تبوك، صاروا يعاتبون من النفاق على ما لم يكونوا يعاتبون عليه قبل ذلك.(٢)

ولم يكن المتصفون بالنفاق نوعاً واحداً، بل فيهم المنافق المحض،وفيهم من فيه إيمان ونفاق، وفيهم من إيمانه غالب وفيه شعبة من النفاق،ولذا فإن للنفاق شعباً ودعائم،كما أن للإيمان شعباً ودعائم، فهو كالكفر، نفاق دون نفاق، ولهذا كثيراً ما يُقال: كفر ينقل عن الملة،وكفر

---

(١) جامع البيان١/١٥٨.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٧/٢٠١، ٢١٤، ٢٢٣.

لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر.

فأما النفاق الأكبر: فيكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار،كنفاق عبد الله بن أُبيّ وغيره؛ بأن يُظهر تكذيب الرسولﷺ ؛أو جحود بعض ما جاء به؛ أو بغضه؛ أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه؛ أو المسرَّة بانخفاض دينه؛ أو المساءة بظهور دينه؛ ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ولرسوله ﷺ، وهذا القدر كان موجوداً في زمن الرسول ﷺ، وما زال بعده، بل هو بعده أكثر منه على عهده؛ لكون موجبات الإيمان على عهده أقوى، فإذا كانت مع قوتها وكان النفاق معها موجوداً؛ فوجوده فيما دون ذلك أولى.

وأما النفاق الأصغر: فهو النفاق في الأعمال ونحوها،كأن يكذب إذا حدّث، ويخلف إذا وعد، ويخونَ إذا ائتُمِن، ويفجر إذا خاصم.

ففي الصحيحين عن النبي ﷺ قال:"آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمن خان"(١)، وفى رواية "وإن صلى وصام، وزعم أنه مسلِم".(٢)

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:"أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً،ومن كانت فيه خصلة منهنّ، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"(٣).

قال النووي:"وهذا الحديث مما عدّه جماعة من العلماء مُشكلاً؛ من حيث إنّ هذه الخصال توجد في المسلِم المصدِّق الذي ليس فيه شك، وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدِّقاً بقلبه ولسانه، وفعل هذه الخصال؛ لا يحكم عليه بكفر، ولا هو منافقٌ يخلّد في النار، فإن إخوة يوسف عليه السلام جمعوا هذه الخصال، وكذا وجِد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كلِّه، وهذا الحديث ليس فيه بحمد الله تعالى إشكال، ولكن اختلف العلماء في معناه، فالذي قاله المحققون والأكثرون – وهو الصحيح المختار- أن معناه أن هذه الخصال خصال نفاقٍ وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلق بأخلاقهم، فان النفاق هو إظهار ما يُبطَن خلافه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حق من حدَّثه ووعدَه

(١) أخرجه البخاري.كتاب الشهادات.باب الأمر بإنجاز الوعد.ح(٢٥٣٦)، ومسلم.كتاب الإيمان.باب بيان خصال المنافق.ح(١٠٧).

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. كتاب الإيمان.باب بيان خصال المنافق .ح(١٠٩).

(٣) أخرجه البخاري.كتاب المظالم.باب إذا خاصم فجر.ح(٢٣٢٧)، ومسلم.كتاب الإيمان. باب خصال المنافق.ح(١٠٦).

وائتمنَه وخاصمَه وعاهدَه من الناس، لا أنه منافقٌ في الإسلام، فيظهره وهو يبطن الكفر، و لم يُرِد النبي ﷺ بهذا أنه منافقٌ نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار، وقوله ﷺ "كان منافقاً خالصاً" معناه شديد الشَّبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال.

قال بعض العلماء: وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه؛ فأما من يندر ذلك منه؛ فليس داخلاً فيه، فهذا هو المختار في معنى الحديث".(١)

وعليه؛ فإن هذا النوع فساده أقل ضرراً، وأخف خطراً، فهو لا يخرج من الملّة، إلا أن صاحبه يخشى عليه، ولذا خافه الصحابة رضي الله عنهم على أنفسهم.

قال ابن رجب:"ولما تقرر عند الصحابة رضي الله عنهم أن النفاق هو اختلاف السرِّ والعلانية، خشِي بعضهم على نفسه أن يكون إذا تغيَّر عليه حضور قلبه ورقته وخشوعه عند سماع الذكر، برجوعه إلى الدنيا والاشتغال بالأهل والأولاد والأموال؛ أن يكون ذلك منه نفاقاً"(٢).

كما في حديث حنظلة الأسيدي رضي الله عنه(٣) أنه قال: لقيني أبو بكر رضي الله عنه فقال:كيف أنت يا حنظلة؟ قال قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟ قال: قلت نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة؛ حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فو الله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال ﷺ وما ذاك ؟ قلت: يا رسول الله؛ نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة؛ حتى كأنا رأى عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيراً، فقال ﷺ:والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر؛ لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ثلاث مرات".(٤)

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٤٦/٢.

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب ٤٣٤/١.

(٣) هو حنظلة بن الربيع بن صيفي بن رياح التميمي ، أبو ربعي الأسيدي ، المعروف بحنظلة الكاتب، صحابي جليل ، شهد القادسية، ونزل الكوفة، وتوفى في خلافة معاوية. انظر: الإصابة ١٣٤/٢

(٤) رواه مسلم.كتاب التوبة.باب:فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة.ح(٢٧٥٠).

ومن ذلك قول ابن أبي مُليكة(١):"أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل". (٢)

قال ابن حجر(٣):"والصحابة الذين أدركهم بن أبي مليكة؛ من أجلِّهم؛ عائشة وأختها أسماء وأم سلمة والعبادلة الأربعة وأبو هريرة...وقد أدرك جماعة أجل من هؤلاء؛ كعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينقل عن غيرهم خلاف ذلك، فكأنه إجماع، وذلك لأن المؤمن قد يعرِض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالِف الإخلاص، ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى رضي الله عنهم". (٤)

ومن نحن عند صَدْرِ القرون المفضَّلة؛ حتى نأمن مما خافوه؟!

وأثرُ ابن أبي مليكة – الآنف الذِكر – أورده البخاري في باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، وعَقَد – رحمه الله – هذا الباب للردِّ على المرجئة؛ القائلين بأن المؤمن يَقطَع لنفسه بكمال الإيمان، وأنه لا يخاف على نفسه النفاق العملي.

ثم أعقب البخاري ذلك بقوله: وما يُحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة، لقول الله تعالى ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران:١٣٥].

فمُرادُه:أن الإصرار على المعاصي، وشعب النفاق، من غير توبة، يُخشى منها أن يعاقب صاحبها بسلب الإيمان بالكلية؛ وبالوصول إلى النفاق الخالص، وإلى سوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك، كما يقال: إن المعاصي بريد الكفر.(٥)

فحريٌّ بالمسلم أن يتأمل ذلك دائماً، فيخاف الوقوع في النفاق؛ فيهلَك.

---

(١) عبدالله بن عبيد الله بن أبي مليكة، بالتصغير، أبو بكر القرشي التيمي الحجة الحافظ، ولد في خلافة علي رضي الله عنه أو قبلها،وكان عالماً مفتياً صاحب حديث وإتقان،وثقه أبو زرعة وأبو حاتم.ت:١١٧هـ ، انظر: طبقات ابن سعد ٨٨/٥، تذكرة الحفاظ ١٠١/١.

(٢) رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في كتاب الإيمان.باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله ٢٦/١

(٣) هو أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، محدث ،مؤرخ، أديب، شاعر، عاش بمصر،له تصانيف نافعة، توفي سنة٨٥٢هـ . انظر: شذرات الذهب ٢٧٠/٧، والبدر الطالع ٨٧/١.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ١١١/١.

(٥) انظر: فتح الباري لابن رجب١٧٧/١.

المطلب الثالث: السحر.

السِّحر في لغة العرب:كل ما لَطُفَ مأخذه ودقّ، وأصل السِّحر: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، وسَحَرَه بمعنى خدَعه.(١)

أما تعريفه اصطلاحاً؛ فإن السحر أنوع متعددة؛ ولذا لا يمكن حدّه بحدٍّ يميزه عن غيره.

قال الشنقيطي:"اعلم أن السحر في الاصطلاح، لا يمكن حدّه بحدٍّ جامع مانع؛ لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحته، ولا يتحقق قدر مشترك بينها يكون جامعاً لها مانعاً لغيرها، ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حدّه اختلافاً متبايناً".(٢)

ومن تلك التعريفات؛ ما ذكره ابن قدامة:"بأنه عُقَدٌ ورُقى وكلام يتكلم به، أو يكتبه، أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور، أو قلبه، أو عقله، من غير مباشرة له، وله حقيقة؛ فمنه ما يقتل؛ وما يمرض؛ وما يأخذ الرجل عن امرأته، فيمنعه وطأها؛ ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه؛ وما يبغض أحدهما إلى الآخر، أو يُحبِّب بين اثنين".(٣)

"وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة، خِلافاً لمن أنكر ذلك، ونفى حقيقته، وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة، لا حقائق لها. وقد ذكره الله تعالى في كتابه وذكر أنه مما يُتعلَم، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به، وأنه يفرّق بين المرء وزوجه، وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له".(٤)

وقد دل على تحريمه الكتاب والسنة والإجماع(٥)، غير أن أقوال العلماء اختلفت في مسألة كفر الساحر.

قال الشنقيطي:"اختلف العلماء فيمن يتعلّم السحر ويستعمله، فقال بعضهم: إنه يكفر بذلك، وهو قول جمهور العلماء، منهم: مالك وأبو حنيفة وأصحاب أحمد وغيرهم.

وعن أحمد ما يقتضى عدم كفره.

وعن الشافعي أنه إذا تعلم السحر قيل له: صف لنا سحرك؟ فإن وصف ما يستوجب الكفر؛

---

(١) انظر: لسان العرب.مادة (سحر) ٣٤٨/٤، مختار الصحاح.ص ٢٨٨.

(٢) أضواء البيان ٤١/٤.

(٣) المغني لابن قدامه.١٠٤/١٠.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧٤/١٤.

(٥) سيأتي بيان ذلك في ثنايا هذا المطلب.

مثل سحر أهل بابل[١]؛من التقرب للكواكب، وأنها تفعل ما يُطلب منها؛ فهو كافر.
وإن كان لا يوجب الكفر؛ فإن اعتقد إباحته فهو كافر، وإلا فلا، وأقوال أهل العلم في ذلك كثيرة معروفة".
ثم قال:"والتحقيق في هذه المسألة، هو التفصيل؛ فإن كان السحر مما يُعظَّم فيه غير الله، كالكواكب والجن وغير ذلك، مما يؤدي إلى الكفر،ومن هذا النوع سحر هاروت وماروت المذكور في سورة البقرة؛ فإنه كفر بلا نزاع، كما دل عليه قوله تعالى﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ وقوله ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾وقوله ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[البقرة:١٠٢].
وإن كان السِّحر لا يقتضي الكفر؛كالاستعانة بخواص بعض الأشياء؛ من دهانات وغيرها، فهو حرام حُرمة شديدة، ولكنه لا يبلغ بصاحبه الكفر.
هذا هو التحقيق إن شاء الله تعالى في هذه المسألة التي اختلف فيها العلماء".[٢]
وللإمام النووي عبارة جامعة في حكم السِّحر، حيث قال:"قد يكون كفراً، وقد لا يكون كفراً؛ بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضى الكفر؛ كفَر، وإلا فلا.
وأما تعلّمه وتعليمه فحرام، فإن تضمّن ما يقتضى الكفر؛ كفَر، وإلا فلا، وإذا لم يكن فيه ما يقتضى الكفر عُزِّر واستتيب منه".[٣]

ولا ريب أن السِّحر من أعظم أنواع الفساد، لعدة دِلالات منها:
١/ قوله تعالى﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[البقرة: ١٠٢].
فظاهر الآية؛ أنهم كفروا بتعليم السحر، ولا يُكفر بتعليم الشيء؛ إلا وذلك الشيء كُفر، فإن ترتيب الحكم على الوصف؛ يشعر بعليته.[٤]

---

(١) وهو المشار إليه في قوله تعالى﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾[البقرة:١٠٢]
وبابل: بكسر الباء، اسم ناحية منها الكوفة والحِلّة، على بُعد أميال من ملتقى الفرات ودجلة.
انظر:معجم البلدان ٣٠٩/١.
(٢) أضواء البيان ٥٠/٤.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧٦/١٤.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ٤١/٢، فتح الباري لابن حجر ٢٢٥/١٠.

قال القرطبي في بيان معنى الآية:"إن اليهود قالوا: إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر، فنفى الله ذلك، وفي الكلام تقديم وتأخير. والتقدير: وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فهاروت وماروت؛ بدل من الشياطين في قوله﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ هذا أولى ما حُملت عليه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها".(١)

٢/قوله تعالى﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[البقرة:١٠٢]. أي:ما له من حظٍ ولا نصيب.

ومثل هذا الوعيد لم يطلق إلا فيما هو كفر لا بقاء للإيمان معه، فإنه ما من مؤمن إلا ويدخل الجنة، وكفى بدخول الجنة خَلاقاً، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة.(٢)

٣/ قوله سبحانه﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٠٣].

قال ابن كثير:"استدل به من ذهب إلى تكفير الساحر".(٣)

وقال حافظ الحكمي(٤):"وهذا من أصرح الأدلة على كفر الساحر،ونفي الإيمان عنه بالكلية، فإنه لا يقال للمؤمن المتقي: ولو أنه آمن واتقى، إنما قال تعالى ذلك لمن كفر وفجر، وعمل بالسحر واتّبعه، وخاصم به رسوله، ورمى به نبيه ﷺ، ونبذ الكتاب وراء ظهره، وهذا ظاهر لا غبار عليه، والله أعلم".(٥)

٤/ قوله جل شأنه﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[طه:٦٩].

قال الشنقيطي:"نفى جميع أنواع الفلاح عن الساحر، وأكّد ذلك؛ بالتعميم في الأمكنة بقوله ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ وذلك دليل على كفره، لأن الفلاح لا ينفى بالكلية نفياً عاماً؛ إلا عمن لا خير

---

(١) الجامع لأحكام القرآن١/٥٠.

(٢) انظر: أضواء البيان٤/٣٩ ، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول ٢/٥٥٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/١٩٩.

(٤) حافظ بن أحمد الحكمي، من علماء جزيرة العرب في هذا العصر، نشأ في منطقة جازان،واشتغل بالعلم بتوجيه من الشيخ عبدالله القرعاوي، اشتغل بالتدريس وصنّف مؤلفات جمّة، توفي بمكة سنة١٣٧٧هـ.

انظر: ترجمته في مقدمة كتابه معارج القبول، الأعلام ٢/١٥٩،

(٥) معارج القبول ٢/٥٥٤.

فيه، وهو الكافر، ويدل على ما ذكرنا أمران؛ الأول:هو ما جاء من الآيات الدالة على أن الساحر كافر...

والأمر الثاني: أنه عُرف باستقراء القرآن أن الغالب فيه أن لفظة (لاَ يُفْلِحُ) يُراد بها الكافر، كقوله تعالى﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾[يونس:٦٩-٧٠].وقوله سبحانه﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[الأنعام:٢١].(١)

٥/ ما ورد في مأثور السنة من اقتران السحر بالشرك، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "اجتنبوا السبع الموبقات،قالوا يا رسول الله وما هنّ ؟ قال: الشرك بالله والسحر..."(٢).

وفي بعض الأحاديث سُمّيَ السحر شركاً، فعن ابن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:"إن الرقى والتمائم والتِولة شرك"(٣)، والتِولة: نوع من السحر يحبب المرأة إلى زوجها.(٤)

وعنه ﷺ قال:" من أتى ساحراً أو كاهناً أو عرّافاً فصدّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ."(٥)

٦/ أن الصحابة ﷺ أمروا بقتل السحرة، ومن المعلوم أنه لا يُستباح دم امريء مسلم؛ إلا بدليل شرعي.

قال ابن تيمية:"وقد عُلِم أن السحر محرّم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع الأمة، بل أكثر العلماء على أن الساحر كافر يجب قتله، وقد ثبت قتل الساحر عن عمر وعثمان وحفصة

---

(١) أضواء البيان ٣٩/٤.

(٢) رواه البخاري.كتاب المحاربين من أهل الكفر والردّة.باب:رمي المحصنات.ح(٦٤٦٥). ومسلم.كتاب الإيمان. باب : بيان الكبائر وأعظمها.ح(١٤٥).

(٣) رواه أحمد ٣٨١/١ ح(٣٦١٥)،وأبو داود.كتاب الطب.باب في تعليق التمائم.ح(٣٨٨٣)، وابن ماجة.كتاب الطب.باب تعليق التمائم.ح(٣٥٣٠).والحاكم.كتاب الرقى والتمائم.٤٦٣/٤،ح(٨٢٩٠)وقال:صحيح الإسناد على شرط الشيخين.وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة:٦٤٨/١).

(٤) فتح الباري لابن حجر ١٩٦/١٠.

(٥) رواه البيهقي في السنن.كتاب القسامة.باب تكفير الساحر وقتله.ح(١٦٢٧٤)،وقال ابن كثير: هذا إسناد صحيح وله شواهد أخر(١٩٩/١)، وقال ابن حجر في الفتح:سنده جيد ومثله لا يقال بالرأي.(٢١٧/١٠).

بنت عمر وابن عمر وجندب بن عبدالله ﷺ".[١]

ومن تلك الآثار؛ ما جاء عن بَجَالَة بن عَبَدَة[٢]أنه قال: كتب عمر بن الخطاب ﷺ: أن اقتلوا كلَّ ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر.[٣]

قال ابن عثيمين[٤]:"والقول بقتلهم موافق للقواعد الشرعية، لأنهم يسعون في الأرض فساداً، وفسادهم أعظم الفساد، فقتْلُهم واجب على الإمام، ولا يجوز للإمام أن يتخلف عن قتلِهم؛ لأن مثل هؤلاء إذا تُركوا وشأنهم؛ انتشر فسادهم في أرضهم، وفي أرض غيرهم، وإذا قُتِلوا؛ سَلِم الناس من شرهم، وارتدع الناس عن تعاطي السحر".[٥]

٧/ أن السحر الذي يعدُّ كفراً يتضمن أنواعاً من المكفّرات الاعتقادية؛ القولية والعملية، كأن يعتقد نفع الشياطين وضررهم بغير إذن الله تعالى، أو يعتقد أن الكواكب مدبِرة للعالم، أو ينطق بكلمة الكفر؛ كسبِّ الله تعالى، أو الاستهزاء برسوله ﷺ ، كما أنه يتضمن شركاً في توحيد العبادة، فمن ذلك أن يدعو غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، أو يستعيذ بالشياطين، أو يذبح لهم، أو يتقرب إليهم بالنذور.[٦]

قال السعدي:"السحر يدخل في الشرك من جهتين:من جهة ما فيه من استخدام الشياطين ومن التعلّق بهم، وربما تقرّب إليهم بما يحبّون؛ ليقوموا بخدمته ومطلوبه، ومن جهة ما فيه من دعوى علم الغيب، ودعوى مشاركة الله في علمه، وسلوك الطرق المفضية إلى ذلك،وذلك من شعب الشرك والكفر".[٧]

إذا تبين ذلك؛ فإن من الأهمية بمكان؛ بيانُ ما يندرج في مسمَّى السحر وما يلحق به:

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٨٤/٢٩.

(٢) بجالة بن عبدة التميمي العنبري البصري، أدرك النبي ﷺ ولم يره، وكان كاتباً لجزء (ويقال:جزي)بن معاوية– عم الأحنف بن قيس – في خلافة عمر ﷺ .انظر: الإصابة٣٣٩/١، تهذيب التهذيب ٣٦٥/١.

(٣) أخرجه عبدالرزاق في المصنف.كتاب أهل الكتاب.باب لا يهوَّد مولود ولا ينصَّر.ح(٩٩٧٢)،وأحمد١٩٠/١ ح(١٦٥٧)، والبيهقي في السنن. كتاب القسامة.باب تكفير الساحر وقتله.ح(١٦٢٧٥) ،وابن حزم في المحلى وصححه٣٩٧/١١

(٤) محمد بن صالح العثيمين، من علماء نجد المعاصرين، ولد بعنيزة سنة ١٣٤٧هـ ، اشتغل بالتدريس واشتهر بالفقه والفتيا، له مصنفات عديدة، توفي سنة ١٤٢٢هـ ،ودفن بمكة.

(٥) القول المفيد على كتاب التوحيد ٣١/٢.

(٦) انظر:نواقض الإيمان القولية والعملية، د.عبدالعزيز العبداللطيف ص٥١٤.

(٧) القول السديد في مقاصد التوحيد.ص ٧٤.

فمن ذلك التنجيم: وهو أحد أقسام الكهانة، ولذا يسمى المنجِّم كاهناً.

والكهانة: بفتح الكاف،ويجوز كسرها؛ ادعاء علم الغيب؛ كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب، والأصل فيه استراق الجنِّي السمْع من كلام الملائكة، فيُلقيه في أُذن الكاهن.(١)

والتنجيم: هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، بمعنى أن المُنجّم يربط ما يقع في الأرض بالنجوم بحركاتها وطلوعها وغروبها، فيستدل مثلاً باقتران النجم الفلاني بالنجم الفلاني؛ على أنه سيحدث كذا وكذا، ويستدل بولادة إنسان في هذا النجم؛ بأنه سيكون سعيداً، وفي النجم الآخر؛ على أنه سيكون شقياً، فيستدلون بأحوال النجوم على اختلاف الحوادث الأرضية، ولا ريب أن الحوادث الأرضية من عند الله، قد تكون أسبابها معلومة لنا، وقد تكون مجهولة،ولكن ليس للنجوم بها علاقة.

ولذا جاء في حديث زيد بن خالد الجهني (٢)ﷺ أنه قال:"صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثْر سماءٍ كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا:الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن وكافر،فأما من قال مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب".(٣)

فالنجوم لا تأتي بالمطر ولا بالرياح، ومنه نأخذ خطأ بعض العوام الذين يقولون: إذا هبّت الريح؛ طلع النجم الفلاني، ولا ريب أن بعض الأوقات والفصول، يكون فيها رياح ومطر، فهي ظرف لها،وليست سبباً للريح أو المطر.

وعليه فإن نسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١. نسبة إيجاد، وهذا شرك أكبر.

٢. نسبة سبب، وهذا شرك أصغر.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى٣٥/١٧٢.

(٢) هو زيد بن خالد الجهني ، أبو عبد الرحمن ويقال : أبو طلحة ، المدني ، صحابي مشهور، توفي / ٦٨ أو ٧٨ بالكوفة. انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٤٤/٤

(٣) أخرجه البخاري.كتاب الاستسقاء.باب قول الله تعالى{وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون}ح(٩٩١)،ومسلم.كتاب الإيمان.باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء.ح(١٢٥).

٣. نسبة وقت، وهذا جائز بأن يريد بقوله:مطرنا بنوء كذا، أي: جاءنا المطر في هذا النوء، أي: في وقته.والأَوْلى التعبير بــ(في) الدالّة على الظرفية، فيقول:مطرنا في نوء كذا.

وقد ذكر أهل العلم أن علم النجوم ينقسم إلى قسمين:

الأول: علم التأثير، وهو أن يُستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وهذا النوع محرم،كما دلّ حديث زيد بن خالد الآنف الذكر، ولقوله ﷺ :"من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد"[(١)].

الثاني: علم التسيير، وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات، فهذا جائز، وقد يكون واجباً أحياناً، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة،يجب على الإنسان أن يتعلّم علامات القبلة، من النجوم والشمس والقمر، قال تعالى﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [النحل:١٥]، فلما ذكر الله تعالى العلامات الأرضية؛ انتقل على العلامات السماوية فقال﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[النحل:١٦].[(٢)]

ومما يُلحق بالسحر: العِيافة، والطَرْق، والطِيرة، لما جاء في قوله ﷺ "العيافة والطيرة والطرق من الجِبت"[(٣)]، والجِبْت هو السحر عند جمع من أهل العلم، قال تعالى﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾[النساء:٥١].

فقد أخرج الطبري بسنده عن عمر رضي الله عنه قوله:"الجبت السحر،والطاغوت الشيطان"[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد في ٣١١/١ ح(٢٨٤١)،وأبو داود.كتاب الطب.باب في النجوم.ح(٣٩٠٥)،وابن ماجة.كتاب الأدب.باب تعلّم النجوم.ح(٣٧٢٦).والبيهقي في السنن.كتاب القسامة. باب ما جاء في كراهية اقتباس علم النجوم. ح (١٦٢٩٠). وصححه النووي في رياض الصالحين ح(١٦٧٣)،والألباني في صحيح الجامع الصغير١١٠٢/١.

(٢) انظر: القول المفيد لابن عثيمين ٤٤/٢.

(٣) أخرجه أحمد ٤٧٧/٣ح(١٥٩٥٦)، وأبو داود.كتاب الطب.باب في الخط وزجر الطير.ح(٣٩٠٧)،والنسائي في"الكبرى".كتاب التفسير.سورة النساء.ح(١١١٠٨)،والبيهقي في السنن.كتاب القسامة.باب العيافة والطيرة والطرق ح(١٦٢٩٢)،والطحاوي في شرح معاني الآثار.كتاب الكراهة.باب الرجل يكون به الداء هل يجتنب أم لا.ح(٦٥٨٠).وحسّن إسناده النووي في رياض الصالحين ح(١٦٧٢)،وكذا ابن تيمية في مجموع الفتاوى ١٩٢/٣٥.

(٤) أخرجه البخاري تعليقاً.كتاب التفسير ١٦٧٣/٤،وابن جرير موصولاً في التفسير ١٥/٣، وقال ابن حجر"إسناده قوي".انظر:الفتح ٢٥٢/٨.

والمقصود بالعِيافة: زَجْر الطَّير، والتَّفاؤُل بأسْمائِها وأصْوَاهَا ومَمرّها، وهو من عَادَة العَرب كثيراً، وهو كثير في أشعارهم.[١]

وأما الطَرْق: فهو الضرب بالحصى، وهو ضرب من التَّكَهُّنِ، وقيل: هو الخَطُّ في الرمل[٢]، ويُسمَّى عِلم الرمل؛ حيث يستدلون بأشكال الرمل؛ على أحوال المسألة حين السؤال.

والطِيرة:هي التشاؤم بمرئيٍّ أو مسموع، وقيل: التشاؤم بمعلوم؛ مرئياً كان أو مسموعاً، زماناً كان أو مكاناً، وهذا أشمل؛ فيشمل ما لا يُرى ولا يُسمع؛كالتطير بالزمان.

وإنما أضيفت إلى الطير؛ لأن غالب التشاؤم عند العرب بالطير، فعلِّقت به.[٣]

ووجه كون هذه الأمور سحراً: لما فيها من دعوى علم الغيب، ومنازعة الله في ربوبيته، فإن عِلم الغيب؛ من صفات الربوبية التي أستأثر الله تعالى بها دون من سواه، إضافةً أن بعضهم يعتقد أن هذه الأشياء تنفع أو تضر، بغير إذن الله تعالى.

---

(١) انظر: لسان العرب.٢٦٠/٩ مادة(عيف)، والنهاية في غريب الحديث. لابن الأثير ٦٢٢/٣.

(٢) انظر :لسان العرب٢١٥/١٠.مادة (طرق).

(٣) انظر:عمدة القاري للعيني ٢٧٣/٢١، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير٧٦٦/٣، القول المفيد لابن عثيمين٣٩/٢.

المطلب الرابع: الابتداء في الدين.

البدعة في اللغة:"يقال بدَع الشيءَ يَبْدَعُه بَدْعاً وابْتَدَعَه أَنشأَه وبدأَه،والبِدْعةُ الحَدَث وما ابْتُدِعَ من الدِّينِ بعد الإِكمال،وأَبْدَعَ وابْتَدَعَ وتَبَدَّع؛ أَتى بِبدْعةٍ، قال تعالى ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾[الحديد:٢٧]،وبَدَّعه نَسَبه إِلى البِدْعةِ".[١]

وأصل مادة (بدع) للاختراع على غير مثال سابق، ومنه قوله تعالى﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[البقرة: ١١٧]،أي مخترعها من غير مثال سابق متقدم، وقوله تعالى﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[الأحقاف:٩]،أي ما كنت أول من جاء بالرسالة من الله إلى العباد، بل تقدَّمني كثير من الرسل، ويقال: ابتدع فلان بدعة؛ يعني ابتدأ طريقة لم يسبقه إليها سابق.

والبدعة في الشرع؛ خِلاف السنة، وهي كما عرّفها شيخ الإسلام بقوله:"البدعة في الدين؛ هي ما لم يشرعه الله ورسوله، وهو ما لم يأمر به، أمر إيجاب ولا استحباب"[٢].

وقال رحمه الله:"والبدعة ما خالفت الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، من الاعتقادات والعبادات؛ كأقوال الخوارج[٣]والروافض[٤]والجهمية[٥]؛ وكالذين يتعبدون بالرقص والغناء في المساجد؛ والذين يتعبدون بحلْق اللحى؛ وأكل الحشيشة؛ وأنواع ذلك من البدع التي يتعبد بها طوائف من المخالفين للكتاب والسنة"[٦].

وقيل:طريقة في الدين مخترعة؛ تضاهي الشرعية، يُقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية.[٧]

---

(١) لسان العرب ٨/٦. مادة (بدع).

(٢) مجموع الفتاوى ٤/١٠٧.

(٣) الخوارج: أول فرق هذه الأمة ظهوراً، يكفّرون أصحاب الكبائر، ويتبرأون من بعض الصحابة، ويجوِّزون الخروج على الأئمة، وهم فِرق متعددة، المحكّمة، والأزارقة، والإباضية. انظر: مقالات الإسلاميين ١/٢١٣،والملل والنحل للشهرستاني ١/١٣٩.

(٤) الرافضة: من أكبر فرق الشيعة، يقولون بإمامة عليﷺ بعد وفاة النبي ﷺ ،وجعلوا الإمامة أسمى المطالب وأعلى منازل الدين. انظر: مقالات الإسلاميين ١/٨٨، والملل والنحل ١/١٦٢.

(٥) الجهمية: هم اتباع الجهم بن صفوان السمرقندي المقتول سنة ١٢٨هـ ، يعطّلون الصفات،ويقولون بفناء النار، جبرية في القدر، مرجئة في الإيمان. انظر: مقالات الإسلاميين ١/٣٨٨، والملل والنحل ١/٨٦.

(٦) مجموع الفتاوى ١٨/٣٤٦.

(٧) انظر: الاعتصام للشاطبي ١/٣٧.

وقيل في تعريفها:"هي ما أُحدث في الدين على خلاف ما كان عليه النبي ﷺ ،وأصحابه ،من عقيدة أو عمل".[(١)]

ومن المعلوم من الدين بالضرورة؛ أن الله تعالى خلق الناس لعبادته، وكما أنه لم يخلقهم عبثاً؛ فكذلك لم يتركهم هملاً، بل علّمهم ودلّهم على الطريق الموصل إليه، وجعلها طريقاً واحدة، دليلها الكتاب وبابها الرسول ﷺ، فمن أراد سلوك الطريق من غير دليل تاه، ومن أراد الولوج من غير باب الرسالة؛ وبدون مفتاح النبوة؛ فقد ضيَّع دنياه وأخراه.

ولهذا جاء الأمر الحتمي الملزم؛ بالاعتصام بالوحي المترل؛ لكونه الصراط المستقيم الموصل، وجاء النهي الشديد المحتم؛ بترك ما سوى قصد السبيل، ونبذ الجائر المجافي للدليل.[(٢)]

وسأذكر هنا بعض الأدلة في التحذير من البدع وبيان فسادها:

فمن ذلك قوله تعالى﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:١٥٣].

فقد أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ "قال: البدع والشبهات"[(٣)].

ويؤيد ذلك ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: "خطَّ رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، قال: ثم خطَّ عن يمينه وشماله، ثم قال: هذه السبُل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾.[(٤)]

فالصراط المستقيم الذي أمر الله به هو سبيله، والسُبُل الأخرى التي نهى الله عنها هي البدع.

ومما جاء في التحذير من البدع، قوله تعالى﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

قال ابن كثير:"أي عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِل، وما خالفه فهو مردود على

---

(١) شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين. ص:٢٣.

(٢) انظر: حقيقة البدعة وأحكامها، د.سعيد الغامدي، ص٦٧.

(٣) جامع البيان ٣٩٦/٥.

(٤) أخرجه أحمد في المسند٤٦٥/١، والحاكم.كتاب التفسير.٢٦١/٢،ح(٢٩٣٨) وصححه،والنسائي في الكبرى. كتاب التفسير٣٤٣/٦،ح(١١١٧٥).

قائله وفاعله، كائناً من كان، كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال:"من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ"(١).

أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ باطناً وظاهراً ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي في قلوبهم؛ من كفر أو نفاق أو بدعة".(٢)

وقد أخبر – سبحانه – أن الذين يتبعون المتشابه؛ هم أهل الزيغ والفتنة، وهم أهل الأهواء والبدع، فقال جلَّ ذِكره ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[آل عمران: ٧]

فقد جاء تفسيرها عن النبي ﷺ – فيما روته عائشة رضي الله عنها – حين تلا هذه الآية فقال:"فإذا رأيتِ الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم".(٣)

وكذلك فسرها ابن عباس رضي الله عنه كما روى الآجُريّ(٤)بسنده،أنه ذُكِر لابن عباس رضي الله عنه الخوارج، وما يصيبهم عند قراءة القرآن؟ فقال: يؤمنون بمحْكَمه، ويَضِلون عند متشابهه، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون:آمنا به.(٥)

وقد نهى – سبحانه – هذه الأمّة عما وقعت فيه الأمم السابقة، من الاختلاف والتفرق مِن بعد ما جاءهم البيّنات، فقال﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[آل عمران: ١٠٥- ١٠٦].

ففي الآية وعيد بالعذاب للمختلفين المتفرقين، وبيانٌ لحالهم.

وقد ورد ما يفسرها من كلام المصطفى ﷺ ، حيث قال:"إن أهل الكتاب افترقوا على ثنتتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة – يعني الأهواء – وكلها في النار إلا واحدة؛ وهي الجماعة،وقال: إنه سيخرج من أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء، كما

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً. كتاب الاعتصام بالسنة.باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود،ومسلم .كتاب الأقضية.باب نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور.ح(١٧١٨) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٠٨/٣.

(٣) أخرجه البخاري.كتاب التفسير.ح(٤٢٧٣)،ومسلم.كتاب العلم.باب النهي عن اتباع متشابه القرآن. ح(٢٦٦٥).

(٤) محمد بن الحسين، أبو بكر البغدادي، الإمام المحدث القدوة، كان صدوقاً عابداً، صاحب سنة، له مؤلفات، توفي بمكة سنة ٣٦٠هـ . انظر: تاريخ بغداد ٢٤٣/٢، سير أعلام النبلاء ١٣٣/١٦.

(٥) الشريعة للآجري. ص:٣٧.

يتجارى الكلب بصاحبه، فلا يبقى منه عِرق ولا مفصل؛ إلا دخله.."(1)

وقد فسّر ابن عباس رضي الله عنه قوله ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ ﴾ بقوله: فأما الذين أبيضت وجوههم؛: فأهل السنة والجماعة وأولوا العلم، وأما الذين اسودّت وجوههم؛ فأهل البدع والضلالة.(2)

ولما رأى أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه رؤوس الخوارج منصوبة على درج مسجد دمشق،قال: "كلاب النار (ثلاثاً)، شرّ قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه"، ثم قرأ ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ ﴾ إلى آخر الآية، قلت - القائل أبو غالب(3)راوي الحديث - لأبي أمامة: أنت سمعتَه من رسول الله ﷺ ؟، قال: لو لم أسمعه إلا مرة، أو مرتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً، حتى عدَّ سبعاً، ما حدثتكموه.(4)

وقال سبحانه- محذّراً من مخالفة السنة- ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[النساء:١١٥].

أي؛ ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ ، فصار في شِقٍ، والشرع في شِقٍ ،وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له...

وقوله ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ أي:إذا سلك هذه الطريق؛ جازيناه على ذلك؛ بأن نحسِّنها في صدره، ونزيِّنها له؛ استدراجاً له.

وجعل النار مصيره في الآخرة؛ لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة.(5)

---

(١) أخرجه أحمد١٠٢/٤،وأبو داود.كتاب السنة.باب شرح السنة.ح(٤٥٩٧)،والحاكم.كتاب العلم ٢١٨/١.ح(٤٤٣)،والطبراني في الكبير ٣٧٦/١٩.ح(٨٨٤). واللالكائي١٠٢/١ح(١٥٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب١٢/١.

(٢) شرح أصول أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة واجماع الصحابه للالكائي ٧٢/١.ح(٧٤).

(٣) قيل اسمه حزور بفتح الحاء والزاي،وقيل:سعيد بن الحزور، صاحب أبي أمامة رضي الله عنه ،بصري نزل أصبهان.قال ابن حجر: صدوق يخطيء. انظر: تهذيب التهذيب ١٩٧/١٢، التاريخ الكبير ١٣٤/٣.

(٤) أخرجه أحمد ٢٥٣/٥،والترمذي في تفسير القرآن.٢٢٦/٥ ح(٣٠٠٠)،وابن ماجه في المقدمة. باب في ذكر الخوارج.٦٢/١ ح(١٧٦)،والحاكم.كتاب قتال أهل البغي.ح(٢٦٥٤).والطبراني في الكبير٢٧٣/٨ ح(٨٠٥١) وقال الهيثمي:رجاله ثقات(مجمع الزوائد٣٥٠/٦)،وحسّنه الألباني(مشكاة المصابيح٣٠٨/٢).

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧٣٦/١.

قال الآجرِّي:"فكل من ردَّ سنن رسول الله ﷺ، وسنن أصحابه، فهو ممن شاقق الرسول وعصاه، وعصى الله عز وجل؛ بتركه قبول السنن، ولو عقل هذا المُلحِد وأنصف من نفسه؛ علِم أن أحكام الله عز وجل، وجميع ما تعبَّد به خلقه؛ إنما تؤخذ من الكتاب والسنة، وقد أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يبين لخلقه ما أنزله عليه مما تعبدهم به، فقال جل ذكره﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل:٤٤].

فقد بيّن ﷺ لأمته جميع ما فُرض عليهم من جميع الأحكام، وبيَّن لهم أمر الدنيا وأمر الآخرة، وجميع ما ينبغي أن يؤمنوا به، ولم يدعهم جهلة لا يعلمون".(١)

ومن بيانه ﷺ ؛ ما أخبر به من وقوع الاختلاف المجافي لسنته ﷺ، وسنة خلفائه الراشدين، كما روى العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل:يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال:" أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها،وعضُّوا عليها بالنواجذ،وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة".(٢)

قال ابن رجب(٣): هذا تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثة المبتدعة،وقوله"كل بدعة ضلالة" من جوامع الكلم، لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله ﷺ"من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد"(٤)، فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه؛ فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات، أو الأعمال، أو الأقوال الظاهرة والباطنة.

---

(١) الشريعة للآجري ٣٤٠/١.

(٢) أخرجه أبو داود.كتاب السنة.بابٌ في لزوم السنة.ح(٤٦٠٧)، والطبراني في الكبير ٢٤٥/١٨،ح(٦١٧).وصححه الألباني(صحيح الترغيب١٠/١).وأخرج نحوه أحمد ١٢٦/٤.ح(١٧١٨٢)،والترمذي.كتاب العلم.باب الأخذ بالسنة واجتناب البدع.ح(٢٦٧٦).وابن ماجه في المقدمة ح(٤٣).

(٣) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي الحنبلي، حافظ فقيه متقن، ولد ببغداد وقدم إلى دمشق، له مصنفات نفيسة، توفي سنة ٧٩٥هـ ، انظر: الدرر الكامنة ٤٢٩/٢، طبقات المفسرين للداودي ٣٥٣/١.

(٤) سبق تخريجه في صفحة (٦٣)

وأما ما وقع في كلام السلف من استعمال للفظ البدعة، فإنما ذلك يحمل على الحقيقة اللغوية لا الشرعية، فمن ذلك قول عمر ﷺ لما جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد وخرج ورآهم يصلون كذلك، فقال: نعمت البدعة[١].أ.هـ[٢]

وعليه؛ فلفظ (المحدَث)و(البدعة) لا يُذمَّان لمجرد الاسم؛ بل لمعنى المخالفة للسنة والداعي إلى الضلالة، ولا يُذمُّ ذلك مطلقاً، فقد قال الله تعالى:﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾[الشعراء: ٥].[٣]

قال ابن تيمية:"إنما سمَّاه بدعة لأن ما فعل ابتداءً بدعة في اللغة، وليس ذلك بدعة شرعية، فإن البدعة الشرعية التي هي ضلالة؛ ما فُعِل بغير دليل شرعي، كاستحباب ما لم يحبه الله؛ وإيجاب ما لم يوجبه الله؛ وتحريم ما لم يحرمه الله".[٤]

ويجدر التنبيه هنا إلى أن تقسيم البدعة - بمعناها الشرعي - إلى حسنة وسيئة ليس بصوابٍ البتة، فذلك مخالف لقوله ﷺ "وكل بدعة ضلالة"،فلا يمكن بحال من الأحوال أن تكون البدعة إلا مذمومة. ثمّ إن التحسين والتقبيح من الشارع الحكيم دون غيره،فهو الذي يجب أن ينصَّ على أن هذا الأمر أو ذاك؛ حسنٌ أو قبيح، ولو فُتح الباب للناس في تقبيح أو تحسين ما شاءوا، فإن الجناية على الشريعة ستكون عظيمةً؛ وحينئذ لا تسأل عن ضياع الدين، واختلاف الناس فيه،وذاك ما يسعى أعداء الملة إليه.

وما جاء عن بعض أهل العلم من تقسيمٍ للبدعة، وذكر جريان أحكام التكليف الخمسة عليها[٥]، فإن مرادهم من ذلك البدعة بمعناها اللغوي.والأجدر العدول عن ذلك كي لا يختلط الأمر على الناس.

ولو لم يكن من البدع؛ إلا أن فيها سوء أدب مع الله تعالى ورسوله ﷺ ، لكفى بذلك فساداً وانحرافاً؛ ذلك أن المبتدع لم يسعْه اتباع الشرع حين تعبَّد لله بما لم يأذن به.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٣٥٥/١ح(٢٤١)،والطبراني في الكبير٤٢٤/١٢ح(١٣٥٦٣).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم. ص:٢٦٦.

(٣) انظر:شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد.ص:٧٣.

(٤) منهاج السنة النبوية ٣٠٨/٨.

(٥) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام. للعز بن عبد السلام ١٧٢/٢-١٧٣.

وسواء كان انتحال البدعة عن حُسن قصد، أو عن سوء قصد، فإن الكلَّ مخطئ، لأن البدع لم تَرِد في الشرع إلا على وجه الذمِّ،حتى قال بعض السلف: البدع بريد الكفر.

فالبدعة شرٌ من المعصية، ذلك لأن المبتدع يعتقد أنه على صواب، حتى إنه قد يسأل ربه الثبات على بدعته، أما العاصي فهو معترف بخطيئته ويسأل ربه السلامة والمغفرة عما اقترفه من الذنب.

وإذا تأملنا تاريخ البدع؛ ازددنا يقيناً في فسادها، فإن زمن النبوة والخلافة الراشدة لم تشهد البدعة فيه رَواجاً،ولم تحقق تأييداً، وذلك لتمكّن الإيمان وتحقّق الاتّباع، كيف لا ؟ وهم صدر القرون المفضّلة.

غير أنه كان لها إرهاصات في حوادث متباينة، كان أُولاَها حادثة ذي الخويصرة[١]،حين أتى إلى الرسول ﷺ،فقال يا رسول الله: اعدل،فقال:ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خبت[٢] وخسرت إن لم أكن أعدل، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه؟ فقال: دعه؛ فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية..." [٣]

ففي الحديث عَلَمٌ من أعلام نبوته ﷺ؛ بما سيؤول إليه الأمر من الخروج على جادّة الصواب، فكان ذلك؛ حين قاتل هذا الرجل مع الخوارج زمن الفتنة[٤].

ومن حينٍ لأخر كانت هناك محاولات لإذكاء البدعة ونشرها،من طرف المنافقين، وبعض اليهود، غير إنها كانت توأد في مهدها، وعامَّة البدع المتعلقة بالعلوم والعبادات، إنما وقع في الأمة في أواخر الخلفاء الراشدين[٥]، كما أخبر به النبي ﷺ حيث قال:"من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي"[٦].

---

(١) رحل من بني تميم، اسمه حرقوص بن زهير، ووقع في موضع آخر في الصحيح أنه عبد الله بن ذي الخويصرة، وقيل غير ذلك. انظر: فتح الباري ٢٩٤/١

(٢) قوله(قد خبت)بلفظ المتكلم وبالخطاب،أي:خبت أنت؛لكونك تابعاً ومقتدياً لمن لا يعدل،والفتح أشهر وأوجه.انظر: عمدة القاري للعيني ١٤٣/١٦.شرح صحيح مسلم للنووي ١٥٩/٧.

(٣) أخرجه البخاري. المناقب. باب علامات النبوة ،ح(٣٤١٤)،ومسلم. الزكاة. باب ذكر الخوارج. ح (١٠٦٤).

(٤) انظر: دلائل النبوة للبيهقي ٢٥٦/٥.

(٥) مجموع الفتاوى ٣٥٤/١٠.

(٦) سبق تخريجه ص ٦٥.

ففي زمن الخليفة الراشد عثمان ﷺ، اتسعت بلاد الإسلام بفضل ما منَّ الله به من كثرة الفتوحات، واتصل المسلمون بغيرهم من الأمم،وعندها بدأ رؤوس الضلال ومروجي البدع فتجرؤوا على إفشاء ما كانوا يبطنون من حقد على الإسلام، فكانت بليَّة الإسلام بهم عظيمة.

وكان من أولئك: عبدالله بن سبأ اليهودي، حيث اندس بين صفوف المسلمين، بعد أن ادَّعى الإسلام زمن عثمان ﷺ، وأخذ ينتقل من بلد لآخر،حتى استقر بمصر، وأخذ هناك يدعو إلى بدعة جديدة، وهي: أن النبي ﷺ سيرجع؛ كما أن عيسى ﷺ سيرجع آخر الزمان،وزعم – أيضاً – أن علياً ﷺ وصيُّ الرسول ﷺ ، اعتماداً – بزعمه – أن لكل نبي وصيّ.

ولقد كان السبئيون من أنصاره هم المتآمرون على قتل عثمان ﷺ، الوالغون في دماء المسلمين.

وبعد مقتل عثمان ﷺ بدأت تظهر البدع وتنشأ الفِرق، فظهر الخوارج القائلين بتكفير عثمان وعلي ﷺ،وبتكفير أصحاب الجَمَل، وبتكفير مرتكب الكبيرة.

وظهر الشيعة؛ فقالوا بعصمة الإمام...وغيرها من البدع والأهواء،والتي أخذت تتوالى بظهور الفرق الكثيرة، وانقسام كل فرقة على نفسها، تدعو إلى بدعها الضالة.

وما زالت البدع تتوالى على مرِّ العصور والدهور، حتى آل الأمر في زماننا إلى بدعٍ ومحدثات، ضربت بأطنابها مشارق بلاد الإسلام ومغاربها،حتى انقلب الحال في بعض بلاد المسلمين؛ فأصبحت السنة بدعة، والبدعة سنة، وآل الأمر لبعض المتنفذين والسلاطين؛ فحاربوا السنةَ وأهلَها، ورَفعوا لواء البدعة، حتى صار الحلُّ والعَقْد لأهل البدع،وأصبح أهل السنة كالغرباء بين المخالفين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهكذا كلّما امتد الزمان، وبَعُد الناس عن آثار الرسالة؛ قلَّ العلم وفشا الجهل،ولذا تجد أن قلَّة العلم والعلماء في أي بلد، تتيح الفرصة للبدعة أن تنتشر، ولأهلها أن يظهروا، إذ لا يقاوم البدع إلا العلم والعلماء.

ولذا لم يزل أهل العلم وسلف هذه الأمة – من الصحابة والتابعين لهم بإحسان – يحذِّرون من البدع والأهواء، فأخبروا بوقوعها، ولما وقعت جاهدوها،وتصدّوا لأهلها، وأعمالهم وأقوالهم في ذلك كثيرة مستفيضة.

فمن ذلك قول عمر رضي الله عنه: إياكم وأصحاب الرأي، فإنهم أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا.(١)

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم،فإن كل بدعة ضلالة.(٢)

وقال رضي الله عنه: إياكم وما يُحدث الناس من البدع، فإن الدين لا يذهب من القلوب بمرّة، ولكن الشيطان يحدِث له بدعاً، حتى يخرج الإيمان من قلبه، ويوشك أن يدع الناس ما ألزمهم الله من فرضه؛ في الصلاة والصيام، والحلال والحرام، ويتكلمون في ربهم عز وجل، فمن أدرك ذلك الزمان فليهرب، قيل:يا أبا عبد الرحمن فإلى أين؟ قال: إلى لا أين، قال: يهرب بقلبه ودينه، لا يجالس أحداً من أهل البدع.(٣)

وقال شيخ الإسلام في ذمِّ غلاة المبتدعة(٤):"ومن عَلِم حوادث الإسلام،وما جرى فيه بين أوليائه وأعدائه – الكفار والمنافقين – علِم أن عداوة هؤلاء المعتدين للإسلام الذي بَعث الله به رسوله ﷺ ؛ أعظم من عداوة التتار، وأن علِم الباطن الذي كانوا يدَّعون حقيقته؛ هو إبطال الرسالة التي بَعث الله بها محمداً ﷺ؛ بل إبطال جميع المرسلين، وأنهم لا يقرون ما جاء به الرسول ﷺ عن الله تعالى، ولا مِن خَبره ولا مِن أمره، وأنّ لهم قصداً مؤكداً في إبطال دعوته،وإفساد ملته، وقتل خاصته واتباع عترته(٥)، وأنهم في معاداة الإسلام؛ بل وسائر الملل؛ أعظم من اليهود والنصارى، فإن اليهود والنصارى يقرّون بأصل الجُمَل التي جاءت بها

---

(١) أخرجه الدارقطني.كتاب النوادر ، (١٤٦/٤) ، واللالكائي١٢٣/١ح (٢٠١).

(٢) أخرجه الدارمي في المقدمة.باب كراهية أخذ الرأي.ح(٢٠٥)٨٠/١،والطبراني في الكبير١٥٤/٩.

(٣) أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ١٢١/١، ح(١٩٦).

(٤) في مَعرِض جوابٍ عن القرامطة الباطنية. انظر: مجموع الفتاوى ١٤٠/٣٥-١٤١.

(٥) عِتْرة الرجل: أخَصُّ أقَارِبه، وعِتْرةُ النبي ﷺ :بَنُو عَبْد المُطَّلب، وقيل: أهلُ بيتِه الأقْرَبُون وهم أوْلادُه وعليٌّ وأوْلادُه ، وقيل: عِتْرته الأقْرَبُون والأبْعدُون منهم. انظر:النهاية في غريب الحديث٣٨٥/٣.

الرسل...وأما هؤلاء القرامطة[١]،فإنهم في الباطن كافرون بجميع الكتب والرسل، يخفون ذلك ويكتمونه عن غير من يثقون به، لا يظهرونه كما يظهر أهل الكتاب دينهم، لأنهم لو أظهروه لنفر عنهم جماهير أهل الأرض من المسلمين وغيرهم، وهم يفرِّقون بين مقالتهم ومقالة الجمهور، بل الرافضة الذين ليسوا زنادقة كفاراً،يفرِّقون بين مقالتها ومقالة الجمهور، ويرون كتمان مذهبهم واستعمال التقية، وقد لا يكون من الرافضة من له نسب صحيح مسلماً في الباطن ولا يكون زنديقاً؛ لكن يكون جاهلاً مبتدعاً.

وإذا كان هؤلاء مع صحة نسبهم وإسلامهم يكتمون ما هم عليه من البدعة والهوى، لكن جمهور الناس يخالفونهم؛ فكيف بالقرامطة الباطنية الذين يكفرهم أهل الملل كلها، من المسلمين واليهود والنصارى".

---

(١) هم أبعد طوائف المبتدعة عن الكتاب والسنة، ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض ، يدّعون أن للقرآن والإسلام باطناً يخالف الظاهر؛ فيقولون الصلاة المأمور بها ليست هذه الصلاة أو هذه الصلاة إنما يؤمر بها العامة، وأما الخاصة فالصلاة في حقهم معرفة أسرارنا، والصيام كتمان أسرارنا، ينفون عن الله تعالى النقيضين؛ فلا يقولون موجود ولا لا موجود؛ ولا حي ولا لا حي؛ ولا عالم ولا لا عالم، قالوا :لأن وصفه بالإثبات تشبيه له بالموجودات، ووصفه بالنفي فيه تشبيه له بالمعدومات، فآل بهم أن وصفوه بصفات الممتنعات التي لا تقبل الوجود، ولهم ألقاب معروفة عند المسلمين تارة يسمون الملاحدة؛وتارة يسمون القرامطة؛وتارة يسمون الباطنية؛وتارة يسمون الإسماعيلية؛ وتارة يسمون النصيرية، ولهذا كانت القرامطة الباطنية من أعظم الناس شركاً وعبادة لغير الله؛ إذ كانوا لا يعتقدون في إلههم أنه يسمع أو يبصر أو يغني عنهم شيئاً.

انظر: مجموع الفتاوى ٣/ ٣٥٦، ٣٢٧/٥، ٨٣/٦، ١٥٢/٣٥.

المبحث الثاني

الفَسَادُ العَمَلِيّ

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الجنايات.

المطلب الثاني: الفواحش.

المطلب الثالث: المعاملات والعادات.

المراد بالفساد العملي؛ ما كان من الأعمال مخالفاً للشرع، ولم يُخرج صاحبه من الملَّة لمجرَّد الوقوع فيه، ولا يعني ذلك أن هذا النوع من الفساد لا يقع ممن هم خارج دائرة الملة، وإنما يقع من المسلِم وغير المسلم، وهو عند غير المسلم؛ أكثر وأظهر، إذ ليس بعد الكفر ذنب.

وحيث إن مظاهر الانحراف عن المنهج الحق كثيرة، فقد اقتصرت في هذا المبحث على أبرز المخالفات التي اهتم بها القرآن وتصدى لها.

وقد أحاطت نصوص الكتاب العزيز هذا الموضوع، وعُنيت به عناية فائقة، حتى أصبح من القواعد المقررة شرعاً، حفظ الضروريات الخمس؛ وهي الدين والنفس والنسل والعقل والمال.

قال الشاطبي(١):"اتفقت الأمة؛ بل سائر الملل، على أن الشريعة وضِعت للمحافظة على الضروريات الخمس؛ وهي الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وعِلمها عند الأمة كالضروري، ولم يثبت لنا ذلك بدليل معيّن، ولا شهد لنا أصل معيّن يمتاز برجوعها إليه، بل علمت ملاءمتها للشريعة؛ بمجموع أدلة لا تنحصر في باب واحد"(٢).

وأحسب أنّ هذا المبحث، يجلّي هذه القاعدة، ويدور في فلكها، فاجتهدت في تقسيم الفساد العملي من هذا المنطلق.

والمتأمل في أنواع الفساد؛ يرى أن بعضها يمكن أن يندرج مع البعض الآخر؛ حسب هذا الاعتبار أو ذاك. ولا مُشاحة في ذلك.

---

(١) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي، الشهير بالشاطبي، أبو إسحاق، محدث فقيه أصولي لغوي مفسر، كان من أئمة المالكية، مات سنة ٧٩٠ هـ. معجم المؤلفين ٧٧/١ . الأعلام للزركلي ٧٥/١

(٢) الموافقات في أصول الشريعة ٣٨/١.

المطلب الأول: الجنايات

الجنايات لغة جمع جِنَايَة: وهي كل فعل محظور يتضمن ضرراً على النفس أو غيرها، وقيل هي: الذّنب والجُرم، وما يَفعله الإنسان مما يُوجب عليه العذابَ أو القصاص في الدنيا والآخرة.(١)

وهو عام في كل ما يقبح ويسوء، وقد خُصَّ بما يحرم من الفعل. ويراد بالجناية عند الفقهاء؛ القصاص في النفوس والأطراف.

وتنوعت النصوص في التحذير من الجنايات، بتنوع مظاهرها، ولم أقتصر هنا على منهج الفقهاء بحصر الجناية على النفس وما دونها من الأعضاء، بل قصدت بالجناية هنا التعدي على الغير، سواء كان على النفس، أو العرض، أو المال.

فأعظم الجنايات القتل؛ وهو ــ كما قال الجرجاني ــ فعل يحصل به زهوق الروح(٢)، وقد عدّه بعض أهل العلم أعظم الكبائر بعد الشرك(٣)، لذلك جاءت عقوبته مغلّظة في الدنيا والآخرة، قال سبحانه ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النساء:٩٣].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية:"وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله، في غير ما آية في كتاب الله، حيث يقول سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الفرقان:٦٨].وقال تعالى﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١]"(٤)

والأحاديث في تحريم القتل كثيرة، فمن ذلك ما رواه الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال

(١) التعريفات ص ١٠٧، لسان العرب ١٥٣/١٤.

(٢) التعريفات ص ١٧٩.

(٣) انظر: الكبائر للذهبي.ص:١٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٧١٠/١.

رسول الله ﷺ "أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء"(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:"لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً"(٢)،وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه "لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم".(٣)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر"(٤)

قال الحافظ ابن حجر: "تضمَّن هذا الحديث الردّ على المرجئة، ولا مُتمسَّك للخوارج فيه، لأن ظاهره غير مراد، لكن لَمّا كان القتال أشد من السِباب؛ لأنه مفضٍ إلى إزهاق الروح؛ عبَّر عنه بلفظ أشد من لفظ الفسق؛ وهو الكفر، ولم يُرد حقيقة الكفر التي هي الخروج عن الملة، إذ تقرر من القواعد أن مثل ذلك لا يُخرج عن الملة؛ مثل حديث الشفاعة؛ وقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[النساء: ٤٨](٥).

وفى تأويل الحديث أقوال:

الأول: أنه في المستحلّ للقتل.

والثاني:أن المراد كفر الإحسان والنعمة وأخوة الإسلام، لا كفر الجحود.

والثالث: أنه يؤول إلى الكفر بشؤمه.

والرابع: أنه كفعل الكفار".(٦)

ومن العلماء من يتوقى الكلام في مثل هذه النصوص تورعاً، ويُمرّها كما جاءت من غير

---

(١) أخرجه البخاري.كتاب الرقاق.باب:القصاص يوم القيامة.ح(٦١٦٨)،ومسلم.كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات.باب المجازاة بالدماء في الآخرة.ح(١٦٧٨)

(٢) أخرجه البخاري.كتاب الديات.ح(٦٤٦٩).

(٣) أخرجه الترمذي.كتاب الديات.باب:تشديد قتل المؤمن.ح(١٣٩٥)،والنسائي.كتاب تحريم الدم.باب:تعظيم الدم.ح(٣٩٨٧)، والبيهقي في السنن.كتاب النفقات.باب:تحريم القتل من السنة.ح(١٥٦٤٨)،وصححه الألباني. انظر:(صحيح الترغيب والترهيب٣١٥/٢).

(٤) أخرجه البخاري.كتاب الإيمان.باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.ح(٤٨)،ومسلم.كتاب الإيمان باب بيان قول النبي ﷺ "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر".ح(١١٦).

(٥) ومن ذلك: اعتبار القاتل أخاً للمقتول،كما قال سبحانه (فمن عفي له من أخيه شيء)[البقرة:١٧٨]، وقال في شأن اقتتال طائفتين من المؤمنين:(إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم)[الحجرات:١٠].

(٦) فتح الباري لابن حجر ١١٢/١، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٥٣/٢.

تفسير، مع اعتقادهم أن المعاصي لا تخرج عن الملة.[١]

ولِعظم هذه الجناية كان بعض السلف يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً، وممن ذهب إلى ذلك؛ ابن عباس وزيد بن ثابت وأبو هريرة وابن عمر والحسن[٢]وقتادة[٣]رضي الله عنهم[٤].

والذي عليه الجمهور من سلف الأمّة وخلفها؛ أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله تعالى، قال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

ولعموم قوله عزّ وجل﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].والله أعلم[٥].

ومما يؤكد جُرم هذا المسلك، أن حدّ القتل كان مُحْكَماً في شرع من قبلنا، كما أخبر سبحانه عن بني إسرائيل﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[المائدة:٤٥]

قال ابن كثير:"فقد استدل - بهذه الآية - كثيرٌ ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء، إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا؛ إذا حُكِي مقرراً ولم يُنسخ، كما هو المشهور عن الجمهور"[٦].

قال سبحانه﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:١٧٩].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله

---

(١) انظر: فتح الباري لابن رجب ١/ ١٢٨.

(٢) الحسن بن أبي الحسن البصري الأنصاري ، ثقة فقيه فاضل مشهور، لازم الجهاد والعلم والعمل، وكان أحد الشجعان، وكان حافظاً من بحور العلم، مات سنة ١١٠ هـ، انظر:تذكرة الحفاظ ٧٢/١ ، سير أعلام النبلاء ٥٦٣/٤

(٣) قتادة بن دعامة السدوسي، أبو الخطاب البصري، ثقة ثبت، يقال ولِد أكمه، قال ابن سيرين: قتادة أحفظ الناس، وكان يستحب أن تقرأ الأحاديث على طهارة، مات بعد سنة ١١٠هـ.

انظر: تذكرة الحفاظ ١٢٢/١، سير أعلام النبلاء ٢٦٩/٥ .

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠٣٧/٣.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣٨١/٣.

(٦) تفسير القرآن العظيم ١٢١/٣.

وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس؛والثيب الزاني؛ والمفارق لدينه التارك للجماعة".[١]

ومن أبشع صور هذه الجناية؛ قتل المرء نفسه، قال جلّ وعلا ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:٢٩-٣٠].

فقد اعتُبِر قتل الإنسان نفسه من الكبائر الشنيعة؛ استدلالاً بهذه الآية.[٢]

فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال:"بعثني رسول الله ﷺ عام ذات السلاسل، احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت به ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، فلما قدمت على رسول الله ﷺ، ذكرت ذلك له فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ قلت: نعم يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، وذكرت قول الله ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فتيممت ثم صليت، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً".[٣]

وجاء تأكيد النهي عن ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "من قتل نفسه بحديدة؛ فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم، خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن شرب سماً فقتل نفسه؛ فهو يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردّى من جبل فقتل نفسه؛ فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً".[٤]

---

(١)أخرجه البخاري.كتاب الديات.باب قوله تعالى ﴿أن النفس بالنفس والعين بالعين﴾.ح(٦٨٧٨)،ومسلم.كتاب القسامة. باب ما يباح به دم المسلم.ح(١٦٧٦).

(٢) انظر: معالم التنزيل ٢/٢٠٠، والدر المنثور ٢/٢٥٩.

(٣) أخرجه البخاري تعليقاً.كتاب التيمم.باب:إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش تيمم، وأحمد في المسند ٤/٢٠٣، وأبو داود، كتاب الطهارة. باب: إذا خاف الجنب البرد أيتيمم؟.ح(٣٣٤).
وقال ابن حجر: إسناده قوي(الفتح:١/٥٨٩).

(٤) أخرجه البخاري.كتاب الطب.باب:شرب السم والدواء به وما يخاف منه والخبيث.ح(٥٧٧٨)،ومسلم.كتاب الإيمان. باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه.ح(١٠٩).

وعن جندب بن عبدالله [١] ﷺ عن النبي ﷺ قال:" كان برجل جراح فقتل نفسه، فقال الله تعالى: بدَرَني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة"[٢].

ويتأكد التحذير عن ذلك في هذه الأزمان التي كثُر فيها الانتحار، حتى أظهرت الدراسات الإحصائية في بلاد الغرب نسباً مهولة يشيب لها الرأس.

وليست بعض بلاد المسلمين بمنأى عن هذه الظاهرة المشينة؛ لّما ضعف الإيمان لدى كثير من الناس.

فلم يكن من المتصوَّر أن عدد حالات الانتحار في العالم تصل إلى أكثر من ٨٠٠ ألف حالة سنوياًً!![٣]

ويعدّ الانتحار السبب الثامن للوفاة في الولايات المتحدة الأمريكية.

ففي تقرير رسمي حول عدد حالات الانتحار في الولايات المتحدة الأمريكية لعام ٢٠٠٢م، بلغ عدد المنتحرين أكثر من ٣١ ألف حالة، عدد الرجال منهم ٢٥ ألف رجل، و٦ آلاف امرأة، وعدد الشباب (١٥-٢٤ سنة) بين هؤلاء بلغ ٤٠٠٠ منتحراً.[٤]

وبناء على هذه الأرقام فإنه يمكن القول إنه في أمريكا وحدها؛ هناك شخص يقتل نفسه كل ربع ساعة!!

ويقول الباحثون إن معدلات الانتحار بين الشباب في جنوب الهند، هي الأعلى في العالم.

ويبلغ متوسط معدل الانتحار في العالم ١٤,٥ حالة، لكل ١٠٠ ألف شخص.[٥]

والذي يظهر أن الإحصائيات أكّدت أن عدد الوفيات بحوادث الانتحار؛ أكثر مما أهلكته الحروب الراهنة في العالم.

---

(٢) جندب بن عبد الله البجلي: له صحبة ليست بالقديمة، يكنى أبا عبد الله، سكن الكوفة، ثم انتقل إلى البصرة، قدمها مع مصعب بن الزبير. قال البغوي: يقال له جندب الخير ،وجندب الفاروق، وقد ينسب إلى جده فيقال: جندب بن سفيان. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣٤٧/١ ، الإصابة ٦١٤/١.

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له.كتاب الجنائز.باب:ما جاء في قاتل النفس.ح(١٣٦٤)،ومسلم.كتاب الإيمان. باب: غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه.ح(١١٣).

(٣) إحصائيات الأمم المتحدة على موقعهم: www.who.int/mental_health/en

(٤) انظر : www.suicidology.org/associations/١٠٤٥/files/٢٠٠٢datapgv٢.pdf

(٥) انظر :.www. news.bbc.com بي.بي.سي العربية في ٢ أبريل ٢٠٠٤م.

ويرى بعض المفسرين أن النهي في قوله تعالى﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أعمّ من قتل المرء نفسه، إذ المعنى:لا يقتل بعضكم بعضاً،فجعل - جلَّ ثناؤه - أهل الإسلام كلهم بعضهم من بعض.(١)

وقد اختُلِف في تأويل قوله﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا ﴾:

فقيل: ذلك إشارة إلى القتل لأنه أقرب مذكور، وقيل: هو عائد إلى أكل المال بالباطل وقتل النفس؛ لأن النهي عنهما جاء متسقاً مسروداً، ثم ورد الوعيد حسب النهي، وقيل: هو عام كل ما نُهي عنه من أول السورة.(٢)

ويرى الإمام الطبري: أن ذلك عائد لما نُهي عنه من آخر وعيد، وذلك قوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾[النساء:١٩]، لأن كل ما نُهي عنه من أول السورة قُرن به وعيد، إلا مِن قوله﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ فإنه لا وعيد بعده إلا قوله ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا ﴾

وقُيِّد الوعيد بذِكر العدوان والظلم؛ ليخرج منه فعل السهو والغلط.(٣)

ولِعظَم هذه الجناية، فإن الشرع رتَّب على فعلها الكفارة المغلّظة، ولو كان فاعلها مخطئاً، قال جل وعلا﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ ...﴾[النساء:٩٢].

كما جاء التصريح بعِظَم هذه الجريمة في حق الأقربين، من البنات والبنين،فقال سبحانه﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾[الإسراء:٣١]،

فقد كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفاقة، فأبطل الله معذرتهم، لأن الفقر الذي جعلوه عذراً لقتل الأولاد؛ لا يصلح أن يكون داعياً لقتل النفس، فبيَّن - سبحانه - أنه لمّا خلق الأولاد قدَّر رزقهم، فمن الخطأ أن يظن الأب أن عجزه عن النفقة عليهم؛ يخوّل له قتلهم.

---

(١) انظر: جامع البيان ٣٨/٤، والدر المنثور ٢٥٩/٢.

(٢) انظر: جامع البيان ٣٨/٤، الجامع لأحكام القرآن ١٠٣/٥

(٣) انظر: جامع البيان ٣٨/٤ ، الجامع لأحكام القرآن ١٥٠/٥.

ومعنى قوله﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أنَّ ذلك كان إثماً وخطيئة، لا خطأً من الفعل؛ لأنهم إنما كانوا يقتلونهم عمداً لا خطأً، وعلى عمدِهم ذلك، عاتبهم ربهم وتقدم إليهم بالنهي عنه.(١)

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ سُئل: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال:"أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال:وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك"(٢)....الحديث.

وكان قتلهم للبنات أشد وأعظم، خشية العار بزعمهم، فأبلغت الآيات الكريمة في بيان سفههِم، فقال جل وعلا﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾[الأنعام:١٤٠]

ومن التوبيخ لهم، سؤالهم يوم القيامة عن جريمتهم تلك، قال سبحانه﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[التكوير:٨،٩]، وتأمل كيف جاء هذا السؤال في معرض ذِكر أهوال القيامة، إذ جعله الله موضوعاً من موضوعات الحساب يوم الجزاء، فذِكره في سياق هذا الأهوال،كأنه حدثٌ من تلك الأحداث العظام؛ ويقول: إن الموءودة ستسأل عن وأدها.. فكيف بوائدها؟!

والنفس المعصومة التي حُرِّم قتلها هي: نفس المسلم، لقوله ﷺ "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله،وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث؛ النفس بالنفس؛ والثيب الزاني؛ والمفارق لدينه التارك للجماعة" (٣)

وكذلك يحرم دم الذميُّ المعاهد(٤)والمستأمن(٥)، لقوله تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[التوبة:٦].

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال"من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة،

---

(١) انظر: جامع البيان ٧٣/٨. بتصرّف

(٢) سبق تخريجه ص ٤٢

(٣) سبق تخريجه ص ٧٦

(٤) يجوز أن يكون بكسر الهاء وفتحها، على الفاعل والمفعول، وهو في الحديث بالفتح أشهر وأكثر، والمعاهد: من كان بينك وبينه عهد، وأكثر ما يطلق في الحديث على أهل الذمة، وقد يطلق على غيرهم من الكفار إذا صولحوا على ترك الحرب مدة ما. انظر:النهاية في غريب الحديث ٣١٦/٣.

(٥) هو"من يدخل إقليم غيره بأمان، مسلماً كان أم حربياً" انظر: الدر المختار على حاشية ابن عابدين٢٤٧/٣.

وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً"[١]

صيانة الدماء:

ومن مظاهر عناية الشريعة للدماء ، تأكيد التثبت فيها قبل إهدارها، حتى حال الحرب، قال سبحانه﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾[النساء:٩٤].

وقرأ حمزة والكسائي وخلف [٢](فتثبتوا) من التثبّت.[٣]

وعن ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: كان رجلٌ في غُنَيْمَةٍ له فلَحِقَه المسلمون فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غُنَيْمَتَهُ، فأنزل الله هذه الآية، إلى قوله﴿ تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ تلك الْغُنَيْمَةُ.[٤]

أول قتل وقع في الأرض:

جاء البيان القرآني لأول مشهد وقع في الأرض من هذا النوع،في قصة ابني آدم حيث قال سبحانه﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[المائدة:٢٧-٣٠].

ثم أعقب – سبحانه - ذلك ببيان خطر هذه الجريمة، حيث قال جل وعلا﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ ﴾ [المائدة: ٣٢].

أي:من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً، شرعنا لبني إسرائيل وأعلمناهم،أن من قتل

---

(١) أخرجه البخاري. في أبواب الجزية والموادعة.باب:إثم من قتل معاهداً بغير جُرم. ح(٣١٦٦).

(٢) هو خلف بن هشام بن ثعلب ، ويقال خلف بن هشام بن طالب بن غراب البزار ، البغدادي أبو محمد المقرئ ، إمام من أئمة القراءة ، توفى /٢٢٩هـ . انظر تهذيب لكمال ٢٢٩/٨

(٣) انظر: النشر في القراءات العشر.لابن الجزري ١٨٩/٢.

(٤) أخرجه البخاري.كتاب التفسير.باب قوله(ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً).ح(٤٥٩١)، ومسلم.كتاب التفسير.باب:في حديث الهجرة.ح(٣٠٢٥).

نفساً بغير سبب؛ من قصاص؛ أو فساد في الأرض، واستحلَّ قتلها بلا سبب ولا جناية؛ فكأنما قتل الناس جميعاً فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله جل ثناؤه، لأنه لا فرق عنده بين نفسٍ ونفس.(١)

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾"أي: من حرّم قتل من حرّم الله قتله، فلم يتقدم على قتله فقد أحيا الناس بسلامتهم منه، وذلك نظير خبر الله – جلّ وعلا- عمن حاجّ إبراهيم في ربه ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾[البقرة:٢٥٨]، فكان معنى الكافر في قيله (أنا أحيي) أنا أترك من قدرت على قتله، وفي قوله (وأميت) من عزمت قتله، فكذلك معنى الإحياء في قوله﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي:من سلِم الناس من قتله إياهم- إلا فيما أذن الله في قتله منهم- فكأنما أحيا الناس جميعا".(٢)

وفيه: تعظيم قتل النفس، وإحيائها في النفوس، ليشمئز الناس عن الجسارة عليها، ويتواصوا في المحاماة على حرمتها ؛ لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصور قتلها بصورة قتل الناس جميعاً؛ عَظُم ذلك عليه فثبّطه، وكذلك الذي أراد إحياءها.

وجاء في الصحيحين من حديث ابن مسعود ﷺ مرفوعاً "لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفل من دمها؛ لأنه أول من سنَّ القتل".(٣)

إن مفاسد القتل بالغة الخطورة والضرر، فهو جناية على المجتمع بأسْرِه، وخرق لحرمته وأمْنِه، يؤجج العداوة والبغضاء، ويبوء مقترفه بسخط الرب والعقوبة في الدنيا والآخرة.

ومن الجنايات: السرقة.

وهي: "أخذ مكلّفٍ خفيةً، قدر عشرة دراهم مضروبة،محرزة بمكان أو حافظ، بلا شبهة"(٤).

ولما كانت جناية على المال، رتّب الشرع عليها حدّ القطع، قال سبحانه﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ

---

(١) انظر: جامع البيان ٥٤٠/٤، تفسير القرآن العظيم ٩٣/٣.

(٢) جامع البيان ٥٤٥/٤.

(٣) أخرجه البخاري.كتاب الديات.باب قول الله تعالى(ومن أحياها).ح(٦٨٦٧)،ومسلم.كتاب كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات.باب: بيان إثم من سن القتل.ح(١٦٧٧).

(٤) التعريفات ص١١٨.

﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٨].

أي مجازاة على صنيعهما السيء في أخذهما أموال الناس، ولذا قال سبحانه﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ ولم يقل (بما أخذا)، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك، وقوله ﴿نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك، والنكال: العقاب الشديد الذي من شأنه أن يصدّ المعاقَب عن العود إلى مثل عمله الذي عوقب عليه، وهو مشتق من النكول عن الشيء أي النكوص عنه والخوف منه،(والله عزيز) أي: في انتقامه (حكيم) أي: في أمره ونهيه وشرعه وقدره.[1]

قال الشنقيطي:"صان الله الأموال بإيجاب قطع سارقها، وخصَّ السرقة؛ لقلة ما عداها بالنسبة إليها من الانتهاب والغصب؛ ولسهولة إقامة البينة على ما عدا السرقة بخلافها، وشدد العقوبة فيها ليكون أبلغ في الزجر، ثم لما خانت هانت،وذلك أن هذه اليد الخبيثة الخائنة التي خلقها الله لتبطش وتكتسب في كل ما يرضيه، من امتثال أوامره واجتناب نهيه والمشاركة في بناء المجتمع الإنساني، فمدت أصابعها الخائنة إلى مال الغير لتأخذه بغير حَق، واستعملت قُوة البطش المودعة فيها في الخيانة والغدر، وأخذ أموال الناس على هذا الوجه القبيح، يد نجسة قذرة ساعية في الإخلال بنظام المجتمع إذ لا نظام له بغير المال، فعاقبها خالقها بالقطع والإزالة، كالعضو الفاسد الذي يجر الداء لسائر البدن فإنه يُزال بالكلية إبقاء على البدن، وتطهيراً له من المرض، ولذلك فإن قطع اليد يطهِّر السارق من دنس ذنب ارتكاب معصية السرقة، مع الردع البالغ بالقطع عن السرقة".[2]

وعن عبادة بن الصامت[3] رضي الله عنه قال:كنا عند النَّبي ﷺ في مجلس فقال" بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا، وقرأ هذه الآية كلها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾[الممتحنة:١٢]، فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفَّارته، ومن أصاب من

---

(١) انظر: تفسير القران العظيم ٣/١١٠، التحرير والتنوير٦/١٩٢.

(٢) أضواء البيان ٣/٣١٧.

(٣) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري:شهد العقبة الأولى والثانية وكان أحد النقباء، وشهد بدراً والمشاهد كلها، استعمله النبي ﷺ على بعض الصدقات، توفي سنة٣٤هـ بالرملة، وقيل ببيت المقدس. انظر: الإصابة ٤/٥٠٥.

ذلك شيئاً فستره الله عليه، إن شاء غفر له، وإن شاء عذَّبه".(١)

ومن صور السرقة اختلاس المال العام وإهداره. كيف وهو حق الناس كافة، فإذا كان التعدي على مال أحاد الناس فساداً، فالتعدي على المال العام أعظم جريرة وأشد فساداً منه، ولذا فإن أخوة يوسف عليه السلام أكدوا بأيمانهم البراءة من هذه الجناية، وصنفوها من الإفساد في الأرض، قال تعالى ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾[يوسف: ٧٣].

ومن الجنايات: القذف.

وأصله الرّمْي، وهو رَمْيُ المرأة بالزنا أو ما كان في معناه، وعرّفه بعض الفقهاء: بأنه رمي مكلفٍ حراً مسلماً بنفي نسب عن أب أو جد أو بزنا(٢).

وهو جناية على العِرض؛ وقد اتفق العلماء على أنه من الكبائر؛ لما نصت عليه الآيات، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴾[النور:٢٣- ٢٥].

"إن ترك الألسنة تُلقي التُهم جزافاً، على المحصنات العفيفات، بدون دليل قاطع، يترك المجال فسيحاً لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئاً بتلك التهمة النكراء؛ ثم يمضي آمناً!

فيصبح الجماعة ويمسي؛ وإذا أعراضه مجرحة، وسمعته ملوثة؛ وإذا كل فرد فيه متهم، أو مهدد بالاتهام؛ وإذا كل زوج فيه شاك في زوجه، وكل بيت مهدد بالانهيار.

إن شيوع جريمة القذف في المجتمع؛ تُجرِّئ ضعيف النفس على ارتكاب الفاحشة وتهوّن في نفسه بشاعتها.

وصيانةً للأعراض من التهجّم، وحمايةً لأصحابها من التُهم الفظيعة التي تصبُّ عليهم؛ شدّد القرآن الكريم في عقوبة القذف، فجعلها قريبة من عقوبة الزاني غير المحصن.

قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ ﴾[النور:٤].

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب الحدود. باب:الحدود كفارة، ح(٦٧٨٤).ومسلم.كتاب الحدود.باب:الحدود كفارات لأهلها.ح(١٧٠٩).

(٢) انظر: لسان العرب ٢٧٦/٩، المغني لابن قدامة ٣٨٣/١٢.

ولم تقتصر العقوبة على ذلك فحسب؛ بل أُهدر قول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة، وأسقِط اعتباره بين الناس؛ فهو يمشي بينهم متهماً؛ لا يوثق له بكلام!..﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ بل زيد عليه وصمه بالفسق ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[النور:٤]، إلا أن يتوب عن هذه الفعلة النكراء، قال تعالى﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور:٥].

ومن مشكاة النبوة،جاء التأكيد على عِظم هذه الجناية،حيث قالﷺ"اجتنبوا السبع الموبقات.." وذكر منها:"قذف المحصنات المؤمنات الغافلات".[١]

إن المقذوف الذي تألم من شدّة القذف، وثِقَل وطئته، ليجد في تلك العقوبة؛ شفاءً لغيظ قلبه، وصيانةً لكرامته.

ومما يؤكد حُرمة الأعراض، أن عقوبة الجاني فيها لم تقتصر على الدنيا، بل هي في الآخرة أشد وأنكى، فهو يعالج فقْد حسناته، وأخْذ خطايا الآخرين، وحسرته الكبرى؛ أن يقذف في النار... وكما قال النبي ﷺ "إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا؛ فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه؛ أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار"[٢]

وإذا وقع القذف من الزوج؛ فإن ذلك يكون أعظم وأشد، ولذا فإن المتدبر لآيات الملاعنة يُعظِم شأن الشريعة في عنايتها بكيان الأسرة؛ فهي لبنة من لبنات المجتمع الذي لا وحدة ولا شوكة له؛ إلا بها.

قال تعالى﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[النور:٦- ٩].

---

(١) تقدم تخريجه ص ٥٦

(٢) أخرجه مسلم .كتاب:البر والصلة والآداب.باب:تحريم الظلم.ح(٢٥٨١).

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن هلال بن أمية[١] رضي الله عنه قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك ابن سحماء[٢] فقال النبي ﷺ البينة أو حدّ في ظهرك. فقال يا رسول الله: إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة، فجعل ﷺ يقول: البينة وإلا حدّ في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، وليترلن الله ما يبريء ظهري من الحدّ، فترل جبريل وأنزل عليه ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ – فقرأ حتى بلغ –﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ .فانصرف النبي ﷺ ،فأرسل إليها، فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقّفوها، وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت، حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت فقال النبي ﷺ "أبصروها،فإن جاءت به أكحل العينين،سابغ الأليتين [٣]،خدلج الساقين[٤]؛فهو لشريك بن سحماء"، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ"لولا ما مضى من كتاب الله، لكان لي ولها شأن".[٥]

ثم قال سبحانه بعد ذلك ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[النور:١٠].

أي:"لولا تفضله تعالى عليكم ورحمته سبحانه، وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة، حكيم في جميع أفعاله وأحكامه التي من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان، لكان مما لا يحيط به نطاق البيان، ومن جملته؛ أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك؛ لوجب على الزوج حدّ القذف مع أن الظاهر صدقه، لأنه أعرف بحال زوجته، وأنه لا يفترِ عليها لاشتراكهما في الفضيحة، وبعد ما شرع لهم لو جعل شهاداته موجبة لحد الزنا عليها لفات النظر إليها ، ولو جعل شهاداتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له، ولا ريب في خروج الكل عن سنن الحكمة

---

(١) هلال بن أمية الواقفي، شهد بدراً وكان قديم الإسلام، كان يكسر أصنام بني واقف، وكانت معه رايتهم يوم الفتح، وهو الذي لاعن امرأته ورماها بشريك بن سحماء، وهو أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك. انظر: الإصابة ٤٢٨/٦ ، أسد الغابة ٢٨٧/٤.

(٢) شريك بن سحماء : وسحماء هي أمه، وأبوه عبدة بن متعب بن الجد، وهو صاحب اللعان، قيل إنه شهد مع أبيه أحداً، وهو أخو البراء بن مالك، وذكر ابن حجر أنه أخوه لأمه من الرضاعة، وهو أول من لاعن في الإسلام. انظر: الإصابة ٢٧٨/٣ ، أسد الغابة ٤٢٧/٣ .

(٣) أي تامَّهما وعَظِيمَهما من سُبُوغ الثَّوب والنّعمة. النهاية في غريب الحديث ٨٤٣/٢

(٤) أي عظيم الساقين. انظر: غريب الحديث لابن سلام ٩٨/٢

(٥) أخرجه البخاري.كتاب التفسير.باب قوله (ويدرؤ عنها العذاب)ح(٤٧٤٧).

والفضل والرحمة ، فجعل شهادات كلٍ منهما، مع الجزم بكذب أحدهما حتماً؛ دَارئَةً لما توجّه إليه من الغائلة الدنيوية، وقد ابتلى الكاذب منهما في تضاعيف شهاداته من العذاب بما هو أتم مما درأته عنه وأطمّ، وفي ذلك من أحكام الحكم البالغة، وآثار التفضل والرحمة، ما لا يخفى، أما على الصادق، فظاهر، وأما على الكاذب؛ فهو إمهاله والستر عليه في الدنيا، ودرء الحد عنه، وتعريضه للتوبة، حسبما ينبيء عنه التعرض لعنوان توَّابيّتِه تعالى، فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع رحمته وأدق حكمته"[١].

وبعد أن ذكرَت الآيات حكم القذف، أوردت نموذجاً له، يكشف عن شناعة الجرم وبشاعته؛ وهو يتناول بيت النبوة الطاهر الكريم ، وعِرض رسول الله ﷺ أكرم إنسان على الله ، وعرض صديقه الصديق أبي بكر رضي الله عنه أكرم إنسان على رسول الله ﷺ وعِرض رجل من الصحابة صفوان بن المعطل رضي الله عنه يشهد رسول الله أنه لم يعلم عنه إلا خيراً . .

وحاصل القصة؛ أن النبي ﷺ ، في بعض غزواته، ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما، فانقطع عقدها فانحبست في طلبه ورحَّلوا جَملها وهودجها، فلم يفقدوها، ثم استقل الجيش راحلاً وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها، رجعوا إليها، فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمي، من أفاضل الصحابة رضي الله عنهم، قد عرّس[٢] في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقود بها بعد ما نزل الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين – الذين في صحبة النبي ﷺ في ذلك السفر – مجيء صفوان بها في هذه الحال، أشاع ما أشاع، ووشى الحديث، وتلقفته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحبس الوحي مدة طويلة عن الرسول ﷺ ، وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزناً شديداً، فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين، وأعظم ذلك، ووصاهم بالوصايا النافعة[٣].فقال تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ ﴾[النور:١١]، أي: الكذب الشنيع، وهو

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٨/٤٢٠.

(٢) التَعْريسُ النزول في آخر الليل وعَرَّس المسافر نزل في وجه السَّحَر. لسان العرب (عرس) ٦/١٣٤

(٣) الحديث أصله في الصحيحين،فقد أخرجه البخاري.كتاب التفسير.باب قوله(ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا)ح(٤٧٥٠)، ومسلم.كتاب التوبة.بابٌ في حديث الإفك وقبول توبة القاذف.ح(٤٩٧٤).

رمي أم المؤمنين رضي الله عنها، ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور:١١]، أي: جماعة منتسبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق في إيمانه؛ ولكنه اغترَّ بترويج المنافقين؛ ومنهم المنافق.

وقوله﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[النور:١١]، لِما تضمَّن ذلك تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها، والتنويه بذكرها، حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبي ﷺ ، ولِما تضمّن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة، فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً[١].

لقد كانت حادثة الإفك تجربة قاسية على المجتمع المسلم،وبرغم قسوة الموقف إلا أن المنح تأتي في ثنايا المحن، فتأتي برآءة الطاهرة العفيفة في القرآن؛ يُتعبد بتلاوة آياته الدالة على عفتها وطهارتها.

وبعد هذا؛ نجد الرافضة يقذفون عائشة رضي الله عنها، ويحسبون أنهم على شيء، وهم يهدمون أصلاً أصيلاً من الدين بتعرضهم لجناب النبي ﷺ ، ألا ساء ما يزرون.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٥٦٣.

المطلب الثاني: الفواحش.

الفواحش جمع فاحشة،وهي كلمة تدل على قُبح في الشيء وشناعة، ومن ذلك: الفحش والفحشاء والفاحشة، وأفحش الرجل: قال الفُحش، والمتفحش: الذي يتكلف سبّ الناس ويتعمده، والذي يأتي الفاحشة المنهي عنها، وتفحَّش في كلامه، وتفحَّش عليهم بلسانه؛ إذا بذا، والفاحش السِّيء الخُلق.

واصطلاحاً:كل ما يشتد قبحه من الذنوب، وقيل:كل خصلة قبيحة من الأقوال والأفعال[(١)]،وقيل: هي كل ما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم.[(٢)]

وقد جاء النهي عن الفواحش جملةً، في مواضع عِدَّة.

قال تعالى ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾[الأنعام:١٥١].

والمعنى – كما قال ابن جرير – لا تقربوا الظاهر من الأشياء المحرمة عليكم ، التي هي علانية بينكم لا تناكرون ركوبها، والباطن منها الذي تأتونه سراً في خفاء لا تجهرون به، فإن كل ذلك حرام.[(٣)]

ومن المفسرين من فسّر الفواحش بالزنا، وجعل ما ظهر منها ما يُفعل في الحوانيت، وما بطن الزنا سِراً [(٤)]، وحَمْل الآية على العموم أولى[(٥)]،والله أعلم.

ومجيء النهي عن الفواحش مقترناً بجملة من أمهات الكبائر؛ دلالة ظاهرة على شناعتها وجرمها.

وقُل مثل ذلك؛ في آية الأعراف، قال سبحانه ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[الأعراف: ٣٣].

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة ٤٧٨/٤، تاج العروس ١٥٧/٩.

(٢) التعريفات ١٧١.

(٣) جامع البيان ٣٩١/٥.

(٤) انظر: جامع البيان ٣٩٢/٥، معالم التنزيل ٢٠٣/٣،زاد المسير ١٤٨/٣.

(٥) انظر: جامع البيان ٣٩١/٥ ، معالم التنزيل ٢٠٣/٣، الجامع لأحكام القرآن ٨٧/٧ .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً:"لا أحد أغير من الله، فلذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن".[(١)]

قال الشنقيطي:"والتحقيق – إن شاء الله – أن الفواحش من جملة الكبائر،والأظهر أنها من أشنعها"[(٢)]،قال تعالى﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾[الشورى:٣٧].

وقال سبحانه﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾[النجم:٣٢]، والمراد بكبائر الإثم: الآثام الكبيرة فيما شرع الله، وهي ما شُدِّد التحذير منه، أو ذكر له وعيداً بالعذاب، أو وصِف على فاعله حدّاً.

"والفرق بين الكبائر والفواحش – مع أن جميعهما كبائر– أن الفواحش هي الذنوب الكبار التي في النفوس داعٍ إليها؛كالزنا ونحوه، والكبائر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران، وأما مع إفراد كل منهما عن الآخر فإن الآخر يدخل فيه"[(٣)].

ومن أعظم الفواحش الزنا:

وقد اختلف تعريف العلماء للزنا، وغالبها يدور حول "الوطء في قُبُل خالٍ عن ملك أو شُبْهَة"[(٤)].

قال ابن عاشور:"والزنا في اصطلاح الإسلام: مجامعة الرجل امرأة غير زوجة له، ولا مملوكة غير ذات الزوج.

وفي الجاهلية: مجامعة الرجل امرأة حرة غير زوج له ، وأما مجامعة الأَمة غير المملوكة للرجل فهو البغاء".[(٥)]

ويؤيد هذا التفريق، ما أخرجه مسلم من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: كان عبدالله بن

---

(١) أخرجه البخاري.كتاب التفسير،باب قوله تعالى (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن).ح(٤٦٣٤)، ومسلم.كتاب التوبة،باب:غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش.ح(٢٧٦٠).

(٢) أضواء البيان ١٢٦/٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٩٠٠.

(٤) التعريفات ص١١٥.

(٥) التحرير والتنوير ٩٠/٧.

أبيّ بن سلول(١) يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئاً، وفي رواية "أنهما جاريتان يكرههما على الزنا"، فأنزل الله﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور: ٣٣](٢)

وكثيراً ما ترد الفاحشة في القرآن بمعنى الزنا، قال تعالى﴿ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾[النساء:١٩] وقال تعالى﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢]،والمتدبر لسياق الآيات التي ورد النهي عن الزنا في ثناياها؛ يجد أن الله عز وجل نهى عن قتل الأولاد ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾[الإسراء:٣١] ، ثم ذكر النهى عن الزنا ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾[الإسراء: ٣٢]، ثم تكلّم عن قتل النفس، فقال ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾[الإسراء: ٣٣]، فالزنا توسط آيات النهي عن القتل،لأنه قتل من نواحي شتى، فهو قتلٌ ابتداءً، لأنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعها، يتبعه غالباً رغبةٌ في التخلص من آثاره بقتل الجنين؛ قبل أن يتخلّق، أو بعد أن يتخلّق،قبل مولده أو بعد مولده، وإذا ترك الجنين للحياة؛ تُرك - في الغالب - لحياة بئيسة مهينة، وهو قتل للمجتمع من جانب آخر؛ إذ أن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه، يجعل الحياة الزوجية نافلة، بل زهيدة لا ضرورة لها، ويجعل الأسرة تبِعة لا داعي إليها، والأسرة هي المحضن الصالح للناشئة، لا تصح فطرتها ولا تربيتها إلا فيه.

ولقد حذر نبينا ﷺ من هذه الفاحشة الخطيرة ، بل واستعاذ بالله أن يدركها أصحابه فقال: "يا معشر المهاجرين؛ خمس إذا ابتليتم بهنّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنّ؛ لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها؛ إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا..." الحديث.(٣)

فما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلى انحلال، منذ التاريخ القديم إلى العصر

---

(٤) عبد الله بن أبيّ بن سلول: رأس المنافقين في الإسلام،من أهل المدينة، كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم، أظهر الإسلام بعد بدر تقية، انخزل بثلث الجيش يوم أحد، وهو الذي بدأ بالكلام في حادثة الإفك، مات سنة ٩ هـ راجع: طبقات ابن سعد ٢١/٢، ٢٩، ٣٧ ،١٢٥، تاريخ الإسلام للذهبي ٤٤١/١.

(٢) أخرجه مسلم.كتاب التفسير.باب:قوله تعالى(ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء)ح(٣٠٢٩)

(٣) أخرجه ابن ماجه.كتاب الفتن.باب:العقوبات.ح(٤٠١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٧٨).

الحاضر، وقد ظهر هذا جلياً لمن تأمّل حال الغرب الذي يملك زمام القوة المادية، فها هو يشجع الرذيلة ويدعوا إليها عبر قنواته الفضائية ومواقعه الإباحية، فابتلاهم الله عز وجل بالأمراض التي لم تكن في أسلافهم، كالزهري والسيلان والهربس والإيدز، والتي أعيى الأطباء دواءها.

ويكفي الزاني فساداً؛ نفي الإيمان عنه حال ملابسة تلك الخطيئة، قال ﷺ"لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن"(١).

بل إن دمَه حلالاً إذا أتى الزنا وهو محصن، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال:قال ﷺ " لا يحل دم امرئ مسلم..إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني،والمفارق لدينه التارك للجماعة"(٢).

ولعناية القرآن ببيان خطر هذا النوع من الفساد؛ حذّر من كل السبل المؤدية إليه، قال الله تعالى﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ فهي مبالغة في التحرّز، لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة، فالتحرّز من المقاربة أضمن، فعند المقاربة من أسبابه؛لا يكون هناك ضمان، إذ النفس البشرية كالجواد الهائج، إذا لم تروّض وفق طاعة الله ملتزمة أمره ونهيه، وإلا أخذ الشيطان بلجامها وقادها في ظلمة المعصية إلى نار جهنم، والعياذ بالله.

ولئن جاء تصريح الشرع باعتبار الزنا فاحشة، فإن العقل والفطرة السليمة ينبذان تلك الفعلة المشينة؛ صيانة لحق المرأة وزوجها، وحق أهلهما،وتحرّزاً من إفساد الفراش،واختلاط الأنساب، وغير ذلك من المفاسد.

ومن الفواحش المنكرة؛نكاح القريبات بالرحم والمصاهرة. فمن ذلك نكاح زوجة الأب، قال تعالى ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[النساء:٢٢].

فقد كان في العرب قبائل اعتادت أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه، وكانت هذه السيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة مع التراضي، فحرّم الله تبارك وتعالى عليهم المقام

---

(١) أخرجه البخاري.كتاب المظالم.باب النُهبى بغير إذن صاحبه.ح(٢٤٧٥)، ومسلم.كتاب الإيمان.باب بيان نقصان ا لإيمان بالمعاصي.ح(٥٧).

(٢) تقدم تخريجه ص ٧٦

عليهن، وعفا لهم عما سلف من فعلهم في جاهليتهم وشركهم ، فلم يؤاخذهم به؛ إن هم اتقوا الله في إسلامهم وأطاعوه فيه.

قال ابن عباس رضي الله عنه "كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم، إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾[النساء:٢٢] إلى قوله﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ ﴾[النساء:٢٣][١].

وعن عدي بن ثابت[٢] عن رجل من الأنصار قال: لما توفي أبو قيس[٣]- يعني ابن الأسلت - وكان من صالحي الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته فقالت: إنما أعدّك ولداً، وأنت من صالحي قومك، ولكن آتي رسول الله ﷺ فأستأمره، فأتت رسول الله ﷺ ،فقالت: إن أبا قيس توفي فقال: خيراً، ثم قالت: إن ابنه قيساً خطبني، وهو من صالحي قومه، وإنما كنت أعدّه ولداً فما ترى؟ فقال لها: ارجعي إلى بيتك،قال:فنزلت﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ الآية[٤].

وعقّب سبحانه وصف هذا النكاح الفاسد بقوله﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء:٢٢]، ففيه الذم البالغ المتتابع على فعل هذه الفاحشة العظيمة، بل كيف يفعلها من له أدنى حسٌّ؟! فإن المرأة التي نكحها الأب؛ صارت بمترلة الأم.

ويلتمس من هذه الآية؛ أن الزنا وأن كان من الكبائر، إلا أن منه ما يكون أشد قبحاً وأعظم جريرة، فهو على مراتب؛ فإذا كان بأجنبية لا زوج لها فهو عظيم، وأعظم منه بأجنبية لها زوج، وأعظم منه بمَحرَم، وزنا الثيب أقبح من زنا البكر؛ بدليل اختلاف حدّهما، وزنا الشيخ لكمال عقله؛ أقبح من زنا الشاب، وزنا الحُرِّ والعالِم لكمالهما؛أقبح من زنا العبد والجاهل.[٥]

---

(١) جامع البيان ٦٦٠/٣، القرطبي ٦٨/٥، وصححه مقبل الوادعي في الصحيح المسند من أسباب الترول ص ٧٥.

(٢) عدي بن ثابت الأنصاري الكوفي، ثقة رُمي بالتشيع ، قال أحمد: ثقة ،قال أبو حاتم: صدوق كان إمام مسجد الشيعة وقاصهم، مات سنة١١٠هـ . انظر: سير أعلام النبلاء ١٨٨/٥، الجرح والتعديل ٤/٧

(٣) أبو قيس بن الأسلت : اختلف في اسمه واسلامه، فذكر أنه أسلم بعد لقاء النبي ﷺ وكان في الجاهلية يتأله ويدعى الحنيف وذكر المفسرون أن هذه الآية فيه وفي امرأته وابنه من غيرها.انظر: الإصابة ٢٧٨/٧، أسد الغابة ٧٢/٥

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩٠٩/٣.

(٥) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر. للهيتمي٢٥٣/٢.

ومن الفواحش: اللواط

يقال: لاطَ الرجل ولاوَطَ، أي: عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط[١].

قال سبحانه﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾[الأعراف:٨٠- ٨١].

قال ابن القيم في وصف هذه الفاحشة:"وهذا داءٌ أعيى الأطباء دواؤه وعزَّ عليهم شفاؤه، وهو – لعمر الله – الداء العضال، والسمّ القتّال الذي ما علق بقلب؛ إلا وعزّ على الورى استنقاذه من إساره، ولا اشتعلت ناره في مُهجة؛ إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره"[٢].

و لم يُبتل بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحد من العالمين، فأكدّ سبحانه جُرم هذه الفاحشة؛ بأن لم يعملها أحد من العالمين قبلهم،فقال﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فسبْقُهم لفعل الفاحشة برهان ظاهر على عِظم فسادهم.

ثم زاد في التأكيد بأن صرّح بما تشمئز منه القلوب، وتنبوا عنه الأسماع، وتنفر منه الطباع أشد نفرة، وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه؛ كما ينكح الأنثى، فقال﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ثم نبّه على استغنائهم عن ذلك، وأن الحامل لهم عليه؛ ليس إلا مجرّد الشهوة، لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلى الأنثى؛ من قضاء الوطر؛ ولذة الاستمتاع وحصول المودة والرحمة.

ثم أكّد – سبحانه – قُبح ذلك؛ بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر عليه الرجال، وقلبوا الطبيعة التي ركّبها الله في الذكور، وهي الشهوة في النساء ﴿ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]، فقلَبوا الأمر وعكسوا الفطرة والطبيعة، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، فلما نُكِسوا في فِطرهم؛ نُكِسوا في العذاب على رؤوسهم، ولهذا قلَبَ الله سبحانه عليهم ديارهم فجعل عاليها سافلها، ثم أكّد سبحانه قُبح ذلك؛ بأن حَكم عليهم بالإسراف، وهو مجاوزة الحدّ، فقال ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾[الأعراف:٨١].

فتأمل هل جاء ذلك أو قريباً منه في الزنا ؟

---

(١) الصِحاح في اللغة للجوهري ١٥٣/٢.لسان العرب ٣٩٤/٧. مادة (لوط)

(٢) الجواب الكافي لابن القيم.ص٣٥٣.

وأكّد سبحانه ذلك عليهم بقوله ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء:٧٤]، ثم وصمَهم بوصفين في غاية القُبح، فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ﴾ وسمّاهم مفسدين في قول نبيهم لوط عليه السلام حيث فقال ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٠].

وسمّاهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت:٣١]، بل -كذلك- وصفتهم الملائكة بالإجرام ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر:٥٨].

فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات؛ ومن ذمه الله بمثل هذه المذمّات.(١)

ثم انظر لهف اللوطية إلى مواقعة الفاحشة والإسراع إليها وبشارتهم بها ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود:٧٨] ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الحجر:٦٧].

ثم تأمل قوله ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:٧٨]. تجد فائدة بليغة مفادها: أثر تلك الجريمة على الجوارح، واستحواذها على العقول، فلم يقدروا نبيهم حق قدره، ولم يعرفوا لأضيافه حقهم؟!

وأما قوله ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ [الحجر:٦٨]، ففيه إشارة إلى أن هذه الفاحشة فضيحة في ذاتها..فكيف لو كانت هذه الفعلة القبيحة في حق أضياف كرام؟! كيف ستكون الفضيحة؟

ومن تأمل قوله تعالى – في خطاب لوط لقومه – ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود:٧٨] أدرك أن إدمان الفواحش – كما أنه يضعف الدين – فهو يُذهب مروءة الإنسان، ويقضي على ما بقي فيه من أخلاق ورشد.

إنها لكبيرة شنيعة؛ تقشعر الجلود من سوء فعلها...وإنها الشهوة حين تسيطر على العقول فتحولها من بشرية مكرمة، إلى بهيمية عمياء...فهل ستجد وصفاً أبلغ من قوله ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢].

فذاك قَسم بحياة خليله ﷺ على سكر عقولهم، وهل يحتاج الأمر إلى قسم؟..ثم من المُقسم؟.. إنها السكرة التي ذهبت معها أحلامهم، فلم يسمعوا النصيحة المُبقية، فأسمعهم الله الصيحة المهلكة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر:٧٣]. نعوذ بالله من سوء المآل.

---

(١) انظر: الجواب الكافي لابن القيم.ص ٢٩٤-٢٩٨.بتصرّف.

محاربة القرآن الكريم للفواحش:

ومن محاربة القرآن الكريم للفواحش، سدّ كل طريق يؤدي إليها، ومن ذلك التحذير الشديد، والوعيد الأكيد، لمن يحبون إشاعة الفاحشة ويتلذذون بذلك، قال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النور:١٩] فقد نزلت هذه الآية الكريمة في أعقاب حادثة الإفك.

وهي تكشف أسلوباً ماكراً من أساليب الأعداء،في الصدّ عن دين الله تعالى، ذلك أن الكفار والمنافقين؛يدركون أن تلك القوة التي يملكها المسلمون؛ من الصعب أن تُغلب، إذ إن وراءها تربية متينة، جعلت مجتمع أهل الإسلام أشبه بحصون منيعة، مما حملهم على استبدال الغزو الحربي بغزوٍ إباحي، حتى يتسنّى لهم السيطرة على المسلمين، وتدمير شبابهم، ونشر الرذيلة بينهم، فتخور حينئذ قواهم، وتضعف عزائمهم.

فسعوا جاهدين إلى أن يوصد باب الطهارة والعفة، من خلال الإيحاء بأن حرية المرء الشخصية تخوّله أن يفعل ما شاء، ويدع ما شاء، وأن الفاحشة سائدة في المجتمع؛ ومن ثمّ تهفوا إليها النفوس،وتشيع محبتها في القلوب، وحينها يجد الأعداء بُغيتهم، ويحصّلون مرادهم.

وإذا كانت إشاعة الفاحشة ديدن أهل الفسق والفجور،منذ الصدر الأول، فما عسى أن يقال الآن، ونحن نعيش زمن انفتاح الحضارات بمختلف ثقافاتها، وكأن العالم بأسْرِه؛ أصبح كقرية واحدة، فأصبحت وسائل التواصل والاتصال في متناول الجميع.

ومما لا شك فيه؛ أن وسائل الإعلام المعاصر أصبحت لغة العصر، غير أن جانبها السلبي كان له أثره المباشر والخطير في نشر الرذيلة، وهدم الفضيلة، ففسدت القيم والأخلاق، ألا من رحم الله تعالى.

شاهد ذلك ما تبثه كثير من القنوات الفضائية، ومواقع الإنترنت من خلاعة ومجون، ومن الخطورة المحدقة أن معظم مستخدمي تلك التقنية هم من الشباب، وفي الشباب ما فيه.

فلك أن تنظر بعين الحقيقة لا الخيال؛ فتياناً حدثاء الأسنان،سفهاء الأحلام، قد سمرت عيونهم في النظر إلى تلك الشاشات التي تعرض الفاحشة بصور بشعة مخزية، يستحي العاقل من ذكرها، فتثير غرائزهم،وتستوقد نار الشهوة في نفوسهم،فإذا هي هائجة تسعى جاهدة في غيابٍ للعقل والدين لتفريغ هذه الشهوة في أي سبيل.

لقد أثبتت الدراسات في هذا الشأن؛حقائق جعلت الحليم حيران، حيث أكّدت الإحصاءات العالمية أن ٥٧ مليار دولار، تصرف سنوياً في ترويج المواد الإباحية عبر وسائل الإعلام، وأن ٨٣،٥ % من الصور المتداولة في المجموعات الإخبارية في الإنترنت؛ هي صور إباحية.

والذي يزيد الأمر خطورة أن أكثر المتداولين لتلك المواد الإباحية؛ هم فئة الشباب ما بين ١٢-١٧ عاماً.

كما أن ٦٥،٩٨% من عمليات البحث في محركات البحث المتخصصة بالصور؛ تَطلب المواد الإباحية.[1]

والذي يزيد الجرح ألماً والقلب حزناً؛ أن معظم الآباء لا يعلمون شيئاً عما يفعله أبناؤهم مع تلك الوسائل المدمرة.

---

(١) انظر: الإباحية وتبعاها، د.مشعل القدهي.

المطلب الثالث: المعاملات والعادات.

أولاً: فساد المعاملات:

من جوانب عظمة هذا الدين؛ أنه جاء صالحاً لأحوال العباد في معاشهم ومعادهم، فلم يكن معنياً بعلاقة العبد بربه فحسب، بل جاء مصلحاً لجميع جوانب الحياة، فهذّب السلوك، وقوَّم الأخلاق؛ ليعيش المرء مع من حوله وفق منهج سليم، إذ المرء جزء من مجتمعه؛ لا ينفك عنه بحال.

ومما جاءت به الشريعة ونظمته، ولم يُترك للبشر يخوضون فيه بأهوائهم؛ ما يتعلق بالأموال وتبادلها، وكسبها وإنفاقها؛ إذ إن الأموال قيام البشر، وأساس حضارتهم وعمرانهم، فحُسن تعاملهم بها؛ يعود عليهم بالأمن والرخاء والاستقرار، وسوء استخدامهم لها؛ يكون سبباً للخوف والجوع والاضطراب.

والمال مال الله تعالى، والرزق رزقه سبحانه، وهبه للبشر، وسخَّره لمعايشهم، فوجب عليهم أن يتصرفوا فيه وفق شريعته عز وجل؛ ليتحقق العدل، ويرفع الظلم.

ومن سنته تعالى القدرية في عباده أن جعلهم متفاوتين في الرزق والمال، متباينين في الغنى والفقر﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ ﴾[النحل: ٧١].

وحكمة هذا التفاوت في الأموال والأرزاق؛ تسخير بعضهم لبعض، كما قال سبحانه وتعالى﴿ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ ﴾[الزُّخرُف: ٣٢].

ثم جاءت سنة الله تعالى الشرعية الاختيارية، في علاج هذا التفاوت بين البشر؛ ليُبتلى العباد بها؛ فإن هم أقاموها وعملوا بمقتضاها استقامت حياتهم، واستقرت أحوالهم، وأرغد عيشهم، مع ما ينالونه من الأجر على إيمانهم، واستقامتهم على أمر الله تعالى، وإن هم عارضوها؛ لأجل حظوظ أنفسهم؛ تكدّرت حياتهم، واضطربت أحوالهم، ونزعت بركة أموالهم، وأرزاقهم فلا تكفيهم مهما كانت كثرتها.

ومن سنة الله تعالى الشرعية في الأموال؛ أن أراد – سبحانه – أن تصل إلى كل البشر، ولا يستولي عليها فئة من الناس دون غيرهم، فيستأثرون بها عنهم، ويديروها بينهم، ويحرمون منها غيرهم، قال تعالى﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾[الحشر:٧].

أي: كيلا يكون الفيء دُولة بين الأغنياء دون الفقراء، والدُّولة اسم للشيء يتداوله القوم بينهم يكون لهذا مرة ولهذا مرة[١]،والمعنى:أنه يغلب الأغنياءُ الفقراءَ عليه؛ فيقسمونه بينهم.

ولأن سنة الله تعالى الشرعية التي أمرنا بها؛ قاضية بأنْ لا يكون المال دُولة بين الأغنياء دون غيرهم، فإن الله تعالى شرع ضوابط وقيوداً على البيوع والتجارات والشركات، وتبادل الأموال، بأي طريق كان؛ لئلا تُطلق فيه أيدي الأغنياء والواجدين؛ فيسحقوا الفقراء والمعدمين، فمنعت الشريعة الربا والقمار، والغش والاحتكار، والنجش وتلقي الركبان، وفرضت شروطاً للبيع تمنع الغرر، وترفع الضرر، وتدور بها السلع والأموال في الأسواق بالعدل والرضا.

وقد ذكر الكتاب العزيز جملة من المعاملات الفاسدة، والتي كانت سائدة بين الناس، فنهى عنها، وحذر منها؛ لمخالفتها القواعد الشرعية، والمصالح المرعية.

فأعظم المعاملات الفاسدة الربا:

وهو شرعاً: عقد على عِوض مخصوص، غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد، أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما، وقيل: هو تفاضلٌ في أشياء ونسأٌ في أشياء؛ مختصٌ بأشياء ورَدَ الشرع بتحريمها.[٢]

والمشهور أنه على نوعين:

الأول: ربا الفضل؛ وهو البيع مع زيادة أحد العوضين المُتفقي الجنس على الآخر، كبيع صاع بُرٍّ بأقل من صاع برٍّ أو بأكثر، أو درهم فضة بأقل من درهم أو بأكثر، سواءٌ تقابض المتبايعان أم لا، وسواءٌ أجَّلا أم لا.

ودليله ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "الذهب بالذهب وزناً بوزن مثلاً بمثل، والفضة بالفضة وزناً بوزن مثلاً بمثل، فمن زاد أو استزاد فهو ربا"[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "التمر بالتمر،والحنطة بالحنطة،والشعير بالشعير،

---

(١) انظر: لسان العرب ٢٥٢/١١ مادة (دول).

(٢) انظر: كشاف القناع ٢٥١/٣،الإنصاف ٥٩/٨، شرح منتهى الإرادات ١٠/٥

(٣) أخرجه مسلم.كتاب المساقاة.باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً ح(١٥٨٨).

والملح بالملح، مثلاً بمثل، يداً بيد، فمن زاد أو استزاد؛ فقد أربى، إلا ما اختلفت ألوانه"[(١)]

والثاني: ربا النسيئة؛ وهو البيع للمطعومين أو للنقدين المتفقي الجنس، أو المختلفيه، لأجل، وإن استويا وتقابضا في المجلس.

ودليله حديث أبي سعيد الخدري ﵁ أن رسول الله ﷺ قال:"لا تبيعوا الذهب بالذهب، ولا تبيعوا الورق بالورق، إلا مثلاً بمثل،ولا تُشفّوا[(٢)]بعضه على بعض، ولا تبيعوا شيئاً غائباً منه بناجزٍ؛ إلا يداً بيد"[(٣)].

قال ابن القيم:"الربا نوعان:جلي وخفي، فالجلي حُرّم لما فيه من الضرر العظيم، والخفيّ حُرّم لأنه ذريعة إلى الجلي، فتحريم الأول قصداً ،وتحريم الثاني وسيلة.

فأما الجلي فربا النسيئة، وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، مثل أن يؤخر دينه ويزيده في المال، وكلما أخَّره؛ زاد في المال، حتى تصير المائة عنده آلافاً مؤلفة.

وأما ربا الفضل؛ فتحريمه من باب سد الذرائع، كما صرح به حديث أبي سعيد الخدري ﵁ عن النبي ﷺ "لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين،فإني أخاف عليكم الرما"[(٤)]والرما هو الربا، فمنعهم من ربا الفضل؛ لما يخافه عليهم من ربا النسيئة.

وذلك أنهم إذا باعوا درهماً بدرهمين- ولا يفعل هذا إلا للتفاوت الذي بين النوعين؛ إما في الجودة وإما في الثقل والخفة وغير ذلك - تدرجوا بالربح المعجَّل فيها إلى الربح المؤخر، وهو عين ربا النسيئة، وهذه ذريعة قريبة جداً، فمن حِكمة الشارع أن سدَّ عليهم هذه الذريعة، ومنعهم من بيع درهم بدرهمين، نقداً ونسيئة، فهذه حكمة معقولة مطابقة للعقول، وهي تسدّ عليهم باب المفسدة[(٥)].

وكل أنواع الربا حرام بنص الآيات والأحاديث والإجماع، قال ابن حجر الهيتمي[(٦)]:"عَدُّ

(١) أخرجه مسلم.كتاب المساقاة.باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً ح(١٥٨٨).

(٢) أي:"لا تُفضِّلوا، والشّف: النُّقصان أيضاً، فهو من الأضْدَاد. يقال: شَفَّ الدِّرهم يَشِفُّ؛ إذا زَادَ وإذا نَقَص". انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٨٧٨/١).

(٣) أخرجه مسلم.كتاب المساقاة. باب الربا.ح(١٥٨٤).

(٤) أخرجه مسلم.كتاب المساقاة. باب الربا ح(١٥٨٥)، وزيادة"فإني أخاف عليكم الرما"جاءت عند ابن أبي شيبة ٢٩٩/٥.

(٥) انظر: إعلام الموقعين١٥٤/١.

(٦) أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي، كان علّامة، وكان على مذهب الأشاعرة، مات بمكة ودفن بالمعلاة، سنة ٩٧٤هـ . انظر: شذرات الذهب لابن العماد ٤٣٥/٨، الأعلام ٢٣٤/١.

الربا كبيرة هو ما أطبقوا عليه اتباعاً لِما جاء في الأحاديث الصحيحة من تسميته كبيرة، بل هو من أكبر الكبائر"[١].

وفي صريح قوله ﷺ "اجتنبوا السبع الموبقات"..وذكر منها:" أكل الربا"[٢].

قال تعالى﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٧٥-٢٨٠].

"ففي هذه الآيات نَظَم القرآن أهمّ أصول حفظ المال، فأوجب فيه الزكاة، وحثّ على الصدقة ورغب فيها، ثم عَطف الكلام لإبطال وسيلة كانت من أسباب ابتزاز الأغنياء أموال المحتاجين إليهم، وهي المعاملة بالربا، الذي لقّبه النبي ﷺ بربَا الجاهليةِ، وهو أن يعطي المدين مالاً لدائنه زائداً على قدر الدَّين؛ لأجل الانتظار، فإذا حلّ الأجل ولم يدفع؛ زاد في الدَّين، يقولون: إمّا أن تَقْضيَ وإمّا أن تُربي، وقد كان ذلك شائعاً في الجاهلية، والظاهر أنّهم كانوا يأخذون الربا على المدين من وقت إسلافه، وكلّما طلبَ الإنظار أُعطى رباً آخر، وربّما تسامح بعضهم في ذلك".[٣]

وكان العباس بنُ عبد المطلب رضي الله عنه مشتهراً بالمراباة في الجاهلية، ولذا جاء في خطبة حجّة الوداع نقضه ﷺ لهذه المعاملة الفاسدة بقوله: "وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا؛ ربا عباس بن عبد المطلب،فإنه موضوع كله"[٤].

ولم ترد آية في الربا؛ إلا جاء قبلها أو بعدها ذِكر الصدقة أو الزكاة، وفي هذا إشارة لطيفة بأن الربح الحقيقي في الصدقة والزكاة، لا بالربا، كما يتوهم المرابون.

---

(١) الزواجر ٤٤٠/١.

(٢) سبق تخريجه ص ٥٦

(٣) التحرير والتنوير ٤٧٥/٢.

(٤) أخرجه مسلم.كتاب الحج.باب حجة النبي ﷺ.ح(١٢١٨).

وآية الروم كشفت المكنون ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾[الروم:٣٩].

وفي سورة البقرة ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾[البقرة:٢٧٦].

وهذا عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق، أن الإنفاق ينقص المال، وأن الربا يزيده، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتثال أمره، فالمتجرئ على الربا،يعاقبه الله بنقيض مقصوده، وهذا مشاهد بالتجربة.(١)

وقد ضرب – سبحانه – مثلاً قوياً يعنِّف فيه الذين يأكلون الربا، فبيَّن أنهم لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ؛ أي: الخبل والجنون، فهم كلما قاموا سقطوا على وجوههم وجنوبهم كما أن المصروع يحصل له ذلك.

وسرِّ ذلك؛ أنهم لما أخذوا هذا السحت بوجه المكر والخداع والمحاربة لله ورسوله وأكلوه في بطونهم، فزاد حتى أثقلها حتى عجزوا عن النهوض، فصاروا كلما أرادوا الإسراع مع الناس ونهضوا سقطوا على وجوههم وتخلفوا عنهم.

قال قتادة: تلك علامة أهل الربا يوم القيامة، بعِثوا بهم خبلٌ من الشيطان.(٢)

"وليس المقصود في هذه الآية الأكل، إلا أنّ الذين نزلت فيهم هذه الآيات – يوم نزلت – كانت طعمتهم ومأكلهم من الربا، فذكَّرهم بصفتهم، معظِّماً بذلك عليهم أمر الربا، ومقبِّحاً إليهم الحال التي هم عليها في مطاعمهم"(٣).

إنها صورة مرعبة، ما كان أي تهديد ليبلغ الحس ما تبلغه هذه الصورة – صورة الممسوس المصروع – وهي صورة معروفة للناس، فالنص يستحضرها لتؤدي دورها في التحذير، لتهزَّ مشاعر المرابين، فتخرجهم من مألوف عاداتهم السيئة، ومن حرصهم على ما يحققه لهم من الفائدة.

ولما كان خطاب الآيات ظاهر الدلالة في التحريم؛تذرّع بعضهم بشبهة فاسدة فقالوا ﴿إِنَّمَا

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ١١٦

(٢) انظر: جامع البيان ١٠٣/٣.

(٣) انظر: المصدر السابق ١٠٣/٣.

﴿ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾، فالكسب المادي هو المقصد في كلا الحالين بزعمهم، فردَّ الله تعالى عليهم موضحاً﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ أي: أحل الله الأرباح في التجارة والشراء والبيع، وحرّم الربا، فبيَّن – سبحانه – أن الزيادتين اللتين إحداهما من وجه البيع، والأخرى من وجه تأخير المال، والزيادة في الأجل؛ ليستا سواء، وذلك أن الله حرّم الزيادة التي هي بسبب تأخير المال وأحلَّ الأخرى[1].

ومِن ثَمَّ كانت الشبهة التي ركنوا إليها واهية لا تصلح، فالعمليات التجارية قابلة للربح والخسارة، والمهارة الشخصية،وبذل الجهد،والظروف الجارية في الحياة؛ تتحكم في الربح والخسارة، أما المعاملات الربوية؛ فهي محددة الربح في كل حال، وهذا هو الفارق الرئيس، ناهيك عن الابتزاز والاستغلال، وإيقاع الفقير تحت رحمة الغني؛ مما يزيده إرهاقاً ومديونية، وهذا مناط التحريم.

وبعد أن أبطل الله سبحانه وتعالى شُبهة المرابين الذين يحتالون لأخذ أموال الناس بالباطل، جاء الأمر بالتقوى للمؤمنين الذين يقفون عند أوامر الله ونواهيه.

ويأتي سياق الآيات في نهاية المطاف، مع الذين يصرون على أكل الربا، فلا هم تابوا إلى الله عز وجل، بعد ما جاءهم الموعظة، فأخذوا رؤوس أموالهم، وأعلنوا التوبة والإنابة إلى الله تعالى، ولا هم أيسروا المعسرين، فقال عز وجل لهم﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فأكَّد عليهم التحريم بأغلظ شيء وأشده، وفي ضمن هذا الوعيد أن المرابي محارب لله ورسوله، قد آذنه الله بحربه، ولم يجيء هذا الوعيد في كبيرة سوى الربا، وقطع الطريق، والسعي في الأرض بالفساد، لأن كل واحد منهما مفسد في الأرض،قاطع الطريق على الناس، هذا بقهره لهم وتسلطه عليهم، وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم؛ إلا بتحميلهم كربات أشد منها.

ثم قال سبحانه﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ يعني إن تركتم الربا،وتبتم إلى الله منه،وقد عاقدتم عليه؛ فإنما لكم رؤوس أموالكم لا تزدادون عليها فتظلمون الآخذ ولا تنقصون منها فيظلمكم من أخذها، فإن كان هذا القابض معسراً، فالواجب إنظاره إلى ميسرة، وإن تصدقتم عليه وابرأتموه؛ فهو أفضل لكم وخير لكم، فإن

(١) انظر: جامع البيان ٣/١٠٤.

أبت نفوسكم، وشحت بالعدل الواجب، أو الفضل المندوب، فذكِّروها يوماً ترجعون فيه إلى الله، وتلقون ربكم، فيوفيكم جزاء أعمالكم، أحوج ما أنتم إليه، فذكر سبحانه المحسن وهو المتصدق ثم عقبه بالظالم وهو المرابي.

وإنه لفساد عريض حين يرى المرء الاقتصاد العالمي المعاصر قائماً على الربا، لا يجعل المال ينتقل إلى المحتاج إلا في صورة ربوية آثمة، كما هو الحال في المؤسسات الدولية التي تجعل الناس يعيشون بلا ضمانات، ما لم يكن لهم رصيد من المال، أو يكونوا قد اشتركوا بجزء من مالهم في مؤسسات التأمين الربوي،حتى جعلت التجارة والصناعة لا تجد المال الذي تقوم به؛ ما لم تحصل عليه بقروض ربوية، يعجزون في أحيان كثيرة عن سدادها؛ فيقعون تحت وطأة القوانين السقيمة.

وبسبب الفساد الناتج عن المعاملات الربوية الفاسدة، انقسم الناس قديماً وحديثاً إلى فئات رأسمالية، وفئات اشتراكية، والإسلام من هؤلاء جميعاً براء.

فالإسلام ينكر اعتبار الغني - الرأسمالي[1]- هو المالك الحقيقي لماله وثروته، فهو ينكر هذه النظرة من أساسها، ويرى أن المال مال الله هو خالقه وواهبه، وأن الغني مستخلف فيه، وأمين عليه، وإن شئت فقل: هو نائب عن المالك الحقيقي في رعايته وتنميته وتصريفه، وِفقاً لأوامره ومرضاته،قال تعالى﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد:٧].وقال ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾[النور:٣٣].

وأما الفقراء الذين انتحلوا المذهب الاشتراكي[2]،والذين لا يرون حلاً للمشكلات الاقتصادية - الناتجة عن تضخم رأس المال - إلا بتحطيم طبقة الأغنياء، ومصادرة ما ملكوا، وتحريم مبدأ الملكيات، وتأليب الطبقات الفقيرة على الأغنياء، وتغذية الصراع الطبقي بوقود الحقد والعداوة، حتى تنتصر الطبقات الكادحة.

وهؤلاء أيضاً لم يستطيعوا أن يوجدوا حلولاً للمشكلات الاقتصادية، فالذي فعلته؛أنها أنزلت

---

(١) الرأسمالية: نظام اقتصادي يستند إلى هيمنة الأفراد والقطاع الخاص، على مِلكية وسائل الإنتاج للربح. انظر: الموسوعة العربية العالمية ٨٩/٧ والأساليب الحديثة لسعد الدين السيد صالح ص١٧

(٢) الاشتراكية: مذهب اقتصادي يقضي باحتكار الدولة لوسائل الإنتاج، كملك عام للشعب.انظر: الموسوعة العربية العالمية ٤٥/٢

الأغنياء و لم ترفع الفقراء[١].

وبعد انهيار المذهب الاشتراكي، أصبحت الرأسمالية،هي المسيطرة على النظام الاقتصادي في كثير من دول العالم، مما فتح باب المعاملات الربوية على مصراعيه.

ومن المعاملات الفاسدة:

الرشوة: وهي ما يعطى لإبطال حق وإحقاق باطل[٢].

قال تعالى ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وتنوعت أقوال المفسرين في معنى الآية، فمنهم من حملها على أكل مال الغير وجحد ذلك، حتى يحصل بينهم التخاصم إلى الحاكم.[٣]

ومنهم[٤]من ذكر جملة من المنهيات في باب المعاملات، كالرشوة. وتخصيص هذه الصورة بالنهي؛ إظهار لشناعتها، ولأنها جامعة لمحرمات كثيرة، فدلالتها على أن معطي الرشوة آثم مع أنه لم يأكل مالاً بل آكَلَ غيره، وأدلى بها إلى الحكام ليقضوا له بمال غيره، ولو قضى له الحاكم فإنه لا يغير صفة أكل المال بالباطل، ويؤكد تحريم الجور في الحكم ولو بدون إرشاء، لأن في الرشوة تغير الحق وقطع السبيل.

وهذا من أهم الأشياء التي تصدى لها الإسلام، لينقض بنيان الجاهلية الذي أسس على الظلم والعدوان.

وقد رتَّب الله تعالى على الرشوة اللعن للمعطي والآخذ، كما في حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما "لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي"[٥]، ذلك لأنهم تجرّؤا على حقوق غيرهم، والله تعالى قد أعطى كل ذي حق حقه، فالرشوة إنما تُعطى في الحقيقة لآخِذ حق ليس لمُدَّعيه، فعظُم الأمر فيها، حتى كان مآله الطرد من رحمة الله تعالى.

---

(١) انظر: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، د.يوسف القرضاوي. ص١١.

(٢) التعريفات ص١١٦.

(٣) انظر: جامع البيان ١٩٠/٢، تفسير القران العظيم ٥٢٥/١.

(٤) انظر: جامع البيان ٢١٠/١، الجامع لأحكام القرآن ٣٣٥/٢ ، ابن عاشور ١٩٠/٢.

(٥) أخرجه الترمذي .كتاب الأحكام. باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم.ح(١٣٣٧)،وأحمد ٣٨٧/٢، والحاكم في المستدرك ١٠٣/٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٩٣).

"قال العلماء: فالراشي هو الذي يعطي الرشوة، والمرتشي هو الذي يأخذ الرشوة،وإنما تلحق اللعنة الراشي إذا قصد بها أذية مسلم؛ أو ينال بها ما لا يستحق، أما إذا أعطى ليتوصل إلى حق له، ويدفع عن نفسه ظلماً؛ فإنه غير داخل في اللعنة، وأما الحاكم فالرشوة عليه حرام أبطل بها حقاً، أو دفع بها ظلماً"(١).

ولا ريب أن لهذه المعاملة الرذيلة جملة من المفاسد والأضرار،فهي مفسدة للمجتمع حُكاماً ومحكومين، فلا يلبث من له نَهَم في الارتشاء سلب أموال الناس، لأنه لن يفعل شيئاً حتى يحصل على ما اعتاده من صاحب المصلحة، والراشي كذلك يكون قدَّم مصلحته، وعطّل مصلحة غيره، وحينئذ تضيّع حقوق الضعفاء، ويُرفع شأن السفهاء، ويُنحى الأكفاء.

وبها تضعف روابط المجتمع، فهي توغر الصدور، وتؤجج نار الحقد والكراهية، بسبب ضياع الحقوق،ناهيك عن تعطّل المصالح وإلحاق الضرر بالناس الذين لا يجدون إلا جهدهم، ولضيق ذات اليد يحرمون حقوقهم.

ومن المعاملات الفاسدة:

التطفيف في الميزان:"وهو تقليل نصيب المكيل له في إيفائه واستيفائه.

ويستنبط مما جاء به القرآن الكريم؛ أن التطفيف هو الاستيفاء من الناس عند الكيل أو الوزن، والإنقاص والإخسار عند الكيل أو الوزن لهم، ويلحق بالوزن والكيل ما أشبههما من المقاييس والمعايير التي يتعامل بها الناس".(٢)

قال تعالى﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:١-٦].

والتقديم في افتتاحية هذه السورة بـــ"الويل" للمطففين، فيه النعي على قوم آثروا الحياة الزائلة على الحياة الباقية، وتهالكوا في الحرص على استيفاء أسبابها حتى اتّسموا بأخس السّمات وهي التطفيف، وهو مشعِر بشدة خطر هذا العمل، لأنه مقياس اقتصاد العالم، وميزان التعامل، فإذا اختلّ؛ أحدث خللاً في اقتصاده، وبالتالي اختلالاً في التعامل، وهو فساد كبير.

وفي الإشارة إليهم بقوله﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وقد ذكرهم عمّا قريب؛ تبعيد لهم عن مرتبة

---

(١) الكبائر للذهبي. ص ١٦٤.

(٢) انظر: المفردات للراغب، ص ٣١٤،٣٨.

الاعتبار، وفي هذا الإنكار ووصف اليوم بالعِظم، وقيام الناس فيه لرب العالمين؛ بيانٌ بليغ لعِظم هذا الذنب[١].

وهذه الآية تحذير للمسلمين من التساهل في التطفيف، إذ كان وجوده متفشياً في المدينة أول هجرتهم، وفيه ذمّ للمشركين من أهل المدينة وأهل مكة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله سبحانه وتعالى﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾فأحسنوا الكيل بعد ذلك.[٢]

وحسبهم أن التطفيف يجمع ظلماً واختلاساً ولؤماً، والعرب كانوا يتعيرون بكل واحد من هذه الخِلال متفرّقة ويتبرؤون منها، فكيف يأتونها مجتمعة، وناهيك بذلك أفناً.

ولذا فقد ورد ذكر الكيل والوزن، والحث على العناية بهما في عدة مواطن، بعدة أساليب منها الخاص ومنها العام.

قال تعالى ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[الإسراء:٣٥]."وهذا أمر بالعدل، وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط، من غير بخس ولا نقص.

ومن ثمّ فإن الأمر بإيفاء الكيل والوزن؛ طلب للإنصاف والانتصاف، ومن لم يرض لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه فـليس بمنصِف.

ويؤخذ من عموم المعنى، النهي عن كل غش في ثمن أو مثمن أو معقود عليه، والأمر بالنصح والصدق في المعاملة.

وقوله﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات وبه تنزل البركة"[٣].

وإذا ظنَّ أصحاب هذا الفعل أن ذلك ينفعهم شيئاً في تثمير المال، فقد محقوا بركة أموالهم، بل لا يزال فسادهم ذلك يزداد؛ حتى تنزل بهم العقوبة، مجازاةً لهم على سوء فعلهم، ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال ﷺ "يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهنّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنّ"...وفيه "ولم ينقصوا الكيل والميزان إلا أخذوا بالسنين..."الحديث.[٤]

---

(١) انظر: تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري٦/٤٦٢ ، أضواء البيان ٩/٩١.

(٢) أخرجه ابن ماجه.كتاب التجارات.باب:التوقي في الكيل والوزن.ح(٢٢٢٣)، وابن جرير١٢/٤٨٣. وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/١٥٧.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٥٢٦.

(٤) سبق تخريجه ص (٩٠)

وقد وردت قصة مدين في مواضع متعددة من القرآن العظيم، وذكرت أن أصحاب مدين من أسوأ الناس معاملة، فكانوا يبخسون المكيال والميزان، ويأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص، فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فقال لهم﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾[هود:٨٤].

فوعظهم بلسان المشفق عليهم مما هم فيه من إنقاص الوزن والمكيال، وأنه يخشى عليهم سوء العاقبة في الآخرة، فنصحهم بقوله﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾[هود:٨٥].

فأمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم، وكانوا قوماً جبارين، يجلسون على الطريق، ويأخذون العشور على المارّة، فحذّرهم من ذلك، وذكّرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلة، وحذرهم نقمة الله إن هم خالفوا ما أرشدهم إليه ودلّهم عليه، وقال لهم ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ [هود: ٨٦]. أي:رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف والبخس.

وبعد هذا الوعيد يتبين أن هذه المعاملة الفاسدة من كبائر الذنوب، وهو ما صرّح به أهل العلم، وتسمية هذا العمل اللئيم تطفيفاً؛ قرينة بأن صاحبه لا يكاد يأخذ إلا الشيء الطفيف، وهو يشعر بأن هذا العمل؛ ضرب من الاختلاس والسرقة، مع ما ينبئ من عدم المروءة، وهو دليل على شح النفس، وتعلق القلب بالكسب الخبيث.

ومن المعاملات الفاسدة:

القمار والميسر: وهو كل لعب على مال يأخذه الغالب من المغلوب كائناً ما كان، إلا ما استثني في باب السبق(١).

وقيل: هو كل لعب يَشترِط فيه الغالب من المتغالبين أخذ شيء من الملعوب معه (٢).

---

(١) وهي: مُسابقة الخيل والإبل وَالسِّهام، وقد ذكر الشيخ السعدي:"أن شيخ الإسلام اختار أنه يلحق بهذه الثلاثة ما كان في معناها، مما يقوي على طاعة الله والجهاد في سبيله والمراهنة في المسائل العلمية؛ لأن الحكمة المبيحة لأخذ العوض في الثلاثة السابقة موجودة فيما كان في معناها، وهو الراجح دليلاً"أ.هـ.

انظر: إرشاد أولي البصائر والألباب للسعدي ص ٢٢٢، ومجموع الفتاوى٦١/٣١.

(٢) التعريفات. ص ١٨٧.

والفرق بينه وبين البيع، أن القمار لا بدل فيه، لأن المقامِر إما أن يربح وإما أن يخسر، أما البائع فإنه يبذل السلعة مقابل الثمن.

وثبت تحريم ذلك بنص القرآن الكريم، قال عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة: ٩٠].

ومع أن لفظ القمار لم يرد صريحاً ، إلا أنه داخل في الميسر،"وأصل هذا أن الله سبحانه إنما حرّم علينا المحرمات من الأعيان؛كالدم والميتة ولحم الخنزير، أو من التصرفات؛كالميسر والربا، وما يدخل فيهما من بيوع الغرر وغيره، لما في ذلك من المفاسد التي نبّه الله عليها ورسولهﷺ، بقوله سبحانه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

فأخبر سبحانه أن الميسر يوقع العداوة والبغضاء، سواء كان ميسراً بالمال أو باللعب، فإن المغالبة بلا فائدة، وأخذ المال بلا حق؛ يوقع في النفوس ذلك"[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الميسر القمار، كان الرجل في الجاهلية يخاطر – أي:يراهن– على أهله وماله، فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله.[٢]فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والميسر: مفعِل، من قولهم يسر لي الشيء إذا وجب، ثم قيل للقمار ميسر، وكان أصل الميسر في الجزور، وذلك أن أهل الثروة من العرب كانوا يشترون جزوراً، فينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء، ثم يسهمون عليها بعشرة قداح يقال لها الأزلام والأقلام، لسبعة منها أنصباء، وثلاثة منها لا أنصباء لها، ثم يجعلون القداح في خريطة تسمى الربابة، ويضعونها على يدي رجل عدل عندهم، ثم يجيلها ويخرج قدحاً منها باسم رجل منهم، فأيهم خرج سهمه أخذ نصيبه على قدر ما يخرج، فإن خرج له واحد من الثلاثة التي لا أنصباء لها كان لا يأخذ شيئاً ويغرم ثمن الجزور كله.

وقال بعضهم: كان لا يأخذ شيئاً ولا يغرم، ويكون ذلك القدح لغواً، ثم يدفعون ذلك الجزور إلى الفقراء،ولا يأكلون منه شيئاً، وكانوا يفتخرون بذلك،ويذمّون من لم يفعله، وهو أصل القمار الذي كانت تفعله العرب، والمراد من الآية أنواع القمار كلها.

---

(١) مجموع الفتاوى ٤٦/٢٩.

(٢) جامع البيان ٣٧١/٢.

وروي عن علي رضي الله عنه في النرد والشطرنج : أنهما من الميسر[١].

وأما في زماننا هذا، فقد أخذ الميسر انتشاراً واسعاً، حتى صار له رواج في أوساط مجتمعات المسلمين، وقد بوأه تلك المكانة؛ ذلك الزخم الدعائي،حتى سُمِّيَ الميسر بغير اسمه، دليل ذلك؛ حال كثير من البنوك والشركات، التي تقدم عروضاً مغرية للناس، بما يسمونه التيسير، وهم في الحقيقة؛ يأكلون أموال الناس بالباطل، فمن صور الميسر المعاصرة:

ما يعرف باليانصيب، وله صور كثيرة من أبسطها شراء أرقام بمال، يجري السحب عليها، فالفائز الأول يعطى جائزة، والثاني كذلك، وهكذا في جوائز متعددة قد تتفاوت،فهذا حرام، وإن كان بزعمهم خيرياً.

ومن صورِه: أن يشتري سلعة بداخلها شيء مجهول أو يعطى رقماً عند شرائه للسلعة، يجري عليها السحب لتحديد الفائزين بالجوائز.

ومن صور الميسر في عصرنا عقود التأمين التجاري على الحياة والمركبات والبضائع وضد الحريق والتأمين الشامل وضد الغير، إلى غير ذلك من الصور المختلفة.

إن مفسدة هذا النوع من المعاملات؛ تَظهر في أن الحظّ والمصادفة؛ هو العنصر الأساس في كسب المال، فيؤتى المالَ أناسٌ دون بذل أي جهد، وتلك هي المنفعة التي ألمحت إليها آية البقرة ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[البقرة:٢١٩]، غير إن الآية الكريمة،أكدت أن المفسدة المترتبة على ذلك أشد وأعظم ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ فهي تورِث العداوة والبغضاء بين الناس.

إنّ مفسدة الميسر عظيمة؛ لأنه اشتمل على مفسدتين :مفسدة أكل المال بالحرام، ومفسدة اللّهو المحرّم، إذ يصد عن ذكر اللّه وعن الصّلاة، ويوقع العداوة والبغضاء، ولهذا حُرّم الميسر قبل تحريم الرّبا[٢].

قال ابن حجر المكّي: سبب النّهي عن الميسر وتعظيم أمره؛ أنّه من أكل أموال النّاس بالباطل الذي نهى اللّه تعالى عنه بقوله﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[النساء:٢٩].[٣]

ومن المفاسد المترتبة عليها؛ إشغال المسلم عن واجباته الشرعية، ومسئولياته في الحياة، ودفعه

---

(١) انظر: الجامع لاحكام القرآن ٣/٥٣،والدر المنثور ٣/٤٦٢.

(١) انظر:مجموع الفتاوى ٣٢/ ٢٣٧.

(٢) الزواجر ٢ / ١٩٨.

إلى المجون والفساد والترف، كما هو حاصل في صالات القمار والميسر في هذه الأيام.

ومن المعاملات الفاسدة:

الحيل: وحقيقتها؛كما قال الشاطبي:"تقديم عمل ظاهر الجواز؛لإبطال حكم شرعي، وتحويله في الظاهر إلى حكم آخر"(١).

وقال أيضاً:"إذا تسبب المكلّف في إسقاط الوجوب عن نفسه، أو في إباحة ذلك المحرّم عليه، بوجه من وجوه التسبب، حتى يصير ذلك الواجب غير واجب في الظاهر، أو المحرَّم حلالاً في الظاهر أيضاً، فهذا التسبب يسمى حيلة وتحيلاً"(٢).

وعبّر عنها ابن القيم بأنها "الطرق الخفيّة التي توصل إلى حصول الغرض، بحيث لا يتفطنّ له إلا بنوع من الذكاء والفطنة" (٣).

ويحسن التنبيه هنا إلى أن الحيل على نوعين:

نوع يُتوصل به إلى فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، والتخلّص من الحرام وتخليص الحق من الظالم المانع له، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغي، فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلِّمه.

ونوع يتضمن إسقاط الواجبات،وتحليل المحرمات، وقلب المظلوم ظالماً،والظالم مظلوماً، والحق باطلاً،والباطل حقاً، فهذا النوع الذي اتفق السلف على ذمّه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض(٤).

قال ابن تيمية:"ولقد تأملت أغلب ما أوقع الناس في الحيل،فوجدته أحد شيئين؛ إما ذنوباً جوزوا عليها بتضييقٍ في أمورهم، فلم يستطيعوا دفع هذا الضيق إلا بالحيل، فلم تزدهم الحيل إلا بلاءً، كما جرى لأصحاب السبت من اليهود، كما قال تعالى ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[النساء:١٦٠]،وهذا الذنب ذنب عملي.

وإما مبالغة في التشديد لما اعتقدوه من تحريم الشارع؛ فاضطرهم هذا الاعتقاد إلى الاستحلال

(١) الموافقات ٤/٢٠١.

(٢) المصدر السابق ٢/٣٧٩.

(٣) إعلام الموقعين ٣/٢٤٠.

(٤) انظر: إغاثة اللهفان ١/٣٧٠.

بالحيل، وهذا من خطأ الاجتهاد، وإلا فمن اتقى الله، وأخذ ما أُحل له، وأدى ما وجب عليه؛ فإن الله لا يحوجه إلى الحيل المبتدعة أبداً،فإنه سبحانه لم يجعل علينا في الدين من حرج، وإنما بعث نبينا ﷺ بالحنيفية السمحة، فالسبب الأول هو الظلم، والسبب الثاني هو عدم العلم، والظلم والجهل هما وصف للإنسان المذكور في قوله تعالى ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢]"(١).

ودلائل تحريم الحيل من الكتاب و السنة والإجماع كثيرة؛ ومن أصرحها ذم الله – عز وجل – أصحاب السبت، لأنهم تحايلوا وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم، من تعظيم السبت، والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوا لها من الحبائل والبِرَك، قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة؛ نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت.

وانقسموا حيال تلك الحيلة إلى ثلاث فرق: معظمهم اعتدوا وتجرؤوا وأعلنوا ذلك، وفرقة أعلنت النهي عن ذلك وأنكرت عليهم فعلهم، وفرقة سكتت على هذا المنكر.

فلما أصر المعتدون على فعلتهم؛ مسخهم الله في صورة قردة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن؛ كان جزاؤهم من جنس عملهم، وهذه القصة مبسوطة في سورة الأعراف حيث يقول تعالى﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾[الأعراف:١٦٣-١٦٦].

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال:"إن الله حرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام، فقيل: يا رسول الله: أرأيت شحوم الميتة، فإنه يُطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود،ويستصبح بها الناس؟ فقال: لا، هو حرام، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: قاتل الله اليهود، إن الله لما حرّم

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٩/٤٦.

شحومها، جَمَلوه – أي:أذابوه – ثم باعوه، فأكلوا ثمنه"[١].

فمِن احتيالهم؛ أن الله تعالى لما حرّم عليهم شحوم الميتة، تأولوا أن المراد عين أكلها، وأن الشحم المحرّم هو الجامد دون المُذاب، فجملوه فباعوه وأكلوا ثمنه، وقالوا: ما أكلنا الشحم.! ولم ينظروا في أن الله تعالى إذا حرّم الانتفاع بشيء؛ فلا فرق بين الانتفاع بعينه أو ببدله، إذ البدل يسدّ مسدّه، فلا فرق بين حالِ جامِده وودِكه[٢]، فلو كان ثمنه حلالاً لم يكن لتحريمه وجه.[٣]

وشبهة اليهود تلك، هي عين شبهة أرباب الشهوات من هذه الأمة، كما أخبر بذلك النبي ﷺ حين قال" لشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها"[٤].

وإنما أتي هؤلاء من حيث استحلوا المحرمات بما ظنوه من انتفاء الاسم، ولم يلتفتوا إلى وجود المعنى المحرم ثبوته، وبذلك استحلوا المحرمات،بالتأويلات الفاسدة،أما لو استحلوها مع اعتقاد أن الرسول ﷺ حرمها؛ كانوا كفاراً، ولم يكونوا من أمته، فإن المستحل للشيء هو الذي يفعله معتقداً حلّه، فيشبه أن يكون استحلالهم للخمر، يعني يسمونها بغير اسمها، كما جاء في الحديث، فيشربون الأنبذة المحرمة، ولا يسمونها خمراً، ويقولون: لا فرق بين حال وحال، وهذه التأويلات لا تغني عن أصحابها من الله شيئاً بعد أن بلغ الرسول ﷺ وبيّن تحريم هذه الأشياء بياناً قاطعاً للعذر مقيماً للحجة.

وكذلك المفسدة العظيمة التي اشتمل عليها الربا،لا تزول بتغيير اسمه من الربا إلى المعاملة، ولا بتغيير صورته من صورة إلى صورة، والحقيقة معلومة متفق عليها بينهما قبل العقد، يعلمها من قلوبهما عالم السرائر، فقد اتفقا على حقيقة الربا الصريح قبل العقد، ثم غيرا اسمه إلى المعاملة، وصورته إلى التبايع الذي لا قصد لهما فيه البتة، وإنما هو حيلة ومكر ومخادعة.

---

(١) أخرجه البخاري.كتاب البيوع.باب بيع الميتة والأصنام.ح(٤٢٩٦)، ومسلم.كتاب المساقاة.باب تحريم بيع الخمر والميتة.ح(١٥٨١).

(٢) الوَدَكُ: الدسم المعروف، وقيل دَسَمُ اللحمِ ودُهنه الذي يستخرج منه، ووَدَّكْتُه تَوْدِيكاً إذا جعلته في شيء هو والشحم أو حِلابةُ السَّمْنِ. انظر: لسان العرب ١٠/ ٥٠٩، تهذيب اللغة ٣/ ٣٩٩.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان ٣٨٠/١.

(٤) أخرجه أبو داود.كتاب الأشربة.باب في الداذي.ح(٣٦٨٨)،وابن ماجه.كتاب الفتن.باب العقوبات.ح(٤٠٢٠)، وصححه الألباني في الصحيحة(٩٠).

ومن المعلوم أن الربا لم يحرَّم لمجرد صورته ولفظه، وإنما حرم لحقيقته ومعناه ومقصوده، وتلك الحقيقة والمعنى والمقصود، قائمة في الحيل الربوية، كقيامها في صريحه سواء.

وفعل ذلك مشابه لليهود حين حُرِّم عليهم الربا فحتالوا لأخذه بأنواع الحيل،قال تعالى﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [النساء:١٦١].

ومن أخطر أنواع الحيل التي تجمع جرائم عدّة؛ الحيل في النكاح والتي بها تستحل الفروج، ومن أظهرها حيلة المحلِّل، التي لعن رسول الله ﷺ فاعلها، وشبّهه بالتيس المستعار، وعظُم بسببه العار، وعيَّر الكفارُ بها أهل الإسلام، وحصل بسببه من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، ولو كان نكاحاً صحيحاً؛ لما قال فيه رسول الله ﷺ "لعن الله المحلل والمحلل له"[(١)].

قال ابن القيم:"وأنت إذا تأملت الحيل المتضمنة لتحليل ما حرم الله سبحانه وتعالى، وإسقاط ما أوجب، وحل ما عقد،وجدت الأمر فيها كذلك،ووجدت المفسدة الناشئة منها؛أعظم من المفسدة الناشئة من المحرمات الباقية على صورها وأسمائها،والوجدان شاهد بذلك فالله سبحانه إنما حرم هذه المحرمات وغيرها، لما اشتملت عليه من المفاسد المضرة بالدنيا والدين، ولم يحرمها لأجل أسمائها وصورها، ومعلوم أن تلك المفاسد تابعة لحقائقها، لا تزول بتبدل أسمائها، وتغير صورها، ولو زالت تلك المفاسد بتغير الصورة والأسماء؛ لما لعن الله سبحانه فاعلها، فتغيير صور المحرمات وأسمائها، مع بقاء مقاصدها وحقائقها؛ زيادة في المفسدة التي حرمت لأجلها، مع تضمنها مخادعة الله تعالى ورسوله، ونسبة المكر والخداع والغش والنفاق إلى شرعه ودينه، وأنه يحرم الشيء لمفسدة، ويبيحه لأعظم منها.

ولهذا قال أيوب السختياني[(٢)]: يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان، لو أتوا الأمر على وجهه كان أهون[(٣)].

ومن تأمل تحريم الحيل وسدّ الطرق المؤدية إليها؛ أدرك تمام حكمة الشريعة الكاملة المنتظمة

---

(١)أخرجه الترمذي.كتاب النكاح.باب ما جاء في المحلل والمحلل له.ح(١١٢٠)، والنسائي.كتاب الطلاق.باب إحلال المطلقة ثلاثاً وما فيه من التغليظ.ح(٣٤١٦)،وصححه الألباني في الإرواء (١٨٩٧).

(٢) أيوب بن أبي تميمة السختياني: أبو بكر البصري، ثقة ثبت حجة من كبار الفقهاء العباد، قال الحسن: هذا سيد شباب أهل البصرة، قال شعبة: كان أيوب سيد العلماء ، مات سنة ١٣١هـ .

انظر: سير أعلام النبلاء ١٥/٦، تذكرة الحفاظ ١٣٠/١.

(٣) إغاثة اللهفان ١٥٣/١.

لمصالح العباد، فإنَّ ما حرمه الله تعالى ورسوله ﷺ؛ إنما هو حمية لحفظ صحة القلب وقوة الإيمان، كما أن ما يمنع منه الطبيب مما يضر المريض حمية له، فإذا احتال المريض أو الطبيب على تناول ذلك المؤذي،بتغيير صورته مع بقاء حقيقته وطبعه، أو تغيير اسمه مع بقاء مسماه؛ ازداد المريض بتناوله مرضاً إلى مرضه، وترامى به إلى الهلاك، ولم ينفعه تغير صورته ولا تبدل اسمه.

ثانياً: فساد العادات:

إن مما تجدر الإشارة إليه؛ أن الإنسان في غمرة حياته ومشكلاته، قد يعتاد شيئاً رتيباً، ربما يكون صواباً، وربما يكون خطأً، وحين يفكّر بعد برهة من الزمن، لا يدري لماذا اعتاد هذا الشيء؟..أو لماذا لم يمحص فيه، أصواب هو أم خطأ؟

وما يلبث الأمر ويتقادم العهد وتدور الأيام دورها، حتى يظن الأبناء أن عادات الآباء عبادات، فيتخذوها طاعات، ويستمسكوا بها، حتى إن طباعهم تألف رديئها، ولا تنزجر عن قبيحها، حتى صار فئام من الناس لمسيس تعلقهم بها؛ يردّون الحق الذي يأتيهم.

قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[المائدة:١٠٤]، وإذا كان شرع الله مغيباً، وأمره مضيعاً، فلا تسأل حينئذ عن تبدّل السنن الشرعية، والآداب المرعية.

وهذا النوع؛ يجلّي صوراً من الفساد الاجتماعي، حيث ذكر القرآن جملة من العادات الفاسدة التي كانت سائدة عند العرب زمن الجاهلية، وربما عاودت ظهورها في بلد دون آخر أو في زمان دون غيره.

فمن تلك العادات الفاسدة:امتهان المرأة وازدراؤها:

فقد كان الجاهليون يحطون من قدر المرأة، ويضعونها موضع الإهانة، تجلّى ذلك في صور وعادات؛ أظهرت فساد عقولهم، وانتكاس فطرهم.

فمن امتهانهم للمرأة، التشاؤم بميلادها، قال سبحانه﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:٥٨-٥٩].

أنه نقصان العقل، حين لا يرضى الإنسان بما قسم الله له، إذ الأولاد هبة من الله تعالى، أوليس هو القائل سبحانه﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾[الشورى:٤٩].

فكان الرجل منهم إذا ولِدت له جارية، إما أن يمسكها على هون، وهو ينتظر العار الذي ستلحقه به هذه المولودة الصغيرة، عندما تكبر، أو يكون قلبه كالحجارة، أو أشدّ قسوة، فيدس هذه المولودة الصغيرة في التراب، على شيء لم تفعله، وليس لها

اختيار فيه.

وهذا برهان ظاهر لانحرافهم عن الصراط المستقيم، ولو لم يقتلها؛ أبقى عليها في الذل والهوان، في معاملة سيئة، ونظرة وضيعة، فكانوا ينظرون إليها على أنها عالة عليهم، فهي لا تستطيع أن تحارب، ولا تكسب، وقد تقع في السبي فتجلب لهم العار.

ولو نظر المسلم بعين الحق إلى المجتمع الغربي، لرأى أن هذه الجاهلية مازالت موجودة إلى هذا الزمان، الذي يدندنون فيه بحقوق المرأة، وأنها مظلومة في بلاد الإسلام، وأن المسلمين توارثوا من آبائهم ازدراء المرأة، فانظر إليهم تجد كيف يعاملون المرأة معاملة بهيمية، تقوم على أساس الجنس والمادة، في مخالفة صريحة لأساس الدين والفطرة، فصاروا يتاجرون بالمرأة في أفلام العُري والإثارة، فأصبحت المرأة عندهم بضاعة رخيصة، لا تساوي شيئاً، لأنهم فقدوا إحساسهم بها، إلا في موضع الشهوة فقط.

ومن صور امتهان المرأة: هضم حقها في الميراث وحرمانها منه، فقد كان أهل الجاهلية يقسمون الميراث للذكور دون الإناث، فأنزل الله تعالى قوله ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[النساء:١١]،فأمرهم الله بالعدل فيهم، وذلك بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وإن تفاوت نصيب الصنفين، فجعل للذكر مثل ما حظ الأنثيين، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة، ومعاناة التجارة والتكسب، وتجشم المشقة، فناسب أن يعطى ضعف ما تأخذه الأنثى.

وكانت النظرة الفاسدة لأهل الجاهلية في عدم إعطاء المرأة حقها في الميراث، لأنها لا تقر على الكسب، ولا تستطيع أن تدفع العدو، وغير مطالبة بالنفقة، ثم هي تأخذ نصيبها من مال أبيها،وتعطيه رجلاً آخر، وعلى هذا كانوا لا يرون أن تعطى من مال أبيها شيئاً، إلى أن جاء الإسلام؛ فأثبت نصيبها،وأعطاها حقها وافياً مستوفياً.

ولقد كان الناس قبل الإسلام في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء، منعوا المرأة من الميراث بغياً وعدواً، وازدادوا فساداً وعتواً؛ حين جعلوها ميراثاً في حدِّ ذاتها.

"فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء:١٩]، قال:كان الرجل إذا مات أبوه أو حميمه، فهو أحق بامرأته، إن شاء أمسكها، أو

يحبسها حتى تفتدي منه بصداقها، أو تموت؛ فيذهب بمالها.

وقال عطاء بن أبي رباح: إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل، فترك امرأة؛ حبسها أهلهُ على الصبيِّ يكون فيهم، فنزلت الآية.

قال مجاهد: كان الرجل إذا توفي أبوه، كان أحق بامرأته، ينكحها إن شاء، إذا لم يكن ابنها، أو يُنكحها إن شاء أخاه، أو ابن أخيه"[(١)].

وهكذا كانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة غبن وحيف، تؤكل حقوقها، وتبتز أموالها، وتحرم من إرثها، وتعضل بعد الطلاق، أو وفاة الزوج، من أن تنكح زوجاً ترضاه، وتورث كما يورث المتاع أو الدابة، فيتمتع الرجل بحقوقه، ولا تتمتع هي بحقوقها، يؤخذ مما تؤتى من مهر، وتمسك ضراراً للاعتداء، وتلاقي من بعلها نشوزاً أو إعراضاً، وتترك في بعض الأحيان كالمعلقة.

ومن العادات الفاسدة شرب الخمر:

قال سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة:٩٠-٩١] فوصف – جلَّ ذِكره – هذه المنهيات بأنها رجس: أي إثم وشر[(٢)].

وقد تدرّج الشارع الحكيم في تحريم الخمر، وما ذاك؛ إلا لأن المسلمين اعتادوها زمن الجاهلية، وكانوا يتاجرون فيها وينمون بها أموالهم، ويعيشون في رجس بسبب مكاسبها الكبيرة.

فأخبرهم الله تعالى أنهم يتخذون منها سكراً ورزقاً حسناً، فقال سبحانه﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾[النحل:٦٧]،فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال، ثم إن عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وآخرين رضي الله عنهم، قالوا يارسول الله:أفتنا في الخمر، فإنها مذهبة للعقل، مسلبة للمال، فنزل قوله تعالى﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[البقرة:٢١٩]، فتركها قوم لقوله﴿إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ وشربها قوم لقوله﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، إلى أن صنع عبد الرحمن

---

(١) جامع البيان ٣/٦٤٧.

(٢) انظر: جامع البيان ٥/٣٣.

بن عوف ﵁ طعاماً فدعا ناساً من الصحابة،وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا، وحضرت صلاة المغرب، فتقدم بعضهم ليصلي بهم فقرأ "قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون" هكذا إلى آخر السورة، بحذف (لا) فأنزل الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[النساء:٤٣]،فحرّم السُكر في أوقات الصلاة، ولما نزلت هذه الآية حرّمها قوم، وقالوا لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة، وتركها قوم في أوقات الصلاة فقط، واتخذ عتبان بن مالك[١]صنيعاً، ودعا إليه رجالاً من المسلمين، منهم سعد بن أبي وقاص ﵁، وكان قد شوى لهم رأس بعير، فأكلوا منه وشربوا الخمر،حتى أخذت منهم، ثم إنهم افتخروا عند ذلك، واستبوا وتناشدوا الشعر، فأنشد بعضهم قصيدة فيها هجاء الأنصار،وفخر لقومه، فأخذ رجل من الأنصار لحي البعير،فضرب به رأس سعد فشجّه، فانطلق سعد إلى رسول الله ﷺ، وشكا إليه الأنصاري، فقال:اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فأنزل الله تعالى﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[المائدة:٩٠-٩١][٢]،

وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام، فقال عمر ﵁: انتهينا يا رب"[٣].

والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب، أن الله تعالى علِم أن القوم كانوا قد ألِفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بذلك كثيراً، فعلم أنه لو منعهم دفعة واحدة؛ لشق ذلك عليهم، فلا جرَم درَّجهم في التحريم رفقاً بهم.

قال أنس ﵁:حرِّمت الخمر ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد منها، وقال: كان لنا خمر غير فضيخكم،فإني لقائم أسقى أبا طلحة وفلاناً وفلاناً، إذ جاء رجل فقال: حرمت الخمر، قالوا: أهرق هذه القلال يا أنس، قال: فما سألوا عنها

---

(١) عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري السالمي: صحابي شهير، وهو بدري عند الجمهور، كان إمام قومه بني سالم، وذكر ابن سعد: أن النبي ﷺ آخى بينه وبين عمر ، مات في خلافة معاوية وقد كبُر.

انظر: أسد الغابة ١٩٦/٣، الإصابة ٣٥٩/٤.

(٢) انظر: جامع البيان ٩٨/٤، ٣٤/٥.

(٣) رواه أبو داود.كتاب الأشربة. باب في تحريم الخمر.ح(٣٦٧٠)،الترمذي.كتاب تفسير القرآن.بابٌ ومن سورة المائدة.ح(٣٠٩٤)، وصححه الألباني في الصحححة٤٩٥/٥،ح(٢٣٤٨).

ولا راجعوها بعد خبر هذا الرجل"[١].

وقد كان بعض الفضلاء يرغبون عن شرب الخمر ويرفضونها، فعن العباس بن مرداس[٢]أنه قيل له في الجاهلية: لِم لا تشرب الخمر،فإنها تزيد في حرارتك؟ فقال: ما أنا بآخذ جهلي بيدي فأدخله في جوفي، ولا أرضى أن أصبح سيد قومي وأمسي سفيههم"

والعجب إن الجاهلية تعود من جديد، فهنالك أناس يشربون الخمر، وهم يعلمون أنها أم الخبائث، فالسكران لا يدري ما يصنع ، بل لقد حجبت الخمر النور عن قلبه وألقت على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، ولأن العقول مخمرة، فقد أساءت الاختيار واستبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، فعَنْ ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِى الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِى الآخِرَةِ»[٣]

ومن العادات الفاسدة: التصفير والتصفيق.

قال سبحانه ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾[الأنفال:٣٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المكاء الصفير، والتصدية التصفيق[٤].

فكان المشركون يجتمعون في المسجد الحرام،يصفقون ويصوتون،يتخذون ذلك عبادة وصلاة، فذمّهم الله على ذلك وجعل ذلك من الباطل الذي نهى عنه.

"وفي الآية إخبار منه سبحانه، أنه إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه، وتُخلَص له فيه العبادة، فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذين يصدون عنه، فما كان صلاتهم فيه التي هي أكبر أنواع العبادات﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾أي: صفيراً وتصفيقاً، فِعْل الجهلة الأغبياء، الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم، ولا معرفة بحقوقه، ولا احترام لأفضل

---

(١) أخرجه البخاري.كتاب التفسير.باب قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر).ح(٤٦١٧).

(٢) العباس بن مرداس السلمي: أسلم قبل فتح مكة بيسير، وكان من المؤلفة قلوبهم، وممن حسُن إسلامه، شهد مع النبي ﷺ الفتح وحنين، وكان شاعراً محسناً شجاعاً مشهوراً، وكان ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية. انظر: الإصابة ٥١٢/٣ ، أسد الغابة ٥٤٦/٢ .

(٣) أخرجه البخاري.كتاب الأشربة.باب قول الله تعالى (إنما الخمر والميسر والنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه).ح(٥٥٧٥)، ومسلم.كتاب الأشربة. باب عقوبة من شرب الخمر إذا لم يَتب منها،بمنعه إيَّاها في الآخرة.ح(٥٣٤٠).

(٤) انظر: جامع البيان ٢٣٨/٦، معالم التنزيل ٣٥٥/٣.

البقاع وأشرفها، فإذا كانت هذه صلاتهم فيه، فكيف ببقية العبادات؟!"[١].

"ومن المعلوم أن المكاء والتصدية ليسا بصلاة، ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها: المكاء والتصدية، فألزمهم ذلك عظيم الأوزار، وهذا كقولك: زرته فجعل جفائي صلتي، أي أقام الجفاء مقام الصلة.

والمقصود: أن المصفقين والصفارين في مزمار ونحوه، فيهم شبه من هؤلاء،ولو أنه مجرد الشبه الظاهر، فلهم قسط من الذم بحسب تشبههم بهم، وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم، والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة، إذا نابهم أمر، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح، لئلا يتشبهوا بالنساء، فكيف إذا فعلوه لا لحاجة، وقرنوا به أنواعاً من المعاصي، قولاً وفعلاً"[٢].

فمن اتخذ نظير ذلك عبادة وقربة يتقرب بها إلى الله؛ فقد ضاهى هؤلاء في بعض أمورهم.

قال ابن تيمية: ومن أعظم ما يقوي الأحوال الشيطانية؛ سماع الغناء والملاهي، وهو سماع المشركين قال تعالى﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾.[٣]

ولئن كان المشركون يفعلون هذه العادة القبيحة،ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وإنما هو اللهو واللعب، الذي لا وقار فيه، ولا استشعار لحرمة البيت، ولا خشوع معه لله رب العالمين.

فليس هذا عن أهل الوجد والتصوف ببعيد، فقد أخذوا التصفيق والتصفير والغناء في المساجد؛ شعاراً يزعمون أنه يقربهم إلى الله تعالى!.. بل يثير محبة الله في قلوبهم!.. وهذه عين المعصية والعبث، فكيف يُتقرَّب إلى الله بمعصيته؟!..

ثمّ هم مع ذلك؛ يزعمون بلوغ مقامات الأولياء، ومراتب الأصفياء.!

ومن اتخذ اللهو واللعب ديناً؛ كان كمن سعى في الأرض بالفساد، ومن طلب الوصول إلى الله تعالى من غير طريق رسوله ﷺ؛ فهو بعيد عن الوصول إلى المراد.

وما اجتمع النبي ﷺ وأصحابه يوماً قط على استماع غناء؛ لا بكف ولا بدف ولا تواجد، وكل ما روي في ذلك كذب باتفاق أهل العلم.

---

(١) تيسير الكريم للسعدي ص ٣٢٠ .

(٢) انظر: إغاثة اللهفان ٢٧٤/١.

(٣) انظر:مجموع الفتاوى ٢٩٥/١١.

وإنما كان أصحاب النبي ﷺ إذا اجتمعوا، أَمروا واحداً منهم أن يقرأ شيئاً من القرآن، والباقون يستمعون، وكان عمر يقول لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما ذكِّرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون[١]،وكان اختيارهم لأبي موسى لحسن صوته، فقد مرَّ به النبي ﷺ وهو يقرأ، فقال له:"لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود"[٢].

---

(١) أخرجه الدارمي.كتاب فضائل القرآن.باب التغني بالقرآن.ح(٣٤٩٦)، وعبد الرزاق في المصنف.باب حسن الصوت.ح(٤١٩٠)، وابن حبان ١٦/١٦٨.ح(٧١٥٢)، وصححه الأرناؤط في تعليقه على صحيح ابن حبان.

(٢) أخرجه البخاري.كتاب فضائل القرآن.باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن.ح(٥٠٤٨)،ومسلم.كتاب صلاة المسا فرين وقصرها.باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن.ح(٧٩٣).واللفظ له

الفصل الثالث

أساليب القرآن في بيان الفساد

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: النهي عن الفساد .

المبحث الثاني: ذمّ أهله والتشهير بهم .

المبحث الثالث: بيان عاقبته .

المبحث الرابع: ذكر من اتصف به .

تمهيد:

لم تعرف البشرية كتاباً كالقرآن الكريم هدايةً وإرشاداً، فهو ليس كالقوانين الوضعية، والدساتير البشرية، ومن ذلك أنه لم يلتزم في بيانه للفساد أسلوباً واحداً؛ بل غاير في عباراته، ونوّع في بلاغاته، ووضع كل خطاب في أنسب مواضعه، ولو أُبدل بغيره، لتغير المبنى والمعنى[1].

ولا شك أن ذلك من إعجاز القرآن الكريم، إذ لا يوجد كتاب - غيره - ينهج هذا المنهج.

وهكذا كان تنوع الموضوعات؛ هو الباعث الأهم على تنوع الأسلوب القرآني، فما هما بالأسلوبين المتعارضين، اللذين لا تربط بينهما صلة، وإنما هو أسلوب واحد، يشتد أو يلين، ويفصّل أو يجمل، تبعاً لحال المخاطبين، وهذا سرّ من أسرار الإعجاز القرآني.

ومن جوانب هذا الإعجاز شمول أساليب القرآن، ويتجلى ذلك؛ في أنه يصرح بلفظ النهي مرّة،ويعرض به أخرى، ويهدد بعقاب الدنيا تارة، وبالعقاب الأخروي تارة أخرى...

وما ذاك؛ إلا لأن درجات الناس متفاوتة، فمنهم من يكفيه النهي الصريح، ومنهم من لا يردعه إلا التهديد، بل فيهم من لا يرتدع؛ إلا بتكرار النهي.

ومن شموله؛ أنه لم يترك شيئاً من المفاسد؛ سواء أكانت في الاعتقاد، أو العبادات، أو المعاملات، أو الأخلاق، إلا ونهى عنه، وسدّ كل طريق توصل إليه.

قال الزركشي:"إنما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمّناً أصح المعاني من توحيد الله تعالى، وتتريهه في صفاته، ودعى إلى طاعته، وبيانٍ لطريق عبادته، في تحليلٍ وتحريم، وحظرٍ وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهى عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساويها، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه، مودعاً أخبار القرون الماضية، وما نزل من مثلات الله؛ بمن عصى وعاند منهم، منبئاً عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الماضية من الزمان، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتجِّ له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباءً عن وجوب ما أمر به، ونهى عنه، ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن. لصبحي الصالح. ص٢٣٣

الأمور، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق، أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرهم"[١].

إنّ أساليب القرآن في بيان الفساد؛ بما حوته من صور هي الغاية في البلاغة والبيان؛ لم تكن لدفع الفساد فحسب، بل إنها أعظم سبيل لتجفيف منابعه، وسدّ كل مسلك يوصل إليه. وقد قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[الفرقان:٥٢]. أي: جاهدهم بالقرآن جهاداً شديداً[٢].

وفي هذا الفصل، عرضٌ لما تيسّر من أساليب القرآن في بيان الفساد، جاءت في أربع مباحث، على ما يأتي.

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١٠٣/٢

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ١١٦/٦

المبحث الأول

النَّهيُ عَن الفَسَادِ

جاء النهي عن الفساد في القرآن الكريم مشتملاً على أساليب متنوعة، والمتأمل في تلك الأساليب؛ يجدها على أضربٍ عِدّة.

وقد جاء هذا المبحث؛ ليسلط الضوء على جانب يسير منها، فقد اختصرْت في عرض أمثلة كل أسلوب منها، إذ إن ذكر الأمثلة لكل نوع من أنواع الفساد، يطول هنا، فإن استفصال بيانها حقيق بأن يُفرد ببحث مستقل.

وقد جاء النهي عن الفساد على وجوه عدّة؛ فتارة يأتي النهي عامّاً صريحاً، كما قال تعالى ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[الأعراف:٥٦]، وقال تعالى وفي مواضع عِدّة ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[البقرة:٦٠].

وتارة نجد النهي عن الفساد؛ منوهاً بأمهات المفاسد، والكبائر العِظام، كما في قوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الأنعام:١٥١].

قال ابن عاشور في إشارة لهذا المسلك:"هذا استئناف ابتدائي للانتقال من إبطال تحريم ما ادعوا تحريمه من لحوم الأنعام، إلى دعوتهم لمعرفة المحرمات، التي عِلمها حق، وهو أحق بأن يعلموه، مما اختلفوا من افترائهم، وموهوا بجدلهم.

وعقّب بفعل(تَعَالَوْا)؛ اهتماماً بالغرض المنتقل إليه؛ بأنه أجدى عليهم من تلك السفاسف التي اهتموا بها،على أسلوب قوله تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾[البقرة:١٧٧]، وقوله ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[التوبة:١٩]، ليعلموا البون بين ما يدعون إليه قومهم، وبين ما يدعوهم إليه الإسلام، من جلائل الأعمال؛ فيعلموا أنهم قد أضاعوا أزمانهم وأذهانهم.

وذُكرَت فيما حرّم الله عليهم أشياءُ ليست من قبيل اللحوم؛ إشارة إلى أن الاهتمام بالمحرمات الفواحش؛ أولى من العكوف على دراسة أحكام الأطعمة، تعريضاً بصرف المشركين همتهم إلى بيان الأطعمة، وتضييعهم تزكية نفوسهم، وكفّ المفاسد عن الناس، ونظيره قوله﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[الأعراف:٣٢]، إلى قوله

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٣]"(١).

وتارة ثالثة؛ نجد النهي عن الفساد؛ منصبّاً على مفسدة بعينها، يلحظ من سياق الآي لها، بيان خطرها والضرر المترتب عليها، ولربما يَعقب ذلك ذكر سبيل الوقاية منها.

ومن أمثلة ذلك؛ آيات الربا في سورة البقرة، فمن تأملها وجد التسلسل الآنف الذكر، حيث قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٧٥: ٢٨٠].

وتارة يبيّن القرآن جملة مفاسد، ضلّ بها أقوام قبلنا، فتجده يسلِّط الضوء على أسلوب الأنبياء مع أقوامهم لدفع الفساد والنهي عنه، بكل سبيل.

وهذا كثير في القرآن، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[هود:٨٦].

إلا أنّه ليس لزاماً في النهي أن يكون مباشراً، تأمل عندما قال يوسف عليه السلام للسجينين ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[يوسف:٣٧].

فلم يقل لهما: إنكما على دين باطل، فالمقام ليس مقام استفزاز ولا حساب، بل مقام بلاغ، والحق إذا تبيّن؛ فليس بالضرورة أن يُشتم الباطل الذي يدين به

(١) التحرير والتنوير ١١٦/٧

الشخص المقابل.

ومِن ثمَّ فأسلوب النهي في الكتاب العزيز، جاء مراعياً أحوال المخاطبين، وتتريلهم منازلهم، كما في قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[القلم:٨]، فذلك أبلغ في الإكرام والاحترام، فإن قوله: لا تكذب، ولا تحلف، ولا تشتم، ولا تهمز، ليس هو مثل قوله: لا تطع من يكون متلبسًا بهذه الأخلاق؛ لما فيه من الدلالة على تشريفه ﷺ وبراءته من تلك الأخلاق(١).

وهذا يفيد أن أسلوب القرآن يتفاوت من موضع لآخر؛ في علاج صور الفساد ومشكلاته.

وأساليب القرآن في الإصلاح ودفع الفساد، منهج فريد، ينبغي أن يُحتذى في الدعوة إلى الله تعالى، فتولى القضايا الكبرى العناية اللائقة بها، كما اعتنى بها القرآن الكريم، بدأً بأهمها وهو تحقيق التوحيد ودفع الشرك، كما سبق تقريره.

ولذا كانت الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى مطيّة لا مناص منها، فالحكمة وضع الشيء في موضعه(٢).

ولذا أثنى الله تعالى على لقمان بما أتاه من الحكمة، فقال ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[لقمان:١٢].وذكر في الآية بعدها حكمته في دعوة ابنه، حيث وعظه مبتدئاً بالتحذير من أعظم المفاسد، فقال ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣].

وبعد التأمل والنظر في كلام أهل البلاغة والتفسير، أشير هنا إلى طرف يسير، لأساليب القرآن في النهي عن الفساد:

فمن تلك الأساليب:صيغ النهي والتحريم ونفي الحِلِّ.

أولاً: ما جاء بصيغة نهي "ينهى":

جاء النهي عن الفساد صريحاً في القرآن، وهذه الصيغة ناهية عن الفساد من أول وهلة، وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٦٤/١٦

(٢) انظر: الكليات للكفوي ٥٩٦/١

فمـــن ذلـــك قولـــه تعـــالى﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل:٩٠].ففـي هـــذه الآيـــة جاء النهي من الله تعالى.

وقد يأتي النهي منسوباً إلى النبي ﷺ كمـــا في قولـــه﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[الأعراف:١٥٧].

كما أضيف النهي عن الفساد إلى المـؤمنين، كمـــا قـــال ســـبحانه﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[التوبة:٧١].

ويلاحظ أن النهي بهذه الصيغة يشمل أغلب الشرور والآثـام الـتي نهـى الله عنـها- إن لم تكن جميعها - كما دلَّ عليه معنى الفحشاء والمنكر والبغي.

بدلالة أن الله تعالى أسند إلى الشيطان الأمر بها، فقال ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:١٦٩]، وقال﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾[النور:٢١].

قال البيضاوي:معلقـــاً علـــى قولـــه﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾"ولا يوجد من الإنسان شر إلا وهـــو منـــدرج في هـــذه الأقـــسام، صـــادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث.

ولذلك قال ابن مسعود ﷺ: هي أجمع آيـة في القـرآن للخـير والـشر[(١)]، وصـارت سبب إسلام عثمان بن مظعون ﷺ[(٢)]، ولـو لم يكـن في القـرآن غـير هـذه الآيـة؛ لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء، وهـدى ورحمـة للعـالمين، ولعـل إيرادهـا عقـب قولـــــه﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحـــل:٨٩]؛ للتنبيه عليه"[(٣)].

(١) انظر: جامع البيان ٢٨٠/١٧

(٢) هو عثمان بن مظعون بن حبيب، أبو السائب الجمحي، صحابي جليل، كان زاهداً عابداً، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، هاجر إلى الحبشة وشهد بدراً، وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين.
انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ٤٦١/٤.

(٣) تفسير البيضاوي ٤١٧/٣

ثانياً: ما جاء بصيغة "حرّم"،"يحرم".

وهذه الصيغة تختلف عن صيغ النهي الأخرى، فهي تدل على المنع والحظر(١)، وقد أسندها الله تعالى إلى اسمه الجليل تارة، وإلى ضميره تارة أخرى، وإلى رسوله محمد ﷺ ثالثة.

قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٣]. وقال ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[النحل:١١٥].وقال في وصف النبي ﷺ ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ﴾[الأعراف:١٥٧].

ويلحظ في هذه الآيات، أن تشريع التحليل والتحريم؛ حق لله تعالى، ولرسوله ﷺ فقط، فمن خالف هذا التشريع؛ فقد وقع في مفسدة بلا ريب.

وهذا الأسلوب موجّه - غالباً - لمن شرّعوا لأنفسهم، كما دل عليه قوله في آية النحل﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[النحل:١١٥]، فإنها آية مكيّة، نزلت في خطاب المشركين(٢)، وعلى ذلك يكون المعنى ؛ ما حرمت عليكم إلا الميتة والدم ولحم الخنزير، أما ما حرمتموه من البحيرة والسائبة...فليس بحرام كما زعمتم.

ويؤكّد ذلك الآية بعدها﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[النحل:١١٦].

وفي هذا فائدة لطيفة؛ وهي أن معيار الفساد مرتبط بميزان الشرع، ولا عبرة بالآراء الفاسدة؛ المبنيَّة على الأهواء.

قال الشنقيطي:"فقد أوضحت الآية؛ أن المشرعين غير ما شرعه الله؛ إنما تصف ألسنتهم الكذب، لأجل أن يفتروه على الله، وأنهم لا يفلحون، وأنهم يمتعون قليلاً، ثم يعذبون العذاب الأليم"(٣).

ومن ذلك قوله تعالى﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ

---

(١) انظر: المفردات للراغب ص ١١٤

(٢) انظر:جامع البيان ٣١٤/١٧، أضواء البيان ٤٦١/٢

(٣) المصدر السابق ٥٣/٧

﴿إِحْسَٰنًا﴾[الأنعام:١٥١]. فالتحريم هنا يتضمن معنى الوصية، وهذا ما عبّر عنه ابن مسعود رضي الله عنه بقوله:"من سره أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمة، فليقرأ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾الآيات الثلاث". (١)

قال أبو السعود:"لما ظهر بطلان ما ادعوا؛ من أن إشراكهم وإشراك آبائهم، وتحريم ما حرموه بأمر الله تعالى ومشيئته، بظهور عجزهم عن إخراج شيء يُتمسك به في ذلك، وإحضار شهداء، يشهدون بما ادعوا في أمر التحريم، بعد ما كلفوه مرة بعد أخرى، عجزاً بيناً؛ أُمِر رسول الله ﷺ بأن يبين لهم من المحرمات؛ ما يقتضي الحال بيانه على الأسلوب الحكيم، إيذاناً بأن حقهم الاجتناب عن هذه المحرمات، وأما الأطعمة المحرمة؛فقد بُيِّنت بقوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[الأنعام:١٤٥](٢).

ثالثاً: نفي الحل.

نفي الحِلّ من أساليب النهي في القرآن، لأن الحِلّ والحلال؛ نقيض الحرام، وكل شيء أباحه الله تعالى؛ فهو حلال، وما حرّمه؛ فهو حرام.

قال الجرجاني:"الحلال كل شيء لا يعاقب عليه باستعماله"(٣). ومفهوم ذلك ؛أنه متى ما نُفي لفظ الحلال، يكون مرادفاً للنهي أو للحرام،كما قال تعالى﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾[البقرة:٢٢٩].

قال القرطبي:"والآية خطاب للأزواج، نُهوا أن يأخذوا من أزواجهم شيئاً على وجه المضارة، وهذا هو الخُلع"(٤).

وقد حثّ سبحانه على اجتناب الكبائر، فقال تعالى﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ

---

(١) أخرجه الترمذي.أبواب التفسير.ح(٥٠٦٥).وقال هذا حديث حسن غريب.والبيهقي في شعب الإيمان ٢٠٧/٦.ح(٧٩١٨).

(٢) إرشاد العقل السليم ١٩٧/٣

(٣) التعريفات ص ٩٨

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٣٦/٣

نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾[النساء: ٣١].

قال الطبري:"والكبائر هي ما تقدَّم الله إلى عباده بالنهي عنه من أول سورة النساء، إلى رأس الثلاثين منها[١]. ومنها قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾[النساء: ١٩].

ومن أساليب النهي: القصر المتضمِّن للنهي.

فإن القصر يفيد في النفي والإثبات، أو الحصر والاختصاص، وهو يفيد – ضمناً – الأمر والنهي، في مواضع من القرآن الكريم.

– ومن طرق القصر: النفي بـ(ما)، أو (لا) النافية، أو الاستثناء بـ(إلا) ونحوها.

ومن أظهر الأمثلة القرآنية في ذلك، قضية تحقيق التوحيد لله تعالى، كما في قوله سبحانه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٢٥]، وقوله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[التوبة: ٣١].

فالقصر في الآيتين، يتضمّن نهياً عن الشرك بالله تعالى، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:"وهذا كثير في القرآن؛ يوجب على العباد عبادته وتوحيده، ويحرِّم عليهم عبادة ما سواه، فقد حكم وقضى: أنه لا إله إلا هو، ولكن الكلام في دلالة لفظ الشهادة على ذلك؛ وذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو؛ فقد أخبر وبيَّن وأعلم أن ما سواه ليس بإله، فلا يُعبد، وأنه وحده الإله الذي يستحق العبادة، وهذا يتضمن الأمر بعبادته، والنهي عن عبادة ما سواه، فإن النفي والإثبات في مثل هذا؛ يتضمن الأمر والنهي، كما إذا استفتى شخص شخصاً، فقال له قائل: هذا ليس بمفتٍ، هذا هو المفتي، ففيه نهي عن استفتاء الأول، وأمر وإرشاد إلى استفتاء الثاني.

والعابدون إنما مقصودهم؛ أن يعبدوا من هو إله يستحق العبادة، فإذا قيل لهم: كل ما سوى الله ليس بإله، إنما الإله هو الله وحده، كان هذا نهياً لهم عن عبادة ما سواه، وأمراً بعبادته"[٢].

---

(١) جامع البيان ٢٣٣/٨

(٢) مجموع الفتاوى ١٧١/١٤

ومن طرق القصر: تقديم ما حقه التأخير:

ولذلك أسباب منها: الاختصاص، وهذا يتضمن – أيضاً– النهي، ومن أدلة ذلك قوله تعالى بعد ذكر جملة من أنبيائه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[الأنعام:٨٩،٩٠].

فتخصيص الأمر بالاقتداء بهؤلاء النبيين، يفيد النهي عن الاقتداء بمن خالفهم،ولذا قال الزمخشري معلقاً على الآية: "فاختص هداهم بالاقتداء، ولا تقتد إلا بهم"(١).

وقال الشوكاني:"تقديم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ على الفعل، يفيد تخصيص هداهم بالاقتداء"(٢).

ومن طرق القصر: القصر بـ(إنما)، لإثبات ما يذكر بعدها ونفي ما سواه.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٣].

وقد أورد الرازي تساؤلاً حول هذا فقال:"كلمة (إنما) تفيد الحصر، فقوله: إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ كذا وكذا، يفيد الحصر، والمحرمات غير محصورة في هذه الأشياء؟

والجواب: إن قلنا الفاحشة محمولة على مطلق الكبائر، والإثم على مطلق الذنب، دخل كل الذنوب فيه، وإن حملنا الفاحشة على الزنا، والإثم على الخمر، قلنا: الجنايات محصورة في خمسة أنواع؛ أحدها: الجنايات على الأنساب؛ وهي إنما تحصل بالزنا، وهي المراد بقوله﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، وثانيها: الجنايات على العقول؛ وهي شرب الخمر، وإليها الإشارة بقوله ﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾، وثالثها: الجنايات على الأعراض، ورابعها: الجنايات على النفوس، وعلى الأموال؛ وإليهما الإشارة بقوله ﴿وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾، وخامسها: الجنايات على الأديان؛ وهي من وجهين؛ أحدها: الطعن في توحيد الله تعالى؛ وإليه الإشارة بقوله ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ﴾، وثانيها: القول في دين الله من غير معرفة، وإليه الإشارة بقوله ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

فلما كانت أصول الجنايات هي هذه الأشياء، وكانت البواقي كالفروع والتوابع، لا جرم جعل تعالى ذكرها جارياً مجرى ذِكر الكُل، فأدخل فيها كلمة (إنما) المفيدة للحصر"(٣).

(١) الكشاف ٣٤/٢

(٢) فتح القدير ١٣٤/٢

(٣) التفسير الكبير ٥٥/١٤.

ومن ذلك أيضاً، قوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[المائدة:٥٥].

فهذه الآية تضمنت بدلالة الحصر؛ أمراً باتخاذ الله ورسوله والمؤمنين أولياء، كما تضمنت نهياً عن اتخاذ غيرهم أولياء.

قال أبو السعود:"لما نهاهم الله – عز وجل– عن موالاة الكفرة؛ وعلله بأن بعضهم أولياء بعض، لا يتصور ولايتهم للمؤمنين، وبيّن أن من يتولاهم يكون من جملتهم، بيّن هنا من هو وليهم؛ بطريق قصر الولاية عليه، كأنه قيل: لا تتخذوهم أولياء؛ لأن بعضهم أولياء بعض، وليسوا بأوليائكم، إنما أوليائكم الله ورسوله والمؤمنون، فاختصوهم بالموالاة، ولا تتخطوهم إلى غيرهم"[(١)].

الأسلوب الثالث: النهي بصيغة النفي.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾[آل عمران:٢٨].فقد عبّر بصيغة النفي لا النهي؛ مبالغة في التقرير؛ لأن اتخاذهم أولياء – بعد أن سفَّه الآخرون دينهم، وسفهوا أحلامهم في اتباعه – يُعدّ ضعفاً في الدين، وتصويباً للمعتدين.[(٢)]

ونحو ذلك في قوله تعالى﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[المجادلة:٢٢].

"فوردت هذه الآية الكريمة بلفظ الخبر، والمراد بها الإنشاء، وهذا النهي البليغ، والزجر العظيم عن موالاة أعداء الله، وإيراد الإنشاء بلفظ الخبر أقوى وأوكد، من إيراده بلفظ الإنشاء"[(٣)].

والمعنى: من الممتنع المحال؛ أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين، والغرض به، أنه لا ينبغي أن يكون ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال، مبالغة في النهي عنه، والزجر عن ملابسته، والتوصية بالتصلُّب في مجانبة أعداء الله، ومباعدتهم، والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم...

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥٢/٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٧٠/٣

(٣) أضواء البيان ٥٥٦/٦

فلا تجد شيئاً أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء الله، ومعاداة أعدائه، بل هو الإخلاص بعينه(١).

ومن هذا الأسلوب، قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء:٩٢]. "أي لا ينبغي لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلاّ خطأً، وليس معنى قوله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ على النفي، وإنما هو على التحريم والنهي، كقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٥٣]، ولو كان ذلك على النفي؛ لما وجدت مؤمناً قتل مؤمناً قط، لأنّ ما نفى الله لم يجز وجوده، كقوله تعالى ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل:٦٠]، ولا يقدر العباد على إنبات شجرها البتة"(٢).

ويؤيد هذا التأويل، الأمر بالكفارة ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾.

الأسلوب الرابع: الأوصاف الدالة على النهي.

لم يكتف القرآن الكريم في نهيه عن الفساد؛ بأساليب النهي المعروفة؛ بل وصف بعض المفاسد بصور تنفر منها، كإخباره بأنّ الأوثان والخمر والميسر والأزلام؛ رجس، وأن الزنا واللواط؛ فاحشة، وأن الشيطان؛ عدو، كما أخبر عن أعمال بأنها ليست من البر، وغير ذلك. وهذه الأوصاف تُنفّر من ارتكاب المنهيات الموصوفة بها، كما قال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠].

قال الزمخشري: "وسمى الأوثان رجساً، وكذلك الخمر والميسر والأزلام، على طريق التشبيه. يعني: أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه، فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء؛ مثل تلك النُّفرة، ونبّه على هذا المعنى بقوله ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ فجعل العلّة في اجتنابه أنه رجس، والرجس مجتنب"(٣).

ومن ذلك قوله تعالى ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ

---

(١) انظر: الكشاف ٤/٤٩٦

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٣/٣٥٩

(٣) الكشاف ٣/١٥٥

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة:١٠٠].

قال أبو السعود:"حُكمٌ عام في نفي المساواة عند الله تعالى؛ بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال؛ وبين جيِّدها، قصد به الترغيب في جيد كل منها، والتحذير عن رديئها"(١).

وكذلك قال تعالى في الشيطان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[فاطر:٦]، ففي هذا من التحذير شوبٌ من التنفير، أي عاملوه معاملة العدو عدوه(٢)، وهذا ما يحمل العاقل على عدم الاغترار، والعمل على ما يسوء هذا العدو؛ وهو العمل الصالح.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ...﴾[البقرة:١٧٧].

"فالبِرّ ؛ اسم جامع لمراضي الخصال، والخطاب لأهل الكتابين، فإنهم كانوا أكثروا الخوض في أمر القِبلَة، حين حولت إلى الكعبة، ورأوا أن المسلمين كانوا على شيء من البرِّ باستقبالهم قبلتهم، فلما تحولوا عنها؛ لمزوهم بأنهم أضاعوا أمراً من أمور البِرِّ.!"(٣)

فنفي البِرِّ عن استقبال الجهات، مع أن منها ما هو مشروع؛ كاستقبال الكعبة؛ إما لأنه من الوسائل لا من المقاصد، فلا ينبغي أن يكون الاشتغال به قُصارى همَّة المؤمنين، ولذلك قال ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ...﴾، فإنّ ذلك كلّه من أهم مقاصد الشريعة، وفيه جِماع صلاح النفس والجماعة، ونظير هذا قوله تعالى﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[التوبة:١٩](٤).

وقيل: كثُر خوض المسلمين وأهل الكتاب في أمر القبلة، فقيل: ليس البِّر العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البر؛ أمر القبلة، ولكن البِّر الذي يجب الاهتمام به، وصَرف الهِمّة؛ بِرُّ من آمن وقام بهذه الأعمال(٥).

---

(١) إرشاد العقل السليم ٨٣/٣

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٣٤/٢١

(٣) إرشاد العقل السليم ١٧٢/١

(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٢٧/٢

(٥) انظر: التفسير الكبير ٣١/٥، الكشاف ٢٤٣/١

ومثل ذلك في قوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩].

قال السعدي:"فأخبر أن إثمهما ومضارهما، وما يصدر منهما – من ذهاب العقل والمال، والصدِّ عن ذكر الله، وعن الصلاة، والعداوة والبغضاء – أكبر مما يظنّونه من نفعهما، من كسب المال بالتجارة بالخمر، وتحصيله بالقمار والطرب للنفوس، عند تعاطيهما، وكان هذا البيان زاجراً للنفوس عنهما، لأن العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته، ويجتنب ما ترجحت مضرته، ولكن لما كانوا قد ألفوهما، وصعب التحتيم بتركهما أول وهلة، قدم هذه الآية، مقدمة للتحريم، الذي ذكره في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إلى قوله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]، وهذا من لطفه ورحمته وحكمته(١)، ولهذا لما نزلت، قال عمر رضي الله عنه: انتهينا انتهينا(٢).

ومن خطاب التنفير، قوله تعالى ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾ [الحُجُرات:١٢].

قال الزركشي:"فقد جمعت هذه الآية أوصافاً وتصويراً؛ لما يناله المغتاب من عِرض من يغتابه على أفظع وجه؛ وفي ذلك محاسن، كالاستفهام الذي معناه التقريع والتوبيخ، وجعل ما هو الغاية في الكراهة موصولاً بالمحبة، وإسناد الفعل إلى (أحدكم)؛ فيه إشعار بأن أحداً لا يحب ذلك، ولم يقتصر على تمثيل الاعتبار بآكل لحم الإنسان؛ حتى جعله أخاً، ولم يقتصر على لحم الأخ؛ حتى جعله ميتاً، وهذه مبالغات عظيمة، ومنها أن المغتاب غائب، وهو لا يقدر على الدفع لما قيل فيه، فهو كالميت"(٣).

والمقصود أن هذه الأوصاف وغيرها؛ مما ينفّر العبد عن ارتكاب ما وصف بأحد من المنهيات، فإنه حين يقال: هذا خبيث، أو ذاك نجس، أو ليس من البر؛ فإنه لم يقصد بذلك

---

(١) تيسير الكريم للسعدي ص ٩٨

(٢) أخرجه النسائي.كتاب الأشربة.باب تحريم الخمر.ح(٥٥٤٠)،والترمذي.كتاب تفسير القرآن.ح(٣٠٤٩)،وأحمد في المسند ٤٤٢/١.ح(٣٧٨)، وصححه ابن المديني. انظر: فتح الباري:٢٧٩/٨.

(٣) البرهان في علوم القرآن ٢٤٩/٢

مجرد الإخبار فحسب،؛ بل قصد نهي المخاطب عن الاقتراب منه أو ملابسته، لأن طبيعة الإنسان السليمة؛ تنفر من تلك الأوصاف.

الأسلوب الرابع: الفعل المقرون بوعيد أو تهديد.

من أساليب النهي عن الفساد في القرآن؛ اقتران المنهي عنه بوعيد أو تهديد، والآيات القرآنية التي تندرج تحت هذا الأسلوب كثيرة جداً، وقد أشرت إلى شيء منها في ثنايا هذه الرسالة، ولعلي اذكر طرفاً من الأدلة على هذا الأسلوب، لمناسبته في هذا الموضع، فمن ذلك:

قوله تعالى ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[المرسلات:١٥].

فقد تكرر هذا التهديد في سورة المرسلات، وحيث نزلت هذه السورة في إثبات ما أنكره الكفار؛ من البعث والنشور والجزاء والحساب.

والمعنى: ويل لمن كذب بالآخرة، ثم أعقب ذلك بذكر من أهلك من أمم الأنبياء الأولين، ثم توعد المجرمين من هذه الأمّة؛ بأنهم سيلحقون بأمثالهم، إذا استمروا في تكذيبهم.

فكان ذلك زجراً بالغاً؛ بما صحَّ عندهم من أخبار السابقين ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التغابن:٥].

ومن ذلك وعيده سبحانه لمفسدي الأخلاق، حيث قال﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النور:١٩].

"فأخبر فيها بوعيد من أحب إظهار الفاحشة والقذف والقول القبيح للمؤمنين، وجعل ذلك من الكبائر التي يستحق عليها العقاب"[(١)].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة:٢١٧].

قال الشوكاني:"وفي هذه الآية تهديد للمسلمين؛ ليثبتوا على دين الإسلام،ومعنى قوله ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أنه لا يبقى له حكم المسلمين في الدنيا، فلا يأخذ شيئاً مما سيتحقه المسلمون، ولا يظفر بحظ من حظوظ الإسلام، ولا ينال شيئاً من ثواب الآخرة، الذي

(١) أحكام القرآن للجصاص ١٦٣/٥

يوجبه الإسلام ويستحقه أهله"(١).

وقريباً من ذلك، قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾[آل عمران:١٠٠].

قال أبو السعود:"تلوينٌ للخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين؛ تحذيراً لهم عن طاعة أهل الكتاب، والافتتان بفتنتهم؛ إثر توبيخهم بالإغواء والإضلال، ردعاً لهم عن ذلك، وتعليق الردِّ بطاعة فريق منهم؛ للمبالغة في التحذير عن طاعتهم، وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية، فإنه في قوة أن يقال: لا تطيعوا فريقاً"(٢).

وللوعيد ألفاظ شتى، وصور مختلفة، منها ما هو واضح جلي؛ كالفظ العذاب أو الخسران، أو اللعن، أو الويل، ومنها ما خفي؛ كاتصاف الله تعالى بأنه عالم بكل ما يعمله الخلق،كقوله تعالى﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾[البقرة:٢٣٥]. وقوله﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾[البقرة:٢٢٠]،وقوله﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾[آل عمران:٦٣]، وقوله ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾[يونس:٤٠]، وقوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[ق:١٦].

ومن بديع أساليب القرآن في النهي عن الفساد؛ التذكير بنظر الله تعالى للعبد، وسعة علمه سبحانه، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وإنه لحقيق بمن جعل ذلك نصب عينيه، واستشعره قلبه، أن يترجر عن الشر ويقلع عنه، تأمل قوله تعالى في سياق قصة أبي جهل مع النبي ﷺ حين زجره ونهاه عن الصلاة عند البيت ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[العلق:١٤].

وكذلك إخباره – تعالى – بأنه يُرسل عليهم حفظة يكتبون أعمالهم ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الانفطار:١٢،١٠].

---

(١) فتح القدير ٣٣١/١

(٢) إرشاد العقل السليم ٦٤/٢

قال الزمخشري:"فإن قلت: الله تعالى غنيّ بعلمه عن كتبة الملائكة، فما فائدتها؟ قلت: فيها لطف للعباد، لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم، والملائكة الذين هم أشرف خلقه؛ موكلون بهم، يحفظون عليهم أعمالهم، ويكتبونها في صحائف،تعرض على رؤوس الأشهاد في مواقف القيامة، كان ذلك أزجر لهم عن القبيح، وأبعد عن السوء"(١).

ومن ذلك؛ ما أخبر عنه تعالى بأنه يُنطِق الجوارح يوم القيامة، كما في قوله ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النور:٢٤]، وقوله ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[يس:٦٥].

"قال المفسرون: الإشارة إلى الجوارح المذكورة، يسأل العبد يوم القيامة فيما إذا استعملها، وفي هذا زجر عن النظر إلى ما لا يحل، والاستماع إلى ما يحرم، والعزم على مالا يجوز"(٢).

وكذلك إخباره عن الجزاء على الأعمال، كما قال تعالى﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[النساء:١٢٣]، وأعمّ من ذلك قوله جلّ ذِكره ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة:٨].

ففي هذا زجر عن المفاسد كلها، قليلها وكثيرها، لأن أسبابها من جملة الشرور(٣).

ومن أساليب النهي: النهي عن قربان الشيء.

ذلك أن المفاسد قد يكون لها مقدمات أو دواعٍ، تشتهيها النفس وتهواها، ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[الأنعام:١٥١].

فتعليق النهي بقربانها؛ إما للمبالغة في الزجر عنها، لقوة الدواعي إليها، وإما لن قربانها داعٍ إلى مباشرتها(٤).

ومن الفواحش الزنا، وقد أكّد – سبحانه – النهي عن قربانه بقوله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[الإسراء:٣٢]، فالزنا له مقدمات؛ من نظر، أو تأمل ، أو لمس، أو قُبلة...

---

(١) الكشاف ٣٢/٢

(٢) زاد المسير ٣٥/٥

(٣) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام. للعز بن عبد السلام ١٦٩/١

(٤) إرشاد العقل السليم ١٩٨/٣

فالنّهي عن قربان ذلك؛ أبلغ من قول: لا تزنوا، وفي هذا لطف بالعباد، واحتراس لدينهم، وسلامة لقلوبهم.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

والمعنى: لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه، لأن النفس المريضة، تشتهي ماله لعدم من يحميه ويدافع عنه.

قال أبو حيان: "ولما كان اليتيم ضعيفاً عن أن يدافع عن ماله لصغره؛ نص على النهي عن قربان ماله"(١).

وكذلك قوله جل وعلا ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

فجاء النهي عن قربانهن؛ تأكيداً للأمر باعتزالهن، وتبييناً للمراد من الاعتزال، وإنه ليس التباعد عن الأزواج بالأبدان، كما كان عند اليهود، بل عدم القربان يراد به الجماع.

فنهى عن مقاربتها الموقعة في الخروج منها، على طريق الكناية؛ لأن القرب من الحدِّ؛ يستلزم قصد الخروج غالباً. (٢)

ومن أساليب النهي: النهي عن المجاوزة.

فمن أساليب النهي عن الفساد؛ توجيه النهي عن الاعتداء، لأن أصله مجاوزة الحدّ والقدر والحق. والذي لا تجوز مجاوزته؛ هو الحدّ الفاصل بين الحلال والحرام، وهو ما عبّر عنه في القرآن بـ(حدود الله)(٣).

فإن العامل بشرائع الله أوامر ونواهي؛ منصرفٌ في حيز الحق، فإذا تعداه وقع في حيز الباطل، فالنهي عن التعدي هو المقصود، إلا أن الأحوط أن لا يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حيزي الحق والباطل؛ كيلا يذهل فيقع في الباطل(٤).

ومنه قوله تعالى بعد أن ذكر جملة من أحكام الزوجية ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩].

---

(١) البحر المحيط ٣٤/٦

(٢) انظر: معالم التنزيل ٢٥٧/١، التحرير والتنوير ٣٤٨/٢

(٣) انظر: لسان العرب ١٥/ ٣٤ ، مادة (عدا).

(٤) انظر: غرائب القرآن للنيسابوري ٥٢٠/١

قال ابن عاشور:"والحدود والحواجز؛ نهايات الأشياء التي إذا تجاوز المرء دخل في شيء آخر، وشبِّهت الأحكام بالحدود؛ لأن تجاوزها يخرج من حلٍ إلى منع.
وحدود الله؛ استعارة للأوامر والنواهي الشرعية، بقرينة الإشارة، شبِّهت بالحدود التي هي الفواصل المجعولة بين أملاك الناس، لأن الأحكام الشرعية، تفصل بين الحلال والحرام، والحق والباطل، وتفصل بين ما كان عليه الناس قبل الإسلام، وما هم عليه بعده.
وكذلك إطلاق الاعتداء، الذي هو تجاوز الحدّ على مخالفة حكم الشرع، هو استعارة تابعة لتشبيه الحكم بالحدّ.
وجملة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تذييل،وأفادت جملة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حصراً، وهو حصر حقيقي، إذ ما من ظالم؛ إلا وهو متعدٍ لحدود الله، فظهر حصر حال المتعدي حدود الله في أنه ظالم"(١).
ومنه قوله تعالى﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[المائدة:٨٧].
"أي: لا تتعدوا حدود ما أحل لكم إلى ما حرم عليكم، أو لا تسرفوا في تناول الطيبات، أو جعل تحريم الطيبات اعتداءً وظلماً، فنهى عن مطلق الاعتداء؛ ليدخل تحته النهي عن تحريمها دخولاً أولياً، وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ تعليل لما قبله"(٢).

ومن أساليب النهي عن الفساد: النهي بالمثال والتشبيه:
من أروع أساليب النهي في القرآن الكريم، النهي عن الشيء بضرب مثل له، أو تشبيهه بصورة منفِّرة، تحمل العقل السويّ، على النفور من تلك المفسدة، والبعد عنها.
"إن الحكمة في ضرب الأمثال؛ أن يتفكر الناس فيها، فيفهموا الشيء بنظرة، وهو قوله ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الحشر:٢١]، ونظيره قوله ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[إبراهيم:٢٥]، وبيّن في موضع آخر؛ أن الأمثال لا يعقلها إلا أهل

---
(١) التحرير والتنوير ٣٩٣/٢
(٢) إرشاد العقل السليم ٧٤/٣

العلم، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٣]، وبيّن أيضاً؛ أن المثل المضروب؛ يجعله الله سبب هداية لقوم فهموه، وسبب ضلال لقوم لم يفهموا حكمته، كما قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[البقرة:٢٦]"(١).

وحيث أنزل الله كتابه العزيز بلسان عربي مبين، فإنه قد قرر الأحكام، وأظهر الحِكم على ما اعتادته العرب في كلامها، وفي هذا يقول سفيان بن عيينة رحمه الله: ليس مثل من أمثال العرب، إلا وأصله في كتاب الله تعالى، قيل له: فأين قول الناس: أعط أخاك تمرة، فإن أبى فجمرة – يُضرب لمن يختار الهوان على الكرامة(٢)- فقال: في قوله تعالى ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[الزخرف:٣٦].

وهذا كثير في القرآن، ولعلي اقتصر على قضية واحدة هي:

مثل فساد المشرك الذي بيّنه تعالى في قوله ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج:٣١].

قال الزمخشري: "التشبيه أن يكون من المركّب والمفرّق، فإن كان تشبيهاً مركباً؛ فكأنه قال: من أشرك بالله؛ فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية، بأن صوّر حاله بصورة حال من خرَّ من السماء، فاختطفته الطير، فتفرَّق مزعاً في حواصلها، أو عصفت به الريح؛ حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة.

وإن كان مفرقاً؛ فقد شبَّه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان، وأشرك بالله؛ بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره؛ بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوّح به في وادي الضلالة، بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة"(٣).

وليس عن هذا ببعيد، ما أخبر عنه سبحانه وتعالى بقوله ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾[إبراهيم:١٨].

---

(١) أضواء البيان ٢٤٦/٢

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢٤٥/٣، نهاية الأرب في فنون الأدب ١٥/٣

(٣) الكشاف ١٥٧/٣

ففيه "تمثيل لحال ما عمله المشركون من الخيرات، حيث لم ينتفعوا بها يوم القيامة.
وقد أثار هذا التمثيل ما دلّ عليه الكلام السابق، من شدة عذابهم، فيخطر ببالهم أو ببال من يسمع من المسلمين، أن يسأل نفسه أن لهم أعمالاً من الصلة والمعروف؛ من إطعام الفقراء، ومن عتق رقاب، وقرى ضيوف، وحمالة ديات، وفداء أسارى، واعتمار، ورفادة الحجيج، فهل يجدون ثواب ذلك؟ وأن المسلمين لما علموا أن ذلك لا ينفع الكافرين؛ تطلبت نفوسهم وجه الجمع بين وجود عمل صالح، وبين عدم الانتفاع به عند الحاجة إليه، فضرب هذا المثل لبيان ما يكشف جميع الاحتمالات، فشبّهت أعمالهم المتجمعة العديدة؛ برماد مكدّس، فإذا اشتدت الرياح بالرماد؛ انتثر وتفرق تفرقاً لا يرجى معه اجتماعه، ووجه الشبه؛ هو الهيئة الحاصلة من اضمحلال شيء كثير بعد تجمعه"(١).

ومن أساليب النهي: النهي عن الأدنى تنبيهاً على الأعلى.

فحيث كان الفساد درجات متفاوتة، وبعضه يقود إلى بعض، فربما اتجه النهي إلى الأدنى؛ احترازاً مما هو أعلى منه في المفسدة والضرر.
ومن أمثلة ذلك قوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[الإسراء:٢٣].
أي: لا تسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا تنفض يدك على والديك(٢).
قال ابن عاشور:"وليس المقصود من النهي عن أن يقول لهما (أُفٍّ) خاصة، وإنما المقصود النهي عن الأذى الذي أقله الأذى باللسان، بأوجز كلمة، وبأنها غير دالة على أكثر من حصول الضجر لقائها، دون شتم أو ذم، فيفهم منه؛ النهي مما هو أشد أذى، بطريق فحوى الخطاب بالأولى"(٣).

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٠/١٢
(٢) انظر: جامع البيان ٤١٧/١٧، تفسير القرآن العظيم ٦٤/٥
(٣) التحرير والتنوير ٥٧/١٤

وكذلك قوله تعالى﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[هود:١١٣].

قال البيضاوي:"ولا تميلوا إليهم أدنى ميل، فإن الركون هو الميل اليسير؛ كالتزيي بزيهم، وتعظيم ذكرهم واستدامه، فتمسّكم النار بركونكم إليهم، وإذا كان الركون إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً كذلك، فما ظنّك؛ بالركون إلى الظالمين، أي الموسومين بالظلم، ثم بالميل إليهم كل الميل، ثم بالظلم نفسه، والانهماك فيه، ولعل الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم، والتهديد عليه"(١)،وهي أصل في سدّ ذرائع الفساد المحقّقة، أو المظنونة.

ومن ذلك قوله تعالى﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[الأحزاب:٣٢].

فالآية دليل على أن الوسائل؛ لها أحكام المقاصد، فإن الخضوع بالقول، واللين فيه، في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم، مُنع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال، أن لا تلِينَ لهم القول.

فإذا كان هذا الطمع في أمهات المؤمنين، فلا بد أن يكون في غيرهن من باب الأولى، لأن الله تعالى اختار لنبيه ﷺ أفضل النساء وأعفهنّ، ومع ذلك أمرهنّ بالحجاب، ونهاهنّ عن الخضوع بالقول؛ صيانة لهنّ، فغيرهنّ أولى بالصيانة، والبعد عن أسباب الفتنة.

ودلّ قوله﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾- مع أمره بحفظ الفرج، وثنائه على الحافظين لفروجهم، والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا - أنه ينبغي للعبد، إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه يهش لفعل المحرم؛ عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه، ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فَلْيَعْرِف أن ذلك مرض.

فليَجتهِد في إضعاف هذا المرض، وحسم الخواطر الردية، ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر، وسؤال الله العصمة والتوفيق، وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به(٢).

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/٢٦٦، وانظر: التحرير والتنوير ١١/٣٤١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن. ص ٦٦٣

المبحث الثاني

ذَمُّ أَهلِهِ والتَّشهِيرُ بِهِم

من أساليب القرآن في بيان الفساد؛ ذمّ المفسدين والتشهير بهم، ولهذا الأسلوب صور عدّة، تدل بمجموعها على ذمّ المفسدين، والتنفير من صفاتهم.

فمن أبلغ الذمّ لأهل الفساد؛ ما وصفوا به من أوصاف سيئة؛ تدل على خروجهم عن الصراط المستقيم، وتلك الأوصاف كثيرة في القرآن.

فأذكر منها على سبيل المثال لا الحصر؛ وصفهم بالإسراف:

قال تعالى على لسان نبيه لوط عليه السلام حين أنكر على قومه ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[الأعراف:٨١].

أي: متجاوزون لما حدَّه الله، متجرئون على محارمه.

"و (بَلْ) للإضراب الانتقالي، للانتقال من غرض الإنكار، إلى غرض الذم، والتحقير، والتنبيه إلى حقيقة حالهم.

والإسراف مجاوزة العمل مقدار أمثاله في نوعه، أي المسرفون في الباطل والجُرم، ووصفهم بالإسراف، بطريق الجملة الاسميّة، الدالة على الثبات، أي أنتم قومٌ تمكّن منهم الإسراف في الشهوات؛ فلذلك اشتهوا شهوة غريبة، لما سئموا الشهوات المعتادة.

وهذه شنشنة[(١)] الاسترسال في الشهوات؛ حتى يصبح المرء لا يشفي شهوته شيء.

ونحوه قوله تعالى عنهم﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[الشعراء:١٦٦].

ووجه تسمية هذا الفعل الشنيع فاحشة وإسرافاً؛ أنه يشتمل على مفاسد كثيرة:

منها: استعمال الشهوة الحيوانية المغروزة في غير ما غرزت عليه، لأن الله خلق في الإنسان الشهوة الحيوانية؛ لإرادة بقاء النوع بقانون التناسل، حتى يكون الداعي إليه قهري ينساق إليه الإنسان بطبعه، فقضاء تلك الشهوة في غير الغرض الذي وضعها الله لأجله؛ اعتداء على الفطرة، وعلى النوع، ولأنه يغيّر خصوصية الرجلة بالنسبة إلى المفعول به؛ إذ يجعله آلة لقضاء شهوة غيره، على خلاف ما وضع الله في نظام الذكورة والأنوثة، من قضاء الشهوتين معاً، ولأنه مفضٍ إلى قطع النسل أو تقليله، ولأن ذلك الفعل يجلب أضراراً للفاعل والمفعول؛ بسبب استعمال محلين في غير ما خُلقا له"[(٢)].

---

(١) الشنشنة: الخلق والطبيعة. انظر: الصحاح ٣٩٩/٥، لسان العرب ٢٤١/١٢، مادة (شنن)

(٢) التحرير والتنوير ١٧٩/٨، وانظر: الكشاف ١١٩/٢

ولذا جاء هذا الوصف في ذكر عذاب قوم لوط الَّيْلاً، فقال تعالى ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٤].

كما وُصِف فرعون بالإسراف في غير موضع، قال سبحانه ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]

"فقد أسرف في الظلم والفساد، بالقتل وسفك الدماء، أو في الكبر، والعتو، حتى ادعى الربوبية، واسترقَّ أسباط الأنبياء"(١).

كما أن نبي الله صالح الَّيْلاً وصَف به المكذبين من قومه، فقال محذراً إياهم ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٢].

وكذلك وصف الله بني إسرائيل بعد ذكر جملة من مفاسدهم فقال ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

قال ابن كثير: "وهذا تقريع لهم، وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها"(٢).

وجاء هذا الوصف عامًّا مَن لم يؤمن بربه، فقال تعالى ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

فالإسراف هنا؛ الاعتقاد الضال، وعدم الإيمان بالآيات، ومكابرتها وتكذيبها.

ومن قبيح صفات المفسدين: الإجرام.

فقد وصِف بالإجرام جملة من المفسدين، والإجرام من ألقاب المشركين في اصطلاح القرآن(٣)، وممن وصف بذلك قوم لوط الَّيْلاً، على لسان الملائكة حين خاطبهم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٨]. أي: أي ذوي جرائم، وهي كبار المعاصي، فيدخل تحت ذلك الشرك وما هو دونه، حيث كثُر فسادهم، وعظُم شرهم، "وجيء بهم بطريق التنكير؛ ذماً لهم، واستهانة بهم"(٤).

---

(١) إرشاد العقل السليم ١٧١/٤

(٢) تفسير القرآن العظيم ٩٤/٣

(٣) التحرير والتنوير ٤٢٩/١٤

(٤) إرشاد العقل السليم ٨٢/٥

وثبت وصفهم به؛ في بيان هلاكهم، فقال تعالى﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[الأعراف:٨٤].

بل جمع وصفي الإسراف والإجرام، في آيات هلاكهم، فإن قيل: كيف ذلك، مع أن المسرف غير المجرم، في اللغة؟

أجاب عن ذلك الرازي بقوله" المجرم هو الآتي بالذنب العظيم، لأن الجُرم؛ فيه دلالة على العِظَم، ومنه جُرم الشيء، لعظمة مقداره، والمُسرف هو الآتي بالكبيرة، ومن أسرف ولو في الصغائر؛ يصير مجرماً؛ لأن الصغير إلى الصغير، إذا انضم صار كبيراً، ومن أجرم فقد أسرف؛ لأنه أتى بالكبيرة، ولو دفعة واحدة، فالوصفان اجتمعا فيهم"(١).

كما ذمّ الله تعالى بذلك عاداً قوم هود عليه السلام، حيث قال﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[الأحقاف:٢٥].

وقد كان هود عليه السلام حذّرهم من قبل عن ذلك، فقال﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾[هود:٥٢].

كما ذمّ الله تعالى فرعون وقومه،بسبب إجرامهم، فقال سبحانه﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾[يونس:٧٥].

ولم يزل الإجرام مذمّة للمفسدين عبر القرون﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[يونس:١٣]، وقال تعالى﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الروم:٤٧].

وفي آية ثالثة ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾[الدخان:٣٧].

كما وصف المنافقين بالإجرام، قال تعالى﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾[التوبة:٦٦].

ومن ذم المفسدين؛ وصفهم بالضلال.

الضلال يقال: ضَلَّ الشيء؛ ضاع وهلك، يضِل بالكسر ضَلالاً، والضَّالَّةُ ما ضلّ من البهيمة للذكر والأنثى، وأرض مَضَلَّةٌ بفتح الضاد وكسرها، وفتح الميم فيهما؛ أي يضل في الطريق،

---

(١) التفسير الكبير ١٨٧/٢٨

وفلان يلومني ضَلَّةً إذا لم يوفق للرشاد في عذله، ورجل ضِلِّيلٌ ومُضَلَّلٌ؛ أي ضالٌّ جداً، والضَّلاَلُ ضد الرشاد، وقد ضَلَّ يضل بالكسر ضَلاَلاً وضَلاَلَةً، قال تعالى﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴾[سبأ:٥٠].(١)

وعلى هذا؛ فالضلال هو عدم التوفيق للرشاد، وعدم وعي الحق، فالمفسدون الذين طغوا، وأعرضوا عن الهداية، أضلهم الله تعالى، فلا يرون الحق، بل إنه تعالى يمدهم في طغيانهم، وضلالهم إلى يوم مماتهم.

قال تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[النساء:١٦٧].

قال الطبري:"يعني بذلك جل ثناؤه: إن الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ بعد علمهم بها، من أهل الكتاب، وأنكروا أن يكون الله جل ثناؤه؛ أوحى إليك كتابه،وصدوا عن الدين الذي بعثه الله به، إلى خلقه وهو الإسلام...﴿قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ يعني: قد جاروا عن قصد الطريق جوراً شديداً، وزالوا عن المحجة.

وإنما يعني – جل ثناؤه – بجورهم عن المحجة، وضلالهم عنها؛ إخطاءهم دين الله الذي ارتضاه لعباده، وابتعث به رسله، يقول: من جحد رسالة محمد ﷺ، وصدّ عما بعث به من الملة، فقد ضلَّ، فذهب عن الدين الذي هو دين الله، الذي ابتعث به أنبياءه ضلالاً بعيداً".(٢)

"وأي ضلال أعظم؛ من ضلال من ضلّ بنفسه، وأضلّ غيره، فباء بالإثمين، ورجع بالخسارتين، وفاتته الهدايتان"(٣).

فهذا الضلال سبقه كفر وتكذيب، فأضلهم الله تعالى عن طريق الصواب؛ فلا يعرفوه أبداً، ولا يهتدون إليه.

كما أخبر تبارك وتعالى عن فريق من المفسدين؛ وهم الذين دخلوا الإيمان، ثم خرجوا منه، ثم ازدادوا كفراً، أنهم ضالون، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾[آل عمران:٩٠].

فأي خزي كهذا الخزي، وهذا حكم من الله تعالى، لا رجعة فيه أبداً، حتى ولو تابوا، لأنهم

---

(١) مختار الصحاح ص ٤٠٣، لسان العرب ٣٩٠/١١ مادة(ضلل)

(٢) جامع البيان ٣٧٠/٤

(٣) تيسير الكريم الرحمن. ص٢١٥

هم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك.

لكن الله تعالى يغفر الذنوب جميعها، ما دام العبد لم يغرغر، أو لم تطلع الشمس من مغربها.

إذاً أي فائدة في هذه الكناية؟ أعني أن كنى عن الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة؟

قال القرطبي في الجواب على هذا:"الفائدة فيها جليلة؛ وهي التغليظ في شأن أولئك الفريق من الكفار، وإبراز حالهم في صورة حالة الآيسين من الرحمة، التي هي أغلظ الأحوال، وأشدها، ألا ترى أن الموت على الكفر، إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة".(١)

وقال ابن كثير:"يقول تعالى متوعداً ومهدداً لمن كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً، أي استمر عليه إلى الممات، ومخبراً بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات، كما قال تعالى﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[النساء:١٨]، ولهذا قال ههنا ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ أي الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغيّ"(٢).

كما ذمّ الله تعالى النصارى على ضلالهم، وأكّد في دعاء فاتحة الكتاب؛ أن نسأله أن يجنبنا سبيلهم، قال تعالى﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[الفاتحة:٦،٧]. وقد تبيَّن أن الضالِّين هم النصارى، كما قال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[المائدة:٧٧].

فالنصارى ضلوا بعد الحواريين، وأساءوا فهم معنى التقديس في عيسى عليه السلام، فزعموه ابن الله على الحقيقة، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً(٣).

كما ذمّ بالضلال مشركي العرب(٤)، فقال تعالى﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[الأنعام:١٤٠].

فأكّد ضلالهم بقوله ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾"والفائدة فيه، أنه قد يضل الإنسان عن الحق، إلا أنه يعود إلى الاهتداء ، فبين – تبارك وتعالى – أنهم قد ضلوا، و لم يحصل لهم الاهتداء

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩٢/١

(٢) تفسير القرآن العظيم ٧٢/٢

(٣) التحرير والتنوير ١٩٧/١

(٤) انظر: معالم التنزيل ١٩٤/٣

قط، وهذا نهاية المبالغة في الذم".[١]

وهؤلاء لولا ما أضمرته قلوبهم من فساد، وما يدور فيها من مقت الإسلام وأهله، لغير الله تعالى قلوبهم، وصرفها إلى طاعته، قال تعالى﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الأعراف:٣٠].

قال ابن عاشور:"قوله﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ استئناف مراد به التعليل لجملة ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾[النحل:٣٦].

وهذا شأن (إن) إذا وقعت في صدر جملة عقب جملة أخرى، أن تكون للربط والتعليل، وتُغني غناء الفاء.

والمعنى أن هذا الفريق، الذي حقت عليهم الضلالة، لما سمعوا الدعوة إلى التوحيد والإسلام، لم يطلبوا النجاة، ولم يتفكروا في ضلال الشرك البيّن، ولكنهم استوحوا شياطينهم، وطابت نفوسهم بوسوستهم، وائتمروا بأمرهم، واتخذوهم أولياء، فلا جرم أن يدوموا على ضلالهم؛ لأجل اتخاذهم الشياطين أولياء من دون الله.

وعطف جملة {ويحسبون} على جملة {اتخذوا} فكان ضلالهم ضلالاً مركباً، إذ هم قد ضلوا في الائتمار بأمر أئمة الكفر وأولياء الشياطين، ولما سمعوا داعي الهدى لم يتفكروا، وأهملوا النظر، لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، لا يتطرق إليهم شك في أنهم مهتدون، فلذلك لم تخطر ببالهم الحاجة إلى النظر في صدق الرسول ﷺ، والحسبان الظن، وهو هنا ظن مجرد عن دليل.

وعطْفُ هذه الجملة على التي قبلها، واعتبارهما سواء في الإخبار عن الفريق الذين حقت عليهم الضلالة؛ لقصد الدلالة على أن ضلالهم حاصل في كل واحد من الخبرين، فولاية الشياطين؛ ضلالة، وحسبانهم ضلالهم هدى؛ ضلالة أيضاً، سواء كان ذلك كله عن خطأ، أو عن عناد، إذ لا عذر للضّال في ضلاله بالخطأ، لأن الله نصب الأدلة على الحق وعلى التمييز بين الحق والباطل"[٢].

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ٤٦٥/٨

(٢) التحرير والتنوير ٧١/٨

ومما ذم الله به المفسدين، الفسق:

من الأوصاف التي وصف بها المفسدون الفسق،"والفسق العصيان، والترك لأمر الله تعالى، والخروج عن طريق الحق"[١].

قال الطبري:"وأصلُ الفسق في كلام العرب: الخروجُ عن الشيء. يقال منه: فسقت الرُّطَبة؛ إذا خرجت من قشره، ومن ذلك سُمّيت الفأرةُ فُوَيْسِقة؛ لخروجها عن جُحرها، فكذلك المنافق والكافر؛ سُمّيا فاسقيْن؛ لخروجهما عن طاعة ربهما.

ولذلك قال جل ذِكره؛في صفة إبليس﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾[الكهف:٥٠]، يعني به خرج عن طاعته، واتباع أمره"[٢].

والفسق أعم من الكفر، حيث يشمل الكفر وما دونه من المعاصي، فالفاسق أعمّ من الكافر، والظالم أعمّ من الفاسق[٣].

وقد جاء وصف المفسدين بالفسق؛ تشهيراً بهم وزجراً لغيرهم.

قال تعالى﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾[الأنعام:٤٩].

قال ابن كثير:"أي ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه، وانتهاك حرماته"[٤].

كما تحدث القرآن عن قوم نوح، وما كان من فسقهم وعتوهم، فقال ﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾[الذاريات:٤٦]."وجملة ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ تعليل لما تضمنه قوله ﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ ﴾ وتقدير كونهم آية للذين يخافون العذاب؛ من كونهم عوقبوا، وأن عقابهم لأنهم كانوا قوماً فاسقين"[٥].

وكذلك جاء هذا الوصف لقوم موسى عليه السلام قال تعالى﴿ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ

---

(١) انظر: لسان العرب ٣٠٨/٥ مادة (فسق)

(٢) جامع البيان ٤٠٩/١

(٣) انظر: المفردات للراغب ص ٣٨٢

(٤) تفسير القرآن العظيم ٢٥٨/٣

(٥) التحرير والتنوير ٣٥/٢٧

﴿وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[القصص:٣٢].

أي:"خارجين عن حدود الظلم والعدوان، فكانوا أحقاء بأن نرسلك إليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين"(١).

وقوم لوط عليه السلام كانوا يعلمون الخبائث، وكانوا قوماً فاسقين، لخروجهم عن منهج الله تعالى، ولتركهم للحلال، وذهابهم إلى الحرام الذي حرم عليهم، فبسبب فسقهم نزل عليهم عذاب الله قال تعالى﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾[الأنبياء:٧٤].

والعذاب نزل عليهم أيضاً بسبب فسقهم، قال تعالى﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[العنكبوت:٣٤].

كما وصف أهل الكتاب بأن أكثرهم فاسقين، قال تعالى﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[آل عمران:١١٠].وقال تعالى﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾[المائدة:٥٩].

قال الرازي:"فإن قيل: اليهود كلهم فساق وكفار، فلم خصّ الأكثر بوصف الفسق؟

والجواب من وجهين؛ الأول: يعني أن أكثركم إنما يقولون ما يقولون، ويفعلون ما يفعلون؛ طلباً للرياسة والجاه، وأخذ الرشوة، والتقرب إلى الملوك، فأنتم في دينكم فساق لا عدول، فإن الكافر والمبتدع قد يكون عدل دينه، وقد يكون فاسق دينه، ومعلوم أن كلهم ما كانوا كذلك، فلذلك خصّ أكثرهم بهذا الحكم.

والثاني: ذكر أكثرهم؛ لئلا يُظن أن من آمن منهم داخل في ذلك"(٢).

كما ذمّ الله تعالى بالفسق؛ المنافقين في عدة مواضع، كقوله ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[التوبة:٩٦]

أي:"ما داموا فاسقين، فإن اللّه لا يرضى عليهم، لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن ما رضيه اللّه لهم من الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك، والنفاق، والمعاصي"(٣).

---

(١) إرشاد العقل السليم ١٣/٧

(٢) التفسير الكبير ٣٠/١٢

(٣) تيسير الكريم الرحمن. ص ٣٤٨

وقد وصف عامة المفسدين من المكذبين بالفسق، كما قال تعالى ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١،١٠٢]

قال ابن كثير: "أي ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين، خارجين عن الطاعة والامتثال، والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه، وفطرهم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب، أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، فأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره، بلا دليل، ولا حجة، لا من عقل ولا شرع، وفي الفطرة السليمة، خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك"(١).

وكذلك ذم المفسدين: بضعف العقل والعلم.

فللمفسدين عقولاً، لكنها لا تفهم ما يقال لها، ولو فهموا المراد؛ لتراجعوا عما هم فيه، ولأنهم لا فهم له؛ فقد اطَّرد وصفهم بقلة الفهم، وانتفاء العلم.

قال تعالى ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

قال الطبري: "مثل الكافر - في قلة فهمه عن الله ما يتلى عليه في كتابه، وسوء قبوله لما يدعى إليه، من توحيد الله، ويوعظ به - مثل البهيمة التي تسمع الصوت إذا نعق بها، ولا تعقل ما يقال لها"(٢).

وقال ابن كثير: "أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل، كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيها، أي دعاها إلى ما يرشدها، لا تفقه ما يقول، ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط هكذا.

وقيل: إنما هذا مثل ضُرب لهم، في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً، والأول أولى؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئاً، ولا تعقله، ولا تبصره، ولا بطش لها، ولا حياة

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣١٣/٢

(٢) جامع البيان ٨٤/٢

فيها، وقوله ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أي صمٌّ عن سماع الحق، بُكمٌ لا يتفوهون به، عُميٌ عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يعلمون شيئاً، ولا يفهمونه"(١).

فسلَب الله تعالى منهم نعمة الفهم، وتركهم إلى أنفسهم يقلدون غيرهم من أهل الفساد الغواية، بل ويدافعون عن معتقداتهم الباطلة، والأدهى من ذلك، أنهم يموتون في سبيلها، وينفقون كل ما يملكون من أجلها أيضاً.

وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[الأعراف:١٧٩]

فالمقصود أن هذه الجوارح، لا ينتفعون بشيء منها، مع أن الله جعلها سبباً للهداية.

قال الزمخشري:"وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله؛ نظر اعتبار، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله؛ سماع تدبر، كأنهم عدموا فهم القلوب، وإبصار العيون، واستماع الآذان، لإعراقهم في الكفر، وشدة شكائمهم فيه، فأولئك في عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتدبر " بل هم أضل " من الأنعام، إذ الأنعام تبصر منافعها ومضارها، فتلزم بعض ما تبصره، وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار"(٢).

فهذه الجوارح لم تنفعهم للسير في طريق الحق، ولم تغن عنهم شيئاً، كما قال تعالى عن عاد قوم هود﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[الأحقاف:٢٦].

قال ابن عاشور:"هذا استخلاص لموعظة المشركين بمثل عاد، ليعلموا أن الذي قدر على إهلاك عاد، قادر على إهلاك من هم دونهم في القوة والعدد،وليعلموا أن القوم كانوا مثلهم، مستجمعين قوى العقل والحس، وأنهم أهملوا الانتفاع بقواهم، فجحدوا بآيات الله، واستهزؤوا بها وبوعيده، فحاق بهم ما كانوا يستهزئون به،وقريش يعلمون أن حالهم مثل الحال المحكية عن أولئك، فليتهيأوا لما سيحل بهم".(٣)

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٧٨/١

(٢) الكشاف ١٦٩/٢

(٣) التحرير والتنوير ٤٠١٥

فإعراض أصحاب العقول عن قبول الحجة والتذكر بها، دليل على أنها سيأتي عليها وقت تتوقف فيه عن الإدراك والعمل، فلن تغني عنهم سمعهم، ولا أبصارهم، ولا أفئدتهم من شيء، فلا يستطيعون التوصل بها إلى إدراك المطلوب.

وهكذا؛ كثيراً ما ينفي الله الشيء لانتفاء فائدته وثمرته، وإن كانت صورته موجودة.

وقال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

قال ابن كثير: "أي ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة، فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر".(١)

"والاستفهام تعجبي من حالهم، في عدم الاعتبار بمصارع الأمم المكذبة لأنبيائها".(٢)

فنفى الله عن المفسدين، البصيرة التي تنقل الإنسان إلى التفكر والتدبر؛ ولذا لا يعظمون أمر الشرعية، مما يدل على أنهم لا يفقهون ما ينفعهم مما يضرهم، كما قال تعالى في أهل الكتاب ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:٥٨].

"وهذا تحقير لهم، إذ ليس في النداء إلى الصلاة ما يوجب الاستهزاء؛ فجعُله موجباً للاستهزاء سخافة لعقولهم"(٣).

وقد ذم الله المفسدين بعدم العلم، بسبب اعتقاداتهم الباطلة، وأقوالهم الفاسدة، كما قال تعالى ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٣٧].

"أي ولكن أكثر المعاندين لا يعلمون أن ذلك لو شاء الله لفعله، ويحسبون أن عدم الإجابة إلى مقترحهم، يدل على عدم صدق الرسول ﷺ، وذلك من ظلمة عقولهم، فلقد جاءهم من الآيات ما فيه مزدجر"(٤).

وقال تعالى ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٦].

قال السعدي ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما وعد اللّه به حق، فلذلك يوجد فريق منهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٣٠٥

(٢) التحرير والتنوير ٣/٨٩

(٣) المصدر السابق ٥/١٤٠

(٤) المصدر السابق ٤/٤٩٥

يكذبون بوعد الله، ويكذبون آياته، وهؤلاء لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[الروم:٧]،فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها.

فهم ﴿عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها؛ فعملت لها، وسعت وأقبلت بها، وأدبرت وغفلت عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا؛ إلى أمر يحير العقول، ويدهش الألباب، وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية والهوائية؛ ما فاقوا به، وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم اللّه عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رآهم أهل البصائر النافذة، في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون، نسوا اللّه فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون"(١).

وفي هذا تثبيت لأهل الإيمان؛ ألا يغتروا بحال الكافرين، وإن أبدعوا في علوم الدنيا، فهذا في حقيقة الأمر؛ لا يغني عنهم من الله شيئاً.

ومن ذم المفسدين: ضرب الأمثال الدالة على فسادهم وانحرافهم.

وهذا الأسلوب من الأهمية بمكان، كما قال الرازي:"المقصود من ضرب الأمثال، أنها تؤثر في القلوب، ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأن الغرض من المثل؛ تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحسُّ مطابقاً للعقل، وذلك في نهاية الإيضاح، ألا ترى أن الترغيب؛ إذا وقع في الإيمان مجرداً عن ضرب مثل له، لم يتأكد وقوعه في القلب؛ كما يتأكد وقوعه إذا مثِّل بالنور، وإذا زُهِّد في الكفر بمجرد الذكر، لم يتأكد قُبحه في العقول؛ كما يتأكد إذا مثل بالظلمة، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن. ص ٦٣٦

وضرب مثله بنسج العنكبوت، كان ذلك أبلغ في تقرير صورته من الإخبار بضعفه مجرداً، ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين، وفي سائر كتبه أمثاله، قال تعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٣][١].

ومن الأمثلة التي ضربها الله في المفسدين، قوله تعالى عن المنافقين ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾[البقرة:١٧].

قال ابن كثير:"شبَّههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى؛ بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله، وانتفع بها، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها، فبينا هو كذلك، إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد، وفي هذا المثل؛ دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع، والله أعلم".[٢]

وفي الآية التي تليها قال سبحانه ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة:١٩].

قال ابن القيم:"ذكر حالهم بالنسبة إلى هذا المثل المائي، فشبههم بأصحاب صيّب، وهو المطر الذي يصوب، أي يترل من السماء، فيه ظلمات ورعد وبرق، فلضعف بصائرهم وعقولهم، اشتدت عليهم زواجر القرآن، ووعيده وتهديده، وأوامره ونواهيه، وخطابه الذي يشبه الصواعق، فحالهم؛ كحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق، فلضعفه وخوفه جعل أصبعيه في أذنيه خشية من صاعقة تصيبه".[٣]

وقال رحمه الله معلقاً على المثل الأول:"تأمل كيف قال الله تعالى ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ فوحَّده، ثم قال ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ فجمعها، فإن الحق واحد، وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادته وحده لا شريك له، بما شرعه على لسان رسوله ﷺ

(١) التفسير الكبير ٦٦/٢

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨٣/١

(٣) الأمثال في القرآن لابن القيم. ص ٩

لا بالأهواء والبدع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة، ولهذا يفرد سبحانه الحق ويجمع الباطل، كقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة:٢٥٧]. وقال تعالى﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[الأنعام:١٥٣]، فجمع سُبل الباطل ووحَّد سبيل الحق"(١).

كما ضرب سبحانه وتعالى أمثالاً للكافرين، كقوله تعالى﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾[إبراهيم:١٨].

قال القرطبي:"والمعنى؛ أعمالهم محبطة غير مقبولة، والرماد ما بقي بعد احتراق الشيء، فضرب الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف، والعصف شدة الريح وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى".(٢)

وقال تعالى في وصف حالهم ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ٤٩ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾[المدثر:٤٩،٥١]. "أي كأنهم في نفارهم عن الحق، وإعراضهم عنه، حُمُر من حُمُر الوحش، إذا فرت ممن يريد صيدها، من أُسد"(٣).

وفي اليهود قال تعالى ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الجمعة:٥].

أي: مثل الذين أوتوا التوراة من اليهود والنصارى، فحمِّلوا العمل بها، ثم لم يعملوا بما فيها، وكذبوا بمحمد ﷺ، وقد أمروا بالإيمان به فيها، واتباعه والتصديق به؛ كمثل الحمار يحمل على ظهره كتباً من كتب العلم، لا ينتفع بها، ولا يعقل ما فيها، فكذلك الذين أوتوا التوراة التي فيها بيان أمر محمد ﷺ مثلهم إذا لم ينتفعوا بما فيها، كمثل الحمار الذي يحمل أسفاراً

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، لابن القيم ٢٢/١

(٢) الجامع لأحكام القرآن٩/٣٠١

(٣) تفسر القرآن العظيم ٥٧٤/٤

فيها علم، فهو لا يعقلها ولا ينتفع بها[١].

وقريباً من ذلك قوله تعالى ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦].

فهو مثل ضربه الله تعالى للعالِم الضال، المنسلخ عن العلم النافع، دائم اللهاث وراء شهواته.

ومن بليغ الذَّم للمفسدين، أنه تعالى نفى المساوة بينهم وبين المؤمنين، كما قال تعالى ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[هود:٢٤].

قال الطبري:"مثل فريقي الكفر والإيمان، كمثل الأعمى الذي لا يرى بعينه شيئاً، والأصم الذي لا يسمع شيئاً، فكذلك فريق الكفر؛ لا يبصر الحق فيتبعه ويعمل به، لشغله بكفره بالله، وغلبة خذلان الله عليه، لا يسمع داعي الله إلى الرشاد، فيجيبه إلى الهدي فيهتدي به، فهو مقيم في ضلالته، يتردد في حيرته، (والسميع والبصير) فذلك فريق الإيمان؛ أبصر حجج الله، وأقرَّ بما دلت عليه من توحيد الله، والبراءة من الآلهة والأنداد، ونبوة الأنبياء عليهم السلام، وسمع داعي الله فأجابه، وعمل بطاعة الله"[٢].

هذا؛ وما ذكرته هنا؛ ما هو إلا إشارات مختصرة، في ذم المفسدين، ومن تأمل ما بين دفتي الكتاب، وقف من ذلك على كثير من الأوصاف والألقاب، نسأل الله السلامة والعافية.

---

(١) جامع البيان ٩٢/١٢

(٢) جامع البيان ٢٧/٦

المبحث الثالث

بَيَانُ عَاقِبَتِه

من أساليب دفع الفساد؛ بيان عاقبته، وقد عُني الكتاب العزيز بذلك في كل موضع بحسبه، على التفصيل والإجمال.

ومن خلال الآيات التي بيّن الله تعالى فيها عاقبة الفساد، نجد الأسلوب القرآني؛ يتحول من مجرد الإخبار؛ إلى النهي عن سلوك طرق الفساد.

ولهذا الأسلوب صوَره المؤثِّرة، في عالج الفساد، بل إن ذلك من أكثر الأساليب تأثيراً، فهي تجعل للنهي معنى ظاهراً، يدركه الناس على ما بينهم من تفاوت الأفهام، ولها أثر بالغ في زجرهم عن المفاسد والآثام.

ومن صور ذلك؛ أن الله تعالى نفي التسوية بين المؤمنين والمفسدين في العاقبة.

قال ابن القيم:"إنكاره سبحانه أن يسوي بين المختلفين، أو يفرق بين المتماثلين، وأن حكمته وعدله؛ يأبى ذلك أما الأول، فكقوله تعالى﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[القلم:٣٥،٣٦]. فأخبر أن هذا حكم باطل جائر، يستحيل نسبته إليه، كما يستحيل نسبة الفقر والحاجة والظلم إليه.

وقال تعالى﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[ص:٢٨]، وقال﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية:٢١].

فجعل سبحانه ذلك حكماً سيئاً، يتعالى ويتقدس عن أن يجوز عليه، فضلاً عن أن ينسب إليه".[1]

وكذا قوله﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[ص:٢٨]، "وهذا استفهام إنكار، فدلَّ على أن هذا قبيح في نفسه، منكر تنكره العقول والفطر، أفتظنون أن ذلك يليق بنا، أو يحسن منا فِعله، فأنكر سبحانه إنكار منبِّه للعقل والفطرة، على قُبحه، وأنه لا يليق بالله نسبته إليه"[2].

فكيف يكون الحال بمن هو متصف بهذا الوصف القبيح؛ أعني الفساد.

وجاء القرآن مبيناً عاقبة الفساد الوخيمة، في تشنيع بليغ للفرعون الذي أرداه الفساد إلى

---

(١) شفاء العليل ص٢٠٠

(٢) مدارج السالكين ٢٣٨/١

أسوأ حال، قال تعالى﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[يونس: ٩٠].

قال ابن تيمية:"فإن هذا الخطاب هو استفهام إنكار، أي: الآن تؤمن، وقد عصيت قبل، فأنكر أن يكون هذا الإيمان نافعاً أو مقبولاً، فمن قال إنه نافع مقبول؛ فقد خالف نص القرآن، وخالف سنة الله التي قد خلت في عباده"(١).

فهذا تقريع وتوبيخ من الله تعالى لفرعون الذي مات على الكفر، ومن قبل كان يفسد في الأرض؛ بإضلال الناس عن طريق الله تعالى.

وقد جاءت التنبيه على ذلك أيضاً، في ذكر سوء عاقبة قارون حيث ذيِّلت القصة بقوله تعالى﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص:٨٣].

والمتدبر للقرآن الكريم، يجده يعرض عاقبة الفساد عرضاً شافياً؛ لأجل درئه، كما في قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[يوسف:١٠٩، ١١٠].

قال ابن كثير:"فإذا استمعوا خبر ذلك؛ رأوا أن الله قد أهلك الكافرين، ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه،ولهذا قال تعالى﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا،كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة، وهي خير لهم من الدنيا بكثير".(٢)

وفي هذا دعوة لمن يسعى في الأرض فساداً؛ أن يتدبر مصير هؤلاء، وأن ما حلَّ بهم، هو عاقبة فسادهم.

والمقصود: أفلم يسيروا في الأرض، فينظروا كيف كان عاقبة المفسدين السابقين لهم، من غيرهم من الأمم، فينظروا آثار آخر أحوالهم، من الهلاك والعذاب، فيعلموا أن عاقبتهم، على قياس عاقبة الذين كذبوا الرسل قبلهم.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/٢٥٨

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٦٥٢

ولقد تعرّض القرآن الكريم في بيانه عاقبة الفساد، بأسلوب فيه تهديد، ليملي لهم في ضلالهم؛ إملاءً يُشعر في متعَارف التخاطب؛ بأن المأمور به مما يزيد المأمور استحقاقاً للعقوبة واقتراباً منها.

قال تعالى ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام:١٣٥].

والمعنى اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي، فإني ثابت على الإسلام،وعلى مصابرتكم، فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة المحمودة.

وطريقة هذا الأمر طريقة قوله ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فُصِّلَت:٤٠]، وهي التخلية والتسجيل على المأمور؛ بأنه لا يأتي منه إلا الشر، فكأنه مأمور به، وهو واجب عليه حتم ليس له أن يتفصَّى عنه، ويعمل بخلافه، وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك، فيه إنصاف في المقال، وأدب حسن، مع تضمن شدة الوعيد، والوثوق بأن المنذِر محق، والمنذَر مبطِل".[1]

ثم يبين سبحانه وتعالى أن هؤلاء المفسدين؛ يسيرون على منهج من سبقهم، وكأنها منظومة واحدة، ودرب واحد، يسيرون عليه جميعاً، إذا يكون العقاب موحد لهم جميعاً، لأن هدفهم واحد؛ ألا وهو الإفساد في الأرض، قال تعالى ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس:٣٩].

إذاً لا دافع وراء هذا؛ إلا الجهل والسَّفه، دون أدنى تمحيص أو نظر.

قال ابن كثير:"أي فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وعناداً وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم"[2].

ومن ثَّم؛ كانت سنة الله تعالى في عاقبتهم لا تتبدل﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المرسلات:١٦،١٨].

وفي مواضع عِدَّة، أمر سبحانه بالسير في الأرض ليتبين العباد عاقبة المفسدين، وما نزل بهم، فقال ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠].

والسير ينقسم إلى قسمين: سير بالقدم، وسير بالقلب.

---

(١) انظر: الكشاف ٣٧٩/١

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٤٩/٢

إما السير بالقَدَم؛ بأن يسير الإنسان في الأرض على أقدامه، أو راحلته، لينظر ماذا حصل للكافرين، وما صارت إليه حالهم.

وأما السير بالقلب: فبالتأمل والتفكر؛ فيما نقل من أخبارهم.

قال تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٦،٣٧].

فالله تبارك وتعالى أهلك المفسدين بسبب فسادهم، وهؤلاء كانت قوتهم عظيمة، وكان عندهم من الدنيا ما عندهم، إلا أن هذا لم يُغنِ عنهم من عذاب الله من شيء.

وهكذا من فعل ما فعله هؤلاء، لحلَّ به ما حلَّ بهم من العذاب، فهل ثَمَّ مَفرّ من الله ؟

ومن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟

قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم:٩]. وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر:٢١].

هؤلاء المكذبين كانوا أكثر منا قوة، وأشد بأساً، ومع هذا دمرهم الله تعالى، وجعلهم آية للعالمين.

ولم يكن سوء عاقبتهم خبراً يتلى فحسب، بل جعل الله تعالى منها مشاهد للناظرين، آيات للسائلين، قال تعالى ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل٥١،٥٢]. وقال في فرعون ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس:٩٢].

هذا، وسيأتي تِباعاً في هذه الرسالة؛ بيان أشمل لعاقبة الفساد في الدنيا والآخرة، وإنما أفردته هنا بمبحث مستقل، للتأكيد على عناية القرآن ببيان ذلك؛ كأسلوب من أساليبه في دفع الفساد.

المبحث الرابع
ذِكْرُ مَنْ اتصَفَ بالفسَادِ

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: الشيطان.

المطلب الثاني: مكذبو الرسل.

المطلب الثالث: أهل الكتاب.

المطلب الرابع: المنافقون.

المطلب الخامس: السحرة.

المطلب السادس: البغاة والمحاربون.

المطلب السابع: الكبراء والأثرياء.

تمهيد:

من أساليب القرآن الكريم في بيان الفساد؛ ذكر من اتصف به، حيث جاء وصف المفسدين واضحاً بيناً، ليتميز طريق الهدى من الضلال، والغيّ والرشاد، ويتبيّن الحق الذي ينبغي سلوكه، فيهتدي بذلك المهتدون، ولتستبين سبيل المفسدين؛ الموصلة إلى سخط الله وعذابه، فإن سبيلهم إذا استبانت واتضحت، أمكن اجتنابها، والبعد منها، بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل. كما قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥][1].

وقد ذَكرت في هذا المبحث، أبرز من اتصف بالفساد من الخلق، ولم أقصد حصر جميع المفسدين، والحديث عن جميع صور إفسادهم، فإن ذلك ليس من منهجي في هذا البحث، إذ المقصود هنا بيان شيء من مظاهر الفساد، التي اتصف بها المفسدون. لِلدلالة على أن من منهج القرآن في بيان الفساد؛ ذكره لمن اتصف به.

ثم إنّ حصر جميع صور الفساد لصنف واحد من المفسدين، حقيقٌ بأن يكون في بحث مستقل، فآي الكتاب العزيز؛ مطردة في كشف الفساد وأهله.

كيف وقد جمع هذا المبحث جملة من أصناف المفسدين.

وكما إن من أسلوب القرآن في الدعوة إلى الخير والصلاح، ذكر المصلحين وصفاتهم، حيث جاءت الآيات مفصلة حال الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، للاقتداء بهم، كما قال تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

فكذلك ذكر - سبحانه - صفات المفسدين، لبيان شرِّهم، والتحذير من فسادهم والتشبه بهم.

ولقد حذّر الله تعالى من المفسدين، مع بيانه طرائقهم في الفساد والإفساد غاية التبيين، فقال عن أهل الكتاب ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ﴾ [المائدة:٤٩]، وقال في شأن المنافقين ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ﴾ [المنافقون:٤].

وإذا كان هذا الخطاب للنبيﷺ - وهو المعصوم - فهو خِطاب لأمته من باب أولى.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٢٥٨.

ومن اللطائف القرآنية في هذا الصدد، أنه كثيراً ما ترد في سورة إشارة مجملة إلى بعض أصناف المفسدين، ثم تفصّل في التي تليها، فذكر في سورة الفاتحة؛ المغضوب عليهم والضالون، ثم جاء التفصيل في سورتي البقرة وآل عمران، وذكرت القرون المكذبة إجمالاً في الأنعام والفرقان ويس، وجاء تفصيل ذلك فيما يليهنّ؛ الأعراف والشعراء، والصافات.

وقد ضمّ هذا المبحث سبع مطالب، اشتملت على أبرز المفسدين، الذين تحدّث عنهم القرآن الكريم. وفيما يلي بيان ذلك.

المطلب الأول: الشيطان(١).

لقد أخذ الشيطان – عياذاً بالله منه – العهد والميثاق، لإغواء بني آدم، عداوة منه لهم، فأظهر تلك العداوة؛ منذ أن رفض الانقياد لأمر ربه بالسجود لآدم عليه السلام، ولهذا حذّر تبارك وتعالى من الشيطان وكيده وجنده،وأمرنا أن نتخذه عدواً، قال تعالى﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر:٦].

فكان اتباع الشيطان من أسباب الخسارة في الدنيا والآخرة، فإن هم أطاعوه؛ فقد أحلوا أنفسهم دار البوار، ولن يستنقذهم من النار، إذ كيف ينقذهم منها، وهو خالد فيها؟

ولا ريب أن هذه العدواة الحتمية؛ جعلت الشيطان يبذل وسعه للإفساد والغواية، فلم يألوا جهداً في كل سبيل يصدّ عن الهدى والحق.

ولئن كان هذا الأمر مستقرّ في الأذهان فهمه، ومن البدهي علمه، إلا أن أكثر الخلق في غفلة عن الحق ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[يوسف:١٠٣]، فأزلّهم الشيطان وزين لهم سوء أعمالهم.

واسم الشيطان أول آمارة على فساد طبعه وأعماله، فالشيطان: فيعال من شطن إذا بعُـد، فيمن جعل النون أصلاً، وقولهم الشياطين على ذلك.

قال ابن فارس: الشين والطاء والنون أصلٌ مطّرد صحيح يدلُّ على البُعد. يقال شَطَنت الدار تَشْطُن شطوناً؛ إذا غَرَبَت. ونوىً شَطونٌ، أي بعيدة(٢). قال النابغة:

نَأَتْ بسعادَ عنك نوىً شَطونُ فبانتْ والفـؤادُ بها رهـينُ (٣)

وكل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب؛ شيطان، قال جرير:

أيام يدعونني الشيطان من غزل وكنَّ يهوينني إذْ كنتُ شيطانا(٤)

وتشيطن الرجل وشيطن؛ إذا صار كالشيطان وفعل فعله.

وقيل: الشيطان فعلان من شاط يشيط؛ إذا هلك واحترق، مثل هيمان وغيمان، من هام

---

(١) عقد الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه "إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان" باباً في بيان فساد الشيطان وكيده. وقد أفدت منه في هذا المطلب، فمن رام الاستزادة فليرجع إليه، ١/١٢٠

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/١٨٥

(٣) ديوان النابغة ١/١٠٠

(٤) ديوان جرير ١/٦٦٢

وغام.

قال الأزهري"الأول أكثر، والدليل على أنه من شطن،قول أمية بن أبي الصلت يذكر سليمان النبي عليه السلام:

أيما شاطن عصاه عكـــاه[١] ثم يلقى في السجن والأغلال

أراد: أيما شيطان"[٢].

وفي التتريل العزيز ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[الصافات:٦٥].

قال الزجاج: وجهه أن الشيءِ إذا استقبِح شبّه بالشياطين، فيقال: كأنه وجه شيطان، وكأنه رأس شيطان، والشيطان لا يُرى، ولكنه يستشعر أنه أقبح ما يكون من الأشياء، ولو رؤي لرؤي في أقبح صورة.[٣]

قال ابن القيم:"وأما الشيطان فذكر في عدة مواضع، وأفردت له سورة تامة، فتحذير الرب تعالى لعباده منه، جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره، فإن شرَّ النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركَبه وموضع شرَكه ومحل طاعته، وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن، وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه، و لم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة"[٤].

ولقد أبرز القرآن صور إفساد الشيطان وبيَّنها غاية البيان، كيف وهو مبدأ الفساد ومنتهاه، والقيّم عليه، والوصيّ به، والمستخلف عليه، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد بدأ إفساده من الحظة الأولى التي استخلف الله فيها الناس في الأرض، فلما طرده الله تعالى من رحمته، وأبعده من جنته، طلب إنظاره إلى يوم القيامة، ليعيث في الأرض فساداً، باذلاً وسعه وطاقته، لا يفتأ ولا يكل.

ولا أبلغ في وصف إفساده وغوايته، من قوله لربه تبارك وتعالى﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

(١) يقال: عكوته في الحديد والوثاق عَكواً، إذا شددته. انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٣١٩/١

(٢) تهذيب اللغة ٢١٤/١١، لسان العرب ١٣/ ٢٣٧

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٣١/٤

(٤) إغاثة اللهفان ١٠٤/١

شَٰكِرِينَ ﴾[الأعراف:١٦،١٧].

ولعلي أعرِّج على بعض صور إفساده، فمن ذلك:

أمره بالكفر: فهو من أبشع صور الفساد التي يريدها الشيطان ويسعى إليها، دون كلل أو ملل، قال تعالى عنه ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾[النساء:١١٨،١١٩].

قال ابن جرير:"يتخذ منهم ذلك النصيب، بإغوائه إياهم عن قصد السبيل، ودعائه إياهم إلى طاعته، وتزيينه لهم الضلال والكفر، حتى يزيلهم عن منهج الطريق، فمن أجاب دعاءَه واتّبع ما زينه له، فهو من نصيبه المعلوم، وحظّه المقسوم.

وذُكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾قال: دين الله"(١).

ومعنى ذلك: أن الله تعالى فطر عباده على الفطرة المستقيمة،وهي ملة الإسلام،كما قال تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم:٣٠].

ولهذا قال ﷺ"ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه،أو ينصرانه،أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، فهل تحسون فيها من جدعاء(٢)حتى تجدعونها" ثم قرأ أبو هريرة رضي الله عنه﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الآية(٣).

"فجمع ﷺ بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير، وتغيير الخِلقة بالجدع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لابد أن يغيّرهما، فغيّر فطرة الله بالكفر، وهو تغيير الخلقة التي خلقوا عليها، وغيّر الصورة بالجدع والبتك، فغيّر الفطرة إلى الشرك، والخلقة إلى البتك والقطع، فهذا تغيير خلقة الروح، وهذا تغيير خلقة الصورة"(٤).

---

(١) جامع البيان ٤/٢٨٠.

(٢) الجمعاء :السليمة من العيوب مُجتمِعة الأَعضاء كاملتها، فلا جَدْعَ بها ولا كيّ. والجدعاء من الجدع: وهو قطع الأنف أو الأذن. انظر: لسان العرب ٨/٥٣

(٣) أخرجه البخاري.كتاب الجنائز. باب إذا أسلم الصبي.ح(١٣٥٨)،ومسلم.كتاب القدر.باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.ح(٢٦٥٨).

(٤) إغاثة اللهفان ١/١٢٣.

إن الكفر هو أول طريق يسلكه الشيطان مع ابن آدم، كما أخبر بذلك ﷺ بقوله"إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تُسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك، فعصاه فأسلم"(١).

إن المتأمل في انحراف البشرية عن دين الله تعالى؛ يرى طرائق قِدداً، وذلك برهان ظاهر على عتو إبليس، وشدة تلبيسه على الناس، وإلا فما تفسير ما تعجّ به الأرض من صور الكفر والإشراك بالله عز وجل.

وصدق جل وعلا إذ يقول ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٠-٦٢].

ومن صور إفساد الشيطان:وحيه لأوليائه بمجادلة أهل الحق، زعزعةً منه لإيمانهم، وقذف الوهن في قلوبهم.

قال سبحانه﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:١٢١].

فإن المشركين حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة، قالوا - معاندة لله ورسوله، ومجادلة بغير حجة ولا برهان - أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك: الميتة.

وهذا رأي فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة، التي لو كان الحق تبعا لها؛ لفسدت السماوات والأرض، ومن فيهن.

فتباً لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة.

ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء الفاسدة وأشباهها، صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم،ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير"(٢).

ولربما كان لهذا الوحي الشيطاني، أثره في نفوس بعض المؤمنين، فيصيبهم بفتور الهمّة وضعف

---

(١) أخرجه النسائي.كتاب الجهاد.باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد.ح(٣١٣٣)، وابن حبان.باب فضل الجهاد. ١٩١/١٩،ح(٤٦٧٦)، وصححه الألباني في الصحيحة١١٨٦/٦، ح(٢٩٧٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٢١٧

القوة، ومن ثمّ قِلة الحرص على غلبة أولياء الشيطان، فيظهر الباطل وينتفش، في حال ضعف أهل الحق؛ عن طلبهم استعلاء الحق الذي هم عليه.

وإنا لنراها ظاهرة جلية، فكم من أمرٍ نرى فيه مكيدة أهل الباطل ظاهرة قوية، لا لقوتها؛ بل لضعف أهل الحق عن ردّ الباطل، وبيان الحق والذبّ عنه.

وإن تلك المكيدة الشيطانية تتجاوز المجادلة بالباطل، لتسعى جاهدة في تخويف أهل الإيمان، من أولياء الشيطان، حتى لا يجاهدوهم، فلا يأمروا بالمعروف ولا ينهوا عن المنكر، ويخوفهم عند إيثار مرضاة الله، بكل ما يمكن،وما لا يمكن، مما يُدخله في عقولهم،حتى يكسلوا عن فعل الخير، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، قال سبحانه ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥].

أي:"يخوفكم بأوليائه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة"(١)، فهو يحاول أن يجعل أولياءه مصدر خوف ورعب، وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة؛ ومن ثمَّ ينبغي أن يفطن المؤمنون إلى مكر الشيطان،وأن يبطلوا محاولته، فإنه يضخِّم شأن أوليائه،ويلبسهم لباس القوة والقدرة، ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول، وأنهم يملكون النفع والضر، وما ذاك إلا ليحقق بهم الفساد والشر في الأرض، وليخضع لهم الرقاب، ويطوّع لهم القلوب، فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار؛ وهو صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل، وأن يتضخم الشر، وأن يتبدى قوياً قادراً قاهراً، لا تقف في وجهه معارضة، ولا يصمد له مدافع ولا يغلبه من المعارضين غالب.

والشيطان ماكر مخادع، يختفي وراء أوليائه، وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته، ومن هنا كشف الله كيده ومكره، وعرّف المؤمنين حقيقة ووسوسته؛ ليكونوا منها على حذر، فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم، فهو وإياهم؛ أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه، ويستند إلى قوته.

ولذلك طمأن الله تعالى المؤمنين الذين يقفون على خط المواجهة مع أولياء الشيطان، فقال لهم ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[النساء:٧٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٣٢/١

ومن صور إفساده: ما أخبر به سبحانه بقوله ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[الإسراء:٦٤].

أي: استخففف – من ذرية آدم – من استطعت بصوتك، ولم يخصص من ذلك صوتاً دون صوت.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو كل داعٍ دعا إلى معصية الله عز وجل، وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير[1].وقال مجاهد: إن صوته هو الغناء، وقال بعضهم: اللهو واللعب[2].

ولا ريب أن الغناء رسول إبليس إلى القلوب، إذ به يطرب القلب وتنتشي الأعضاء مما يحرك فيها حب الشهوة والمعصية، ولما سُئل ابن مسعود رضي الله عنه عن قوله تعالى﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[لقمان:٦]، قال:"والذي لا إله غيره هو الغناء، يرددها ثلاثاً"[3].

قال الواحدي:" أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث: الغناء"[4].

"والغناء رقية الزنا، فهو يزيد الشهوة، وينبت النفاق في القلب، وما استفزَّ الشيطان به الإنسان؛ إلا لأنه يُلهي القلب، ويصدّه عن فهم القرآن وتدبره، والعمل بما فيه، فإن القرآن والغناء؛ لا يجتمعان في القلب أبداً؛ لما بينهما من التضاد.

حب الكتاب وحب ألحان الغنا　　　في قلب عبد ليس يجتمعان[5]

فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى،ويأمر بالعفة،ومجانبة شهوات النفوس،وأسباب الغي، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء يأمر بضد ذلك كله ويحسِّنه، ويهيج النفوس إلى شهوات الغي، فيثير كامنها، ويحركها إلى كل قبيح، ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومليح، فهو والخمر رضيعا لَبان، وفي تهييجهما على القبائح فرسا رهان، وهو جاسوس القلب، وسارق المروءة،وسوس العقل، يتغلغل في مكامن القلوب، ويطلع على سرائر الأفئدة، ويدب إلى محل التخيل؛ فيثير ما فيه من الهوى والشهوة والسخافة والرعونة والحماقة، فبينا ترى

---

(١) انظر: جامع البيان ١٠٨/٨.

(٢) المصدر السابق ١٠٨/٨.

(٣) جامع البيان ٢٠٢/١٠.

(٤) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي ٤٤١/٣.

(٥) شرح قصيدة ابن القيم ٥٢١/٢

الرجل، وعليه سمة الوقار وبهاء العقل وبهجة الإيمان ووقار الإسلام وحلاوة القرآن، فإذا استمع الغناء ومال إليه؛ نقص عقله، وقل حياؤه، وذهبت مروءته، وفارقه بهاؤه، وتخلى عنه وقاره، وفرح به شيطانه"[١].

وأما قوله تعالى ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ فمعناه: تسلّطْ عليهم بكل ما تقدر عليه، وهذا أمر قدري، كما قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا، وتسوقهم إليها سوقًا"[٢].

وقيل المعنى: أجْمِع لمن اتبعك من ذرية آدم وسائلَ الفتنة والوسوسة لإضلالهم[٣].

"قال أهل التفسير: كل راكب وماش في معاصي الله؛ فهو من جند إبليس"[٤].

وأما مشاركته لهم في الأموال والأولاد، فإن مشاركته لهم في الأموال على أصناف؛ منها: ما حرموا على أنفسهم من أموالهم؛ طاعة له؛ كالبحائر والسوائب[٥]ونحو ذلك.

وما يأمرهم به من إنفاق الأموال في معصية الله تعالى، وما يأمرهم به من اكتساب الأموال بالطرق المحرمة شرعاً؛ كالربا والغصب وأنواع الخيانات، لأنهم إنما فعلو ذلك طاعة له.

أما مشاركته لهم في الأولاد؛فعلى أصناف أيضاً؛فمنها: قتلهم بعض أولادهم طاعة له، ومنها أنهم يمجسون أولادهم، ويهودونهم، وينصرونهم؛ طاعة له وموالاة، ومنها تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد العزى، ونحو ذلك، لأنهم بذلك؛سموا أولادهم عبيداً لغير الله؛ طاعة له، ومن ذلك أولاد الزنى، لأنهم إنما تسببوا في وجودهم بارتكاب الفاحشة؛ طاعة له،

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٢٧٠ بتصرّف.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٩٤.

(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ١٥٢.

(٤) معالم التنزيل ٥/ ١٠٥.

(٥) البحائر: جمع بحيرة، وهي الناقة التي قطعت أذنها، والسوائب: جمع سائبة، وهي المسيبة المخلاة، كانوا في الجاهلية يفعل ذلك أحدهم ببعض مواشية، فيحرم الانتفاع بها على نفسه.

قال ابن جرير رحمه الله:(وقد اختلف أهل التأويل في صفات المسميات بذلك، وما السبب الذي من أجله كانت تفعل ذلك....وغير ضائرٍ الجهلُ بذلك إذا كان المرادُ من علمه المحتاجُ إليه، موصلا إلى حقيقته، وهو أن القوم كانوا يحرِّمون من أنعامهم على أنفسهم ما لم يحرمه الله، اتباعًا منهم خطوات الشيطان، فوبَّخهم الله تعالى ذكره بذلك، وأخبرهم أن كل ذلك حلال. فالحرام من كل شيء عندنا ما حرَّم الله تعالى ورسوله ﷺ، بنصٍّ أو دليل، والحلال منه ما حلله الله ورسوله كذلك). انظر: جامع البيان ٧/ ٨٧

إلى غير ذلك"[١].

ويدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد؛ ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع، فإنه إذا لم يسمّ الله تعالى في ذلك، شارك فيه الشيطان.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:قال ﷺ"لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان،وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضي بينهم ولد لم يضره"[٢].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول:"إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت،وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء"[٣].

ومن صور إفساده: دعوته للتعري، وهي فتنة الشيطان لبني آدم، قال عز وجل ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ﴾[الأعراف:٢٧]. فحذّر – سبحانه – من خديعة الشيطان لبني آدم، مُذكِّراً إياهم فعلته القبيحة مع أبويهما، حين زين لهما المعصية، فنزع عنهما اللباس؛ فبدت لهما العورات، وظهرت بعد أن كانت مستترة عنهما.

ورغم هذا التحذير، المتضمن سوء العاقبة ومغبة المعصية؛ إلا أن فِعلة الشيطان ببني آدم، أصبحت الآن أشد وأنكى، فإن مشاهد العري والسفور، أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر.

وهل ما يعرض في كثير من الصحف والمجلات، وتبثه الشاشات؛ إلا تعرِّى صُراح، وفحش بواح!!

لقد أصبح ذاك العري المصوَّر؛ ظاهرة مألوفة في كثير من المجتمعات الغربية والشرقية، وامتد أثره إلى بلاد المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فتأمل منتهى هذا التزيين من ذاك اللعين، كيف ارتكس بالإنسان إلى رُتبة البهائم!

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤٤٤.

(٢) أخرجه البخاري.كتاب الوضوء.باب التسمية على كل حال وعند الوقاع.ح(١٤١)، ومسلم.كتاب النكاح.باب ما يستحب أن يقوله عن الجماع.ح(١٤٣٤).

(٣) أخرجه مسلم.كتاب الأشربة.باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما.ح(٢٠١٨).

عندها ستدرك أن تلك المجتمعات الموسومة بالتقدم والحضارة، قد شابهت الجاهلية الأولى.

بل إن فِعلتها في التعري أشد.

ومن صور إفساده: الوعود الكاذبة والأماني الباطلة.

قال تعالى ﴿وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[الإسراء:٦٤].

فبيّن سبحانه؛ أن مواعيد الشيطان كلها غرور وباطل، كوعده لهم بأن الأصنام تشفع لهم وتقربهم عند الله زلفى، وأن الله لما جعل لهم المال والولد في الدنيا سيجعل لهم مثل ذلك في الآخرة، كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص، والوعد بالغنى من الأسباب المحرمة،والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل الآثمة...

ولعل أشد الوعود إغراءً؛ الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة؛ وتلك ثغرة دخل منها الشيطان على كثير من القلوب التي يعزّ عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة.

فيتلطف حينئذ إلى تلك النفوس المتحرجة، ويزيِّن لها الخطيئة؛ وهو يلوح لها بسعة الرحمة الإلهية، وشمول العفو والمغفرة!

وقد بيّن تعالى هذا المعني في مواضع أخر،كقوله ﴿**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا**﴾[النساء:١٢٠]،فلا تزال وعوده وأمانيه، تفعل فِعلتها في القلب المهين، فيقول له: سيطول عمرك، وتنال من الدنيا لذتك، وستعلو على أقرانك، وتظفر بأعدائك، والدنيا دول، ستكون لك كما كانت لغيرك، ويعده بالحُسنى على شِركه ومعاصيه، فلا يزال به؛حتى يجترأ على كل عمل فاسد قبيح.

وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، فأمره بالزنا، ثم بقتلها، ثم دل أهلها عليه، وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل؛ فرَّ عنه وتركه، وفيه نزل ﴿**كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾[الحشر:١٦][١].

قال ابن القيم:"وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرت عنه هذه القصة، بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضي حاجته فإنه يتبرأ منه ويسلمه، كما يتبرأ

(١) قصة الراهب أوردها الطبري في تفسير سورة الحشر. انظر:جامع البيان ٤٩/٢٨، قال ابن كثير بعد سياق القصة:"هي كالمثال لهذا المثل، لا أنها المرادة وحدها بالمثل، بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها". تفسير القرآن العظيم٣٤٢/٤.

من أوليائه جملة في النار، كما أخبر سبحانه عنه بقوله ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم:٢٢]"(١).

ولذا فإن العاقل إذا تأمل ما يسوّله الشيطان من تلك الأماني، وجده؛إما باطل لا يقع، مثل ما يسوّله للناس من العقائد الفاسدة، وكونه غروراً، لأنه إظهار لما لا يقع في صورة الواقع؛ فهو تلبيس، وإما حاصل لكنه مكروه غير محمود العاقبة، مثل ما يسوّله للناس من قضاء دواعي الغضب والشهوة،ومحبة العاجل دون تفكير في الآجل.(٢)

ومن صور إفساده المتعلقة بوعده، ما أخبر عنه سبحانه بقوله ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٦٨].

ومعنى ذلك: أن الشيطان يعدكم بالصدقة وأداء الزكاة الواجبة عليكم في أموالكم؛ أن تفتقروا، فإياكم أن تتبعوا عدوكم الشيطان؛ إذا أمركم بالإمساك، وخوّفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقتم، فليس هذا نصحاً لكم، بل هذا غاية الغش.(٣)

ولأنّ دعوته تلك، توافق شهوة في نفوس عُبّاد المال، فإن هؤلاء المساكين،لم يدركوا أنهم يُعامَلون بنقيض قصدهم، كما قال ﷺ "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان يترلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا"(٤).

وبالرغم من أن الشيطان يأمر بالبخل ويخوف المرء بالفقر، إلا أنه مقابل ذلك، يأمره بتبذير المال وإنفاقه في غير مرضاة الله تعالى، قال سبحانه﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٢٧].

والتبذير: تفريق المال في غير وجهه، وهو مرادف الإسراف، فإنفاقه في الفساد تبذير، ولو كان المقدار قليلاً، وإنفاقه في المباح إذا بلغ حدّ السرف تبذير، وإنفاقه في وجوه البر

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان ١٢٨/١.

(٢) التحرير والتنوير ١٥٢/١٥.

(٣) انظر: جامع البيان٨٧/٣، وتيسير الكريم الرحمن ص ١١٥.

(٤) أخرجه البخاري. كتاب الزكاة.باب قوله (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ).ح(١٤٤٢)،ومسلم.كتاب الزكاة.بابٌ في المنفق والممسك. ح(١٠١٠).

والصلاح ليس بتبذير.

ولما سُئل ابن مسعود ﷺ عن التبذير، قال: إنفاق المال في غير حقه، وقال مجاهد: لو أنفق الإنسان ماله كله في الحق؛ ما كان تبذيراً، ولو أنفق مُداً في باطل؛ كان تبذيراً(١).

ولهذا قيل في معنى الآية: لا تنفق مالك في المعصية، فإن التبذير يدعو إليه الشيطان، لأنه إما إنفاق في الفساد؛ وإما إسراف يستنزف المال في السفاسف واللذات، فيعطل الإنفاق في الخير، وكل ذلك يرضي الشيطان، فلا جرم إن كان المتصفون بالتبذير من جند الشيطان وإخوانه.

وفي هذا تحذير من التبذير، فإن التبذير إذا فعله المرء؛ اعتاده فأدمن عليه، فصار له خلقاً لا يفارقه(٢).

إن التبذير بهذا المعنى – وهو الإنفاق في المعصية – يغيَب تصوره عند كثير من الناس، فعلى المسلم التنبه لذلك، فإن عدو الله أبليس لا يألوه في الخبال.

ومن صور فساده: بثه للعداوة بين الناس.

فمن المعلوم أن العدو يُحذر منه، وتحذر مصايده وأعماله، خاصةً الأعمال التي يعملها ليوقع فيها عدوه، فإنه فيها هلاكه، فالحزم كل الحزم؛ بالبعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها.

والشيطان لا يهدأ له بال، ولا يقرّ له قرار، حتى يفسد بين الناس، إذ المحبة والسلام والتآخي والوئام؛ تُعكّر صفوه، وتكدّر خاطره، فإذا ما حصلت الضغينة والخصام، والقطيعة والفِصام، فحينها يطرب ويُسرّ.

وقد سلك في تحقيق ذلك كل مسلك،فمن ذلك:ما أخبر به سبحانه بقوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١].

أي أنه يوقع العداوة بسبب تعاطي الخمر والميسر، لأن السكران يفعل كثيراً من القبائح التي توجب ذلك ولا يبالي، فإذا أفاق من سكرته؛ ندم على فِعلته، فإن في الخمر من انغلاب العقل وذهاب حِجاه؛ ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، لاسيما إذا اقترن

(١) انظر: جامع البيان ٦٩/٨،٦٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٨١/١٥ .

بذلك من السِباب، ما هو من لوازم شارب الخمر، فإنه ربما أوصل إلى القتل.
وكذلك الأمر في الميسر، فإن غلبة أحدهما للآخر، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة، هو من أكبر أسباب العداوة والبغضاء، فإن الرجل المقامِر لا يبقى معه من المال شيء، فيكون من غلبه وقمره؛ أعدى أعدائه، ويحصل له من الانقباض والقهر ما يدعوه إلى الاحتيال لأن يكون غالباً، أو الانتقام الذي ربما يوصل إلى القتل.
ومن صور تلك العداوة التي بثها إبليس لعنه الله، ما قصّه الله تعالى من نبأ يوسف عليه السلام مع إخوته، فإن التدابير الواقية من وقوع تلك العداوة، لم تفعل شيئاً مع نزغ الشيطان الرجيم، حيث إن يعقوب أوصى ابنه يوسف عليهما السلام بقوله ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف:٥].
فقد أدرك يعقوب عليه السلام ببصيرته وحسّه، أن وراء هذه الرؤيا شأناً عظيماً ليوسف، لم يفصح عنه يعقوب، و لم يفصح عنه سياق القصة أولاً.
وتمرّ أحداث القصة التي هي من أحسن القصص، وتنقضي الأيام والأعوام، ويذكّر يوسف أباه بحسن لطف الله به، من بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [يوسف:١٠٠].
ولقد اشتملت تلك القصة المعبّرة بكل مراحلها، على عِبر عظيمة، كان من بينها؛ شدَّة عداوة أبليس للإنسان، مما يحمله على بث العداوة بين أقرب الناس.
لقد عكّر الشيطان صفو بيت من أفضل البيوت...إنه بيت النبوة الطاهر.
فما هي حاله – أخزاه الله – مع من هم دون ذلك..!
فشأن عدو الله؛ تفكيك كل تجمّع على الخير والبر، لأن بالجماعة تكون القوة، وبالانفراد والعزلة؛ يكون الخور والضعف، فهو لا يريد أن يبقى بيت مسلم، حتى يبث فيه العداوة والبغضاء، فيتهاوى بنيانه، ويتفرّق شمله، فعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة؛ أعظمهم فتنة، يجئ أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال:ثم يجئ أحدهم فيقول: ما تركته

حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نعم أنت"[١]

وقد أرشد – سبحانه – إلى السبل الكفيلة، بدرء تلك العداوة، فمن ذلك قوله تعالى﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء:٥٣].

"فأمر تعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباده المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإذ لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لآدم وذريته، من حين امتنع من السجود لآدم، فعداوته ظاهرة بينة.

ولهذا نُهي أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان يترغ في يده، أي: فربما أصابه بها"[٢]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ"لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان يترع في يده، فيقع في حفرة من النار"[٣].

ومن إفساد الشيطان:التثبيط عن الطاعات:

وذلك كما قال فتى موسى، حين قال له موسى عليه السلام آتنا غداءنا لنطعم، فقال﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ﴾ [الكهف:٦٣].

أي: ما أنساني الحوت إلا الشيطان.

فنسب فتى موسى– يوشع– النسيان إلى الشيطان، وليس هذا ببعيد، فإنه يصدّ عن المعروف ويأمر بالمنكر،وهل كانت رحلة موسى عليه السلام إلا لطلب العلم،الذي هو من أفضل الطاعات.

قال ابن عاشور:"ومع كون المنسي أعجوبة،شأنها أن لا تنسى، يتعين أن الشيطان ألهاه بأشياء عن أن يتذكر ذلك الحادث العجيب، وعلِم يوشع أن الشيطان يَسوءه التقاء هذين العبدين الصالحين، وما له من الأثر في بث العلوم الصالحة فهو يصرف عنها، ولو بتأخير وقوعها؛ طمعاً في حدوث العوائق"[٤].

"وفي هذه الآية الكريمة: دليل على أن النسيان في مثل هذا المقام من الشيطان، كما دل عليه

---

(١) أخرجه مسلم. كتاب صفات المنافقين وأحكامهم.باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس.ح(٢٨١٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم٥/٨٧.

(٣) أخرجه البخاري.كتاب الفتن.باب قوله ﷺ "من حمل علينا السلاح فليس منا".ح(٧٠٧٢)،ومسلم.كتاب البر والصلة.باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم.ح(٢٦١٧).

(٤) التحرير والتنوير ١٥/٣٦٧

قوله تعالى﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨]، وقوله﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ﴾[المجادلة:١٩]، ولذا فإن ذكر الله تعالى يطرد الشيطان، كما يدل قوله تعالى ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزُّخرُف:٣٦]، وقوله﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس:٤].أي: الوسواس عند الغفلة عن ذكر الله" (١).

إن الشيطان لا يريد الخير لأحد، فلو أراد امرئ أن يتعلم الخير؛ لثبّطه قائلاً: أتصرف وقتك وجهدك، فيما لا طائل تحته! فلو اشتغلت في غير هذا لكن أنفع لك! ويزيد الأمر،فيقول له: العلماء كثير...والناس ليسوا بحاجة إليك...ورويداً رويداً..حتى ينسلخ المرء الهُمام من بغيته، ويتجرَّد من همته، فيخلد للراحة والدَّعة، حتى يكون في عِداد الجاهلين.

وما ذاك إلا لأن أهل العلم أثقل شيء على الشياطين، يبصِّرون الناس بالشر، ويدعونهم إلا الخير، فكم من معقل للشيطان هدموا، وكم من طريق له سدّوا، ثم هم مع ذلك يستنقذون الناس – بإذن ربهم – من الظلمات إلى النور.

ولذا بيّن ﷺ فضل العالِم بقوله "وفضل العالِم على العابد، كفضلي على أدناكم"(٢)،وفي رواية:"كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب"(٣)،فإذا ظفر الشيطان بالمتعلمين، وصدهم عن السبيل، هان عليه التغيير، وذُلل له طريق الإفساد دون تعكير.

ومن صور إفساده: الوسوسة والنزغ.

فالوسوسة أول خطوة خطاها أبليس مع آدم عليه السلام﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠].

ولا يسلم من وسوسته؛إلا من عصم الله تعالى، فإنه يسعى دوماً للوسوسة في قلوب المؤمنين، يغريهم بالملذات، ويورد عليهم الشبهات، ويحثهم على طاعة أنفسهم، واتباع أهوائهم.

ولقد خاف أصحاب النبي ﷺ على أنفسهم مما يبثه الشيطان في صدورهم، حتى قالوا للنبي ﷺ: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، فقال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال:

---

(١) أضواء البيان ٣/٢٥٥.

(٢) أخرجه الترمذي. كتاب العلم.باب فضل الفقه على العبادة.ح(٢٦٨٥)، والدارمي.كتاب المقدمة.باب من قال العلم الخشيةَ وتقوى الله.ح(٢٨٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع.ح(٤٢١٣).

(٣) أخرجه أبو داود.كتاب العلم.باب الحث على طلب العلم.ح(٣٦٤١)،وابن ماجه في المقدمة.باب فضل العلماء والحث على طلب العلم.ح(٢٢٣)،وصححه الألباني في صحيح الجامع.ح(٤٢١٢).

ذاك صريح الإيمان"(١).

ثم بيّن النبي ﷺ الأمر في أن الشيطان لا يملّ من وسوسته ولا يكلّ، يجدد أسلحته لها، ويتربص بكم الغفلة على ما في القلوب من توحيد وإيمان، فيعكر صفوه ويحرمكم لذته، ولذلك قال ﷺ"يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا،حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه؛ فليستعذ بالله ولينته"،وفي رواية "فليقل: آمنت بالله"(٢).

فقوله ﷺ "ذلك صريح الإيمان،ومحض الإيمان"، معناه: استعظامكم الكلام به، هو صريح الإيمان، فإن استعظام هذا، وشدة الخوف منه ومن النطق به، فضلاً عن اعتقاده، إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً، وانتفت عنه الريبة والشكوك.

وقيل: معناه أن الشيطان إنما يوسوس لمن أيس من إغوائه، فينكِّد عليه بالوسوسة؛ لعجزه عن إغوائه، وأما الكافر فإنه يأتيه من حيث شاء، ولا يقتصر في حقه على الوسوسة، بل يتلاعب به كيف أراد.

وأما قوله "فليستعذ بالله ولينته" فمعناه: إذا عرض له هذا الوسواس؛ فليلجأ إلى الله تعالى في دفع شره عنه، وليعرض عن الفكر في ذلك، وليعلم أن هذا الخاطر من وسوسة الشيطان، وهو إنما يسعى بالفساد والإغواء، فليعرض عن الإصغاء إلى وسوسته،وليبادر إلى قطعها بالاشتغال بغيرها، والله أعلم"(٣).

ولخطورة الوسوسة أُمِر النبي ﷺ أن يستعيذ بالله العظيم من شرِّ الشيطان﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [الناس:١-٦].

"فالله تعالى أمر نبيه محمداً ﷺ أن يستعيذ به من شر شيطانٍ يوسوس مرة، ويخنس أخرى، ولم يخصّ وسوسته على نوع من أنواعها، ولا بخنوسه على وجه دون وجه، وقد يوسوس بالدعاء إلى معصية الله، فإذا أطيع فيها خنس، وقد يوسوس بالنهي عن طاعة الله، فإذا ذكر العبد أمر ربه فأطاعه فيه، وعصى الشيطان خنس، فهو في كل حالتيه وسواس خناس، وهذه

---

(١) أخرجه مسلم.كتاب الإيمان.باب بيان الوسوسة في الإيمان.ح(١٣٢).

(٢) أخرجه البخاري.كتاب بدء الخلق.بابباب صفة إبليس وجنوده.ح(٣٢٧٦)،ومسلم.كتاب الإيمان.باب بيان الوسوسة في الإيمان.ح(١٣٤).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٥١٤/٢.

الصفة صفته"[١].

"وبهذا يُعلم أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى، وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، والخناس الذي إذا ذكر العبد الله؛ انخنس وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله تعالى؛ التقم القلب وألقى إليه الوساوس التي هي مباديء الشر كله، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل"[٢].

ثم إن عجز الشيطان على أن يصيب العبد بذلك، أصابه بالنزغ، قال تعالى﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت:٣٦].

والمعنى: إما يلقينّ الشيطان في نفسك وسوسة من حديث النفس، فاستجر بالله واعتصم من خطواته، إن الله هو السميع لاستعاذتك منه واستجارتك به من نزغاته.

ولهذا المعنى الدقيق كان الأمر للنبي ﷺ بالاستعاذة من همزات الشياطين، قال سبحانه﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾[المؤمنون: ٩٧،٩٨].

فالنبي ﷺ كان يستعيذ بالله من همزات الشياطين – وهو المعصوم – زيادة في التوقي والالتجاء إلى الله تعالى، وتعليماً لأمته – وهو القدوة – في أن يتحصنوا بالله من همزات الشياطين في كل حين.

وبعد هذا كله، لا بد من التنبّه إلا أن إبليس يدخل على الناس؛ بقدر ما يمكنه، ويزيد تمكنه منهم ويقلّ؛ على مقدار يقظتهم وغفلتهم، وجهلهم وعلمهم.

قال ابن القيم مجملاً ما سبق من حال الشيطان مع ابن آدم:"ولا يمكن حصر أجناس شره فضلاً عن آحادها، إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه، ويمكن حصر شرِّه؛ في ستة أجناس، لا يزال بابن آدم؛ حتى ينال منه واحداً منها، أو أكثر:

الشر الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برَّد أنينه، واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد، فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك؛ صيَّره من جنده وعسكره، وإستنابه على أمثاله وأشكاله،فصار من دعاة إبليس ونوابه.

---

(١) جامع البيان ٧٥٣/١٢.

(٢) بدائع الفوائد، لابن القيم ٤٩٤/٢

فإذا يئس منه من ذلك، وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه، نقله إلى المرتبة الثانية من الشر؛ وهي البدعة وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضررها في نفس الدين، وهو ضرر متعدٍ،فإذا نال منه البدعة، وجعله من أهلها، بقي أيضاً نائبه وداعياً من دعاته.

فإن أعجزه من هذه المرتبة، وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنَّة، ومعاداة أهل البدع والضلال، نقله إلى المرتبة الثالثة من الشر، وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فهو أشد حِرصاً على أن يوقعه فيها،ولا سيما إن كان عالماً متبوعاً، فهو حريص على ذلك، لينفِّر الناس عنه، ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها؛ تديناً وتقرباً بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر.

فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الرابعة وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها[1]، ولا يزال يسهِّل عليه أمر الصغائر، حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها؛ أحسن حالاً منه.

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الخامسة، وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها.

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظاً لوقته، شحيحاً به، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها، وما يقابلها من النعيم والعذاب، نقله إلى المرتبة السادسة، وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه، ليزيح عنه الفضيلة، ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول، ويحضه عليه، ويحسنه له؛ إذا تضمَّن ترك ما هو أفضل وأعلى منه، وقلَّ من يتنبه لهذا من الناس.

فإن أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيى عليه، سلّط عليه حِزبه من الإنس والجن، بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه، وقصد إخماله وإطفائه، ليشوش عليه قلبه،ويشغل بحربه فِكرَه، وليمنع الناس من الانتفاع به، فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من

---

(١) كما في حديث سهل بن سعد ﷺ مرفوعاً "إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن وادٍ، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه" أخرجه أحمد٥/٣٣١،والطبراني في الكبير ١٦٥/٦، قال الهيثمي:رجال أحمد رجال الصحيح، وحسّن إسناد ه الحافظ ابن حجر. انظر:فتح الباري ٣٢٩/١١، مجمع الزوائد ١٩٠/١٠

شياطين الإنس والجن عليه، ولا يفتر ولا يني، فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب، ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أُسِر أو أُصِيب، فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله تعالى"[١].

وقال ابن الجوزي:"واعلم أن القلب كالحصن، وعلى ذلك الحصن سور، وللسور أبواب، وفيه ثُلَم، وساكنه العقل، والملائكة تتردد إلى ذلك الحصن، وإلى جانبه ربض فيه الهوى، والشياطين تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع، والحرب قائم بين أهل الحصن وأهل الربض، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن، تطلب غفلة الحارس، والعبور من بعض الثلم، فينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذي قد وكل بحفظه، وجميع الثلم، وأن لا يفتر عن الحراسة لحظة، فإن العدو ما يفتر"[٢].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم ٤٨٣/٢

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي، ص ٣٧.

المطلب الثاني:مكذبو الرسل.

من رحمة الله تعالى بعباده؛ أن بعث إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ﴾[إبراهيم:١]، ويقول تعالى ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾[الحديد:٢٥].

فالله تعالى أرسل رسله بالبيّنات، وهي المعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات،وأنزلنا معهم الكتاب، وهو: النقل المصدق، والميزان، وهو: العدل، كما قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما(١)، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة، المخالفة للآراء السقيمة، ولهذا قال في هذه الآية﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: بالحق والعدل،وهو: اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاؤوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال تعالى﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾[الأنعام:١١٥]، أي: صدقًا في الإخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي.

ففي الآيات الآنفة الذِّكر؛ بيانٌ ظاهر للحكمة من إرسال الرسل.

وكان من الحِكَم – أيضاً – قيام الحجة على الخلق ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[النساء:١٦٥].

فما من أمّة؛ إلا بعث الله تعالى فيها رسولاً ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦]،وقال تعالى﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[يونس:٤٧]، وقال﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ﴾[المؤمنون:٤٤] أي: كل أمة في وقت مسمًّى، وأجل محدود، لا تتقدم عنه، ولا تتأخر، وأرسلنا إليهم رسلاً متتابعة، لعلهم يؤمنون وينيبون.

وقد ذكر الله تعالى الأمم المكذبة، في مواضع كثيرة من كتابه العزيز، وذكر سبحانه أن كل واحدة منهم كذبت رسولها.

فجاء بيان ذلك في وجوه مختلفة، على التفصيل تارة، والإجمال تارة أخرى، وقد تُذكر قصة أمّة مكذبة مفردة، وقد يجيء سياق الآيات مبيناً لتكذيب جملة من الأمم، وهذا ظاهر لمن تأمل في آي الكتاب العزيز.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم٤/٣١٥

فمن المواضع التي ذكرت تكذيب جملة من الأمم، قوله تعالى﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾[الحج:٤٢، ٤٤].

وقد بيّن تبارك وتعالى أن أصل دعوة الرسل واحدة، وهي التي تضمّنت دعوة التوحيد – لا إله إلا الله – كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء:٢٥].

وبيّن – تبارك وتعالى– أن من كذّب بعضهم؛ فقد كذّب الجميع، كما في قوله﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[النساء:١٥٠]، وأشار إلى ذلك في قوله﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦].

وقد أوضح تعالى أن من كذّب رسولاً واحداً؛ فقد كذّب جميع الرسل، ومن كذّب نذيراً واحداً؛ فقد كذّب جميع النذر،﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء:١٠٥]، فبيَّن أن تكذيبهم للمرسلين، إنما وقع بتكذيبهم نوحاً وحده، حيث قال ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء:١٠٦][1].

و لم يزل الكفر والتكذيب؛ دأب الأمم العصاة، والكفرة البُغاة ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ [المؤمنون:٤٤]، مع أن كل رسول يؤتى من الآيات؛ ما يؤمن على مثله البشر، بل مجرد دعوة الرسل وشرعهم، يدل على حقية ما جاءوا به. [2]

ولكنّ حين تنتكس الفِطر، وينطفئ نور الإيمان، وتنعمي البصائر؛ فإن الضلال يستحكم قلوب المكذبين، فستبدلوا هداية رهم بولاية الطاغوت، فأخرجوهم من النور إلى الظلمات وحقت عليهم الضلالة.

ولقد جاء البيان القرآني مفصلاً حال المكذبين مع رسلهم، والمتدبر لكلام الله تعالى يرى أهم وإن تباعدت هم الأمصار، وتباينت الأعصار؛ إلا أن طرائقهم في التكذيب قد تواطأت،

---

(١) انظر: أضواء البيان ٤٨٤/٧

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن. ٣٢٦

وأساليبهم في الصدّ عن سبيل الله تعالى قد تشابهت، وصدق الله تعالى إذ يقول﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[البقرة:١١٨].

فكأنّهم لَقَّن بعضُهم بعضاً، كما قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾[الذاريات:٥٢،٥٣]، ففيه دلالة على أنهم إنما اتفقوا؛ لأن قلوبهم تُشبه قلوب بعض في الكفر والطغيان، فتشابهت مقالاتهم للرسل؛ لأجل تشابه قلوبهم.(١)

ولعلي أعرّج على أبرز مظاهر فسادهم، فمن في ذلك: الفرية على الله تعالى:

فقد جاء بيان ذلك في غير ما موضع، قال تعالى﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٤٩،١٥٩].

فأمر- تعالى – نبيه ﷺ أن يسأل المشركين باللّه تعالى غيره، الذين عبدوا الملائكة، وزعموا أنها بنات اللّه، فجمعوا بين الشرك باللّه تعالى، ووصفه بما لا يليق بجلاله، أفيكون له – سبحانه- البنات ولهم البنون؟ فتلك قسمة ضيزى، وقول جائر، من جهة جعلهم الولد للّه تعالى، ومن جهة جعلهم أردأ القسمين له – وهو البنات – التي لا يرضونهن لأنفسهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾[النحل:٥٧]
ومن جهة جعلهم الملائكة بنات اللّه، وحكمهم بذلك.

وبيّن- سبحانه- كذبهم بقوله﴿ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾أي: ليس الأمر كذلك، فإنهم ما شهدوا خلقهم، فدلّ على أنهم قالوا هذا القول؛ بلا علم، بل افتراء على اللّه، ولذا وصف مقولتهم بالإفك ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ فكل من يقول قولاً لا يقيم عليه حجة شرعية؛ فإنه كاذب متعمد، أو قائل على اللّه بلا علم.

---

(١) أضواء البيان ٧/٤٤٣

ومن عظيم فِريتهم؛ما أخبرت عنه الآيات تِباعاً حيث قال سبحانه ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فجعل هؤلاء المشركون باللّه تعالى بينه وبين الجِنَّة نسباً، حيث زعموا أن الملائكة بنات اللّه، وأن أمهاهم سروات الجن[١]، والحال أن الجِنَّة قد علمت أهم محضرون بين يدي اللّه، ليجازيهم عباداً أذلاء، فلو كان بينهم وبينه نسب، لم يكونوا كذلك.

فسبحان الملك العظيم، الكامل الحليم، عما يصفه به المشركون من كل وصف أوجبه كفرهم وشركهم، وتعالى ربنا وتقدّس عما يقول الظالمون علواً كبيراً [٢].

وكفى بهذه الفِرية فساداً...وكفى بها إثماناً مبيناً...

ومن فسادهم: الوصاية بالكفر والإعراض عن سماع الحق.

فقد كان المشركون يدركون أن في القرآن تأثيراً عجيباً، وقوة لا تقهر، فقد اعترفوا بذلك، وأعلنوا أن إمكانية غلبتهم؛ مرهونة بردّ هذا التأثير بطريقتين: أولاهما: عدم السماع، وثانيهما: إشاعة اللغو ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].فتأمل كيف قالوا: لا تسمعوا، ولم يقولوا لا تستمعوا؟

فهذا اعتراف منهم بقوة تأثير أدنى درجات الاستماع، وهو:"السماع" فكيف بما فوقه؟ وقالوا﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ فأشعر ذكر اللغو،وهو الصياح والصفير، وذكر حرف الجر (في)؛ بأن المقصود تداخل ذلك مع أصوات القرآن حتى يكون في أثنائه وخِلاله! فأي تواطأ على الباطل أعظم من هذا.![٣]

قال ابن كثير: أي تواصوا فيما بينهم، ألا يطيعوا للقرآن، ولا ينقادوا لأمره، وإذا تُلي عليهم لا يسمعوا له، كما قال مجاهد:﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ يعني بالمكاء والصفير، والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن، قريش تفعله[٤].

والمعنى في قوله﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي: لعلكم بفعلكم ذلك، تصدون من أراد استماعه عن

(١) أي: أشرافهم. انظر:لسان العرب ٣٨٣/١٤ ، تاج العروس ٢٧٢/٣٨

(٢) انظر: جامع البيان ١٠٥/٢٣، تيسير الكريم الرحمن ص ٧٠٨

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٧٨/٢٤

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم١٧٤/٧.

استماعه، فلا يسمعه، وإذا لم يسمعه و لم بفهمه؛ لم يتبعه، فتغلبون بذلك محمداً.!

وهذا بيان بليغ لغايتهم الفاسدة، أن يكونوا من المنتصرين الغالبين، ظناً منهم أن مثل هذه الأساليب، مجدية في صرف الناس عن الحق (١).

لقد كانوا يحاولون التلبيس على القرآن، وهذا ديدن الكفار في كل زمان، يسعون لصرف الناس عن القرآن؛ لأنهم يعلمون أنهم لو استمعوا له وتفكروا؛ لشق الإيمان طريقه إلى قلوبهم، ولأذعنوا إلى ربهم، ولكنهم يصدون عن ذلك بكل سبيل، ويزينون للناس كل خبيث يشغلهم عن الحق.

ومن تواصيهم بالكفر؛ ما حكاه الله تعالى عنهم، حين دعاهم النبي ﷺ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة الأصنام، فجاء الإنكار من صناديد المشركين ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾[ص:٥،٦].

أي:انطلق المقبول قولهم، محرضين قومهم على التمسك بما هم عليه من الشرك ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ أي: استمروا عليها، وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها وعلى عبادتها، ولا يردّكم عنها رادّ، ولا يصدنّكم عن عبادتها صادّ، فإن الذي جاء به محمد من النهي عن عبادتها ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: له قصد ونية غير صالحة في ذلك.

وهذه شبهة لا تروج إلا على السفهاء، فإن من دعا إلى قول حق، أو غير حق، لا يردّ قوله بالقدح في نيته، فنيته وعمله له، وإنما يرد بمقابلته بما يبطله ويفسده، من الحجج والبراهين، وهم قصدهم أن محمداً ما دعاكم إلى ما دعاكم، إلا ليرأس فيكم، ويكون معظماً عندكم، متبوعاً (٢).

وفي الآية إشارة إلى سوء أدب المكذبين، مع رسلهم عليهم السلام، وفيها بيان:

أن من فسادهم: إثارة الشكوك والشبه لرد دعوة الرسل:ولهم في ذلك مسالك:

١/ فشككوا في نياتهم: حين اتهموهم بطلب العلو في الأرض: فقولهم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ جاء مبنياً للمجهول للتحذير، والمعنى: إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد،لشيء

---

(١) انظر: جامع البيان ١١/١٠٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٧١٠

يريد به الشرف عليكم والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا مجيبيه إليه[١].

واتُهم موسى عليه السلام بمثل ذلك فقال له قومه ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٧٨]

وهكذا اتُهم سائر الرسل – عليهم السلام – بهذه التهمة الباطلة.

ولو كانوا حقاً طلاب رئاسة وزعامة – كما يزعم المفسدون – لسلكوا لتحقيق ذلك طرقاً أخرى، أيسر بكثير من طريق الدعوة إلى الله تعالى.

ولقد بيّن – سبحانه – أن رُسله لا يمكن بحال؛ أن يجعلوا من الدعوة طريقاً لتعبيد الناس لهم، قال تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩]

فقد روى ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه أنه حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران، عند رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام قال أبو رافع القبطي[٢]: أتريد يا محمد أن نعبدك، كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران، نصراني يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعونا؟ أو كما قال، فقال رسول الله ﷺ "معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني" أو كما قال ﷺ، فأنزل الله في ذلك من قوليهما ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ....﴾الآية[٣].

لقد كان رسل الله عليهم السلام أبعد من يكون عن هذه التهمة، كيف وقد كانت حياتهم وسيرتهم؛ لتحقيق التوحيد لله تعالى وحده ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

٢/ وتارة يكون التشكيك في منهج الرسل ودعوتهم:

فالمكذبون إذا عجزوا عن الطعن في ذات الدين، والتشكيك فيه صراحة؛ لجؤوا إلى التشكيك في منهج الرسل ودعوتهم، فأخذوا بإلصاق التُهَم، واحدة تلو

---

(١) جامع البيان ١٢٦/٢٣

(٢) هو مولى النبي يقال : اسمه ابراهيم ، ويقال أسلم ، ثابت، هرمز . مات بالمدينه . الإصابة ١٣٤/٦

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٧٨، أسباب النزول للواحدي ص٦٤.

الأخرى.فمن ذلك:

أ) اتهامهم بالضلال:

كما قال قوم نوح لنبيهم ﵇﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[الأعراف:٦٠].وكذا قال المكذبون لأتباع الرسل﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[يس:٤٧].

وإذا كان المكذبون يرمون الرسل بالضلال، وهم أعرف الخلق بالله تعالى، وأكملهم إيماناً، فأي هداية أصابوا؟

ب) اتهامهم بالكذب:

ومن ذلك قولهم لنوح ﵇ ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[الأعراف:٦٦]،وقال قوم شعيب ﵇ لنبيهم ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[الشعراء:١٨٦]، وقالوا لصالح ﵇ ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾[القمر:٢٥]، وقال تعالى في شأن مشركي قريش ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾[ص:٤].

ولا مِرية؛ أن هؤلاء المفسدين، لا يرتابون أن ما جاءت به الرسل هو الصدق والحق، ولكنهم تمادوا بقذف تلك التُهم؛ ظلماً وجحوداً، كما قال تعالى﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[الأنعام:٣٣]، وورود لفظ (الظن) في الآيات السابقة؛ برهان على أنهم لا علم لهم؛ إلا الظنون والتخرصات الكاذبة(١).

ج) اتهامهم بالسحر والجنون:

أما التهمة بالسحر والجنون، فلم يسلم منها نبي قط، كما أخبر تعالى بذلك بعد ذكره تكذيب المشركين لنبينا ﷺ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢].

والعجب أن يتهم المكذبون رسلهم بالجنون! وإنما بعث الله تعالى رُسله من خيار الناس، وأعقلهم في أقوامهم، فهذا رسول الله ﷺ كان يعرف بين قومه بالصادق الأمين، وكانوا يعدونه من أرجحهم عقلاً ورأياً، ثم يرمونه بالجنون!.. فأي تناقض أبلغ من هذا؟

وأما التُهمة بالكهانة، فقليل في القرآن، وقد اتهم بذلك النبي ﷺ فبرأه الله مما قالوا، قال تعالى ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾[الطور:٢٩].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٤٠

قال البغوي:"نزلت في الذين اقتسموا عِقَابَ مكة، يرمون رسول الله ﷺ بالكهانة والسحر والجنون والشعر"(١).

وإنما اتهموه ﷺ بالكهانة ليلبسوا على الناس؛ أن ما يدعوهم إليه؛ شبيه بحال الكهان، الذين كانوا يروجون الباطل، بأسجاع تروق للسامعين، فيستميلون بها القلوب، ويستصغون إليها الأسماع، ولكن هيهات أن تكون أسجاع الكهان؛ كآيات القرآن، أو خرافات المشعوذين، كالنور المبين.

وكان هدفهم من تلك التُهم والافتراءات؛ ردّ الدعوة والاحتجاج عليها.

وهذا يؤكد أن من فسادهم: كثرة الاحتجاج لرد دعوة الرسل.

فلقد كان من عادة المكذبين؛ اختلاق الحُجج؛ للهروب من اتباع الرسل، فمن حججهم الواهية:

أ) تمسكهم بدين آبائهم الأولين:

وقد جاء ذلك صريحاً، كما قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وفي موضع آخر ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

وهذا أبلغ من قولهم الأول، فإن قولهم (حسبنا) يفيد انتهائهم إلى عقيدة آبائهم، واستقرارهم عليها، وعدم الرجوع عنها، وكأن الرُسل لما أعادوا عليهم الأمر باتباع ما أنزل الله تعالى؛ أرادوا هم تأكيد ما هم عليه، من التمسك بدين آبائهم وانتهائهم إليه، بخلاف قولهم الأول؛ فإنه لا يمنع من رجوعهم عن اتباع آبائهم(٢).

فهؤلاء اكتفوا بتقليد آبائهم، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فآبائهم أجهل الناس وأشدهم ضلالاً، وهذه شبهة لرد الحق واهية، وهي دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هُدوا لرشدهم، وحسُن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن

---

(١) معالم التنزيل ٢٤٠/٤

(٢) انظر: أسرار التكرار في القرآن. للكرماني ص ٣٨

جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره؛ تبيّن له الحق قطعاً، واتبعه إن كان منصفاً[١].

ولذلك جاء الردّ قوياً في تعلّقهم بهذه الشبهة ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ فلا شك أن هذا الاتباع غير سائغ عند ذوي العقول، ولذلك شبّههم الله تعالى بالبهائم التي لا تعقل ولا تفهم ولا تسمع ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٧١].

قال ابن عباس رضي الله عنه في الآية: كمثل البعير والحمار والشاة، إن قلت لبعضهم كلاماً لم يعلم ما تقول، غير إنه يسمع صوتك، وكذلك الكافر إن أمرته بخير، أو نهيته عن شر، أو وعظته؛ لم يعقل ما تقول، غير إنه يسمع صوتك.[٢]

فهم يسيرون كالعميان، وراء عميان، يهدونهم سبيل الضلال، فأنى لهم بالهداية!..وحق فيهم قول الشاعر:

أعمى يقود بصيراً لا أبا لكم ... قد ضلّ من كانت العميان تهديه[٣]

ب) ومما احتجوا به لردِّ دعوة الرسل؛ زعمهم عدم وضوح الحجة:

قال تعالى حكاية عن قوم هود عليه السلام ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[هود: ٥٣]،أي: ما جئتنا بحجة واضحة، تلجئنا إلى الإيمان بك، والتصديق بما جئت به.

وقد كذبوا في ذلك؛ فإنه ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات، وأجري على يديه من المعجزات، مما لا يدع مجالاً لأدنى شك يقطع بصدقهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة"[٤].

والوحي الذي أوتيه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن الكريم، المعجزة الخالدة إلى قيام

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٨١

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١/٢٨٢.

(٣) انظر: ديوان بشار بن برد ١/١١٢٠

(٤) أخرجه البخاري. كتاب فضائل القرآن. باب: كيف نزول الوحي وأول ما نزل. ح(٤٦٩٦)، ومسلم. كتاب الإيمان. باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس. ح(١٥٢).

الساعة[1].

وهذه المعجزة؛ تحدى الله بها أهل الفصاحة والبلاغة، أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثلـه، أو بسورة واحدة، فما استطاعوا،ومع هذا قالوا﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فردّ الله تعالى عليهم﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[العنكبوت:٥٠،٥١].

ج) ومما احتجوا به: عدم الفهم[2]:

قال تعالى حكاية عن قوم شعيب عليه السلام﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾[هود:٩١]، أي: ما نفهم كثيراً من قولك، وليسوا صادقين في قولهم هذا، فما كان شعيب ولا غيره من الرسل – عليهم السلام – ليخاطبوا الناس؛ إلا بلسانهم ولغتهم، قال تعالى﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم:٤].

كيف وقد عُرف شعيب عليه السلام بأنه خطيب الأنبياء، لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته[3].

ولكن المكذبين لجئوا إلى مثل هذه الحجة الداحضة؛ لإسكات الحق، وتبرير ما هم عليه من الكفر.

د) واحتجوا – لكفرهم – بالقدر:

فجعلوه ذريعة للاستمرار على الكفر، قال تعالى﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[الأنعام:١٤٨].

"فهذا إخبار منه تعالى، أن هؤلاء المشركين سيحتجون على شركهم، وتحريم ما أحل الله تعالى بالقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة للخير والشر، حجة لهم في دفع اللوم عنهم، وقد قالوا ما أخبر الله تعالى أنهم سيقولونه،كما في سورة النحل﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥].

---

(١) انظر: فتح الباري ٩/٦.

(٢) انظر: مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبدالوهاب. ص:٢٦.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٢٢، تفسير القرآن العظيم٢/٢٣٢.

فأخبر – سبحانه – أن هذه الحجة، لم تزل الأمم المكذبة تدفع بها دعوة الرسل، فعُلِم أنها حجة فاسدة، وشبهة كاسدة، من عِدّة أوجه؛ منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة؛ لم تحل بهم العقوبة، ومنها: أن الحجة لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظنّ والخرص الذي لا يغني من الحق شيئاً، فإنها باطلة، ولهذا قال ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ فلو كان لهم علم وهم خصوم أَلِدَّاء؛ لأخرجوه، فلما لم يخرجوه؛ عُلِم أنه لا عِلم عندهم، ومن بنى حججه على الخرص والظن؛ فهو مبطل"(١).

والاحتجاج بالقدر على المعصية؛ ليس في محله، فإن كلامهم مضمونه؛ لو كان الله تعالى كارهاً لِما فعلناه؛ لأنكره علينا، والأمر ليس كما قالوا، فإن الله قد أنكره عليهم أشد الإنكار، ونهاهم عنه آكد النهي، وبعث في كل أمة رسولاً﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦].

"فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا، أن يقول﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية، لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رُسله، وأما مشيئته الكونية؛ وهي تمكينهم من ذلك قدراً، فلا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة، وحكمة قاطعة، ثم إنه – تعالى- قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا، بعد إنذار الرسل"(٢).

وهذا مما يدل على جهلهم العظيم، أو تجاهلهم الوخيم، فإن المشيئة، ليست حجة لعاصٍ أبداً، فإنه وإن كان ما شاء اللّه كان، وما لم يشأ لم يكن، فإنه تعالى مكَّن العباد، وأعطاهم من القوة ما يقدرون على فعل الأمر واجتناب النهي، فإذا تركوا ما أمروا به، كان ذلك اختياراً منهم، لا جبراً لهم ولا قهراً.

هـ) واحتجوا – أيضاً – ببشرية الرسل:

بما أخبر عنه سبحانه بقوله ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٧٨

(٢) تفسير القرآن العظيم٢/٥٦٩

رَّسُولًا ﴾[الإسراء:٩٤]، وقد أثار هذه الشبهة؛ أكابر المكذبين للرسل - بعد لقاء سِريٍّ جرى بينهم- ليصدوا الناس عن سبيل الله، فلاقت استحساناً عند العامة، قال تعالى﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾[الأنبياء:٣].

أي:"بالغوا في إخفائها أو جعلوها بحيث خفي تناجيهم بها، وقد استدلوا بكونه بشراً؛ على كذبه في ادعاء الرسالة؛ لاعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكاً، واستلزموا منه؛ أن ما جاء به من الخوارق - كالقرآن - سحر، فأنكروا حضوره، وإنما أسروا به؛ تشاوراً في استنباط ما يهدم أمره، ويظهر فساده للناس عامة"(١).

ولتقوية هذه الشبهة في نفوس الناس قالوا ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾[المؤمنون:٣٣]،فوصفوه بما يوهم المساواة في كل وصف، فكيف يكون رسولاً دونكم! ولما كان التقدير: فلئن اتبعتموه إنكم لضالون، عطف عليه﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[المؤمنون: ٣٤]،أي: مغبونون، لكونكم فضلتم مثلكم عليكم بما يدعيه، مما نحن له منكرون(٢).

وهذه حجة ضعيفة غريبة، إذ يقال لهم:فإنْ اتبعكم قومكم في هذا التحذير، فهل سيخرجون عن أن يتبعوا بشراً مثلهم.؟!

والمكذبون بهذا الاحتجاج لهم سلف بإبليس، حين أُمر بالسجود لآدم عليه السلام، فرفض محتجاً بقوله ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[الحِجر:٣٣] فاستحق بذلك الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى.

ولا ريب أنَّ بين الرسل - عليهم السلام - وسائر الناس مشابهة من جهة البشرية، ولوازمها الضرورية، فيصح حينئذ قياس الرسل على غيرهم فيها، وعليه قوله تعالى﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[الكهف:١١٠].

إلا أنّ بين الرسل - عليهم السلام- وغيرهم من البشر فروقاً كثيرة:

منها: أنّ الله تعالى اصطفاهم على الناس برسالاته وبكلامه ووحيه، فلا يقاس أحد من الناس بهم حينئذ من هذه الجهة، كما لا يصح قياس غيرهم بهم في سائر خصائصهم التي فُصِّلَتْ في

---

(١) تفسير البيضاوي ٤/ ٨٢

(٢) انظر: نظم الدرر فى تناسب الآيات والسوره/١٩٩

غير هذا الموضع، فالمكذبون لم يميزوا بين القياس الصحيح والفاسد، ولا عرفوا الجامع ولا الفارق، كما سمعت من قياسهم الرسل على غيرهم، وهكذا أتباعهم اليوم ومن هو على شاكلتهم[(١)].

ومن فسادهم إنكارهم للبعث:

وجاء ذلك منهم على وجه الاستنكار حيث قالوا ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾[ق:٣]، ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾[الإسراء:٤٩]، وقال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[هود:٧].

وقد اشتد نكيرهم للبعث وتعنتهم فيه، قال سبحانه﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[النحل:٣٨]، فاجتهدوا في الحلف، وغلظوا الأيمان، واستبعدوا ذلك.

فقال تعالى مكذباً لهم، وردّاً عليهم﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: بلى سيكون ذلك، ولا بد منه، ولكنَّ أكثر النّاس لجهلهم يخالفون الرسل، ويقعون في الكفر[(٢)].

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يُقسم على البعث، وتحقق وقوعه، فقال سبحانه﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[التغابن:٧].

ولذا تكرر تأكيد البعث في مواضع عدة من القرآن، وذكر - سبحانه - لإثبات البعث من الدلائل والبراهين؛ ما لا يدع مجالاً للشاكين المرتابين، فقد جاءت الحجج على قدرة الله تعالى في بعث الخلق بعد الموت.

فمن ذلك: أن من خلق ابتداءً؛ قادر على الإعادة بعد الموت، قال تعالى﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الروم:٢٧].

وكذلك إحياء الأرض بعد موتها، دليل على إحياء الموتى، قال تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[فصلت:٣٩] والآيات في تقرير ذلك كثيرة.

لقد أيّد الله تعالى الرسل بالحجج الواضحات، والآيات البيّنات، مما لا يجعل للباطل معه برهان ولا دليل، مصدقاً لقول الله تعالى ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ

---

(١) انظر: مسائل الجاهلية ص٢٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم٢/٥٧٠

﴿ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[الأنبياء:١٨]،"فأخبر تعالى، أنه تكفّل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإنّ كل باطل قِيل وجودِل به، فإن الله يترل من الحق والعلم والبيان، ما يدمغه؛ فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: مضمحل فانٍ، وهذا عام في جميع المسائل الدينية. فلا يورد مُبطِل شبهة عقلية، ولا نقلية، في إحقاق باطل، أو ردّ حق؛ إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية، ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه، فإذا هو متبيِّن بطلانه لكل أحد"(١).

ولذا كان من فساد المكذبين؛ ممارسة الأساليب القبيحة لقمع دعوة الرسل عليهم السلام، والتضييق عليها، فمن ذلك:

أ) الإخراج:

فأخبر سبحانه ما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم، من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم،كما قال قوم شعيب عليه السلام ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[الأعراف:٨٨].

وقال قوم لوط عليه السلام ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[الأعراف:٨٢].

وكذا أخبر عن مشركي قريش ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٦].

وفي حديث بدء الوحي الطويل، قال ورقة بن نوفل(٢)للنبي ﷺ: يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال ﷺ: أومخرجيَّ هم؟! قال: نعم، لم يأت رجل قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودِي..."الحديث(٣).

فهم يلجئون إلى إخراجهم، لضعف مقاومتهم لحجة الرسل وبرهانهم، فاستخدموا القوة والغلبة، ظناً منهم؛ أن هذا الأسلوب، سيكون مجدياً لصدّ الدعوة وتضييق خناقها.

وتلك هي سجية الكافرين مع الرسل عبر العصور، قال تعالى﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٢٠

(٢) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي صحابي جليل. الاصابة ٦٠٧/٦

(٣) أخرجه البخاري. كتاب بدء الوحي.باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.ح(٣)، ومسلم.كتاب الإيمان. باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. ح(١٦٠)

﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم:١٣].

"وهذا أبلغ ما يكون من الردّ، وليس بعد هذا فيهم مطمع، لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى؛ بل توعدوهم بالإخراج من ديارهم، ونسبوها إلى أنفسهم،وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم، فإن الله تعالى أخرج عباده إلى الأرض، وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها، يستعينون بها على عبادته، فمن استعان بذلك على عبادة الله؛ حلّ له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي؛ لم يكن ذلك خالصاً له، ولم يحل له، فعُلِم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعدوا الرسل بإخراجهم منها، وإن رجعنا إلى مجرد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم، وأفراد منهم، فلأي شيء يمنعونهم حقاً لهم صريحاً واضحاً؟!

فهل هذا، إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟

ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسل إلى هذه الحال، ما بقي حينئذ؛ إلا أن يمضي الله أمره، وينصر أولياءه ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم:١٣]، بأنواع العقوبات[(١)]

ب) السجن:

فالتهديد بالسجن، طريقة من طرق أهل الباطل،ليمنعوا الرسل والمصلحين من تبليغ كلمة الله تعالى إلى الناس، قال تعالى حكاية عن فرعون لما استكبر عن الحق الذي جاء به موسى عليه السلام ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩].

فلمّا لم يجد فرعون لِحجاجه نجاحاً، ورأى شدة شكيمة موسى عليه السلام في الحق، عدل عن الحِجاج إلى التخويف؛ ليقطع دعوة موسى من أصلها.

وهذا شأن من قهرته الحجة، وفيه كبرياء؛ أن ينصرف عن الجدل إلى التهديد.

واللام في قوله ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا﴾ موطئة للقسم، والمعنى: أن فرعون أكدّ وعيده بما يساوي اليمين المجملة التي تؤذن بها اللام الموطئة في اللغة العربية،كأن يكون فرعون قال: عليَّ يمين، أو بالأيمان، أو أقسم. ومعنى قوله ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ لأسجننك، فسلك فيه طريقة الإطناب، لأنه أنسب بمقام التهديد، لأنه يفيد معنى لأجعلنك واحداً ممن عرفتَ أنهم في

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٢٣

سِجني، فالمقصود؛ تذكير موسى بهول السجن(١).

وقال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال:٣٠].

فقد فسّر غير واحد من السلف قوله ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالحبس والقيد والوثاق، وكان هذا الرأي من بعض المشركين الذين اجتمعوا في دار الندوة ليلة الهجرة، ليتشاوروا في أمر النبي ﷺ، وما يصنعون به، بعد ما ظهر أمره، وكثر أتباعه(٢).

ج) التهديد بالعذاب:

سواء كان العذاب حسياً أو معنوياً، فمن ذلك قول أصحاب القرية لرسلهم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[يس:٤٠]، وكذا قال المكذبون لشعيب عليه السلام ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[هود:٩١]،أي: لولا عشيرتك لقتلناك بالرجم، والرجم من سيء القتلات، وكان رهطه من أهل ملتهم، فلذلك أظهروا الميل إليهم، والإكرام لهم(٣).

ومن قبل، قال قوم نوح عليه السلام لنبيهم﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾[الشعراء:١١٦].

"أي لنقتلك شر قِتلة، بالرمي بالحجارة، كما يُقتل الكلب، فتباً لهم ما أقبح هذه المقابلة، يقابلون الناصح الأمين، الذي هو أشفق عليهم من أنفسهم، بشرِّ مقابلة، لا جرم لما انتهى ظلمهم، واشتد كفرهم، دعا عليهم نبيهم بدعوة أحاطت بهم فقال ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ﴾ أي أهلك الباغي منا، وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة، ولهذا قال ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، كما دعا عليهم بقوله ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح:٢٦](٤).

وقال موسى عليه السلام لقومه ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾[الدخان:٢٠].

قال الطبري:"والرجم قد يكون قولاً باللسان، وفعلاً باليد، والصواب أن يقال: استعاذ موسى عليه السلام بربه – تعالى- من كل معاني رجمهم،الذي يصل منه إلى المرجوم أذىً ومكروه،

(١) التحرير والتنوير ١٢٠/١٩

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم٣٠٣/٢

(٣) انظر: جامع البيان ١٠٤/٧، زاد المسير ١٥٣/٤.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٥٩٥.

شتماً كان ذلك باللسان، أو رجماً بالحجارة باليد"(١).

ولما ذكر الله تعالى تكذيب قريش للرسول ﷺ بيّن - سبحانه - أنّهم سلكوا منهج المكذبين قبلهم،فقال﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾[غافر:٥] أي ليقتلوه ويهلكوه، فالمكذبون حرصوا على قتل الرسل بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله، وقيل: ليأسروه، والعرب تسمي الأسير أخيذًا، ،فإذا أُسِر؛ تمكنوا من إيقاع ما يريدون بـه، من حبس وتعذيب وقتل وغيره(٢).

وفي التعبير بالأخذ؛ دلالة على الغلبة والقهر والاستصغار مع الغضب(٣).

وهذا أسلوب من أساليب الحرب التي يقصد المكذبون من ورائها؛ ثني العزائم، وبث الشعور باليأس والإحباط في الرسل وأتباعهم،ولذا كان من أساليبهم:

د) التعجيز.

وهو باب يدخل منه المكذبون ليكون - بزعمهم - برهاناً على عدم صدق الرسل، فيطلبون من أنبيائهم أن يضعوا لهم أشياء خارقة للعادة، تراها أعينهم، وتلمسها أيديهم، حتى يؤمنوا، فإذا أيد الله رسله بالآيات البينات، أنكروا ذلك وقالوا: سحر مبين.

ومن مظاهر ذلك ما ذكره الله - تعالى- عن المشركين حين قالوا للنبي ﷺ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[الإسراء:٩٠،٩٣]

والمتأمل لسياق الآيات قبل بيان تعنّتهم، يقرأ قوله تعالى﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[الإسراء:،٨٨،٨٩].

فالمشركون قصُر إدراكهم عن التطلع إلى إعجاز القرآن، فأخذوا يتعنتون في طلـب هـذه الخوارق، فقالوا لرسول الله ﷺ الذي أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآيـة ﴿لن

(١) جامع البيان ١٢٠/٢٥

(٢) انظر: جامع البيان ٢١/ ٣٥٣، النكت والعيون للماوردي ١٤٣/٥.

(٣) انظر: نظم الدرر ٤٨٦/٦.

﴿نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ أي: أنهارًا جارية ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ فتستغني بها عن المشي في الأسواق، والذهاب والمجيء ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ أي: قطعًا من العذاب، ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي: جميعًا، أو مقابلة ومعاينة، يشهدون لك بما جئت به ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: مزخرف بالذهب وغيره ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ رقيًا حسيًا، ومع هذا ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾.

ولما كانت هذه تعنتات وتعجيزات؛ كلام أسفه الناس وأظلمهم، المتضمنة لردّ الحق، وسوء الأدب مع الله تعالى، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات.

ثم أمره – تعالى- أن يترهه فقال ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى﴾ عما تقولون علوًا كبيرًا، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ليس بيده شيء من الأمر.

وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان، حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشرًا، وهذا من رحمته بهم، أن أرسل إليهم بشرًا منهم، فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة. فلو ﴿كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ [الإسراء:٩٥]، يثبتون على رؤية الملائكة والتلقي عنهم ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ ليمكنهم التلقي عنه(١).

وجاءت الإشارة إلى تعنتهم في طلب إرسال الملائكة في مواضع أُخر، كما قال تعالى ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨]، وفي موضع ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر:٧]، وفي موضع ثالث ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان:٢١]

ومن فسادهم: الأفعال المنكرة أثناء الدعوة:

لقد اتبع مكذبو الرسل أساليب شتى في الإعراض، ومن ذلك بعض أفعالهم القبيحة حين دعوتهم إلى الله تعالى، فمن ذلك:

ما أخبر عنه تعالى بقوله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٦٧

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾[الحج:٧٢]، وذلك المنكر الذي يعرف في وجوههم - من الكراهية والعبوس - إنما هو لشدة كراهيتهم للحق، ومن الآيات الموضحة لكراهيتهم للحق؛ أنهم يمتنعون من سماعه، ويستعملون الوسائل التي تمنعهم من أن يسمعوه، كما قال تعالى عن نوح عليه السلام ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾[نوح:٧].

وإنما جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم؛ خوفاً أن يسمعوا ما يقوله لهم نبيهم نوح عليه السلام من الحق والدعوة إليه، وفيه دلالة واضحة على شدة بغضهم وكراهتهم لما يدعوهم إليه، فهو واضح في أنهم كبر عليهم ما يدعوهم إليه من توحيد الله والإيمان به، وإلا فإن آذانهم لا تسع أصابعهم كاملة، إنما هم يسدونها بأطراف الأصابع، ولكنهم يسدونها في عنف بالغ، كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم؛ ضماناً لعدم تسرب الصوت إليها بتاتاً!

ولما كان سدّ الآذان لا يمنع من رؤية وجه النبي الصادق، وتعابير وجهه المعبّرة المؤثرة، وهو يدعوهم إلى الله تعالى؛ عمدوا لتغطية رؤوسهم، وتغشوا في ثيابهم؛ لئلا يسمعوا، وقيل: إن المعنى أنهم تنكروا حتى لا يعرفهم نبيهم(١)، وهذه صورة غليظة للإصرار والعناد.

ومن بيان القرآن لأفعال المكذبين المنكرة، ما سبقت الإشارة إليه، من قول المشركين ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[فصلت:٢٦]، فترى بعضهم ينهى بعضا عن سماعه، ويأمرهم باللغو فيه، كالصياح والتصفيق المانع من السماع لكراهتهم للحق، ومحاولتهم أن يغلبوا الحق بالباطل(٢).

وقريباً من ذلك؛ ردّ الأيدي في الأفواه: قال تعالى عنهم﴿..جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم:٩]

وقد اختلف المفسرون في معنى ذلك، فقيل: إنهم أشاروا إلى أفواه الرسل، يأمرونهم بالسكوت، وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم؛ تكذيباً لهم، وقيل: وهو عبارة عن

(١) انظر: جامع البيان ٢٤٨/١٢، تفسير القرآن العظيم ٢٣٢/٨.

(٢) انظر: أضواء البيان ٣٤١/٥

سكوتهم عن جواب الرسل، وقيل: عضوا عليها غيظاً[1].

وهذا الفعل منهم دليل على سوء أدبهم مع أنبيائهم، وأتيانهم بها إمعان في الجهر والتكذيب.

هذا، وما سبق بيانه عن فساد المكذبين، ما هي إلا نماذج لصور فـسادهم، وآي القـرآن متضافرة في تقرير ذلك.

---

(١) انظر: جامع البيان ٧/٤٢٣، تفسير القرآن العظيم٤/٤٨١.

المطلب الثالث: أهل الكتاب.

لقد امتن الله – تعالى– على أهل الكتاب بنعم عظيمة، لم تكن لسابقيهم من الأمم، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الجاثية:١٦]، وقال تعالى﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[المائدة: ٢٠].

غير إنهم قابلوا نعم الله تعالى بالجحود، ودعوة رُسله بالإعراض والصدود.

وقد أبان الكتاب العزيز،جملة من مفاسدهم،حتى إن المتأمل يجدها ظاهرة في خطابها لهم، وحكايتها لفسادهم وانحرافهم.

قال ابن القيم:"ذِكْر أهل الكتاب – في القرآن – على أربعة أقسام:فإذا جاء بصيغة (الذين آتيناهم الكتاب)، فهذا لا يذكره الله؛ إلا في معرض المدح، وإذا ذكروا بصيغة (أوتوا نصيباً من الكتاب)؛ فلا تكون إلا في معرض الذم، وإن قيل فيهم (أوتوا الكتاب) فقد يتناول الفريقين؛ لكنه لا يفرد به الممدوحون فقط، وإذا جاءت (أهل الكتاب) عمّت الفريقين كليهما، فيتناول الممدوح منهم والمذموم"(١).

وعليه يتبين؛ أن في وصف أهل الكتاب بالفساد ليس لجميعهم، بل إن فيهم مؤمنون بالله – تعالى– ورسله عليهم السلام، كما أخبر عن ذلك بقوله﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾[آل عمران:١١٣].

بيد إن الفساد صبغة ظهرت على أكثرهم، قال تعالى ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[آل عمران:١١٠]

ولذا حكى القرآن بعض فسادهم، ونسبَه لجميعهم، مما يدل على رضاهم به، وهذه قاعدة فيما ذكر الله تعالى عن بني إسرائيل الذين كانوا في عهد النبوة، حيث وبخهم سبحانه على أفعال أسلافهم، كما قال تعالى﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥]، وغيرها من الآيات.

ومن المعلوم؛ أن اليهود في عصر النبوة ليسوا هم الذين قالوا ذلك.

ومِن ثَمّ؛ فإن المتتبع لآي الكتاب العزيز، يجد أن بيانها لفساد اليهود أظهر منه في

---

(١) مفتاح دار السعادة ١٠٤/١

حق النصارى، ولذا جاء هذا المطلب وفاقاً لذلك.

فمن أعظم فسادهم:نسبتهم النقص إلى الله تعالى.

إن الإنسان إذا ما تعبّد لمعبود، فإنه عقله يهديه إلى أن يخلع عليه صفات الكمال، وإن لم يكن لها بأهل، فتجد من يعبدون الحجر والشجر؛ يصفون معبوداتهم بالكمال!

فكيف بمن عبَد الله جل وعلا، وهو الذي له المثل الأعلى، ولا يوصف بالكمال المطلق؛ إلا هو تعالى وتقدّس، ولا تبلغ الألسنة مهما أحسنت ثناءً عليه سبحانه وتعالى.

وأهل الكتاب في ذلك؛ من أحطِّ الناس قدراً،وأرداهم حظاً،فلاكت ألسنتهم الفرية والبهتان، وافتروا على ربهم جلّ في علاه أفرى الفرى.

فلعمر الله لو دنسوا ضوء النهار، ولوثوا ماء البحار، لكان هيناً عند ذات البارئ جلَّ جلاله، وتقدست أسمائه.

فمن افترائهم على الله، أن نسبوا إليه الفقر – تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً – قال سبحانه ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران:١٨١] .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتت اليهود النبي ﷺ حين أنزل الله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[البقرة:٢٤٥]،فقالوا: يا محمد، افتقر ربك، يسأل عباده القرض؟ فأنزل الله الآية [١].

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه بيت المدراس[٢]، فوجد من يهود أناساً كثيراً،قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حَبر يقال له أشيع، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم، فو الله إنك لتعلم أن محمداً ﷺرسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر،ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنّا غنياً ما

---

(١) العجاب في بيان الأسباب ٢/ ٨٠٤

(٢) "بكسر الميم، مفعال من الدرس، والمراد به كبير اليهود، ونسب البيت إليه لأنه هو الذي كان صاحب دراسة كتبهم، أي قراءتها" انظر:فتح الباري ١٢/ ٣١٨

استقرض منّا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر ﷺ فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال:والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد؛ لضربت عنقك يا عدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قد قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال؛ فضربت وجهه، فجحد فنحاص ذلك، وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً عليه، وتصديقاً لأبي بكر ﷺ قوله ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾(١).

وهذا يدل على شناعةٍ وقبحٍ، وسوء أدب مع الله تعالى.

ومن عدوان أولئك اللئام، مقولة لعنوا بها إلى قيام الأنام ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة:٦٤].

قال ابن جرير:"وهذا خبر من الله – تعالى ذِكره – عن جرأة اليهود على ربهم، ووصفهم إياه بما ليس من صفته، توبيخاً لهم بذلك، وتعريفاً منه نبيه ﷺ قديم جهلهم، واغترارهم به، وإنكارهم جميع جميل أياديه عندهم، وكثرة صفحه عنهم، وعفوه عن عظيم إجرامهم، ويعنون بذلك: أن خير الله ممسك، وعطاؤه محبوس عن الاتساع عليهم"(٢).

وقد قالوا ذلك تعليلاً لبخلهم، فالله – بزعمهم – لا يعطيهم إلا القليل، فكيف ينفقون؟

وقد بلغ من غِلَظ حسهم وجلافة قلوبهم؛ ألا يعبِّروا عن المعنى الفاسد الذي أرادوه – وهو البخل – بلفظه المباشر، فتلفظوا بما هو أشد قبحاً، وأعظم جرماً،وأصرح كفراً، فقالوا ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ﴾ فاستحقوا جزاء قولهم الشنيع؛ الطرد من رحمة الله.

تباً لهم...أيقولون ذلك؛ وآلاء الله على كل مخلوق ظاهرة للعيان، ناطقة بكل لسان، شاهدة له بالفضل والإحسان، لكن يهود لانطماس بصيرتهم، وفساد قلوبهم، لم تر ذلك، و لم تعرف لربها حقاً، فيا لجحود النعم، ونكران المنعم.

ومن سوء أدبهم؛ نسبتهم التعب إلى الله، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، قال سبحانه

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٨٢٩/٣ ، جامع البيان٥٣٥/٣.

(٢) انظر:جامع البيان ٦٤٣/٤.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق:٣٨] .

قال قتادة: قالت اليهود – عليهم لعائن الله – خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع،وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾(١)،أي: من إعياء ولا تعب ولا نصب، كما قال تعالى في الآية الأخرى﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف:٣٣](٢).

ومن سوء أدبهم مع الله: نسبتهم الولد له سبحانه وتعالى عما يشركون، قال تعالى﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[التوبة:٣٠].

وهذه المقالة؛ وإن لم تكن مقالة لعامتهم، فقد قالها فرقة منهم، فيدل ذلك على أن فيهم من الخبث والشر؛ ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة، التي تجرؤوا فيها على اللّه، وتنقصوا عظمته وجلاله.

وقد قيل: إن سبب ادعائهم في عزير أنه ابن اللّه؛ أنه لما سلّط الله الملوك على بني إسرائيل، ومزقوهم كل ممزق، وقتلوا حَمَلَةَ التوراة، وذهب الباقون من علمائهم، ودفنوا التوراة في الجبال، فجاءهم عزير بعد ذلك حافظاً لها، أو لأكثرها، فأملاها عليهم من حفظه، واستنسخوها، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة.(٣)

وأما مقولة النصارى في عيسى عليه السلام، لأن ولادته جاءت على غير عادة البشر، إذ لم يكن لمرأةٍ أن تلد صغيراً دون أن يكون لها زوج، وهذا ما استنكرته مريم حين قالت﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾[مريم:٢٠]، فكان الجواب الذي يدل على كمال قدرته عز وجل﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾[مريم:٢١].

فإن الله تعالى يُري عباده من خوارق العادات؛ ما يكون برهاناً على كمال قدرته.

وقد اختلف النصارى في شأن عيسى عليه السلام، فمنهم من قال هو ابن الله، ومنهم من قال هو

---

(١) جامع البيان ٤٣٥/١١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم٤٠٩/٧.

(٣) انظر: جامع البيان ٣٥١/٦، تيسير الكريم الرحمن، ص٣٣٤.

الله، ومنهم من قال هو ثالث ثلاثة، فردَّ الله فِرية الظالمين فقال﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٥].

لقد جاء النص المبين، بكفر هؤلاء المعتدين على مقولتهم الشنيعة﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ﴾ [المائدة:٧١]،﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ﴾ [المائدة:٧٣].

وقوله تعالى﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ﴾أي:ذلك القول الذي قالوه، قولهم بأفواههم، فلم يقيموا عليه حجة ولا برهاناً.

ومن كان لا يبالي بما يقول، لا يُستغرب عليه أيّ قول يقوله، فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام،ولهذا قال﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾أي:يشابهون في قولهم هذا، قول المشركين الذين يقولون:"الملائكة بنات اللّه" تشابهت قلوبهم، فتشابهت أقوالهم في البطلان.

ثم أعقب ذلك بذمهم فقال سبحانه ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾أي: كيف يصرفون عن الحق، الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين.

إن عقولهم غُيِّبت عن تأمل قول عيسى عليه السلام – أول ما تكلم – ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾[مريم:٣٠]،فقد أقرَّ على نفسه بالعبودية لله عز وجل،أول ما تكلَّم؛ لئلا يتخذ إلها.

وهذا – وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة، أن تتفق على قول – يدل على بطلانه أدنى تفكر وتسليط للعقل عليه، فإن لذلك سبباً وهو أنهم﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[التوبة:٣١].

فاتخذوا علمائهم وعبادهم مشرّعين،يحلّون لهم ما حرم اللّه؛فيحلونه، ويحرمون عليهم ما أحل اللّه؛ فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها.

وكانوا أيضاً؛ يغلون في مشايخهم وعبَّادهم، ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثاناً تعبد من دون اللّه، وتقصد بالذبائح، والدعاء والاستغاثة، وكذلك المسيح ابن مريم عليه السلام اتخذوه إلهاً من دون اللّه، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر اللّه لهم على ألسنة رسله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالمحبة

والدعاء، فنبذوا أمر اللّه تعالى، وأشركوا به ما لم يترل به سلطاناً"[١].

وقد نفى الله تعالى الولد عن نفسه؛ في ثمانية عشر موضعاً في الكتاب العزيز، عشر منها قرنها بالتسبيح، وثمان من غير اقتران، وذلك لأن الأمم ظلت في هذا الباب، فتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وما أعظم حِلم الله بهم، كيف لم يخسف بهم الأرض، أو يسقط عليهم كسفاً من السماء!..

وما أصبره – سبحانه – على أذاهم، فما أحد أصبر على الأذى من الله تعالى، فعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"ليس أحد، أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولداً، وإنه ليعافيهم ويرزقهم".[٢]

ومن فساد اليهود: عداوتهم للملائكة.

فلم يكتف اليهود بتكبّرهم على البشر، واستعلائهم عليهم، وعداوتهم لغيرهم، بل وصلت دناءة معتقدهم، وسوء أخلاقهم، إلى عداوة ملائكة الله تعالى.

قال عز وجل ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٩٨].

قال ابن جرير:"أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً، على أن هذه الآية،نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك، فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك؛ من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر نبوته"[٣].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:حضرت عِصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خِلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه، لتتابعُني على الإسلام، فقالوا: ذلك لك، فجعلوا يسألونه صلى الله عليه وسلم وهو يجيبهم، وهم يصدّقوه،

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن،ص٣٣٥.

(٢) أخرجه البخاري.كتاب الأدب.باب الصبر على الأذى.ح(٥٧٤٨).

(٣) جامع البيان ٤٦٧/١.

حتى قالوا: أنت الآن تحدثنا، من وليك من الملائكة؟ فعندها نتابعك أو نفارقك، قال: فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط؛ إلا وهو وليه، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة؛ تابعناك وصدقناك، قال:"فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله عز وجل الآية.(١)

فهذا نوع آخر من قَبَائح اليهود، ومنكرات أقوالهم، فتأمل حنقهم، وشدة غيظهم، كيف جعلوا جبريل الأمين عليه السلام عدواً لهم، والسؤال: لماذا تلك العداوة؟ وما سببها؟

من المثير في ذلك أن اليهود – وهم أهل كتاب – يعلمون أن جبريل ملك من الملائكة، يفعل ما يؤمر به من عذاب،أو رحمة،أو وحي، ولكن هوى النفوس، أعمى أبصارهم، وطمس قلوبهم، فقالوا:إن جبريل عدونا؛ يترل بالقتال والشدّة، ورسولنا ميكائيل؛يأتي بالبِشر والرَّخاء فلو كان هو الذي يأتيك آمنا بك(٢).

ومن صور فسادهم: قتل الأنبياء.

وذلك من أقبح الأشياء التي فعلها اليهود، إذ كيف يُقتل الأنبياء وهم أفضل البشر، اختارهم الله للدعوة إلى دينه، وتبليغ شرعه.

وإن هذا ليعظُم في أمة نزل فيهم كتاب الله، وكثرت فيهم الرسل تقيم لهم الدين، ففي الصحيح:"كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي"(٣).

غير إنهم كما أساءوا الأدب مع الله تعالى؛ أساءوا الأدب مع رسله، قال تعالى ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧].

وتأمل في قوله ﴿تَقْتُلُونَ﴾ ولم يقل(فريقاً قتلتم)، لأنه أراد بذلك؛وصفهم في المستقبل أيضاً، فلقد هموا بقتل النبي ﷺ بالسمِّ والسِّحر، قال ﷺ"ما زالت أكلة خيبر تعاودني، فهذا أوان

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٨١/١، وجامع البيان ٤٧٦/١، والحديث أخرجه أحمد ٢٧٦/١، والطبراني في الكبير١٩١/١٢.ح(١٣٠١٢)، وحسّنه الأرناؤط في تعليقه على المسند.

(٢) انظر: جامع البيان ٤٧٧/١، تفسير القرآن العظيم٣٤٠/١.

(٣) أخرجه البخاري.كتاب الأنبياء.باب ما ذكر عن بني إسرائيل.ح(٣٢٦٨)، ومسلم.كتاب الإمارة.باب الْوَفاء بِبَيْعَة الْخلفاءِ الأَوَّل فَالأَوَّل.ح(٤٨٧٩) .

انقطاع أبهري[(١)]"[(٢)].

ورغم أن اليهود شرذمة قليلون، وربما كانوا مستضعفين في بعض الأماكن، إلا إنهم يسعون دائماً إلى إثارة الفساد بالغدر والخيانة، فقد كانوا في المدينة والمسلمون في عِزّة ومنعة، ورغم ذلك خططوا لقتل النبي ﷺ أكثر من مرة، فعزموا على ذلك بسحره ﷺ ،كما فعل لبيد بن الأعصم اليهودي، ومرة أخرى وضعوا له السمّ في لحم الشاة، ولما سأل النبي ﷺ المرأة التي وضعت له السمّ، قالت:أردت قتلك، فقال:"ما كان الله ليسلطك على ذلك" أو قال:"ما كان الله ليسلطك عليّ"[(٣)].

فهؤلاء اليهود، أصل الخيانة والغدر؛ أرادوا قتل النبي ﷺ أكثر من مرّة، ولم يفلحوا، لأن الله حافظٌ نبيه ﷺ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة:٦٧].

فلما أراد الله إكرامَه بالشهادة؛ ظهر تأثيرُ ذلك الأثر الكامِن من السُّم، ليَقضي اللهُ أمراً كان مفعولاً، وظهر سِرُّ قوله تعالى لأعدائه من اليهود ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾، فجاء بلفظ "كَذَّبتم" بالماضى الذى قد وقع منه وتحقق، وجاء بلفظ "تَقتلُون" بالمستقبل، الذى يتوقَّعونه ويَنتظرونه.والله أعلم.

ومن قبل كانوا يقتلون النبيين بغير حق، فكيف يرتجى منهم وفاءٌ بعهد أو ميثاق؟

أم كيف يأمّل منهم سلامٌ أو أمان.!

ومن صور فساد اليهود: الفرية والاتهام بالباطل.

قال تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ [الأحزاب:٦٩].

ففي الآية تنبيه للمؤمنين، وتذكير لهم؛ ألا يؤذوا رسولهم ﷺ بقول يكرهه، أو فعل لا يحبه منهم، فيكونوا كالذين آذوا موسى عليه السلام، فرموه بالعيب كذباً وباطلاً، فبرّأه الله مما قالوا فيه من الكذب والزور؛ بما أظهر من البرهان على كذبهم.

كيف تجرؤا على ذلك؛ وموسى عليه السلام ذا جاهٍ ومنزلة رفيعة، غير أنهم لا يرعوون عن قبيح

---

(١) الأبهر: عرق مستبطن القلب، فإذا انقطع لم تبق معه حياة. انظر: النهاية في غريب الأثر ١/ ١٨

(٢) أخرجه البخاري. كتاب المغازي. باب مرض النبي ﷺ ووفاته.ح(٤٤٢٨).

(٣) أخرجه البخاري.كتاب المغازي.باب الشاة التي سُمّت للنبي ﷺ بخيبر.ح(٤٢٤٩)، ومسلم.كتاب السلام.باب السمّ. ح(٢١٩٠).

الخصال، وسيء الفِعال.

لقد كانت فريتهم على موسى عليه السلام تنبئ عن فحش، وسوء خُلق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً، لا يُرى من جلده شيء؛ استحياءً منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر؛ إلا من عيب بجلده؛ إما برص؛ وإما أدرة[1]؛ وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى،فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عَدَا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فو الله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه، ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً فذلك قوله﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾[الأحزاب:٦٩] [2].

وفي هذا المسلك المعوجِّ، كانت الفرية على مريم العذراء، قال تعالى ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾[النساء:١٥٦]، أي: بافترائهم عليها، ورميهم إياها بالزنا، وهو البهتان العظيم، لأنهم رموها بذلك، وهي مما رموها به - بغير ثبت ولا برهان - بريئة، فبهتوها بالباطل من القول"[3].

وبرغم أن الله تعالى قد أقام عليهم الحجة والبرهان، في رد هذا البهتان، حيث أنطق سبحانه عيسى في المهد، ولكن اليهود أرباب الغدر والخيانة والافتراء، حاولوا قتله فلم يفلحوا، فوسموا مريم بالزنا، وسطروا ذلك في كتبهم المحرفة، وخاصة كتابهم "التلمود".

فأنزل الله تعالى براءتها،وزكاها بقوله﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[التحريم:١٢].

ومن فسادهم: التلبيس والمغالطة:

قال تعالى﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[آل عمران:٧١].

إن التلبيس والمغالطة أسلوب ماكر، قلَّ أن يتفطن له عامة الناس، فوبَّخهم - سبحانه - على

---

(١) الأدرة بالضمّ: نفخة في الخصية. انظر: النهاية في غريب الحديث ٤٥/١.

(٢) أخرجه البخاري.أحاديث الأنبياء.باب:حديث الخضر ح(٣٤٠٤)،ومسلم الحيض.باب جواز الاغتسال.ح(٣٣٩).

(٣) جامع البيان ٣٥٠/٤.

لبس الحق بالباطل، وعلى كتمان الحق، لأنهم بهذين الأمرين؛ يضلون من انتسب إليهم.

قال السعدي:"نهاهم – سبحانه – عن شيئين: عن خلط الحق بالباطل، وكتمان بيان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم تمييز الحق من الباطل، وإظهار الحق؛ ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحجة على المعاندين؛ لأن الله فصّل آياته وأوضح بيناته؛ ليميز الحق من الباطل ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين فمن عمل بهذا من أهل العلم فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم، ومن لبس الحق بالباطل فلم يميّز هذا من هذا، مع علمه بذلك، وكتم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره؛ فهو من دعاة جهنم؛ لأنّ الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين"(١).

بل إن الله تعالى، قد أخذ عليهم العهد في ذلك، كما قال﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[آل عمران:١٨٧].

ولكنهم أخلفوا عهد الله وميثاقه، حيث أخبر – تعالى- عما همّت به هذه الطائفة الخبيثة، من إرادة المكر بالمؤمنين، فقال﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[آل عمران:٧٢](٢).

قال السدي:"كان أحبار قُرَى عربية اثني عشر حبرًا، فقالوا لبعضهم: ادخلوا في دين محمد أول النهار، وقولوا: نشهد أن محمدًا حقّ صادقٌ، فإذا كان آخر النهار؛ فاكفروا وقولوا:إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم، فحدَّثونا أن محمدًا كاذب، وأنكم لستم على شيء، وقد رجعنا إلى ديننا، فهو أعجب إلينا من دينكم، لعلهم يشكّون، يقولون: هؤلاء كانوا معنا أوّل النهار، فما بالهم؟ فأخبر الله عز وجل رسوله ﷺ بذلك"(٣).

ولقد كان هذا ديدنهم منذ سالف عهدهم، إلى يومنا هذا،؛ يشهدون أن الحق واضح، وأن هذا الدين حق، كما جاءهم به البينات، ثم يلبِّسون على الناس، فهم قوم بُهت؛بشهادة بعض أحبارهم، ففي الصحيح أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه جاء إلى النبي ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بحق، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥١.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ١٣٤.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم٢/٦٧٨، جامع البيان ٣/٣١٢.

فادعهم، فاسألهم عني، قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت، قالوا فيَّ ما ليس فيَّ، فأرسل نبي الله ﷺ فأقبلوا، فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ"يا معشر اليهود، ويلكم، اتقوا الله فو الله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق، فأسلموا"، قالوا ما نعلمه، قالوا للنبي ﷺ، قالها ثلاث مرار، قال:"فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام"،قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: أفرأيتم إن أسلم، قالوا: حاشى لله، ما كان ليسلم، قالها ثلاثاً، قال: يا ابن سلام اخرج عليهم، فخرج فقال: يا معشر اليهود اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو؛إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا:كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ"[1]،وفي رواية"قالوا:شرنا وابن شرنا، ووقعوا فيه".[2]

فانظر إلى مغالطتهم، كيف بدأوا بالثناء على عبدالله بن سلام، ثم انقلبوا عليه فذمّوه.

ولقد حاولوا أن يدسّوا في كتاب الله ما ليس منه، من تحريفات ظاهرة، ولكن يأبى الله إلا أن يحفظ كتابه المبين، من عبث العابثين، فلما علموا ذلك أرادوا دسَّ السموم في كتب التفسير والسنة، فقيَّض الله لها الجهابذة، فذادوا عنها، حتى بذلوا في ذلك المُهج والأرواح[3].

ثم تأمل كيف كان أمرهم فيما بينهم حيث قالوا﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾[آل عمران:٧٣].

أي: لا تطمئنوا وتظهروا سركم وما عندكم؛ إلا لمن اتبع دينكم، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين، فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم.

غير إنه تعالى لما أطْلَعَ المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة، لَم يحصل لهذه الحيلة أثرٌ في قلوب المؤمنين، ولولا هذا الإعلام، لأمكن تأثيرها في قَلب من ضَعُف إيمانه.

فازداد يقين المسلمين بدينهم، وأما هم فلما افتضحوا في هذه الحيلة، صار ذلك؛ رادِعاً لهم عن الإقدام على أمثالها من الحِيَل والتَّلبيس[4].

ولما انقطع الوحي، صار لتلبيس هؤلاء المفسدين صوراً تناسب مجريات الزمان، وتطور الملابسات، فجاءوا ببدعة الاستشراق، والتي بذلوا فيه جهدهم لدراسة الموضوعات

---

(١) أخرجه البخاري.كتاب مناقب الأنصار. باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.ح(٣٩١١).

(٢) أخرجه البخاري.كتاب أحاديث الأنبياء .باب خلق آدم وذريته.ح(٣٣٢٩).

(٣) صُنِّف في ذلك كتب وبحوث. منها كتاب: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د.محمد أبو شهبة

(٤) انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٦٠/٢.

الإسلامية بشتى صورها، ثم دسّوا السمَّ في العسل، للأميين الذين لا يفقهون شيئاً في الدين، حتى أنطلت أكاذيبهم على بعض المسلمين وأعجب بأفكارهم بعض المفتونين، حتى صار منهم، ويسعى لتحقيق أهدافهم، وإن كان من بني جلدتنا ويتكلم بألسنتنا.

لقد سعى أهل الكتاب للبس الحق بالباطل؛ منذ بزوغ فجـر الإسـلام إلى يومنـا هـذا، بكل سبيل، فها هي حملاتهم المتتابعة حين بعد آخـر، للطعـن في القـرآن الكـريم، وفي سيرة سيد المرسلين ﷺ، والصحابة الكرام ﭫ.

ولقد بيّن الله تعالى أن كتمان الحق وإخفائه من سماتهم:

كما قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

فكَتمُ الحق؛ أسلوب ماكر من أساليبهم في إنكار دعوة الرسل، قد لا يتنبه له الكثير، وهو دليل على فساد نيتهم، وسوء طويتهم، فما كتم الحق؛ إلا جاحد معاند.

ففي الآية بيان ما وقع منهم في كتمان صفة النبي ﷺ المذكورة في كتبهم، فأخبر تعالى أن أهل الكتاب قد تقرَّر عندهم، وعرفوا أن محمداً رسول الله ﷺ، وأن ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك؛ كما تيقنوا أبناءهم؛ بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم، فمعرفتهم بمحمد ﷺ، وصلت إلى حدٍّ لا يشكون فيه ولا يمترون، ولكن فريقاً منهم – وهم أكثرهم – الذين كفروا به، كتموا هذه الشهادة مع تيقنها، وهم يعلمون.(١)

وثمة صورة لفسادهم ليست عن هذا ببعيد، بل إن تلبّسهم بها أكثر، وغشيانهم لها أظهر؛ تلكم هي؛ تحريفهم للكتب المنزّلة:

ولئن كانت هذه الفعلة القبيحة؛من تلبيس الحق بالباطل،وكتمان الحق؛ إلا أن الله – تعالى – خصّها بالذِكر فقال﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّـٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ﴾ [المائدة:٤١].

أي يتأولونه على غير تأويله، بعد أن فهموه عنك، وعرفوا مواضعه التي أرادها الله عز وجل وبيّن أحكامه.

"والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٧٢

الأمر برجم من أُحصن منهم، فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم(١)،والإركاب على حمارين مقلوبين، فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم؛ فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله، قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم؛ فلا تتبعوه في ذلك"(٢).

وقد وردت الأحاديث في ذلك، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له؛ أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا آية الرجم. فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة(٣).

ومن ذلك قوله تعالى﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾[النساء:٤٦].

فتحريفهم ذلك إما بتغيير اللفظ أو المعنى، أو هما جميعاً. فمن تحريفهم؛ تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم، والتي لا تنطبق ولا تصدق إلا على النبي ﷺ ؛ على إنه غير مراد بها، ولا مقصود بها، بل أريد بها غيره، وكتمانهم ذلك.فحالهم هذه في العلم؛ أشر حال، قلبوا فيه الحقائق، ونزلوا الحق على الباطل، وجحدوا لذلك الحق.

وأما حالهم في العمل والانقياد؛ فإنهم يقولون ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ أي: سمعنا قولك، وعصينا أمرك، وهذا غاية الكفر والعناد والشرود عن الانقياد، وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ قصدهم: اسمع منا غير مسمع ما

---

(١) التحميم: تسويد الوجه. انظر: النهاية في غريب الحديث ٤٣٦/١.

(٢) تفسير القرآن العظيم١١٣/٣.

(٣) أخرجه البخاري. كتاب المناقب.باب قوله ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبنائهم ﴾.ح(٣٦٣٥)، ومسلم.كتاب الحدود.باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا.ح(١٦٩٩).

تحب، بل مسمع ما تكره،﴿ وَرَٰعِنَا ﴾ قصدهم بذلك الرعونة، بالعيب القبيح، ويظنون أن اللفظ – لمّا كان محتملاً لغير ما أرادوا من الأمور- أنه يروج على الله وعلى رسوله، فتوصلوا بذلك اللفظِ الذي يلوون به ألسنتهم؛ إلى الطعن في الدين والعيب للرسول ﷺ، ويصرحون بذلك فيما بينهم، فلهذا قال ﴿ لَيًّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ ﴾.(١)

ومن تحريفهم؛ ما تضمنته التوراة المحرّفة من تبديل للألفاظ والمعاني، فإن فيها ما يجزم العاقل؛ أنه ليس من عند الله تعالى، فأيّ كتاب سماوي يتزّه عن تلك النقائص والعيوب والتناقض في الأخبار، واختلاق الأكاذيب على أفضل الخلق؛ وهم رسل الله وأنبيائه،حيث نسبوا إليهم السُكْر والخمر والزنى، وغير ذلك من القبائح، التي يتزّه العاقل نفسه أن يتصف بشيء منها، فضلاً عن مقام النبوة الشريف.(٢)

وكان من بواعث التحريف عندهم؛ كثرة المبشرات – في كتبهم – بنبي هذه الأمة ﷺ، وتنوعها، وعجزهم عن كتمانها، أو تغيير لفظها، فلجأوا إلى تحريف معناها.

ولم يقف حدّ التحريف على كتبهم، بل حالوا تحريف القرآن الكريم، فأبطل الله كيدهم لأنه سبحانه تكفّل بحفظه﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر:٩].

وحيث عجزوا عن اللفظ لجأوا لتحريف المعنى، إما عن طريق تفاسيرهم المعربة المظللة، أو عن طريق ترجماتهم إلى لغات أخرى، وكل ذلك دليل على مكرهم وكيدهم،وعدائهم للإسلام وأهله.

وقد خص الله اليهود بتحريف كلامه في مواضع كثيرة، وهاهم اليوم يجددون هذا المسلك بما أعلنت عنه وزارة خارجية إسرائيل، من إطلاق مشروع عالمي لتفسير القرآن بعنوان: "قرآنت" ليكون -بزعمها- وسيلة تربوية(٣).

فعلى المسلمين أن يحذروا من الوقوع في هذا الفخ، وليتأملوا جيدًا قول الذي خلقهم وكشف أستارهم﴿ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[البقرة:٧٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص١٨٠.

(٢) انظر: البحر المحيط ٥٢٧/٢.

(٣) المصدر: "العربية نت" الثلاثاء ١٣ جمادى الثانية ١٤٢٩هـ – ١٧ يونيو ٢٠٠٨م.

ومن قبيح صفاهم التعنت والتشدد:

وظهر تشدّد بني إسرائيل وتعنتهم في أكثر من حال، مما يؤكد قسوة قلوبهم، وهذا ظاهر في القرآن في قصة البقرة، قال سبحانه﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[البقرة:٦٧].

فبدأوا بطرح الأسئلة التي تدل على تعنت صاحبها، فسألوا عن لونها، وعن أوصافها، وهذا من تشددهم.

فعن ابن عباس وابن سيرين وأبي العالية رضي الله عنهم أنهم قالوا: فلو لم يعترضوا البقر؛ لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شدّدوا؛ فشُدِّد عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التي أُمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها،فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً".[(١)]

وهذا مثال ضربه الله عز وجل، ليبين للأمة المحمدية؛ أن التشدد يفضي أمره إلى تعنت وتشديد في الحكم.

ولذلك كان أمر النبي صلى الله عليه وسلم "يسروا ولا تعسروا"[(٢)]،وقال صلى الله عليه وسلم "إن الدين يسر"[(٣)].

فالتيسير أمر ظاهر في شريعة الإسلام، ليبعد كل من دخل تحت مظلته؛ من أن يتأثر بفعل أهل الكتاب، الذين شددوا؛ فشدد الله عليهم بفعلهم، ولا يظلم ربك أحداً .

وأما تعنتهم، فإن الله تعالى لما امتنَّ على موسى وقومه؛ ونجاهم من بطش فرعون وكيده، ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم، وهي بيت المقدس وما حوله، وكانت بيوتهم قد أخذها العماليق[(٤)]، ففرض الله عليهم الجهاد؛ليخرجوا هذا العدو من ديارهم، فذّكرهم موسى عليه السلام ووعظهم حتى يقدموا على الجهاد، فقال لهم﴿ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[المائدة: ٢٠].

فذكّرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعي ذلك لإيماهم وثباهم على الجهاد، وإقدامهم عليه، ولهذا قال لهم﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟

---

(١) انظر: جامع البيان ٣٧٩/١، وابن أبي حاتم ١٣٦/١، تفسير القرآن العظيم٢٩٧/١.

(٣) أخرجه البخاري .كتاب الجهاد والسير.باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب. ح(٣٠٣٨)، ومسلم. كتاب الجهاد والسير.باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير. ح(١٧٣٢).

(٤) أخرجه البخاري. كتاب الإيمان.باب الدين يسر. ح(٣٩).

(٤) سموا بـــ"العماليق" لأن أباهم عمليق بن لاذا بن سام بن نوح عليه السلام. انظر تاريخ الطبري ١٢٥/١

خَٰسِرِينَ﴾[المائدة:٢١]. وهذا خبر تطمئن به نفوسهم؛ إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله تعالى، وأن الله كتب لهم النصر على عدوهم، فأي اطمئنان كهذا.

ولكن ظهر عليهم التعنت والعصيان في كلامهم فقالوا ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾[المائدة:٢٢]. فهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلا لو كان معهم رشدهم، لعلموا أن القوي من أعانه الله، وأيده بنصره.

فانبرى لهؤلاء المعاندين رجلان منهم﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[المائدة:٢٣] أي ليس بينكم وبين النصر على العدو؛ إلا أن تجزموا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتم؛ فإنهم سيهزمون بإذن الله، وذكّرهم الرجلان بالتوكل على الله،لأنه بحسب يقين الإنسان بنصر الله؛ يكون تحقيق النصر.

ثم تأتي أشنع الكلمات منهم في مواجهة أمر الله وتعنتهم حين قالوا ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾[المائدة:٢٤].

فما أشنع هذا الكلام منهم، ومواجهتهم لنبيهم في هذا المقام الحرج، الذي دعت إليه الضرورة، لنصرة نبيهم، وإعزاز أنفسهم.

ثم كانت نتيجة ذلك ما أخبر به تعالى﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[المائدة:٢٦]، فأسلمهم - سبحانه - وهم على أبواب الأرض المقدسة للتيه، وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل، جيل يعتبر بالدروس، وينشأ في خشونة الصحراء وحريتها، هنالك يصلب العود، ويتعلم القلب الشجاعة التي حُرِمها أسلافهم.(١)

ومن تعنتهم قولهم لموسى عليه السلام ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[البقرة:٥٥]، ولذا حذر الله تعالى المؤمنين من مشابهتهم فقال سبحانه﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[البقرة:١٠٨].

قال ابن كثير:"والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء؛ على وجه التعنت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكذيباً وعناداً".(٢)

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧٥/٣، تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٢٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٥٣/١

ومن صور فساد النصارى الابتداع في الدين:

قال تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٧].

فالرهبانية لم تكن موجودة في شريعة عيسى عليه السلام، ولكنّ خلفٌ من خلوف النصارى؛ هم الذين أحدثوها، وأدخلوها في الدين.

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانت ملوكٌ بعد عيسى عليه السلام بدلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل، فقيل لملكهم: ما نجد شيئاً أشد علينا من شتمٍ يشتُمناه هؤلاء، أنهم يقرءون ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، هؤلاء الآيات، مع ما يعيبوننا به في قراءتهم، فادعهم فليقرءوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمنا به، قال: فدعاهم فجمعهم، وعرض عليهم القتل؛ أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل؛ إلا ما بدلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك، فدعونا، قال: فقالت طائفة منهم؛ ابنوا لنا اسطوانة ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا، فلا نرد عليكم، وقالت طائفة منهم؛ دعونا نسيح في الأرض، ونهيم ونشرب شرب الوحوش، فإن قدرتم علينا بأرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة؛ ابنوا لنا دوراً في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث البقول، فلا نرد عليكم، ولا نمر بكم، وليس أحد من أولئك إلا وله حميم فيهم، قال ففعلوا ذلك، فأنزل الله جل ثناؤه هذه الآية(١).

"وخصَّت الآية الرهبانية بالابتداع؛ لأن الرأفة والرحمة في القلب لا تكسُّب للإنسان فيها، بخلاف الرهبانية؛ فإنها أفعال بدن مع شيء في القلب، ففيها موضع التكسُّب"(٢).

والرهبانية اسم للحالة التي يكون الراهب متصفاً بها في غالب شؤون دينه.

والراهب: هو العابد من النصارى المنقطع للعبادة، وهو وصف مشتق من الرهَب: أي الخوف، لأنه شديد الخوف من غضب الله تعالى، أو من مخالفة دين النصرانية، وقيل: سميت بذلك بسبب الخوف من الجبابرة الذين لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام من اليهود، وأن الجبابرة

---

(١) جامع البيان ٦٩٠/١١، وتفسير القرآن العظيم ٣١٨/٤، والحديث أخرجه النسائي. كتاب آداب القضاة. باب تأويل قوله عز وجل "ومن لم يحكم بما أنزل الله.." ح(٥٤١٥)، وحسنه الألباني في صحيح سنن النسائي. ح(٥٤٠٠).

(٢) البحر المحيط ٢٢٦/٨.

ظهروا على المؤمنين بعيسى، فقاتلوهم حتى لم يبق منهم إلا القليل،فخافوا أن يفتنوا في دينهم فاختاروا الرهبانية؛ وهي ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين(١).

ويلزم هذه الحالة في عُرْف النصارى، العُزلة عن الناس تجنباً لما يُشغل عن العبادة؛ وذلك بسكنى الصوامع والأديرة،وترك التزوج تجنباً للشواغل، ويمتنع من مخالطة الأصحاب؛ خشية أن يلهوه عن العبادة، ويترك لذائذ المآكل والملابس؛ خشية أن يقع في اكتساب المال الحرام، ولأنهم أرادوا التشبه بعيسى عليه السلام في الزهد في الدنيا وترك التزوج، فلذلك قال تعالى ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ أي أحدثوها، فإن الابتداع الإِتيان بالبدعة، والبِدَع وهو ما لم يكن معروفاً، أي أحدثوها بعد رسولهم، فإن البدعة ما كان محدثاً بعد صاحب الشريعة.

والمعنى: أنهم ابتدعوا العمل بها، فلا يلزم أن يكون جميعهم اخترع أسلوب الرهبانية، ولكن قد يكون بعضهم سنَّها، وتابَعَه بقيتهم.

وقيل: إن ابتداعهم الرهبانية؛ بأنهم نذروها لله، وكان الانقطاع عن اللذائذ، وإعناتُ النفس، من وجوه التقرب في بعض الشرائع الماضية، بقيت إلى أن أبطلها الإسلام(٢).

وأما قوله سبحانه﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي:"فما قاموا بما التزموه حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين، أحدهما: في الابتداع في الدين ما لم يأمر به الله تعالى، والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه، مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل"(٣).

وظاهر الآية؛ أن جميعهم قصروا تقصيراً متفاوتاً، في أداء حقها. وفيه إشعار بأن ما يكتبه الله على العباد من التكاليف؛ لا يشق على الناس العمل به.

فهذه الرهبانية التي عرفها تاريخ النصارى،كانت اختياراً منهم ، ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله،وابتعاداً عن الشهوات،ولم يكتبها الله عليهم ابتداءً، ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم؛ صاروا مرتبطين أمام الله بأن يرعوا حقوقها،ويحافظوا على مقتضياتها، من تطهّر وترفّع وقناعة وعِفّة وذِكر وعبادة، مما يحقق في أنفسهم حقيقة التجرّد لله تعالى، التي قصدوا إليها بهذه الرهبانية المبتدعة.

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم ٨/ ٢١٣، تفسير الكشاف ٤٧٩/٤

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٤٢٢/٢٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢٩/٨.

ولكنها انتهت إلى أن تصبح في الغالب طقوساً وشعائر، خالية من الروح، وأن يتخذها الكثيرون مظهراً عارياً من الحقيقة، فلا يصبر على تكاليفها إلا قليل منهم[(١)].

والله سبحانه وتعالى لا يأخذ الناس بالمظاهر والأشكال، ولا بالطقوس والمسوح، إنما يأخذهم بالعمل والنية، ولا تصح نية بلا إخلاص، ولا يقبل عمل بلا اتباع.

ومن تتبع آي القرآن؛ وجد آيات مفصلات، في بيان فساد أهل الكتاب، وما ذكرناه منها، ما هو إلا إشارة إلى انحرافهم عن صراط الله المستقيم.

وعند ما يقف المؤمن عند تلك الآيات، يدرك حينها ما استحقه اليهود من غضب الله ومقته، وما آل إليه النصارى من الغواية والضلال، نسأل الله السلامة والعافية.

---

(١) للاستزادة انظر: (الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام) لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي.

المطلب الرابع:المنافقون.

ذكر الله تعالى في وحيه المبارك، كثيراً من أوصاف المنافقين، لخطورهم على الإسلام وأهله، فكشف التتريل أسرارهم، وهتك أستارهم، وبيّن دقائق نفوسهم.

ذلك أن حقيقة المنافقين - كما صورها القرآن، ومما يشهد به واقعهم - هي صورة مخالفة لصورة المؤمن الحقيقي، والكافر الصريح، فإن الكفرة على اختلاف مللهم كفرهم ظاهر، قد بان للمؤمنين كفرهم، وظهرت عداوقم، واتضح وجوب منابذهم، ومخالفتهم في الدين، فلا يجنح إليهم من في قلبه إيمان صحيح.

ولكن بليّة الإسلام، ومدخل الشر إليه في هذا الصنف من المفسدين؛ الذي يرتدي زي الصديق الذي يظهر الخير، ويبطن الشر، فلا ريب أن خطر أهل النفاق وشرهم أعظم أثراً، وأنكى جرحاً.

فمن فسادهم:الإعراض عن حكم الله تعالى:

قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء:٦٠].

فهذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله تعالى وسنة رسولهﷺ.

وجاء في سبب نزولها أن رجلاً من الأنصار ورجلاً من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وجعل الأنصاري يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف، وقيل: نزلت في جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حُكام الجاهلية.وقيل غير ذلك[1].

قال ابن كثير:"والآية أعم من ذلك كله، فهي ذامّة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطواغيت هاهنا.

وعقب ذلك جاء التصريح بوصف حال المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء:٦١].

---

(١) انظر: أسباب نزول القرآن للواحدي ص١٦٤

ثم قال تعالى في ذمهم ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء:٦٢].

أي: فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك، ثم جاؤك يعتذرون إليك، ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى أعدائك، إلا الإحسان والتوفيق، أي المداراة والمصانعة، لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة، كما أخبر تعالى عنهم في قوله ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ [المائدة:٥٢][1].

وهي دائماً دعوى كل من يحيدون عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته؛ أنهم يريدون اتقاء الإشكالات والمتاعب والمصاعب، التي تنشأ من الاحتكام إلى شريعة الله!

يريدون – بزعمهم – التوفيق بين العناصر المختلفة، والاتجاهات المتباينة والعقائد المختلفة... إنها حجة الذين يزعمون الإيمان – وهم غير مؤمنين – وحجة المنافقين الملتوين،في كل حين! والله – سبحانه – يكشف زيفهم، ويخبر رسوله ﷺ أنه يعلم حقيقة ما تنطوي عليه جوانحهم، ومع هذا يوجهه إلى أخذهم بالرفق، والنصح لهم بالكف عن هذا الإلتواء ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء:٦٣].

ومن فسادهم: سوء ظنهم بالله تعالى:

قال تعالى﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾[آل عمران:١٥٤].

والمقصود بهذه الطائفة هم المنافقون، فقد ظنوا بالله تعالى ظن الملة الجاهلية، التي لا يعرف الظان فيها قدر الله وعظمته، فهو ظن باطل مبني على الجهل.

والمنافقون لا همَّ لهم غير أنفسهم، فهم من حذر القتل على أنفسهم، وخوف المنية عليها في شغل، يظنون بالله تعالى الظنون الكاذبة، ظن أهل الشرك، شكاً في أمر الله تعالى، وتكذيباً لنبيه ﷺ، فحسبوا أن الله خاذل نبيه، ومعلٍ عليه أهل الكفر، وهذا شأن أهل الريب، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم١/٥٢٠

الشنيعة.

ومن سوء ظنهم؛ما أخبر الله تعالى بقوله ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[الأحزاب:١٢].

ففي غزوة الأحزاب، ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، عندها ظهر سوء ظن المنافقين، فأبى عليهم نفاقهم؛إلا أن يبوح بما في قلوبهم من الشك والريب،وعدم اليقين بوعد الله تعالى، وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة، لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر، إلى الحالة القاصرة، فيصدِّق ظنه الأثيم، ما أملاه قلبه السقيم.

وقد أظهر الله تعالى هذا الظن وجلاّه فقال ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح:١٢].

فإن المنافقين قد ظنوا؛ بل اعتقدوا أن المؤمنين سيقتلون، وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر(١).

قال ابن القيم:"وقد فُسِّرَ هذا الظنُّ الذي لا يليق باللهِ، بأنه سبحانه لا ينصرُ رسولَه، وأن أمْره سيضمحلِ، وأنه يُسلِمه للقتل، وقد فُسِّر بظنهم أن ما أصابهم؛ لم يكن بقضائه وقدره، ولا حِكمة له فيه، ففسر بإنكار الحِكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يُتمَّ أمرَ رسوله ويُظهرَه على الدِّين كلِّه، وهذا هو ظنُّ السَّوء الذي ظنّه المنافقُونَ والمشرِكُونَ به سبحانه وتعالى في سورة الفتح حيث يقول﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[الفتح:٦]، فمن ظنّ أنه يديل الباطلَ على الحقِّ، إدالة مستقرة، يضمحلِ معها التوحيد والحق، اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً، أو أنكر أن يكونَ ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدَّر ما قدَّره من ذلك وغيره؛ لِحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحقُّ الحمدَ عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردةٍ عن حكمة، فقد ظنَّ بالله ظن السَّوْءِ.

وأكثرُ النَّاسِ يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوءِ، فيما يختصُّ بهم،وفيما يفعلُه بغيرهم، ولا يسلَمُ عن ذلك إلا مَن عرف الله تعالى، وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجبَ حمدِه وحكمته، فمَن قَنِط مِن رحمته، وأيسَ مِن رَوحه، فقد ظن به ظنَّ السَّوء.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم٤/١٩٠

ولو فتَّشت مَن فتشته، لرأيت عنده تعنتًّاً على القدر وملامة له، واقتراحاً عليه؛ خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغى أن يكون كذا وكذا، فمستقِلٌ ومستكثِر، وفَتِّشْ نفسَك هل أنت سالم مِن ذلك؟

فإنْ تَنجُ مِنْها تنج مِنْ ذِي عظيمةٍ وإلاّ فَإنِّي لاَ إخَالُكَ ناجياً [١]

فليعتنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا الموضعِ، وليتُب إلى الله تعالى، وليستغفره كلَّ وقت من ظنه بربه ظن السَّوْء، وليظنَّ السَّوْء بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبعُ كل شر، المركَّبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السَّوْءِ من أحكم الحاكمين، وأعدلِ العادلين، وأرحمِ الراحمين"[٢].

ومن فسادهم أذيتهم للنبي ﷺ:

فقد تطاولوا على النبي ﷺ فآذوه في ذاته الشريفة، وآذوه أيضاً في عرضه الشريف.

أما أذيتهم له في ذاته، فقد حكاها تعالى عنهم بقوله ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة:٦١]،أي من قال له شيئاً؛ صدَّقه فينا، ومن حدَّثه؛ صدَّقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدَّقنا،فهو يقبل كل ما يقال له، ولا يميز بين صادق وكاذب .

وقصدهم – قبحهم الله – فيما بينهم، أنهم غير مكترثين بذلك، ولا مهتمين به، لأنه إذا لم يبلغه، فهذا مطلوبهم، وإن بلغه، اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل.

فأساءوا كل الإساءة، من أوجه كثيرة، أعظمها أذية نبيهم، الذي جاء لهدايتهم، وإخراجهم من الشقاء والهلاك، إلى الهدى والسعادة، ومنها: عدم اهتمامهم أيضا بذلك، وهو قدر زائد على مجرد الأذية، ومنها: قدحهم في عقل النبي ﷺ، وعدم إدراكه، وتفريقه بين الصادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلاً، وأتمهم إدراكاً، وأثقبهم رأياً وبصيرة.

ولهذا قال تعالى﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾[التوبة:٦١]. أي: يقبل من قال له خيراً وصدقاً، وأما إعراضه، وعدم تعنيه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكاذبة، فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم[٣].

---

(١) البيت نسبه الجاحظ لـ"الأسود بن سريع"، انظر: البيان والتبيين ١٩٢/١

(٢) انظر: زاد المعاد ٣/ ٢٢٨.

(٣) انظر:تفسير القرآن العظيم٣٦٧/٢، تيسير الكريم الرحمن ٣٤٢/١.

ومن أذيتهم له ﷺ أن وصفوه بالظلم، حين عابوا عليه وطعنوا في قسمته للصدقات، فقال تعالى﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة:٥٨].

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ في قصة ذي الخويصرة، لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم الغنائم حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل، قال: ويلَك ومنْ يعدِل إذا لم أَكن أَعدل، لقد خِبْتَ وخسِرتَ، إن لم أَكن أَعْدِل، فقال عمر ﷺ دَعْني يا رسول الله فأَقتلَ هذا الْمنافق، فقال معاذ الله أَنْ يتحدَّث الناس أَنّي أَقْتل أَصحابي، إنَّ هذا وأَصحابَه يقرأون القرآن لا يُجاوِز حناجرهم يَمْرقونَ منه كما يَمْرق السهم من الرَّمِيَّة"[1].

وأما أذيته في عرضه ﷺ فما وقع من رأس النفاق عبدالله بن أبيّ بن سلول، حين اتهم أم المؤمنين عائشة ﷺ بالزنا، فهو الذي تولى كِبره، وأشاع هذه الفاحشة وروّج لها، حتى قطع الله- تعالى- لسانه؛ بنزول براءتها من فوق سبع سماوات،﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور:١١].[2]

فأي فساد أعظم من أذية رسول الله ﷺ!.

ومن فسادهم: تولي الكافرين:

قال الله تعالى﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[النساء:١٣٩].

فوصفهم – عز وجل- بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم معهم في الحقيقة، يوالونهم،ويسرون إليهم بالمودة،ويقولون لهم إذا خلو إليهم:إنما نحن معكم.

فأنكر الله تعالى عليهم هذا المسلك الفاسد، وبيّن أن ما يرجون من العزة والمنعة باتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، لن يغني عنهم من الله شيئاً، فإن العزة لله جميعاً، ونواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم، وقد تكفّل – سبحانه – بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين.

وفي موضع آخر، أخبر – سبحانه – عن شناعة حال المنافقين الذين يتولون الكافرين من

(١) أخرجه البخاري.كتاب المناقب.باب علامات النبوة في الإسلام.ح(٣٦١٠)، ومسلم.كتاب الزكاة.باب:ذكر الخوارج وصفاتهم.ح(١٠٦٤).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢٧٠/٣

اليهود والنصارى وغيرهم ممن غضب الله عليهم، فقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [المجادلة:١٤].

فالمنافقون لا تطمأن قلوبهم، ويهدأ بالهم؛ حتى يمدوا أيديهم إلى الكفار؛ ليستنصروهم.

ولا غرابة في ذلك، فالقرآن يشهد بكفرهم وخيانتهم، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر:١١]. لقد ظنّ المنافقون أنهم بذلك يكسبون جميع الأطراف، وجعلوا الكذب والخداع مطيتهم، ولكن الله تعالى كذّبهم وفضحهم، فقال سبحانه ﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر:١٢].

ومن فسادهم: التربص بالمؤمنين:

وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٤١].

فهم يتربصون بالمسلمين دوائر السوء، ينتظرون زوال دولتهم، وظهور الكفر عليهم، وذهاب ملتهم، ومن كيدهم؛ أنهم إن كان النصر والغلبة للمسلمين فهم يُبدون الولاء والانتماء، جرياً وراء مصالحهم، وحظهم من الغنيمة، وإن كان للكافرين إدالة على المؤمنين–كما وقع يوم أُحد – أظهروا لهم التودد، وقالوا نحن قد ساعدنكم في الباطن وخذلناهم، حتى امتنعوا منكم وانصرفوا.

فكانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء، ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم، وما ذلك إلا لفساد قلوبهم، وقد وصفهم الله تعالى بذلك بقوله﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾[النساء:١٤٣].

وقد أوقعهم نفاقهم وفسادهم في الريب والشكوك، قال تعالى﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[التوبة:٤٥]، وقال تعالى﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤]، فتأمل كيف قالوا (إنا معكم) مع أن مقتضى الظاهر أن يكون كلامهم بعكس ذلك؛ لأن المؤمنين يشكون في إيمان المنافقين، وقومهم لا يشكون في بقائهم

على دينهم.(١)

وبعد أن كشف الله للمؤمنين حقيقة المنافقين وأفعالهم، جاءت المواجهة صريحة بين معسكر الإيمان ومعسكر النفاق، فقال تعالى حكاية عن المؤمنين ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة:٥٢].

أي:"هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخلتين اللتين هما أحسن من غيرهما؛ إما ظفراً بالعدو، وفتحاً لنا بغلبتنا لهم، ففيها الأجر والغنيمة والسلامة، وإما قتلاً من عدونا لنا، ففيه الشهادة والفوز بالجنة والنجاة من النار، وكلتاهما مما يُحب ولا يُكره، ونحن ننتظر بكم، أن يصيبكم الله بعقوبة من عنده عاجلة، تهلككم أو بأيدينا، فانتظروا إنا معكم منتظرون ما الله فاعل بنا، وما إليه صائر أمر كل فريق منا ومنكم".(٢)

وليس عن هذا ببعيد سعيهم للتفريق بين المؤمنين، وإليه الإشارة في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة:١٠٧].

فقد نزلت هذه الآية في أبي عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدِم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، بارز هذا الفاسق بالعداوة وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة، يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ، فقدموا عام أُحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، ولما فرغ الناس من أُحد، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم، يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من أهل النفاق والريب، يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً، يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد الضرار، ولما فرغوا منه، جاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٩١/١

(٢) جامع البيان ١٥١/١٠

إليهم فيصلي لهم فيه، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم، وأهل العِلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه، فلما قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك، نزل عليه جبريل عليه السلام بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة.(١)

فهذا المسجد – مسجد الضرار– اتُخِذ مكيدة للإسلام، وإضراراً بالمسلمين، وسِتاراً للمتآمرين على هذا الدين، ومن ثَمَّ جاء الأمر من الله تعالى بعدم الصلاة فيه مطلقاً، والحث على الصلاة في مسجد قباء، الذي أُسِس من أول يوم بنائه على طاعة الله ورسوله، وجمْع كلمة المسلمين، ومعقِلاً للإسلام وأهله ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨].

وأمثال هذا المسجد لا تزال تُتخذ في صور شتى تُلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة، التي يتخذها أعداء هذا الدين، في صور ظاهرها الإسلام، وباطنها هدم الدين، وتفريق كلمة المسلمين، يرفع أولئك رايات يزعمون نصرتها للدين، وسهامهم هي التي ترميه.

"وفي الآية دليل على أن العمل – وإن كان فاضلاً – تغيِّره النية، فينقلب منهياً عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار، عملهم إلى ما ترى".(٢)

وقد استخدم المنافقون الأيمان الكاذبة لتبرير مؤامرتهم ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة:١٠٧].

مما يؤكد أن من فسادهم: اتخاذ الأيمان الكاذبة.

قال تعالى ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:٢].

قال ابن كثير: "أي اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة، والحلفان الآثمة، ليُصدَّقوا فيما يقولون، فاغتر بهم من لا يَعرف جلية أمرهم، فاعتقد أنهم مسلمون، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون، وصدَّقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطل لا يألون الإسلام وأهله خبالاً، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس، ولهذا قال تعالى ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ

---

(١) انظر: جامع البيان ٢٣/١١ ،تفسير القرآن العظيم٣٨٩/٢

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٥٢

﴿يَعۡمَلُونَ﴾"[١].

فكانت أيمانهم جُنّة: أي تقيّة يتقون بها القتل، فلما عصمت دمائهم وأموالهم بالإسلام الذي أظهروه، أصبحوا يستخدمون أيمانهم الكاذبة لاختلاق الأعذار؛ ليسقطوا عن أنفسهم التكاليف الشرعية.

فمن ذلك؛ استخدامهم للأيمان الكاذبة للتخلف عن الجهاد، قال تعالى ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[التوبة:٤٢].

فأخبر تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن غزوة تبوك، واستأذنوا النبي ﷺ في ذلك، مظهرين أنهم ذووا أعذار، و لم يكونوا كذلك، ولذا كشف الله تعالى عوارهم في صدر هذه الآية، وبيّن أن طول المسافة، وصعوبة السفر، جعلتهم يتثاقلون الخروج، وأن تلك الأيمان الكاذبة، لن تغني عنهم شيئاً، بل إنهم أوجبوا لأنفسهم بحلفهم الكاذب؛ الهلاك والعطب، لأنهم يورثونها سخط الله تعالى،ويكسبونها أليم عقابه.[٢]

ومن ذلك أيضاً: أنهم اتخذوا أيمانهم تبرئة لأنفسهم من الكفر، كما قال تعالى﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾[التوبة:٧٤].

فقد اختلف المفسرون في سبب نزولها، فمنهم من قال: نزلت في الجلاس بن سويد، وقيل: في عبدالله بن أبيّ بن سلول.[٣]

والشاهد من الآية أن المنافقين كانوا يتكلمون بكلام الكفر، فإذا بلغهم أن النبي ﷺ قد بلغه شيء من ذلك؛ جاءوا إليه يحلفون بالله ما قالوا، فقال تعالى مكذباً لهم ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ فإسلامهم السابق؛ وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر، فكلامهم الأخير، ينقض إسلامهم، ويدخلهم بالكفر.[٤]

لقد تمكن الكذب والحلف عليه، من نفوسهم، حتى إنهم يأتون به يوم القيامة!

---

(١) تفسير القرآن العظيم٤/٣٦٩

(٢) انظر: جامع البيان ٦/٣٨٠

(٣) انظر: جامع البيان ٦/٤٢٣، معالم التتريل ٤/٧٥، تفسير القرآن العظيم٤/١٧٩

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٤٤

قال تعالى﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [المجادلة:١٨]،"وهذا يقتضي توغلهم في النفاق، ورسوخه فيهم، وأنه باقٍ في أرواحهم بعد بعثهم؛ لأن نفوسهم خرجت من عالم الدنيا متخلقة به، فإن النفوس إنما تكتسب تزكية أو خبثاً، في عالم التكليف".(١)

ومن صور فسادهم: الاستهزاء:

وقد جاء الإخبار باتصافهم بذلك في عدة مواضع، فقد اخبروا عن أنفسهم أن إظهارهم للإيمان عند المؤمنين، إنما هو استهزاء وسخرية، قال تعالى ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[البقرة:١٤].

وإذا كان حالهم في إظهارهم للإيمان الاستهزاء، فلا عجب أن يقع منهم استهزاء بأهل الإيمان، بالقول والفعل، فمن ذلك قوله تعالى﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾[التوبة:٦٥]، وكان استهزائهم هذا؛ حين قال رجل منهم في غزوة تبوك: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء؛ أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسنناً، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، ولأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن، قال عبدالله بن عمر رضي الله عنه فأنا رأيته متعلقاً بحقب(٢) ناقة رسول الله ﷺ تنكبه(٣)الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول "أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون"(٤).

وفي هذه الآيات، دليل على أن من أَسرَّ سريرة، خصوصاً السريرة التي يمكر فيها بدينه، ويستهزئ به وبآياته ورسوله، فإن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها، ويعاقبه أشد العقوبة، وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله وسنة رسوله ﷺالثابتة عنه، أو سخر بذلك، أو تنقصه، أو استهزأ بالرسول، أو تنقصه، فإنه كافر بالله

(١) التحرير والتنوير ٥٢/٢٨

(٢) حقب الناقة: هو الحبْل المشْدُود على حَقْو البعير أوْ مِن حَقِيبَته، وهي الزيادة التي تُجْعل في مؤخَّر القَتَب، والوعاء الذي يَجْمع الرجلُ فيه زادَه. (انظر: النهاية في غريب الحديث ٤١١/١)

(٣) أي لثمته . لسان العرب مادة (نكب) ٧٧٠/١

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٨٣٠/٦، جامع البيان ١٧٢/١٠

العظيم، وأن التوبة مقبولة من كل ذنب، وإن كان عظيماً.(١)

ونهوا عن الاعتذار في قوله﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾[التوبة:٦٦]، لأنها اعتذارات كاذبة فهي لا تنفع، فقد أظهروا الكفر بعد إظهار الإيمان، لأنهم كانوا يسرُّون الكفر، فأظهروه باستهزائهم.(٢)

ومن استهزائهم؛ لمزهم للمؤمنين﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[التوبة:٧٩]

فعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة، كنّا نُحامِل(٣)فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرائيٍ، وجاء رجل فتصدق بصاعٍ، فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا، فنزلت الآية.(٤)

فلا يسلَم من عيبهم ولمزهم أحد، حتى أهل البذل والإنفاق!

قال السعدي:"جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير، منها: تتبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالاً يقولونه فيهم، ومنها: طعنهم بالمؤمنين، لأجل إيمانهم، كفراً بالله تعالى، وبغضاً للدين، ومنها: أن اللّمز محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح، ومنها: أن من أطاع الله، وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذي ينبغي هو إعانته وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم، وعابوهم عليه، ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالاً كثيراً بأنه مُراءٍ ، غلط فاحش، وحكم على الغيب، ورجم بالظن، وأي شرٍ أكبر من هذا ؟ ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: الله غني عن صدقة هذا، كلام مقصوده باطل، فإن الله غني عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير".(٥)

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٤٣

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط ٦٨/٥

(٣) نُحامِل: أي تكلّف الحَمْلَ بالأجْرة ليَكْتَسِبَ ما يَتصدَّق به تَحَامَلت الشيء : تكلَّفته على مَشقَّة.
انظر: النهاية في غريب الحديث ٤٤٣/١

(٤) أخرجه البخاري.كتاب الزكاة. باب اتقوا النار ولو بشق تمرة.ح(١٤١٥)، ومسلم.كتاب الزكاة.باب الحَمْلِ بِأُجرَة يُتَصَدّق بِها. ح(١٠١٨)

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٤٦

فهذا دأب المنافق؛ شرٌ على المسلمين، فإن رأى أهل الخير لمزهم، وإن رأى المقصرين لمزهم، وهذا برهان على ما انطوى عليه قلبه من خبث وفساد.

والمنافقون في زمننا هذا إذا رأوا أهل الخير والدعوة، وأهل الحسبة، قالوا: هؤلاء متشددون، رجعيون، ولربما ألصقوا بهم التُهم جزافاً، دون بينة أو برهان.

فما أشبه منافقي اليوم، بمنافقي الأمس!

ومن فسادهم: تثاقلهم عن الطاعات:

قال تعالى عن المنافقين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢] ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤]

فلو لم يكن للنفاق آفة؛ إلا أنه يورث الكسل عن العبادة، لكفى به ذماً، فكيف ببقية آثاره السيئة؟!

ولما كشفت سورة المنافقون جملة من مفاسدهم، جاءت خاتمتها بوصايا لأهل الإيمان،قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩]، ففي ذلك تحذير من فتنة المنافقين، الذين غفلوا عن ذكر ربهم، إذ هذه علامتهم، ولذا فإن كثرة ذكر الله تعالى؛ أمان من النفاق، والله تعالى أكرم من أن يبتلي قلباً ذاكراً بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عز وجل[1].

ومن خبر تثاقلهم في الطاعة، قوله ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٦،٧٥].وفي موضع آخر قال سبحانه ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ﴾ [التوبة:٦٧] فهم متصفون بالبخل.

ولا غرو، فهل ترتجى نفقة؛ ممن أبطن الكفر وحارب الإسلام وأهله!

فقَبْض الأيدي؛ كناية عن الامتناع من البذل، وهو آمارة على النفاق، كما أن بسط اليد كناية عن الإنفاق والبذل، وهو أية على الإيمان.

ولم يقتصر تثبيطهم على أنفسهم، بل تجاوز ذلك إلى غيرهم من المؤمنين، قال تعالى ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:١٨].

---

(١) انظر: الوابل الصيب لابن القيم ص١١٠

قال ابن جرير:"يقول تعالى ذِكره، قد يعلم الله الذين يعوقون الناس منكم عن رسول الله ﷺ، فيصدونهم عنه، وعن شهود الحرب معه، نفاقاً منهم، وتخذيلاً عن الإسلام وأهله، والقائلين لإخوانهم هلمَّ إلينا، أي: تعالوا إلينا ودَعُوا محمداً، فلا تشهدوا معه مشهده، فإنا نخاف عليكم الهلاك بهلاكه"[(١)].

فإذا كان هذا هو التثبيط قبل الخروج للجهاد، فإن من قبيح أفعالهم وأخطرها على الصف المسلم، ما فعله رأس المنافقين عبدالله بن أبيّ، يوم أُحد حين رجع بثلث الجيش إلى المدينة؛ خذلاناً منه للمؤمنين[(٢)].

ولأجل هذا كره الله تعالى انبعاثهم في غزوة تبوك، وثبّطهم عن الخروج،قال تعالى﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة:٤٦].وهذا من حكمته سبحانه أنه ما أراد إعانتهم على الخروج، بل خذلهم وأقعدهم، وقد ذكر سبحانه الحكمة في ذلك﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[التوبة:٤٧]

أي: ما زادوكم إلا نقصاً، ولسعوا في الفتنة والشب بينكم، وفرقوا جماعتكم، وهم حريصون على إلقاء العداوة بينكم.

وللأسف الشديد، فإن من المسلمين من يستمع إلى إرجاف المنافقين وتخذيلهم، ويغترون بدعاواهم.

فإذا كانت هذه مفسدة حاصلة بأقاويلهم، فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم![(٣)]

وكثيراً ما يستغلّ أهل النفاق المواقف – لاسيما الحرجة منها – لبثِّ الشائعات لأهداف سيئة، قال تعالى ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾[النساء:٨٣].

فكان حالهم أنهم يشيعون الأخبار ويفشونها، وذلك أن النبي ﷺ كان يبعث السرايا، فإذا غلبوا أو غلبوا، بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم، فيفشون ويحدثون به، قبل أن يحدث به

(١) جامع البيان ١٣٩/٢١

(٢) انظر: الفصول في سيرة الرسول ﷺ لابن كثير ، ص ١٤٥

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٣٣٩

رسول الله ﷺ فيضعفون به قلوب المؤمنين[(١)].

وقد يتلقاه عنهم بعض المؤمنين من ذوي النوايا الحسنة، فيساهمون في بثّه وإشاعته عن حسن قصد، فتعظم الفتنة، ويكثر القيل والقال، كما وقع ذلك في حادثة الإفك، قال تعالى ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥].

أي: يلقيه بعضكم إلى بعض، وتستوشون حديثه، وهو قول باطل، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم، والأمران محظوران، وتحسبونه هيناً، فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين – الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك– وهو عند الله عظيم.

وهذا فيه زجر بليغ، عن تعاطي بعض الذنوب على وجه التهاون بها، فإن العبد لا يفيده حسبانه شيئاً، ولا يخفف من عقوبته الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواقعته مرة أخرى[(٢)].

تلك بعض أوصاف المنافقين الفاسدة، ترجع إلى طبع واحد، يحمل صاحبه على سوء النية، وخبث الطوية، ولؤم السريرة.

لقد بلغ المنافقون من الفساد منتهاه، حتى طبع الله على قلوبهم، ومن طُبع على قلبه، كيف يستصلح منه ما فسد؟

قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٣].

ولخطر هؤلاء المفسدين وضررهم على أهل الإيمان، حذر سبحانه المؤمنين منهم، فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران:١١٨].

فالله تبارك وتعالى نهى عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي: يُطْلعونهم على سرائرهم، وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم،لا يألون المؤمنين خَبالاً، فهم يسعَون في مخالفتهم، وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعونه من المكر والخديعة، ويودون ما يُعْنتُ المؤمنين، ويخرجهم ويَشُقّ عليهم.

فليحذروا أن يظهروهم على سرائرهم، أو يولوهم بعض الأعمال الإسلامية، وذلك أنهم هم

---

(١) انظر: معالم التنزيل ١/٤٥٦

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٥٦٤

الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء، فظهرت على أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر مما يُسمع منهم[١].

وبعد هذا العرض الموجز لفساد المنافقين، يدرك المؤمن خطر هذا الصنف من المفسدين.

وقد جاء في صحيح السنَّة؛ استحباب قراءة سورتي الجمعة والمنافقون في صلاة الجمعة[٢]، ولعل من الحِكمة في ذلك: أن يُصحح الناس قلوبهم ومسارهم إلى الله تعالى كل أسبوع، وأن يقرع أسماعهم التحذير من المنافقين كل جمعة[٣].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم١/٣٩٩، تيسير الكريم الرحمن ص ١٤٤

(٢) أخرجه مسلم.كتاب الجمعة. باب ما يُقْرَأ في صلاة الجمعة.ح(٢٠٦٣)

(٣) للاستزادة انظر: (صفة النفاق وذم المنافقين) للفريابي، وكتاب(المنافقون كما يصورهم القرآن الكريم) لمحمد جميل غازي، وكتاب(المنافقون في القرآن الكريم) د.عبدالعزيز الحميدي.

المطلب الخامس: السَّحرة.

سبق بيان تعريف السِّحر، وحُكمه، وما اشتمل عليه من المفاسد العظيمة، مما لا يدع مجالاً للريب أنه من أعظم الفساد.

وقد جاء التصريح بأن السحرة من جملة المفسدين، قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس:٨١]

والسحر أمره مذموم عند الناس، بل هو مستقبح عند عقلائهم؛ فإن دعاوى السحرة والمنجمين، مما أنكره الناس على مر العصور، حيث أدركوا ضلال هذا العلم، وكذب أهله، حتى صار بهتانهم مشهوراً بين الناس كافة، فهو بلاء قديم في الأمم، أجمعت الشرائع على تحريمه[١].

وأخبر القرآن عن قِدَمه في قوله تعالى﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ﴾[البقرة:١٠٢]، فقد نصت الآية على أن السحر كان موجوداً في بابل، ورجح ابن كثير أنها بابلُ العراق[٢]، والناظر في تاريخ بابل يجد أن دينَ الصائبة ودينَ المجوس كان سائداً فيها من عبادة النار، إلى عبادة النجوم والكواكب، وهذا يعطي دلالة واضحة على تمازج السحر بالكفر، وأن هناك علاقة وطيدة بينهما.

كما أن العرب في الجاهلية قبل الإسلام، كان يكثر فيهم السحرة والكهان، يقول قسُّ بن ساعدة[٣]:

علم النجوم على العقول وبال	وطِلابُ شيءٍ لا ينال ضلال
هيهات ما أحد بغامضِ فطنةٍ	يدري كمِ الأرزاق والآجال
إلا الذي فوق السماء مكانه	فَلِوَجْهِهِ الإكرام والإجلال[٤]

---

(١) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٣٨٦

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم١/ ١٤٣

(٣) هو قس بن ساعدة بن عمرو، من بني إياد، أحد حكماء العرب في الجاهلية، وأحد خطبائهم. كان أسقف نجران، توفي سنة ٢٣ قبل الهجرة. انظر: البداية والنهاية (٢/٢١٤)، و بلوغ الأرب (٢/٢٤٤).

(٤) انظر: المحاسن والمساوئ للبيهقي ص٣٢٧، التنجيم والمنجمون وحكم ذلك في الإسلام للمشعبي ص٢٠٧.

ولعل من أبرز جوانب فساد السحرة ما يلي:

أولاً: فسادهم في أنفسهم:

فلسحرة طرق قبيحة لا يتوصلون إلى مرتبة عالية من السحر؛ إلا من خلالها، فهذه الطرق لا تتأتى لهم أبداً؛ حتى يتقربوا من الشياطين.

"ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين؛ كان سحره أقوى وأنفذ، ولهذا كان سحر عباد الأصنام، أقوى من سحر أهل الكتاب، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام"(١).

فلا بدَّ للساحر أولاً؛ أن يستعيذ من الجن، كما كان يفعل أهل الجاهلية.

وشبيه هذا في كتاب الله قوله تعالى﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقًا﴾ [الجن:٦].

قال ابن تيمية:"كان الرجل من الإنس يترل بالوادي والأودية مَظَانُّ الجن، فإنهم يكونون بالأودية أكثر مما يكونون بأعالي الأرض، فكان الإنسي يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، فلما رأت الجن أن الإنس تستعيذ بها؛ زاد طغيانهم وشرهم، وبهذا يجيبون المعزم والراقي بأسمائهم وأسماء ملوكهم، فإنه يقسم عليهم بأسماء من يعظمونه،فيحصل لهم بذلك من الرئاسة والشرف على الإنس؛ ما يحملهم على أن يعطوهم بعض سُؤْلهم، لاسيما وهم يعلمون أن الإنس أشرف منهم، وأعظم قدرًا، فإذا خضعت الإنس لهم،واستعاذت بهم؛ كان بمترلة أكابر الناس إذا خضع لأصاغرهم ليقضي له حاجته...والإنسان إذا فسدت نفسه، أو مزاجه؛ يشتهي ما يضره ويلتذ به، بل يعشق ذلك عشقًا يفسد عقله ودينه وخلقه وبدنه وماله، والشيطان هو نفسه خبيث، فإذا تقرب صاحب العزائم والأقسام وكتب الروحانيات السحرية، وأمثال ذلك إليهم بما يحبونه من الكفر والشرك؛ صار ذلك كالرشوة والبِرْطِيل(٢)لهم. فيقضون بعض أغراضه، كمن يعطي غيره مالاً ليقتل له من يريد قتله، أو يعينه على فاحشة، أو ينال معه فاحشة.

ولهذا كثير من هذه الأمور يكتبون فيها كلام الله بالنجاسة- وقد يقلبون حروف كلام الله

---

(١) بدائع الفوائد ٤٦٠/٢

(٢) البِرْطِيل: بالكسر، حَجَر أَو حَدِيد طويل صُلْب خِلْقةً، ليس مما يُطَوِّله الناسُ ولا يُحَدِّدونه تُنقر به الرَّحى، والجمع براطيل، والبِرطيل في الأساس الرشوة، وقد قيل:البَراطِيلُ تَنْصُرُ الأباطِيلَ، وفي القاموس: بَرْطَلَة فتبرطَل: رشاه فارتشى. انظر: تاج العروس للزبيدي ٧٥/٢٨، لسان العرب ٤٧١/٧ مادة (برطل).

عز وجل، إما حروف الفاتحة، وإما حروف (قل هو الله أحد)، وإما غيرهما - إما دم وإما غيره، وإما بغير نجاسة، أو يكتبون غير ذلك مما يرضاه الشيطان، أو يتكلمون بذلك.

فإذا قالوا أو كتبوا ما ترضاه الشياطين،أعانتهم على بعض أغراضهم؛ إما تَغْوِير ماء من المياه، وإما أن يُحمل في الهواء إلى بعض الأمكنة، وإما أن يأتيه بمال من أموال بعض الناس، كما تسرقه الشياطين من أموال الخائنين، ومن لم يذكر اسم الله عليه وتأتي به، وإما غير ذلك"[(١)].

ويؤكد عظم فسادهم؛ اتصالهم بالشياطين:

فقد أخبر عنه ربنا في قوله تعالى ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ ٱلشَّيَطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢].

وقد تواتر النقل عمن بحث أحوال السحرة، في إثبات علاقة بين السحرة والشياطين، فالسحرة يتقربون إلى الشياطين بما يحبون من العقائد الفاسدة، والأعمال الضالة، وأكل المحرمات والخبائث، فتعينهم الشياطين على مقاصدهم.

قال الألوسي:"ويستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان، بارتكاب القبائح قولاً؛ كالرقى التي فيها ألفاظ الشرك ومدح الشيطان، وتسخيره، وعملاً؛ كعبادة الكواكب، والتزام الجناية وسائر الفسوق، وإعتقاداً؛ كاستحسان ما يوجب التقرب إليه ومحبته إياه، وذلك لا يستتب إلا بمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس، فإن التناسب شرط التضام والتعاون، فكما أن الملائكة لا تعاون إلا أخيار الناس المشبهين بهم في المواظبة على العبادة والتقرب إلى الله تعالى بالقول والفعل، كذلك الشياطين لا تعاون إلا الأشرار المشبهين بهم في الخيانة والنجاسة قولاً وفعلاً واعتقاداً".[(٢)]

وقد قال تعالى﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء:٢٢١،٢٢٢]

أي: كذوب في قوله، وهو الأفاك الأثيم، الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تترل عليه الشياطين، كالكُهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة، فهم ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٣] أي: يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة، ثم يلقوها إلى أوليائهم من

(١) مجموع الفتاوى ١٩/٣٣

(٢) روح المعاني ١/ ٣٣٨

الإنس فيتحدثون بها، فيصدِّقهم الناس في كل ما قالوه، بسبب صِدقهم في تلك الكلمة التي سُمعت من السماء، كما صح بذلك الحديث عن عائشة ﵂ قالت: سأل ناس النبي ﷺ عن الكُهان، فقال: "إنهم ليسوا بشيء"، قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً؟ فقال النبي ﷺ: "تلك الكلمة من الحق، يخطفها الجني، فيُقَرقِرها في أذن وليه كقَرْقَرة الدجاجة، فيخلطون معها أكثر من مائه كذبة"(١).

ففي هذا، دلالة على أن للشياطين أولياء من بني آدم، وأنه كلما زاد كفر الآدمي، وزاد قربه من الشياطين؛ فإن الشياطين تتحول إلى خدمته(٢).

ولذا كان أشد الناس عداوة للذين آمنوا - وهم اليهود - من أكثر الناس ممارسة للسحر(٣)، قال تعالى في وصفهم ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ [البقرة: ١٠١، ١٠٢].

قال السعدي: "ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية؛ أن من ترك ما ينفعه وأمكنه الانتفاع به، فلم ينتفع؛ ابتلى بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن؛ ابتلى بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه؛ ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم ينفق ماله في طاعة الله؛ أنفقه في طاعة الشيطان، ومن ترك الذل لربه؛ ابتلي بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل.

كذلك هؤلاء اليهود؛ لما نبذوا كتاب الله؛ اتبعوا ما تتلو الشياطين وتختلق من السحر على ملك سليمان، حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان ﵇ كان يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم، وهم كذبة في ذلك، فلم يستعمله سليمان ﵇، بل نزهه الصادق في قيله ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾ أي: بتعلم السحر، فلم يتعلمه، ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ بذلك... فهؤلاء اليهود يتبعون

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب التوحيد. باب قراءة الفاجر والمنافق. ح(٧١٢٢)، ومسلم. كتاب السلام. باب تحريم الكهانة ح(٢٢٢٨)

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/٣٥٤

(٣) لئن سبق بيان جملة من مفاسد اليهود؛ فإن الإشارة هنا إلى فسادهم في هذا المسلك أظهر، لوقوع السحر منهم ومن غيرهم.

السحر الذي تُعلِّمه الشياطين، والسحر الذي يُعلِّمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين، وأقبلوا على علم الشياطين، وكلٌ يصبو إلى ما يناسبه"(١).

ولم يكتف هؤلاء الأشرار بالتشنيع على نبي الله سليمان ﵇، بل أرادوا قتل نبينا محمد ﷺ باستخدام السحر(٢).

ومن فساد السحرة:

منازعتهم لله تعالى في علم الغيب، والنفع والضر، فإن آيات القرآن الكريم تثبت علم الله تعالى للغيب، وتنفيه عما سواه؛ مما يدل على أنه من خصائص ربوبيته عز وجل، قال تعالى ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام:٥٩]وفي آية النمل ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النمل:٦٥]، ولا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولكن الله تعالى يكشف ما شاء من غيبه لمن شاء من عباده، كما قال تعالى ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

كما أن النفع والضر من الله تعالى، لا يملكهما أحد من الخلق؛ مهما علت مترلته، أو عظمت قوته، أو كثر جمعه،قال تعالى ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[الأنعام:١٧].

وكل طريق يتوصل بها إلى علم الغيب، أو يزعم صاحبها أنه ينفع الناس، أو يضرهم؛ فهي طريق ضلال وشرك بالله تعالى، ومنازعة له سبحانه في ربوبيته، وصاحبها يسعى في تعبيد البشر لغير ربهم وخالقهم ومدبرهم جل جلاله.

ولا ريب أن من أعظم ما يُخِّل بهذين الأصلين العظيمين وينقضهما: السحر والتنجيم، والكهانة والعرافة، وقراءة الكف والفنجان، ومعرفة الحظ، والخط بالرمل، والضرب بالحصى، ونحو ذلك، مما يقوم به دجالون،يفسدون عقائد الناس، ويسلبون أموالهم، ويزرعون الشكوك والوساوس في قلوبهم، ويخرجوهم من نعيم الإيمان والطمأنينة، إلى شقاء الشكوك والظنون.

ومدَّعو علم الغيب والنفع والضر من السحرة والكهان، موجودون في القديم وفي الحديث، ويحتالون على الناس بشتى الوسائل لنشر باطلهم.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٦٠

(٢) سبق تخريجه ص ٢١٥

ومن فسادهم:

ما أخبر عنه سبحانه بقوله ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾[البقرة:١٠٢].

" أي فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر، ما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف، وهذا من صنيع الشياطين، كما روى جابر بن عبد الله ﷺ عن النبي ﷺ قال:"إن الشيطان ليضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة؛ أعظمهم عنده فتنة، يجيء أحدهم فيقول: مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا، فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً، ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرّقت بينه وبين أهله: قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه، ويقول: نعم أنت"(١).

"وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر؛ ما يخيّل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر، أو خلق، أو نحو ذلك، أو عقد، أو بغضة، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة"(٢).

"وفي هذه الآية وما أشبهها؛ أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير؛ فإنها تابعة للقضاء والقدر؛ ليست مستقلة في التأثير"(٣).

ومما يظهر فساد السحرة وكيدهم؛ تكرار حديث القرآن الكريم عن سحرة فرعون، وفي ثنايا هذه القصة؛ تبرز مكيدة أهل الفساد بأهل الحق ودعاة الإصلاح، وجُرم صنيع السحرة المفسدين، بأهل الإيمان والدين.

فقد زعم الطاغية فرعون أن الآيات البيّنات التي أيّد الله بها موسى عليه السلام ما هي إلا سحر أراد به إخراجه وقومه من أرضهم ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾[طه:٥٧،٥٨]،فاستخدم السحر أداةً لصد دعوة موسى عليه السلام.

كما يظهر من سياق القصة؛ أن حب الدنيا قد تمكن من قلوب السحرة حتى سيطر عليها، حيث أخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام،

---

(١) أخرجه مسلم. كتاب صفة الجنة والنار. باب تحريش الشيطان وبعثه. ح(٢٨١٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٤٤

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٦١

فوعدهم ومنَّاهم إن غلبوه؛ ليثيبنهم وليعطينهم عطاءً جزيلاً، ويجعلنهم من جلسائه والمقربين عنده، وما ذاك إلا ليزداد نشاطهم، ويأتوا بكل مقدورهم في معارضة ما جاء به موسى، فلما توثقوا من فرعون، ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٥]، فهذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام، كما جاء في الآية الأخرى ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ [طه:٦٥] فقال لهم موسى عليه السلام ﴿أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦].

والحكمة في هذا - والله أعلم - ليري الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فُرِغ من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجليّ بعد تطلب له، والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس، وكذا كان[1].

ولذا صدع موسى بالحق ليدمغ به الباطل ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٨١].

قال ابن عاشور:"وإنما كان السحرة مفسدين؛ لأن قصدهم تضليل عقول الناس؛ ليكونوا مسخرين لهم، ولا يعلموا أسباب الأشياء، فيبقوا آلة فيما تأمرهم السحرة، ولا يهتدوا إلى إصلاح أنفسهم سبيلاً، أما السحرة الذين خاطبهم موسى عليه السلام فإفسادهم أظهر، لأنهم يحاولون إبطال دعوة الحق والدين القويم، وترويج الشرك والضلالات"[2].

وهكذا يتبين أن من أعظم سبلهم في صدِّ الناس عن الحق: تعليق قلوبهم بغير الله تعالى، وصرفهم إلى الخرافات والشعوذات التي يقوم بها السحرة والكهان والمنجمون والعرافون، فيخدعون بها من رقَّ دينهم، وضعفت عن إدراك الحقائق عقولهم، فلم يعودوا يميزون بين ما يضرهم وما ينفعهم، ولا يدركون من يصدق معهم ممن يكذب عليهم.

بيد إن البلية العظمى: أنهم في هذا الزمن استطاعوا الوصول إلى الناس في بيوتهم، فمع تطور وسائل الاتصال زادت نسبة خداعهم الناس، والكذب عليهم، والاستخفاف بعقولهم، وإفساد عقائدهم، بزعم إيجاد حلول سريعة لمشاكلهم، عن طريق السحر والكهانة والشعوذة، وقد ازدهرت سوق ترويج السحر والكهانة، حتى بلغت مبيعات كتبها أرقاماً قياسية، وبعض الصحف في بعض الدول الإسلامية

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/٢٣٧.

(٢) التحرير والتنوير ١١/٢٥٧

أرباحها الكبرى من موارد إعلانات السحر الشعوذة[١].

ولما تطور البث الفضائي، وتيسر الحصول عليه؛ استغل ذلك من يتاجرون بآلام الناس ومصائبهم، فبرزوا إليهم عبر الشاشات، في قنوات فضائية خُصت للشرك بالله تعالى، وعبادة الشياطين، وكَرست برامجها للسحر والشعوذة والكهانة، يَدَّعي ضيوفها علم الغيب، وامتلاك النفع والضر، ويمارسون سحرهم وكهانتهم وتنجيمهم على الملأ، والمقدمون لهم؛ ينعتوهم بالعلم والولاية والمشيخة، ويخلعون عليهم ألفاظ التبجيل والوقار، ويزعمون أنهم إنما كرسوا أوقاتهم لخدمة الناس، وحل مشاكلهم، وإزالة همومهم وغمومهم!!

إن أكبر سبب للإقبال على السحرة والشعوذة، هو ضعف الإيمان بالله تعالى، وسوء الظن به، والاعتماد على غيره، ثم إن الظروف المعيشية الضاغطة على الناس، ومحبتهم للثراء السريع، واستبداد الجشع بهم، وخوفهم من المستقبل المجهول، وإقبالهم على الدنيا، وإعراضهم عن الآخرة، قد أدى بكثير منهم إلى الخوف والاضطراب والقلق، فأتاهم أبالسة الناس من نقطة الضعف هذه، فأوردوهم مهالك لم تُزِلْ همومهم، ولا حلت مشاكلهم، ولكنها استنزفت أموالهم، وأفسدت عقائدهم، فلا أصلحوا لهم دنياهم، ولا أبقوا لهم دينهم.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:"قبول المحل لما يوضع فيه؛ مشروط بتفريغه من ضده، وهذا كما أنه في الذوات والأعيان، فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات، فإذا كان القلب ممتلئاً بالباطل اعتقاداً ومحبة؛ لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع.."، إلى أن قال:"وسر ذلك: أن إصغاء القلب كإصغاء الأذن، فإذا أصغى إلى غير حديث الله؛ لم يبق فيه إصغاء ولا فهم لحديثه،كما إذا مال إلى غير محبة الله لم يبق فيه ميل إلى محبته..".[٢]

ولا يشك عاقل في أن هذه القنوات التي تبث السحر والكهانة، تفرغ قلوب مشاهديها والمتصلين بها من محبة الله تعالى، والتعلق به، إلى التعلق بشياطين الإنس

---

(١) نُشرت إحصاءات ودراسات حول هذه القضة في عدة صحف منها: صحيفة الوطن السعودية في ٢٠٠٣/٦/١٨، وجريدة الحياة في ٦/٢٩/ ٢٠٠٣، وفي ٢٠٠٥/٨/١٥، وصحيفة المغربية اليومية في ٢٠٠٧/٥/١٦.

(٢) الفوائد لابن القيم ص٢٩.

في سحرهم وشعوذاتهم، وربطهم بشياطين الجن، فيرجون نفعهم، ويخافون ضرهم.

والله تعالى يقول﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[طه:٦٩]، فإذا كان الساحر لم يفلح في نفع نفسه، حتى إن السحرة هم من شر الناس حالاً ومآلاً، وواقعهم يدل على ذلك، فكيف يفلح في نفع غيره؟ نعوذ بالله تعالى من الهوى والردى.

المطلب السادس: البغاة والمحاربون.

البغي في اللغة، يقال: بغى الشيء يبغيه بُغاءً وبُغًى: أي طلبه وابتغاه، والبُغْية: الحاجة، وأبْغني وأبْغِ لي: أي أعطني. والبِغْية في الولد: نقيض الرّشْدة، وبَغَتِ الأَمَةُ تَبْغي بَغْيًا وبِغاء، وهي بَغِيٌّ: عهرت وزنت، وقيل: البَغيّ الفاجرة؛ حرَّة كانت أو أمة، ولا يقال للرجل: بَغيّ.

والبغْي: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى، تجاوزه أو لم يتجاوزه، فتارة يعتبر في القدر، الذي هو الكميّة، وتارة يعتبر في الوصف، الذي هو الكيفية، يقال: بغيت الشيء إذا طلبت أكثر ما يجب، وابتغيت كذلك، قال تعالى﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾[التوبة:٤٨]،وقال تعالى ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾[التوبة:٤٧].

والبغي على حزبين: أحدهما محمود، وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوع. والثاني مذموم، وهو تجاوز الحق إلى الباطل، أو تجاوزه إلى الشُبَه، كما قال ﷺ "إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه"(١).

ولأن البغي قد يكون محموداً ومذموماً، قال تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الشورى:٤٢]، فخصَّ العقوبة ببغيه بغير الحق. والبغي في أكثر المواضع مذموم.

والفئة الباغية: الظالمة الخارجة عن طاعة الإمام المسلم(٢).

والبُغاة في اصطلاح الفقهاء: هم الخارجون على الإمام يريدون إزالته عن منصبه، أو هم قوم لهم شوكة ومنعة خرجوا علي الإمام بتأويل سائغ(٣).

والذي يظهر من التعريف، أنه يشترط في تحقيق مدلول الكلمة؛ أربعة صفات لحكم بكونهم بغاة(١):

---

(١) أخرجه مسلم. كتاب المساقاة. باب أخذ الحلال وترك الشبهات. ح(١٥٩٩).

(٢) انظر: تهذيب اللغة ١٧٩/٨، المفردات للراغب ص٥٥، لسان العرب ٧٥/١٤ مادة (بغا)

(٣) العدة شرح العمدة: ٨٤٥/٢، الروض المربع: ص ٤٩٨

- الأولى: أن يخرجوا عن جماعة المسلمين وإمامهم.
- الثانية: أن يكونوا جماعة.
- الثالثة: أن تكون لهذه الجماعة شوكة ومنعة وقوة.
- الرابعة: أن يكون لهم تأويل سائغ.

فإن اختلّ شرط من هذه الشروط؛ بأن كانوا جمعاً يسيراً، أو لا شوكة لهم، أو لم يخرجوا بتأويل، أو خرجوا بتأويل غير سائغ فقطاع طريق(٢).

معنى المحاربة:

المحاربون جمع محارب، مشتقة من حارب يحارب حِرابة، والحرْب بسكون الراء، ضد السِلْم، وبفتحها: أن يُسلب الرجل ماله، يقال: حرَبه يحرِبه إذا أخذ ماله، وقيل: حريبة الرجل ماله الذي يعيش به، ورجُلٌ حَرْبٌ ومِحْرَبٌ بكسر الميم ومِحْرابٌ؛ شَديدُ الحَرْبِ شُجاعٌ، والحَرْبةُ الأَلَّةُ دون الرُّمْحِ وجمعها حِرابٌ، ودار الحَرْب بلادُ المشركين الذين لا صُلْح بينهم وبين المسلمِين.(٣)

والحرابة في اصطلاح الفقهاء: الخروج على المارة لأخذ المال على سبيل المغالبة على وجه يمتنع المارة عن المرور وينقطع الطريق، سواء أكان القطع من جماعة أم من واحد، بعد أن يكون له قوة القطع، وسواء أكان بمباشرة الكل، أم التسبب من البعض بالإعانة والأخذ؛ لأن القطع يحصل بكل ما ذكر كما في السرقة، ولأن هذا من عادة قطاع الطرق.(٤)

وبه يظهر أن قُطَّاع الطرق، قوم لهم منعة وشوكة، بحيث لا تمكن للمارة مقاومتهم،يقصدون قطع الطريق، بالسلاح أو بغيره.

وذهب جمهور الفقهاء ،من اشتراط المنعة والقوة في المحاربين؛ لأن أخذ المال على سبيل

---

(١) اختلف الفقهاء في الشروط التي يجب توافرها في الباغي، وعلى الرغم من اختلاف عباراتهم في تحديد معنى البغي، فأنها تتفق في كون المبغي عليه هو الإمام الذي ثبتت إمامته، كما أنها تكاد تشترك في تحديد الغرض من الخروج، وهو الامتناع عن الانقياد بمنع حق لله، أو حق لأدمي توجه عليهم، أو لإرادة خلعه.

انظر: بدائع الصنائع: ١٤٠/٧، المغني والشرح الكبير١٠/٥، مواهب الجليل:٢٧٨/٦، مغني المحتاج: ٣٩٩/٥.

(٢) انظر: الروض المربع ٣٣٥/٣

(٣) انظر: لسان العرب ٣٠٢/١. مادة (حرب)

(٤) للحرابة تعريفاتٌ أخرى، لا تخْرج في مفهومها عن هذا المعنى. انظر: بدائع الصنائع ٩٠/٧، والمغني ٨/ ٢٨٦.

التحايل والمخادعة يعتبر اختلاساً، وقد نفى ﷺ القطع عن المختلس فقال"ليس على خائن ولا منتهب و لا مختلس قطع"(١)، فدل هذا على اعتبار المنعة في المحارب، ولا يشترط السلاح؛ لأن قطع الطريق يكون بقطع المارة، وهو يتحقق بالسيف وبغيره.(٢)

وقد استفاض الإمام القرطبي رحمه الله في ذكر أقوال فقهاء الإسلام، في تحديد المراد بجريمة الحرابة والإفساد في الأرض، وفي عقوبتها مع مناقشتها(٣).

الفرق بين الحرابة والبغي:

الحرابة جريمة تختلط بالبغي اختلاطاً كبيراً، لذا لا بدّ من التفريق بينهما، ويظهر ذلك فيما يأتي(٤):

- أن الحرابة والبغي يتشابهان في الخروج، إلا أنهما يختلفان في المقصد، فالحرابة القصد منها إخافة السبيل على المارّة العاديين، أما البغي فالقصد من ورائه خلع الإمام، أو الخروج على طاعته، وينبني على ذلك أن المحارب يهدف إلى أخذ المال، ولو أدى ذلك إلى قتل المأخوذ منه، أما الباغي فإنه يهدف أساساً إلى خلع الإمام، أو عدم طاعته، أو الامتناع عن أداء حق وجب عليه.
- أن البُغاة قوم لهم تأويل سائغ – سواء كان حقاً أو باطلاً – يخرجون به على الإمام، بُغية عزله، فإن خرجوا ولا تأويل لهم؛ فهم محاربون تسري عليهم أحكام الحِرابة.
- أن ما أتلفه البُغاة أثناء حربهم مع أهل العدل لا يضمنون فيه شيئاً من مال أو غيره؛ لأن في إسقاط الضمان ترغيباً لهم في الرجوع إلى الحق، وفي تضمينهم تنفير لهم عن هذا الرجوع، أما المحاربون فما أتلفوه أثناء الحرابة مضمون عليهم.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الحدود، باب ما جاء في الخائن والمختلس والمنتهب ح (١٤٤٨)، وقال فيه" هذا حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند أهل العلم."، والنسائي في السنن الكبرى: كتاب قطع السارق، باب ما لا قطع فيه،ح(٧٤٦٢)، قال ابن حجر:"هو حديث قوي، صححه أبو عوانة والترمذي وقد اجمعوا على العمل به." انظر: فتح الباري:٩٤/١٢.

(٢) انظر: المغني والشرح الكبير:١٤٥/١٠، الروض المربع. ص ٤٩٦.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٤٨/٦.

(٤) انظر: جريمة قطع الطريق وأثرها في تشديد العقوبة، د.محمد إسماعيل أبو الريش. ص ٣٩ .

- أن البُغاة لا بد أن تكون لهم شوكة ومنعة، يخرجون بها على الإمام، أما المحاربين فهم قوم يخرجون على أفراد من الناس بُغية أخذ أموالهم وانتهاك حرماتهم.
- أن العقوبة المترتبة على الحرابة متنوعة، وهذا ثابت بنص آية الحرابة ، أما العقوبة المترتبة على فعل البغي فهي القتل فقط.

وقد جاء النهي عن البغي في جملةٍ من أمهات الكبائر،﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

وقال سبحانه﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل:٩٠].

وعليه، فلا ريب أن البُغاة والمحاربين من جملة المفسدين، فإن الله تعالى ذكر عقوبة هاتين الفئتين، وفصّل الحُكم المتعلق بهما.

قال تعالى في شأن البُغاة ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات:٩،١٠].

قال السعدي:"وفي هاتين الآيتين من الفوائد: أن الاقتتال بين المؤمنين؛ مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر، وأن الإيمان والأخوة الإيمانية، لا تزول مع وجود القتال، كغيره من الذنوب الكبار، التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة، وعلى وجوب الإصلاح، بين المؤمنين بالعدل، وعلى وجوب قتال البُغاة، حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا، لغير أمر الله، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك، وأن أموالهم معصومة، لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيهم خاصة، دون أموالهم"(١).

قال البغوي:"وفي هاتين الآيتين دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين، يدل عليه ما روي عن علي بن أبي طالب ﷺ سئل- وهو القدوة- في قتال أهل البغي، عن أهل الجمل وصفين: أمشركون هم؟ فقال: لا من الشرك فروا، فقيل: أمنافقون هم؟ فقال: لا، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل: فما حالهم؟

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٠١

قال: إخواننا بغوا علينا"(١).

والبغاة ليسوا سواء، بل هم أصناف(٢)، ومن أصنافهم الخوارج الذين قال فيهم النبي ﷺ "يخرج قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم،يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"(٣)،وقال ﷺ "يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة".(٤)

ومما ينبغي قبل قتال البُغاة(٥)، أن يدعوهم الإمام إلى العودة إلى الجماعة،والدخول في الطاعة، رجاء الإجابة وقبول الدعوة، لعل الشرَّ أن يندفع بالتذكرة، لأنه تُرجى توبتهم، ويسألهم عن سبب خروجهم، فإن كان لظلم منه أزاله، وإن ذكروا علة يمكن إزالتها؛ أزالها، وإن ذكروا شبهة كشفها، لأن الله تعالى بدأ الأمر بالإصلاح قبل القتال، فقال سبحانه ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾[الحجرات:٩]، ولأن المقصود دفع شرهم، لا قتلهم، وإن أصروا على دعواهم، حاول إرسال أميناً ناصحاً لدعوتهم، نصحهم بوعظ؛ ترغيباً وترهيباً، وحسَّن لهم جمع الكلمة، وعدم شماتة الكافرين، كما أرسل علي ابن عباس رضي الله عنه إلى الخوارج، ليدعوهم إلى العدل، فناظرهم ابن عباس رضي الله عنهما، وأزال الشبهات الموجودة عندهم بالحجة البالغة، والدليل القاطع، فرجع منهم كثير، وأما الذين أصروا على العناد والمقاتلة، فقاتلهم علي رضي الله عنه(٦).

---

(١) معالم التنزيل ٣٤١/٧، وأثر علي رضي الله عنه أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٧٣/٨ ح(١٦٤٩٠)، ومصنف ابن أبي شيبة.كتاب الجمل وصفين والخوارج في مسير عائشة وعلي وطلحة والزبير .٥٣٥/٧.ح (٣٧٧٦٣).

(٢) انظر: المغني لابن قدامة٥٨/١٠

(٣) أخرجه البخاري.كتاب فضائل القرآن.باب إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به.ح(٤٧٧١)، ومسلم.كتاب الزكاة. باب ذكر الخوارج وصفاتهم.ح(١٠٦٤)

(٤) أخرجه البخاري.كتاب فضائل القرآن.باب إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به.ح(٤٧٧٠)

(٥) أفرد الفقهاء في كتبهم، باباً في الأحكام المتعلقة بالبغاة، انظر مثلاً: كشاف القناع للبهوتي١٥٨/٦، والمغني ٥٨/١٠.

(٦) السنن الكبرى للنسائي.كتاب الخصائص.ذكر مناظرة ابن عباس الحرورية.ح(٨٣٠٦)، والطبراني في المعجم الكبير،ح(١٠٤٠٩)، وعبدالرزاق في المصنف. كتاب اللقطة. باب ما جاء في الحرورية.ح (١٨٠٠٨)، والحاكم في المستدرك. كتاب قتال أهل البغي. ح(٢٦٥٦)وقال:هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه.

فإذا أصرَّ هؤلاء البغاة على حرب الإمام الحق، وأبوا من الرجوع والصُلح؛ قوتلوا، ولا يقتل أسيرهم، ولا يتبع مدبرهم، ولا يذفف[١]على جريحهم، ولا تسبى ذراريهم ولا أموالهم.[٢]

ويجب على الناس معاونة الإمام على قتالهم، لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال:" من أتاكم وأمركم على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم، أو يفرّق جماعتكم فاقتلوه" وفي رواية"إنه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة،وهي جميع فاضربوه بالسيف،كائناً من كان"[٣]. وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول"من أعطى إماماً صفقة يده، وثمرة فؤاده، فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه؛ فاضربوا عنق الآخر"[٤].

ولا ريب أن بالناس حاجة إلى إمام تجتمع به كلمتهم، لحماية المجتمع، والذب عن الحوزة[٥]، وإقامة الحدود، واستيفاء الحقوق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:"ويجب أن يُعرف أن ولاية أمر الناس، من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا الدنيا؛ إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصالحهم إلا بالاجتماع، لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي ﷺ "إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم"[٦]، فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، تنبيهاً على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجُمع والأعياد ونصر المظلوم، وإقامة الحدود، لا تتم إلا بالقوة والإمارة، ويقال: ستون سنة من إمام جائر، أصلح من ليلة بلا سلطان. والتجربة تبين ذلك"[٧].

---

(١) ذ فِيفُ الجَرِيح الإجْهازُ عليه وتَحْرِيرُ قتلِه. لسان العرب ١١٠/٩ مادة (ذفذف)

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٦٧/١٦.

(٣) أخرجه مسلم . كتاب الإمارة.باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع، ح(١٨٥٢).

(٤) أخرجه مسلم.كتاب الإمارة.باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول. ح(١٨٤٤).

(٥) الحوزة: الناحية، وحوزة الرجل ما في ملكه، وحوزة الإسلام حدوده ونواحيه. انظر: المعجم الوسيط ٢٠٦/١

(٦) أخرجه أبو داود.كتاب الجهاد.باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم.ح(٢٢٥٦)،والبيهقي في السنن الكبرى. جماع أبواب آداب السفر.باب القوم يؤمرون أحدهم إذا سافروا.ح(٩٧٢٢)

(٧) السياسة الشرعية ص١٣٧.

وأما الحرابة؛ فهي من كبائر الذنوب بدلالة الكتاب العزيز،قال تعالى ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣].

وقد اختلف العلماء فيمن نزلت فيه آية الحرابة،على أربعة أقوال(١):

- أحدها: أنها نزلت في ناس من عرينة، قدموا المدينة فاجتووها(٢)فبعثهم رسول الله ﷺ في إبل الصدقة، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها، ففعلوا فصحوا، وارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، فأرسل ﷺ في آثارهم، فجيء بهم فقطع أيديهم وأرجلهم من خِلاف، وسمر أعينهم، وألقاهم بالحرَّة، حتى ماتوا(٣).
- والثاني: أن قوماً من أهل الكتاب كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق،فنقضوا العهد، وأفسدوا في الأرض، فخيّر الله رسوله بهذه الآية، إن شاء أن يقتلهم، وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.
- والثالث: أن أصحاب أبي بردة الأسلمي رضي الله عنه، قطعوا الطريق على قوم جاؤوا يريدون الإسلام، فترلت هذه الآية.
- والرابع: أنها نزلت في المشركين.

وأياً كان سبب الترول، فالآية عامة في كل من أخاف السبيل، وقطع الطريق، وسعى في الأرض فساداً، لبيان عقوبته، واختار ذلك ابن كثير وجماعة.(٤)

فالآية بعمومها؛ تتناول كل من أجرم جرائم الحرابة، سواء كان من المسلمين أم من غيرهم، فيحكم عليه بموجب حكمها.

وفيها؛ بيان أحكام الحرابة وأنواع قُطاع الطريق وعقوباتهم، وأخذ منها الفقهاء فوائد:

قال الإمام الجصاص(١): أطلق الله – سبحانه وتعالى– على قطاع الطريق محاربين لله تعالى ورسوله ﷺ، للأمور التالية:

---

(١) انظر: زاد المسير ٢/٣٤٣.

(٢) اجتووها: أي لم يوافقهم طعامها، قال ابن العربي: داء يأخذ من الوباء، وفي رواية أخرى (استوخموا) وهو بمعناه، وقيل داء يصيب الجوف. انظر: تحفة الأحوذي١/٢٠٣

(٣) سبق تخريجه. انظر ص ٣٠

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم٢/ ٤٩

- أنه سمّى الذين يخرجون ممتنعين مجاهرين بإظهار السلاح وقطع الطريق محاربين؛ لما كانوا بمنزلة من حارب غيره من الناس ومانعه، فسمّوا محاربين تشبيهاً لهم بالمحاربين من الناس، كما قال تعالى﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾[الأنفال:١٣]،وقوله﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة:٥]، ومعنى المشاقة: أن يصير كل واحد منهما في شِقٍّ يباين صاحبه، ومعنى المحادّة: أن يصير كل واحد منهما في حدٍّ على وجه المفارقة، وذلك يستحيل على الله تعالى.
- يحتمل أن يكونوا سمّوا بذلك؛ تشبيهاً بمظهري الخلاف على غيرهم، ومحاربتهم إياهم من الناس، وخُصت هذه الفرقة بهذه السِّمة؛ لخروجها ممتنعة بأنفسها؛ لمخالفة أمر الله تعالى، وانتهاك الحُرم وإظهار السلاح، ولم يُسّم بذلك كل عاص لله تعالى؛ إذ ليس بهذه المنزلة في الامتناع، وإظهار المغالبة في أخذ الأموال وقطع الطريق.
- ويحتمل أن يريد الذين يحاربون أولياء الله ورسوله ﷺ، كما قال تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب:٥٧]، والمعنى: يؤذون أولياء الله، ويدل على ذلك أنهم لو حاربوا رسول الله ﷺ لكانوا مرتدين بإظهار محاربة رسول الله ﷺ.

قال القرطبي:"وإنما كانت المحاربة عظيمة الضرر؛ لأن فيها سدّ سبيل الكسب على الناس؛ لأن أكثر المكاسب وأعظمها التجارات، ورُكنها وعِمادها الضرب في الأرض، كما قال عز وجل﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[المزّمل:٢٠]، فإذا أخيف الطريق؛ انقطع الناس عن السفر، واحتاجوا إلى لزوم البيوت؛ فانسد باب التجارة عليهم، وانقطعت أكساهم، فشرع الله على قطاع الطريق الحدود المغلّظة، وذلك الخزي في الدنيا، وردعاً لهم عن سوء فعلهم، وفتحاً لباب التجارة التي أباحها لعباده لمن أرادها منهم".(٢)

إن العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات، بغياً على الإنسان في دينه وعقله وماله وعِرضه، ويشمل صنوف التخويف والأذى والتهديد والقتل بغير حق، وما يتصل بصور الحرابة وإخافة السبيل وقطع الطريق، وكل فعل من أفعال العنف أو التهديد، يقع تنفيذاً لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعهم بإيذائهم أو

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٥١/٤

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥٧/٦

تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم أو أحوالهم للخطر، ومن صنوفه إلحاق الضرر بالبيئة، أو بأحد المرافق والأملاك العامة، أو الخاصة، أو تعريض أحد الموارد الوطنية أو الطبيعية للخطر؛ فكل هذا من صور الفساد في الأرض التي نهى الله تعالى المسلمين عنها بقوله﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[القصص:٧٧][1].

وذلك من أكبر الجرائم في نظر الشرع، ومن أجل ذلك أغلظ الله العقوبة على من يحترف هذه الجريمة ويسلك سبيلها، لأن فعله مهما كان؛ فإنه لن يخرج عن كونه فساداً في الأرض.

ويكمن خطر هذا الصنف من المفسدين على الأمن العام، بما تشتمل عليه أعمالهم من إدخال الرعب والخوف على النفوس، بصورة غير محددة.

ورعاية الأمن العام، من المصالح العامة، ومواجهة الحرابة وردع المحاربين، من الواجبات التي تلزم ولاة الأمور، وعلى عامة المسلمين أن يكونوا من ورائهم في تحقيق ذلك الواجب.

قال القرطبي رحمه الله:"وإذا أخاف المحاربون السبيل وقطعوا الطريق، وجب على الإمام قتالهم... ووجب على المسلمين التعاون على قتالهم وكفهم عن أذى المسلمين". وقال:" وأجمع أهل العلم على أن السلطان وليّ من حارب، فإن قتل محارب أخ امرئ أو أباه، في حال المحاربة، فليس إلى طالب الدم من أمر المحارب شيء، ولا يجوز عفو ولي الدم، والقائم بذلك الإمام، جعلوا ذلك بمترلة حدٍّ من حدود الله تعالى".[2]

والذي عليه أكثر أهل العلم، أن عقوبة المحاربين الواردة في الآية، كالآتي[3]:

- إذا قتلوا وأخذوا المال؛ قتلوا وصلبوا.
- وإذا قتلوا و لم يأخذوا المال؛ قتلوا و لم يصلبوا.
- وإذا أخذوا المال و لم يقتلوا؛ قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف.
- وإذا أخافوا السبيل و لم يأخذوا مالاً؛ نفوا من الأرض.

---

(١) انظر: قرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته ١٦ المنعقدة في: ٢١- ٢٧ شوال ١٤٢٢هـ

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/١٥٥.

(٣) السياسة الشرعية ص ٦٦

"وقتال هؤلاء أوكد من قتال الطوائف الممتنعة عن شرائع الإسلام، فإن هؤلاء قد تحزبوا لفساد النفوس والأموال، وهلاك الحرث والنسل"[(١)].

قال السعدي:"وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة، عُلم أن تطهير الأرض من المفسدين، وتأمين السبل والطرق، عن القتل، وأخذ الأموال، وإخافة الناس، من أعظم الحسنات، وأجلّ الطاعات، وأنه إصلاح في الأرض، كما أن ضده إفساد في الأرض"[(٢)].

والتوبة في الحرابة تجبُّ ما قبلها، فإذا تاب المحارِب قبل قدرة السلطان عليه، بأن يأتي إلى الحاكم عن طوع واختيار، ويظهر التوبة عنده، صح ذلك وقبل منه، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة:٣٤].

ومفهوم الآية؛ ألا يسقط عنه شيء بالتوبة بعد الظفر عليه، لأن الظاهر أن التوبة قبل ذلك توبة إخلاص، ولترغيبه في التوبة، وبعدَه الظاهر أنها تقية من إقامة الحد عليه، ولا حاجة لترغيبه في التوبة؛ لأنه قد عجز عن الفساد والمحاربة[(٣)].

ولا يسقط عنه حقوق الناس الشخصية؛ كحدّ القذف والقصاص وضمان الأموال، إذ لا دليل على إسقاطها، وكذلك اتفق الفقهاء على إسقاط عقوبة الباغي – وهي القتل– بالتوبة؛ لأن القصد من عقابه توفير الطاعة والولاء والعدول عن البغي.[(٤)]

---

(١) السياسة الشرعبة ص ١١٣

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٣٠

(٣) انظر:أحكام القرآن للجصاص:٢/ ٣١٤، أحكام القرآن لابن العربي٢/٦٠، المغني لابن قدامة: ٨/٢٩٥، السياسة الشرعية لابن تيمية: ص ٦٨.

(٤) انظر: مغني المحتاج: ٤/١٢٧، المغني لابن قدامة ٨/١١٤

المطلب السابع:الكبراء والأثرياء.

أبرز القرآن هذا الصنف من المفسدين بأعيانهم، وببيان صفاتهم، وذكر الأثر المترتب على فسادهم.

والمقصود في هذا المبحث كشف المفسدين من الكبراء والأثرياء، لا أن الكبراء والأثرياء كلهم مفسدون، فإن الشرع لم يذم الجاه والثراء لذاته، بل لما يقترفه من فُتن بهما من فساد. وإلا فإن من أكابر الناس وأثريائهم، من هم على خير وهدى وصلاح وتقى.

لقد منّ الله تعالى على دواد وسليمان عليهما السلام وهم من الرسل الأبرار، والمصطفين الأخيار، فآتاهما الملك والحكم والنبوة، قال سبحانه عن داود ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾ [البقرة:٢٥١] ومن في البشر من أُتي ملك سليمان عليه السلام وقد دعا ربه فقال﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾[ص:٣٥]،وقال على يوسف عليه السلام ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ [يوسف:١٠١].

إلاّ أن الشكور من عباد الله قليل، كما قال تعالى ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ:١٣].

ولقد كان من سنن الله تعالى في خلقه، أن يكون بعضهم فوق بعض، كما أن الجسد لا يصلح إلا برأس، قال تعالى﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾[الأنعام:١٦٥]، وقال تعالى﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾[الزُخرُف:٣٢].

قال ابن تيمية رحمه الله:"جاءت الشريعة بصرف السلطان والمال في سبيل الله، فإذا كان المقصود بالسلطان والمال؛ هو التقرب إلى الله، وإنفاق ذلك في سبيله، كان ذلك صلاح الدين والدنيا، وإن انفرد السلطان عن الدين، أو الدين عن السلطان؛ فسدت أحوال الناس، وإنما يمتاز أهل طاعة الله، عن أهل معصيته، بالنية والعمل الصالح، كما قال النبي ﷺ "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم"(١).

ولما غلَب على كثير منهم إرادة المال والشرف، صاروا بمعزل عن حقيقة الإيمان، وكمال

---

(١) أخرجه مسلم. كتاب البر والصلة. باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.ح(٦٧٠٧).

الدين، ثم منهم من غلب الدين وأعرض عما لا يتم الدين إلا به من ذلك، ومنهم من رأى حاجته على ذلك، فأخذه معرضاً عن الدين، لاعتقاده أنه مناف لذلك، وصار الدين عنده في محل الرحمة والذل، لا في ملح العلو والعز.(١)

ولئن كان عامة المفسدين من الكبراء والأثرياء؛ من جملة المكذبين، إلا أن القرآن الكريم كشف هذا الصنف، وخصّه بمزيد بيان، وما ذاك إلا ليتجلى الفساد العريض للمفتونين بالجاه والمال.

فمن فسادهم ما أخبر عنه تبارك وتعالى بقوله﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٣].

أي: كما جعلنا في قريتك – يا محمد – أكابر من المجرمين، ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصدّ عن سبيل الله، كبُر جرمهم، واشتد طغيانهم، كذلك كانت الرسل من قبلك يُبْتَلون بذلك، كما قال تعالى﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[الفرقان:٣١].

فلا يكاد الإجرام ينفك عن عِليَة القوم وكبرائهم، وذلك لأن اتباعهم للرسل يلزم منه تخليهم عن كثير من حظوظهم ونزواتهم.

وهذا المكر بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان، ومحاربة الرسل وأتباعهم، بالقول والفعل، كما قال تعالى إخبارًا عن قوم نوح﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾[نوح:٢٢].

بل قد جاء الدليل واضحاً على أن مكرهم، هو الأمر بالكفر، كما في المجادلة بينهم وبين الضعفاء﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ﴾[سبأ:٣٣].

وفي موضع آخر؛ اعترفوا بأن طاعتهم للكبراء هي سبب ضلالهم،﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾[الأحزاب:٦٧]. وهذا ظاهر الدلالة في أن هؤلاء السادة والكبراء؛ ما كانوا يأمروهم بالخير أبداً، بل كانوا يأمروهم بالكفر والعصيان، وردّ دعوة الرسل، وهذا الذي أحلهم دار البوار؛ فأرادوا أن يشتفوا منهم، فقالوا﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٦٨].(٢)

---

(١) انظر: السياسة الشرعية ص١٤٠

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم٦/٤٨٤، تيسير الكريم الرحمن ص ٦٧٣

وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم، وقاموا بردِّ الحق الذي جاءت به الرسل، حسداً منهم وبغياً، فقالوا ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ من النبوة والرسالة. وفي هذا اعتراض منهم على الله، وعُجب بأنفسهم، وتكبّر على الحق الذي أنزله على أيدي رسله، وتحجّرٌ على فضل الله وإحسانه. فردّ الله عليهم اعتراضهم الفاسد، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلاً أن يكونوا من النبيين والمرسلين، فقال ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام:١٢٤]،فهو أعلم - سبحانه - حيث يضع رسالته، ومن يصلح لها من خلقه(١).

ولذا كان استعلاؤهم على دعوة النبي ﷺ إذ لم يكن - بزعمهم- في مكانتهم ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزُّخرُف:٣١]، أي:هلاّ كان إنزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجل في أعينهم، من أهل مكة والطائف!

"وذلك لأنهم - قبحهم الله -كانوا يزدرون بالرسول ﷺ بغيًا وحسدًا، وعنادًا واستكبارًا، كما قال تعالى مخبرًا عنهم ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[الأنبياء:٣٦].

فردّ الله تعالى عليهم في هذا الاعتراض بقوله ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[الزُّخرُف:٣٢].

أي: ليس الأمر مردوداً إليهم، فالله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً"(٢).

وكان إباؤهم على الجلوس عند النبي ﷺ، حيث رفضوا الإذعان لدعوته، لأن أراذل الناس - زعمهم - سبقوهم إلى ذلك.

قال الشنقيطي:"لقد أجرى الله تعالى الحكمة بأن أكثر أتباع الرسل ضعفاء الناس، ولما سأل هرقل ملك الروم، أبا سفيان ﷺ عن صفات النبي ﷺ، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل(٣).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم/٣٣١، تيسير الكريم الرحمن ص ٢٧٢

(٢) تفسير القرآن العظيم٧/٢٢٦

(٣) أخرجه البخاري.كتاب بدء الوحي. باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.ح(٧)،ومسلم.كتاب الجهاد والسير. باب كِتَابِ النَّبِىِّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ يَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلاَمِ.ح(٤٧٠٧).

فإذا عرفت ذلك، فاعلم أنه تعالى أشار إلى أن من حكمة ذلك؛ فتنة بعض الناس ببعض، فإنّ أهل المكانة والشرف والجاه يقولون: لو كان في هذا الدين خير؛ لما سبقنا إليه هؤلاء؛ لأنـا أحق منهم بكل خير، كما قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾[الأنعام:٥٣]، فهذا إنكار منهم أن يمّن الله على هؤلاء الضعفاء دونهم، زعماً منهم أنهم أحق بالخير منهم، وقد ردّ الله قولهم هنا بقوله ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وأوضح هـذا المعنى في آيات أُخر، كقوله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[الأحقاف:١١]، وقوله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[مريم:٧٣]، فهم لما رأوا أنفسهم أحسن منازل، ومتاعاً من ضعفاء المسلمين، اعتقدوا أنهـم أولى منـهم بكل خير، وأن اتّباع الرسول ﷺ لو كان خيراً ما سبقوهم إليه، وردّ الله افتراءهم هذا بقوله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾[مريم:٧٤]".(١)

ومن قبل قال قوم نوح لنبيـهم ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[هود:٢٧].

وقالوا في اعتراض ساخر ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١].

"وهذا دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، سواء اتبعه الأشراف أو الأرذال، بل الحق الذي لا شـك فيـه؛ أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه؛ هم الأرذال، ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً أن من يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كمـا قال تعـالى ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزُخرُف:٢٣].

وقولهم ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ ليس بمذمة ولا عيب، لأن الحق إذا وضح لا يبقي للرأي ولا للفكـر مجال، بل لا بدّ من اتباع الحق والحالة هذه، لكل ذي زكاء وذكاء، بل لا يفكر هاهنـا إلا غبي أو عيي"(٢).

لقد زعم سادة المشركين؛ أنه لولا أن من المؤمنين ناساً أهل خصاصة في الدنيا، وأرقاء لا

(١) أضواء البيان ١/٤٧٩

(٢) تفسير القرآن العظيم٢/ ٤٤٣

يدانوهم، ولا يستأهلون الجلوس معهم، لأتوْا إلى مجالسة النبي ﷺ واستمعوا القرآن،فاقترحوا عليْه أن يطردهم من حوله، إذا غشيه سادة قريش.

فقد أخرج الطبري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: مرّ الملأ من قريش بالنبيّ ﷺ، وعنده صهيب وعمار وبلال وخبّاب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ هؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعًا لهؤلاء؟ اطردهم عنك! فلعلك إن طردتهم أن نتّبعك! فأنزل الله﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢][(١)].

بل أمر الله نبيه ﷺ بمجاهدة النفس على صحبة هؤلاء الضعفاء، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ فإن في صحبتهم من الفوائد، ما لا يحصى، وحذّره أن يجاوز ببصره إلى الدنيا ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فإن في ذلك من الضرر ما يوجِب تعلّق القلب بالدنيا، فتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر ربه، ويقبل على لذاته وشهوته، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة السرمدية، ولهذا قال ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف:٢٨][(٢)].

لقد كان الضعفاء أقرب إلى الإيمان، لأن الدنيا لم تأسر قلوبهم، ولم تُعمِ بزينتها بصائرهم، أما أهل الجاه والثراء، فكثير منهم حجبهم حب الدنيا عن الطاعة والإيمان.

ومن أشهر الكبراء وأشدهم طغياناً وكفراً، فرعون الذي حكى الله قصته مع موسى عليه السلام في مواضع عدّة من كتابه العزيز، قال تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[القصص:٤].

فقد بلغ في الاستعلاء ذروته، فَعَلا على رعيته، بل علا على وزرائه وخاصته، وعلا حتى على الله – عز وجل – فادَّعى الألوهية، وهذا منتهى الاستعلاء والطغيان والتكبُّر.

وقوله تعالى﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فيه تأكيد لمعنى تمكن الإفساد من فرعون، ذلك أن فعله

---

(١) جامع البيان ٣٧٤/١١

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٤٣٩/٨، تيسير الرحمن الكريم ص٤٧٥.

هذا اشتمل على مفاسد عظيمة[1]:

- التكبر والتجبر، فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمّة، من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبث عداوته فيهم.
- أنه جعلهم شيعاً وفرّقهم أقساماً، وجعل منهم شيعاً مقربين منه، وذلك فساد في الأمة، لأنه يثير بينها التحاسد والتباغض، ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض، وقد أغرى بينهم العداوة ليأمن تألبهم عليه.
- أنه استضعف طائفة من رعيته فجعلها محتقرة مهضومة الجانب، لا مساواة بينها وبين فرق أخرى، ولا عدَل في معاملتها بما يعامل به غيرها، والمراد بالطائفة: بنو إسرائيل.
- أنه أمر بذبح أبناءهم، وقصده من ذلك أن لا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم، حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.
- أنه استحيى نساء بني إسرائيل، أي يستبقي حياة الإناث، ليصلحن لما تصلح له النساء، وهو أن يصرن بغايا إذ ليس لهن أزواج، وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذبيح الأبناء، إذ كل ذلك اعتداء على الحق.

ولذا بيّن الله تعالى مِنّته على بني إسرائيل بخلاصهم من طغيان فرعون، فقال ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣١].

ومن صور فساد الكبراء؛ إكراههم للناس على المعاصي، قال تعالى على لسان سحرة فرعون بعد أن صدعوا بإيمانهم في وجه فرعون ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

فالآية دليل على أن فرعون أكره السحرة على تعلّم السحر، حتى يقفوا في صفّه لمعارضة الحق. فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أن يُعلموا السحر بالفرما[2]، وقال: علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد في الأرض، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فهُم من الذين أمنوا بموسى عليه السلام وهم الذين قالوا ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٦٨

(٢) الفَرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر. انظر: معجم البلدان للحموي ٤/٢٢٥.

﴿خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾(١).

بل إن فرعون – قبل ذلك – أكره الناس على الكفر بالله تعالى، حتى إنه لم يؤمن بموسى منهم إلا قليل، قال تعالى ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[يونس:٨٣].

قال الطبري:"كان إيمان من آمن مِن ذرية قوم موسى، على خوف من فرعون أن يفتنهم بالعذاب، فيصدّهم عن دينهم، ويحملهم على الرجوع عن إيمانهم والكفر بالله"(٢).

و لم يكن هذا فِعل فرعون وحده، بل هذه فِعلة أكابر المجرمين، فقد روى صهيب ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلمّا كبر، قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه..." الحديث، وفيه أن الغلام آمن بالله تعالى وكفر بدين الملك، فلما عزم الملك على قتله و لم يستطع، قال الغلام للملك:"إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كِنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني... ففعل؛ فمات الغلام، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدَّت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه، اصبري فإنك على الحق"(٣).

فالحديث ظاهر الدلالة على أن الملك كان يستعين بالساحر على أمور ملكه، وأنه اختار هذا الغلام ليخلف هذا الساحر وأكرهه على تعلم السحر بعد ما تبيّن له أن أمر الراهب خير من الساحر، ثم إنه أكره الناس على الكفر بالله تعالى، وفي ذلك أنزل الله تعالى سورة البروج، وفيها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾[البروج:١٠].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم٩/٢٨٩

(٢) جامع البيان ١١/١٥١

(٣) أخرجه مسلم. كتاب الزهد والرقائق. باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام.ح(٣٠٠٥).

ومن صور الإكراه، ما مارسه المشركون مع المؤمنين المستضعفين في مكة من أذية وتعذيب، لصدهم عن الإيمان، فقد أخذ المشركون عمار بن ياسر ﷺ فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: "كيف تجد قلبك؟" قال: مطمئناً بالإيمان، قال ﷺ: "إن عادوا فعُد"[(١)]. ونزل قوله تعالى﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾[النحل:١٠٦].

قال الطبري: ذُكر أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، وقوم كانوا أسلموا، ففتنهم المشركون عن دينهم، فثبت على الإسلام بعضهم، وافتتن بعض.

ومن فسادهم: ردّ الحق والإعراض عنه، إثاراً للسلطة والمال، فقد قصّ الله تعالى خبر مؤمن آل فرعون وما وعظ به قومه قائلاً ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ ﴾[غافر:٢٩]، فقال فرعون معارضاً له في ذلك، ومغررًا لقومه أن يتبعوا موسى﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ وصدق في قوله﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ ولكن ما الذي رأى؟

رأى أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقيم بهم رياسته، و لم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به مستيقنًا له. وكذب في قوله﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ فإن هذا قلبٌ للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعًا مجردًا على كفره وضلاله، لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعِه اتباعُ الحق، وفي اتباع الحق الذي جاء به موسى ﷺ؛ اتباع للضلال[(٢)].

وظهر هذا أيضاً من هرقل عظيم الروم، حين أتاه كتاب رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام "فأذِن هرقل لعظماء الروم في دَسْكَرَةٍ[(٣)] له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلِّقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا

---

(١) انظر: جامع البيان١٨٢/١٤، والبيهقي في السنن الكبرى. كتاب المرتد. باب المكره على الردة. ح(١٦٦٧٣)، والحاكم في المستدرك. كتاب التفسير. ح(٣٣٦٢)وقال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.
وقال الحافظ ابن حجر:"وهو مرسل ورجاله ثقات، وقد روي مرسلاً من طرق أخرى، يقوي بعضها ببعض".
انظر: فتح الباري ٣١٢/١٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٧١.

(٣) الدَّسْكرة: بِناء على هيئة القَصْر فيه منازلُ وبُيوتٌ للخدَم والحَشَم، وليست بعَرَبِيَّة مَحْضة انظر:النهاية في غريب الأثر ٢٦٧/٢

حيصة[١] حُمُر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم عليّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفاً؛ أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل".[٢]

ويبدو ظاهراً؛ كيف أن هؤلاء الكبراء اتقنوا التلبيس والمخادعة؛ إبقاءً لمكتسباتهم، فمن تلبيسهم أنهم يصفون أهل الحق بالفساد، قال تعالى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

فزعم أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه، ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشر في الأرض فقال﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغير ما أنتم عليه، وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام، ولما ألهبهم بهذا الكلام إلى ممالأتهم له على موسى عليه السلام، زاد في ذلك بقوله ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، فسمى الصلاح – لمخالفته لطريقته الفاسدة – فساداً، وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق، كما هو شأن كل مفسد مع المصلحين، وهذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[الزُّخرُف:٥٤].[٣]

قال الزمخشري: وقوله ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ شاهد صدق على فرط خوفه منه، ومن دعوته ربه، وكان قوله ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ تمويهاً على قومه، وإيهاماً أنهم هم الذين يكفُّونه، وما كان يكفُه إلاّ ما في نفسه من هول الفزع، فإنه كان قتالاً سفاكاً للدماء في أهون شيء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يُزيل عرشه، ويهدم ملكه، ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله؛ أن يعاجل بالهلاك.[٤]

وفي موضع أخر من سياق قصة موسى مع فرعون، يظهر جلياً؛ أثر وشاية الكبراء بأهل الإيمان، قال تعالى﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ

---

(١) أي: جالوا جولة يطلبون الفرار، والمحيص: المهرب والمحيد. انظر:النهاية في غريب الأثر ١/ ٤٦٨

(٢) سبق تخريجه ص (٢٦٣)

(٣) انظر: نظم الدرر٦/٧٥٢، تيسير الكريم الرحمن ص ٧٣٦

(٤) الكشاف ٤/١٦٥

﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[الأعراف:١٢٧]

فلما غلبوا بالحجة فزعوا إلى الوشاية بدعوى الإفساد في الأرض، وتحويل الرعية عن دينهم!

وقد لجأت قريش إلى هذا الأسلوب، مع المهاجرين إلى أرض الحبشة، فعن ابن مسعود ﷺ قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ونحن نحو من ثمانين رجلاً، فأتوا النجاشي، وبعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دخلا على النجاشي سجدا له، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالا: له إن نفراً من بني عمِنا نزلوا أرضك، ورغبوا عنا، وعن ملتنا، قال: فأين هم، قال: هم في أرضك، فابعث إليهم، فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه، فسلّم و لم يسجد، فقالوا له: مالك لا تسجد للملك، قال: إنا لا نسجد إلا لله عز و جل، قال: وما ذاك، قال: إن الله عز وجل بعث إلينا رسوله ﷺ، وأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم، قال: ما تقولون في عيسى بن مريم وأمه، قالوا: نقول كما قال الله عز وجل؛ هو كلمة الله وروحه؛ ألقاها إلى العذراء البتول، التي لم يمسها بشر، و لم يفرضها ولد، قال: فرفع عوداً من الأرض؛ ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان؛ والله ما يزيدون على الذي نقول فيه؛ ما يسوي هذا، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشّر به عيسى بن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك؛ لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما(١).

وأما فساد أهل الثراء، فيكمن في كون المال قوة اعتبارية يعطيها الأثرياء الأهمية الكبرى، سعياً لتوسيع دائرة التملك، وبسط النفوذ،وتلبية الشهوات،وتحقيق المآرب المبنية على الفخر والخيلاء، والعلو في الأرض.

وما يبلث الثراء بصاحبه؛ حتى يكون مملوكاً للمال بدلاً من أن يكون هو مالكه،

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤٦١/١ ح(٤٤٠٠)، والحاكم في المستدرك.كتاب التفسير.ح(٣٢٠٨)،وحسّنه ابن حجر في الفتح ١٨٩/٧، وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد قوي، وسياقه حسن. انظر: البداية والنهاية ٦٧/٣.

فيأسر قلب صاحبه، ويَشدّ وثاقه؛ كما يُشدّ الأسير بالسلاسل والأغلال، عندها يكون المال قوة تفسد قلب صاحبه خاصة، وتحمله على البغي والإفساد في الأرض بعامَّة.(١)

وقد ذكر القرآن الكريم نماذج للفساد الأثرياء،كان من أكثرها شهرة – حتى صار مضرب المثل – قارون، قال تعالى ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[القصص:٧٦].

قال ابن عاشور:"ضرب الله الأمثال للمشركين في جميع أحوالهم بأمثال نظرائهم من الأمم السالفة، فضرب في هذه السورة، لحال تعاظمهم بأموالهم مثلاً؛ بحال قارون مع موسى، وأن مثل قارون؛ صالحٌ لأن يكون مثلاً لأبي لهب، ولأبي سفيان بن الحارث قبل إسلامه، في قرابتهما من النبي ﷺ وأذاهما إياه، وللعاص بن وائل السهمي في أذاه لخباب بن الأرتّ وغيره، وللوليد بن المغيرة من التعاظم بماله وذويه، قال تعالى﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾[المدّثر:١١،١٣].

وفي ثنايا هذه القصة يظهر أثر المال في طغيان صاحبه، فإن المال حمله على الكبر والبغي والظلم، فإن قارون كان رجلاً من بني إسرائيل، وإنما عَدَل هنا عن أن يقال: كان من بني إسرائيل، إلى قوله ﴿مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ إيماءً بقرابة قارون لموسى عليه السلام، وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه.(٢)

ولكنه بغى على قومه وطغى وتكبر وتجّر، بما أوتيه من الأموال العظيمة المطغية، فقد أوتي من كنوز الأموال شيئاً كثيراً، حتى إن مفاتح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها.

فإذا كانت هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟

ففرح بالدنيا،حتى طغى ونسي الآخرة، حتى قال له قومُه محذرين له ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

ووعظوه، فقالوا﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[القصص:٧٧].

---

(١) سيأتي – إن شاء الله – بيان فتنة المال وأثرها الفاسد؛ في أسباب الفساد.

(٢) جامع البيان ٦١٦/١٩، التحرير والتنوير ١٣/١١

ولكن هذه الموعظة لم تلق إلا قلباً معرضاً، أصيب بمرض الكبر والطغيان، إذ قال ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾

وهكذا ينكر المفتونون فضل الله عليهم، وحينها لا ينفع مع هؤلاء؛ إلا التهديد والوعيد ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ [القصص:٧٨].

لقد كان المال عند الأثرياء المفسدين، وسيلة للظهور والعلو في الأرض، وفتنة لبعض ضعاف النفوس؛ ممن زعموا أن من أوتي ذلك فهو ذو حظ عظيم ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [القصص:٧٩].

ولذا بيّن الله تعالى بعد أن أهلك قارون شر مهلكة، أن العاقبة في الآخرة للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، فقال ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

الباب الثاني

أسبابُ الفسَاد وموانِعُه

وفيه فصلان:

الفصل الأول: أسباب الفساد.

الفصل الثاني: سُبُل مُدافعَة الفسَاد وعِلاجه.

الفصل الأول

أَسَبَابُ الفَسَادِ

وفيه أحد عشر مبحثاً:

المبحث الأول: الكفر والذنوب

المبحث الثاني: تزيين الشيطان

المبحث الثالث: التقليد المذموم

المبحث الرابع: موالاة المفسدين واتباعهم

المبحث الخامس: اتباع الهوى

المبحث السادس: الكبر

المبحث السابع: الحسد

المبحث الثامن: الغلو

المبحث التاسع: الترف

المبحث العاشر: الظلم والعدوان

المبحث الحادي عشر: الفتن الدنيوية

تمهيد:

الأطباء يقولون:"إن تشخيص الداء نصف الدواء"، وإذا كنّا قد تعرفنا على الـــداء – وهـــو الفساد – فلا بدّ من معرفة أسبابه ودوافعه؛ من خلال النصوص القرآنية،التي تصف الواقع في كل زمان ومكان، لنضع له العلاج الناجح من كتاب ربنا،ومن سنة نبينا ﷺ.

ومن القواعد المعينة على معرفة ذلك؛"أن يُعـــلم أنه إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان آمراً بضده، وإذا أثنى على نفسه أو على أوليائه وأصفيائه بنفي شيء من النقائص، كان ذلك إثباتاً للكمال.

وذلك: بأنه لا يمكن امتثال الأمر على وجه الكمال، إلا بترك ضده، فحيث أمر بالتوحيـــد والصلاة والزكاة والصوم والحج وبرّ الوالدين وصِلة الأرحام والعدل والإحسان، كان ناهياً عن الشرك وعن ترك الصلاة وترك الزكاة وترك الصوم وترك الحج وعن العقوق والقطيعـــة والظلم والإساءة، وحيث نهى عن الشرك وترك الصلاة... إلى آخر المذكورات، كان آمـــراً بالتوحيد وفعل الصلاة إلى آخرها"[1].

وفي هذا الفصل؛ نشير إلى أبرز أسباب الفساد، دون استيفاء وحصر؛ إذ لا ريب أن كـــل فسادٍ قد يختص بأسباب دون غيره، ومِن ثَمّ؛ فإن حصر أسبابه يعزُّ هنا، غير إن المتأمـــل في آيات القرآن الكريم؛ يجد أن الأمر ظاهرٌ جليّ؛ ومن ذلك ما ذكرته مجملاً في المباحث الآتية، فقد جعلت كل مبحث منها مشتملاً على سبب من أسباب الفساد، وهي كما يلي:

(١) القواعد الحسان في تفسير القرآن للسعدي. ص٩٩

المبحث الأوَّل

الكُفرُ والذنوب

سبقت الإشارة إلى تعريف الكفر[١]، ونجد مادته تدور حول معنى الستر والتغطية ،والمعنى الشرعي لا ينفك عن المعنى اللغوي، فكلاهما يعني ستر الإيمان والحق وجحودهما ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[النمل:١٤]

وفي القرآن نماذج كثيرة لهذا الصنف من أهل الكفر، الذين حملهم كفرهم على الفساد والإفساد في الأرض، من هؤلاء:

قوم ثمود الذين أرسل الله لهم صالحاً عليه السلام بالتوحيد، لكنهم كفروا بالله، وما جاء به رسولهم عليه السلام،قال تعالى﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[النمل:٤٨].

كانوا تسعة رجال في المدينة التي يسكنها ثمود من أشرافهم، لهم أثرهم وخطرهم في القبيلة، حتى كان الواحد منهم رهط بنفسه، فلا يتأتى منهم صلاح بحال من الأحوال.[٢]

قيل: كانوا من أوجه القوم وأغناهم، وكانوا أهل كفر، وجملة أمرهم أنهم يفسدون ولا يصلحون.[٣]

وخص التسعة بالذِكر، مع أن أهل الكفر كلهم – في الأرض – مفسدون، لأنهم:

- دعوا قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح عليه السلام.
- سعوا في عقر الناقة وتعاونوا على ذلك، لهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة، يعني صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قبحهم الله.
- تحالفوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام، بأن يبيتوه في أهله ليلاً، فيقتلوه غَيلة، ثم يقولون لأوليائه من أقربائه، إنهم ما علموا بشيء من أمره.[٤]

إن جرثومة الفساد استشرت في قوم ثمود جميعاً، بسبب رؤوس الكفر التسعة، مع أن صالح عليه السلام حذّر قومه من طاعتهم، فقال كما حكى القرآن عنه﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[الشعراء:١٥١،١٥٢]. لكن صوت التحذير؛ لم يلق إلا آذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً.

---

(١) انظر: ص ٣٦

(٢) انظر: التفسير الواضح، د .محمد محمود حجازي ٢/ ٧٩٥، ٧٩٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٢١٥

(٤) انظر: جامع البيان ١٩/ ١٧٢، وتفسير القرآن العظيم٣/ ٣٦٨

وإذا كان الكفر دافعاً من دوافع الفساد عند قوم ثمود، فإنه بارز أيضاً في قصة فرعون، كما في قوله تعالى ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾[الفجر:٩،١٢].لذا ناسب أن تأتي الإشارة عن فرعون بعد ذكر ثمود. قال السعدي رحمه الله:" فأكثروا فيها الفساد، هو العمل بالكفر وشُعَبه من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل، وصدّ الناس عن سبيل الله، فلما بلغوا من العتوّ ما هو موجب لهلاكهم؛ أرسل الله عليهم من عذابه ذَنوباً وسوط عذاب ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[الفجر:١٣،١٤].

ولا غرو في كون الكفر أعظم أسباب الفساد؛ فهو أعظم الذنوب على الإطلاق، بل هو محض الفساد،كما سبق تقريره.(١)

ذلك أن الكافر قد انطمست بصيرته عن العبادة والهداية فصار في ذاته مظهراً من مظاهر الكفر.فهو فاسد ومفسد لغيره بأفعاله، وظهر هذا في نصوص كثيرة؛ كقوله تعالى﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾[سبأ:٣٣]. فالكفار الأصليون كانوا يزينون الكفر والضلال، في الليل والنهار، ويقولون على الحق إنه باطل، وما زالوا بضعفاء النفوس؛ حتى أوقعوهم ي الكفر.

و لم يقف فساد الكافرين على الضعفاء فقط، بل صرحوا بذلك للمؤمنين، كما قال تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾[العنكبوت:١٢].

وهذا غاية الضلال والفساد؛ أن يدعون المؤمنين إلى الكفر، ويرغبوهم فيه!

وهكذا لا يزال الكفر بصاحبه؛ يزين له سوء عمله، ويزيده ضلالاً، كما قال تعالى﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [التوبة:٣٧]

قال الطبري:"النسيء: مصدر من قول القائل: نسأت في أيامك، ونسأ الله في أجلك، أي: زاد الله في أيام عمرك ومدة حياتك، حتى تبقى فيها حيًّا...والمعنى: إنما التأخير الذي يؤخِّره

(١) انظر: ص٣٠ وما بعدها.

أهل الشرك بالله من شهور الحرم الأربعة، وتصييرهم الحرام منهنّ حلالاً، والحلال منهن حراماً، زيادة في كفرهم وجحودهم أحكامَ الله وآياته"[١].

وقد تقرّر – في وصف المفسدين– كيف أفضى الكفر بكثير منهم؛ للوقوع في صور من الفساد.

أما الذنوب، فقد جعلها الله تعالى سبباً للفساد في برِّ الأرض وبحرها، كما قال تعالى﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:٤١]، قال الحسن: أفسدهم الله بذنوبهم في بحر الأرض وبرِّها، بأعمالهم الخبيثة.[٢]

واختلف العلماء، في معنى ظهور الفساد[٣]:

- فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو نقصان البركة بأعمال العباد، وظهور الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم.
- وقيل: الفساد هو المعاصي وقطع السبيل، أي صار هذا العمل، مانعاً من الزرع والعمارات والتجارات، والمعنى كله متقارب.
- وقيل: هو القحط وعدم النبات، ونقصان الرزق، وكثرة الخوف.
- وقال مجاهد: فساد البَرّ: قتل ابن آدم أخاه؛ يعني قتل قابيل لهابيل، وفساد البحر: الملك الذي يأخذ كل سفينة غصباً[٤].

وتعقّب الإمام الشوكاني هذا القول وغيرُه؛ بأنه تخصيص لا دليل عليه، فقال: "والظاهر من الآية، ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه سواء، كان راجعاً إلى أفعال بني آدم من معاصيهم، واقترافهم السيئات، وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم، أو راجعاً إلى ما هو من جهة الله – سبحانه – بسبب ذنوبهم،كالقحط وكثرة الخوف إلخ..[٥]

ويؤيد هذا ابن القيم رحمه الله، حيث أورد كلام ابن زيد الذي يقول فيه:" ظهر الفساد في

---

(١) جامع البيان ٣٤٣/١٤

(٢) المصدر السابق ١٠٨/٢٠

(٣) انظر: زاد المسير ٣٠٥/٦

(٤) جامع البيان ٥٠/٢١

(٥) انظر: فتح القدير ٤/ ٣٢٤

البر والبحر يعني الذنوب"(١). ثم تتبع هذا الرأي قائلاً: أراد، أن الذنب سبب الفساد الذي ظهر، والمراد بالفساد؛ هو النقص والشر والآلام التي يُحدثها الله تعالى في الأرض بمعاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنباً؛ أحدث الله لهم عقوبة، كما قال بعض السلف(٢):"كلما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة"(٣).

ولقد كانت الدنيا تنعم بالخير، وتسعد بالرخاء، ويعمها الأمن والسعة، لقلة الطمع في الدنيا، وعدم التكالب عليها، وظلَّ الإنسان في عيش هنيئ، حتى ظهرت الذنوب، واستشرى الفساد، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين؛ ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه، فوقع الصراع بين الحق والباطل.

ومن خطورة الذنب؛ أنه سبب لذنب آخر، فتتسع بذلك رقعة الفساد، لذا جاء التحذير من ذلك، كما في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[الحُجُرات:١٢]، فانظر لهذا الترتيب: بدأت المعصية بسوء الظن، الذي يحمل صاحبه على التجسس، ثم الغيبة، فالمعاصي تتوالد، كالعمل الصالح، لكن البَون شاسع والفارق كبير، فتأمل كيف قرن الله بين أكل الطيبات، وعمل الصالحات، في قوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[المؤمنون:٥١].

فأكل الحلال الطيب مما يعين العبد على فعل الصالحات، كما أن أكل الحرام، أو الوقوع في المشتبهات، مما يثقل العبد عن فعل الصالحات.

ومَن حُبِس عن طاعة؛ فإن الخذلان يكون حليفه، فليكن المرء على وجل؛ من أن يكون ممن خذلهم الله وثبطهم عن الطاعة، كما ثبّط المنافقين، فقال تعالى﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾[التوبة:٤٦].

ومن خطر الذنب؛ نسيان العلم وتبديله، كما أخبر - سبحانه - عن بني إسرائيل في قوله جلّ وعلا ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:١٣].

(١) جامع البيان ٤٩/٢١

(٢) عزاه السيوطي لأبي الشيخ عن مالك بن دينار. انظر: الدر المنثور ٦١٨/٤

(٣) انظر: الجواب الكافي. ص ٤٢

قال ابن كثير في قوله ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ "أي: فسدت فُهومهم، وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله، وحمّلوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، عياذًا بالله من ذلك، ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي: وتركوا العمل به؛ رغبة عنه"(١).

ونسيان العلم سبب لانتشار الجهل، واتخاذ الناس رؤوساً جهّالاً، يُسألون؛ فيفتون بغير علم، فينتشر الفساد في الأرض.

إن الذنوب لتسري في المجتمع، فتنتشر فيه انتشار النار في الهشيم، حتى إذا جثت عليه؛سلخته من القيم والأخلاق؛ فيصبح المنكر فيه مألوفاً، كما حكى الله - تعالى - عن بني إسرائيل ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٨،٧٩].

وقد سُئل حذيفة ﵁: «هل تركت بنو إسرائيل دينهم؟! أي: حتى عُذبوا بأنواع العذاب الأليم،كمسخهم قردة وخنازير وأمرهم بقتلِ أنفسهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أُمروا بشيء تركوه، وإذا نُهوا عن شيء ركِبوه، حتى انسلخوا من دينهم،كما ينسلخ الرجل من قميصه»(٢).

ولا يلزم أن يكون تخليهم عن الدين دفعةً واحدة، وإنما كان ذلك بسبب المعاصي والفجور حتى انسلوا من دينهم انسلالاً متتابعاً؛ كما يخلع الرجل ثوبه شيئاً فشيئاً.

إن كل صاحب ذنب، أُشرب قلبه حبّ الذنب؛ فإنه لن يرعوي في ارتكاب أي محظور؛ حتى يصل إلى الذنب الذي يريده.

وهكذا، يتبين أن الذنوب والمعاصي، لها ارتباط وثيق بالفساد العقدي، والأخلاقي، والاجتماعي، بل ربما كانت سبباً في التخلي عن الدين بكليّة.

لذا ذَكرت الكفر والذنوب أول أسباب الفساد، وهذا أشبه بالعام الذي يعقبه الخاص، فإن المباحث الآتية، وإن كانت لا تخرج عن إطار الذنوب؛ إلا أن المتأمل في آي الكتاب العزيز؛ يجدها ظاهرة جليَّة؛ في دلالتها على السببية في الفساد.

---

(١) تفسير القرآن العظيم٢/٣٤

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.فصل في الطبع على القلب أو الرين.ح(٦٩٣٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء. ح(٩٧٠)

المبحث الثاني

تَزْيِينُ الشَّيطَانِ

تزيين الشيطان للمعاصي ميدان واسع، وهو من أعظم أسباب الفساد، فإن الشيطان حين طُرد من الجنة؛ أخذ على عاتقه مهمّة تزيين الباطل وتحسينه، وخداع الناس به، فقال كما حكى القرآن﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[الحِجر: ٣٩، ٤٠]، أي: لأحسننّ لهم المعاصي، ولأحببنّها إليهم، ولأضلنّهم عن سبيل الرشاد.

فحدَّد عِدته في أنها تزيين القبيح وتجميله، والإغراء به، وهكذا لا يقترف الإنسان شراً؛ إلا وعليه من الشيطان مسحة تزينه وتجمِّله، وتظهره في غير حقيقته ورِدائه، فليفطن المرء إلى عِدة الشيطان؛ وليحذر كلّما وجد في أمرٍ تزييناً، وكلّما وجد من نفسه اشتهاء إليه.

"فالشيطان هو الذي سحر العقول، حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة، والآراء المتشعبة، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك، وزيّن لهم عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام، ووأد البنات، ونكاح الأمهات، ووعدهم بالفوز بالجنات، مع الكفر والفسوق والعصيان، وأبرز لهم الشرك في صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب تعالى، وعلّوه وتكلّمه بكتبه؛ في قالب التتريه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ في قالب التودد إلى الناس، وحُسْن الخلق معهم، والعمل بقوله (عليكم أنفسكم)".(١)

وما دام تزيين الشيطان يَرِد بهذه الصورة، فلا غرابة أن نجده يركِّز على خداع النفوس، فيسوِّل لها الاستزادة من المعاصي، وإظهارها بمظهر الشيء الجميل المحبب إلى النفس، ومَركَبه في ذلك هوى النفس.

ومن نظر في تاريخ البشرية وأدّكر، وتأمل واعتبر، أدرك أن تزيين الشيطان بلغ مبلغه في الغواية والضلال، فما الذي أخرج الأبوين من الجنة ؟ إلا تزيين الشيطان ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[الأعراف: ٢٠، ٢١].

وهكذا تراه زيّن لآدم وزوجه، ما نهاهما الله عنه، ويقسِم لهما أنه من جملة الناصحين، فلما

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ١٣٠.

اغترا بكلامه، وغلبت الشهوة على العقل، نزّلهما عن رتبتهما العالية، وهي البعد عن الذنوب والمعاصي؛ إلى التلوث بأوضارها[١] ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١].

ولا غرو؛ فهو "صاحب قابيل حين قتل أخاه، وصاحب قوم نوح حين أُغرقوا، وصاحب قوم صالح حين أهلكوا بالصيحة، وصاحب الأُمة اللوطية، حين خسف بهم وأتبعوا بالرجم بالحجارة، وصاحب فرعون وقومه، حين أخذوا الأخذة الرابية، وصاحب عبّاد العجل حين جرى عليهم ما جرى."[٢]

وما الذي أوقع كثير من الأمم في الشرك بالله تعالى؛ إلا تزيين الشيطان ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:٦٣]

وقال سبحانه ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٨].

قال الرازي في قوله ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني عبادتهم لغير الله ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ يعني عبادة الله ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ بواسطة الرسل[٣].

حتى أن منهم من عبَد الشمس والقمر، كبلقيس ملكة سبأ وقومها، كما أخبر هدهد سليمان عليه السلام فقال ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤].

يعني صدهم الشيطان بسبب ذلك التزيين، عن الطريق الواضح وهو الإيمان بالله وتوحيده[٤].

وترى الشيطان قد بالغ في أمره للمشركين، حتى أغراهم بالدفاع عن الباطل، والصد عن الحق، ولو كان ذلك على حساب أرواحهم، قال سبحانه ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ﴾ [الأنفال:٤٨].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٢٨٥.

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ١٣١

(٣) التفسير الكبير ٢٥/ ٥٨

(٤) فتح القدير ٤/١٦١

كما زيّن لمشركي مكة؛ خروجهم لقتال المسلمين يوم بدر، وحسّن لهم ذلك، وحرضهم على المؤمنين، وقال لا غالب لكم اليوم من بني آدم، وطمأنهم وبشّرهم بأنه سيعيذهم ويمنعهم، فلما تزاحفت جنود الله من المؤمنين، وجنود إبليس من المشركين، ونظر بعضهم إلى بعض، رجع القهقرى، لأنه رأى الملائكة الذين بعثهم الله مدداً للمؤمنين، ففرَّ هارباً قائلاً ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[الأنفال:٤٨].

وبلغ تزيينه للقبيح ببعضهم، أن جعل الباطل في صورة الحق؛ فالتبس عليهم، حتى حملهم على قتل أبنائهم، كما حكى القرآن عن المشركين ذلك، فقال﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾[الأنعام :١٣٧].

وكل هذا من خدع الشياطين، الذين يريدون أن يُرْدُوهم بالهلاك، ويلبسوا عليهم دينهم، فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح، ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة(١)، فحسّنوا لهم وأد البنات، ليهلكوهم، وليخلطوا عليهم دينهم فيلتبس، فيضلوا ويهلكوا؛ بفعلهم ما حرّم الله عليهم، ولو شاء الله أن لا يفعلوا ما كانوا يفعلون من قتلهم؛ لم يفعلوه، ولكن الله خذلهم عن الرشاد فقتلوا أولادهم، وأطاعوا الشياطين التي أغوتهم.(٢)

إن تزيين الشيطان قد يبلغ منتهاه، حتى إن الزواجر والنُذُر لا تفعل شيئاً في قلوب المعرضين، قال تعالى ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[الأنعام:٤٢،٤٣].

وما زال كيد الشيطان متوالياً في تزيين المعاصي والموبقات، حتى يكون العبد إلى الكفر أقرب، إذ المعاصي بريد الكفر، وهذا واضح كل الوضوح؛ في تزيينه لعابد بني إسرائيل، قال تعالى﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الحشر :١٦].

قال البيضاوي:"أغراه على الكفر؛ إغراء الآمِر بالمأمور، فلما كَفر تبرأ منه؛ مخافة أن يشاركه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٧٥

(٢) انظر: جامع البيان ٣٥٢/٥

في العذاب، و لم ينفعه ذلك كما قال".[١]

و لم يصل الشيطان بالعبد إلى الكفر جملة واحدة، وإنما بالتدرّج، لذا حذر الله تعالى من استدراج الشيطان، فقال تعالى﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾[البقرة/١٦٨].

فتسمية استدراج الشيطان "خطوات" فيه إشارتان:

الأولى: أن الخطوة مسافة يسيرة، وهكذا الشيطان؛ يبدأ بالشيء اليسير من البدعة أو المعصية، حتى تألفها النفس.

الثانية: أن قوله"خطوات": دليل على أن الشيطان لن يقف عند أول خطوة في المعصية.

وإذا لم يظفر الشيطان في تزيين الكفر، سعى إلى إغراق الناس في الشهوات والشبهات، فيأخذهم في طريق الفساد.

ولشدة خطر الشيطان وعداوته للإنسان، أمر- تبارك وتعالى - بالاستعاذة منه، فقال سبحانه ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[فُصِّلت:٣٦].

وإن المسلم ليدرك خطره، حين يتأمل سورتي المعوذتين، فيجد في سورة الفلق؛ تعوذ بصفة واحدة، من أربعة أشياء عظيمة، بينما في سورة الناس؛ تعوذ بثلاث صفات من شيء واحد؛ ليعلم المرء حينئذ؛ أي عدو يلازمه؟

وقد يكون هذا التزيين إيعازاً من الشيطان لأوليائه، مما يدل على أنه لا يلزم أن يباشر التزيين بنفسه، وهذا أبلغ ما يكون في الغواية وتزيين الفساد، ولذا تأكد تحذير العبد بالاستعاذة من الشيطان، فقال﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[الناس:٦].

قال قتادة: إن من الناس شياطين، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن[٢].

وخلاصة الأمر؛ أن طاعة الشيطان؛ فساد للقلوب والأعمال، وإذا تتبعنا كل فساد، نجد إن من أسبابه تزيين الشيطان لصاحبه.

---

(١) تفسير البيضاوي ٣٢٢/٥

(٢) تفسير الصنعاني ٤١٠/٣

المبحث الثالث

التَّقليدُ المَذمُوم

إن الله تعالى خلق في بني آدم التأسي، فالطفل منذ أن يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، ثم ينمو عِلمه، وتتسع مداركه؛ بالتقليد، فإن كان المقلَّد صالحاً؛ كانت الأعمال من جنس صاحبها، ولذلك جعل الله تعالى نبيه ﷺ أسوة للمسلمين، فقال سبحانه﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب:٢١].

وأما إن كانت القدوة غير صالحة؛ جرت على المقلدين ويلات وبلايا، فالتقليد إما أن يكون ممدوحاً؛ كمن يقلّد في الخير، وإما أن يكون مذموماً؛ كمن يقلّد في الشر، والممنوع شرعاً.

وعلينا ابتداءًا، تحديد مفهوم التقليد، فهو لغةً يدور حول:

- جمع الشيء، كجمع الماء في الحوض، واللبن في السقاء.(١)

- الاتباع، يقال: قلّد فلاناً؛ اتبعه فيما يقول أو يفعل، من غير حجة ولا دليل.(٢)

أما المفهوم الاصطلاحي، فكما قال الجرجاني:"التقليد عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل، معتقداً للحقيقة فيه، من غير نظر وتأمل في الدليل، وكأن هذا المتبِع جعل قول الغير، أو فعله قِلادةً في عنقه".(٣)

وهذا التعريف يشمل التقليد الممدوح والمذموم، لكن الفساد ناتج عن التقليد المذموم.

ولقد ذمّ الله تعالى المشركين الذين شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله، وحرّموا ما أحله الله، وعاب الله على مقلديهم الذين اكتفوا بما عليه آبائهم وأجدادهم من المسالك، فقال﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[المائدة:١٠٤].

قال البغوي في قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾"في تحليل الحرث والأنعام وبيان الشرائع والأحكام،﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ من الدين، ولو كان في آبائهم كفاية ومعرفة؛ لهان الأمر، ولكن آبائهم ليس عندهم من المعقول شيء، ولا من العلم والهدى شيء﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾"(٤).

---

(١) انظر: لسان العرب ٣٦٥/٣ مادة (قلد).

(٢) انظر: المعجم الوسيط ٧٥٤/٢ : مادة (قلده).

(٣) التعريفات ص ٦٤ .

(٤) معالم التتريل ١٠٩/٣

فتباً لمن قلّد من لا علم عنده صحيح، ولا عقل رجيح، وترك اتباع ما أنزل الله واتباع رسله الذي يملأ القلوب علماً وإيماناً، وهدىً وإيقاناً.(١)

فهؤلاء المكذبين؛ ليس لهم مستند، ولا حجة عقلية، تبرر ما هم فيه من الشرك؛ سوى تقليد الآباء والأجداد؛ بأنهم كانوا على أمّة﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[الزُّخرُف:٢٢].

وقد ذهب بعض أهل العلم، إلى القول بالإجماع في حظر التقليد ومنعه، ومن ذلك ما قاله الثعالبي -رحمه الله - في تفسيره لقوله تعالى ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[المائدة:١٠٤]،"والألف في قوله سبحانه﴿أَوَلَوْ كَانَ﴾ للاستفهام؛ لأن غاية الفساد في الالتزام؛ أن يقولوا: نتبع آباءنا، ولو كانوا لا يعقلون، فأقروا على التزامهم هذا، إذ هذه حال آبائهم، وقوة ألفاظ هذه الآية؛ تعطى إبطال التقليد،وأجمعت الأمّة على إبطاله في العقائد"(٢)وأسوأ أنواع التقليد عند المشركين؛ أنهم لا يرون أن مخالفة آبائهم ضلال، وأن تقليدهم هو الهدى الذي لا ينبغي العدول عنه بحال من الأحوال، لذا قال تعالى﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[الزُّخرُف:٢٤]

ثم حكى القرآن الكريم، أنهم ليسوا بِدعاً ممن سبقهم، فنظرائهم في تكذيبهم للرسل من الأمم السابقة، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل قولهم﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[الزُّخرُف:٢٣]، فإنّ من أعظم البلايا التي يواجهها المجتمع، تقليد الضُلاّل لأسلافهم في الكفر.

وهذا ما جعل الزمخشري يقول: فما أقبح التقليد، والقول المتقبل بغير برهان، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين، حيث استدرجهم إلى أن قلدوا آبائهم في عبادة التماثيل، وعفّروا لها جباههم، وهم معتقدون أنهم على شيء، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم(٣).

ومن ذلك ما حكاه الله تعالى من احتجاج الكفار بتقليدهم لآبائهم؛ منذ أن أرسل إليهم الرسل، فقال حكاية عن قوم نوح عليه السلام حين ردوا دعوته﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٢٤٦

(٢) انظر: تفسير الثعالبي ١٢٨/١.

(٣) انظر: تفسير الكشاف ١٢٢/٣

[المؤمنون:٢٤]، وتشابهت حجتهم الواهية؛ مع حجة قوم إبراهيم الَّلِيِّلاٌ حين سألهم عما يعبدون ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧١ : ٧٤].

فأنكر إبراهيم الَّلِيِّلاٌ على قومه عبادة الأصنام، فقال لأبيه وقومه: ماذا تعبدون؟ قالوا: أصناماً نعبدها، ونقيم على دعائها، وتحوّل السؤال إلى خطاب عقلي، يمسّ شغاف القلوب، ويشكك العقل فيما يعتقد، فقال﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ فأجابوا: بأهم مقلدون، فإجابتهم تحمِل فحوى الإقرار؛ بأن الأصنام المعبودة؛ لا تسمع الدعاء، ولا تنفع ولا تضر، لكنهم رأوا الآباء يفعلون هذا؛ فهم على آثارهم يهرعون.

فما منعهم من قبول دعوته؛ إلا التقليد الأعمى للآباء، وهذا التقليد من أعظم أسباب الفساد في الكون، إذ ليس بعد الكفر ذنب، وليس بعد الكفر فساد.

وهذا ديدن ثابت، وأسلوب واضح، في ردّ دعوة الأنبياء، وكأنها كلمة يرددها الكفار في كل زمان،﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القصص:٣٦].

قال ابن عاشور:"وقد جعلوا انتفاء بلوغ مثل هذه الدعوة إلى آبائهم، حتى تصل إليهم بواسطة آبائهم الأولين؛ دليلاً على بطلانها، وذلك آخر ملجأ يلجأ إليه المحجوج المغلوب، حين لا يجد ما يدفع به الحق بدليل مقبول، فيفزع إلى مثل هذه التلفيقات والمباهتات".(١)

ومِن ثمّ كانوا يستخدمون إلهاب مشاعر ضعفاء العقول،بقولهم (آبائنا)، لما يعلمون أن المرء بطبيعته يميل إلى تقليد أبيه وجده، فكأنهم ينقلونهم من الصراع بين الحق والباطل إلى صراع العصبيات والقبليات.

وكما أنهم احتجوا في ردّ دعوة الأنبياء؛ بتقليدهم للآباء، احتجوا أيضاً على جزئيات الشرع؛ باتباعهم لدين آبائهم، كما في قوله تعالى﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٨]

قال البيضاوي: "وإذا فعلوا فِعلة متناهية في القُبح، احتجوا بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء على الله سبحانه وتعالى، فأعرض عن الأول؛ لظهور فساده، وردّ الثاني بقوله ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

(١) التحرير والتنوير ٢٠/ ٥٥

﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾؛ لأن عادته سبحانه وتعالى؛ جرت على الأمر بمحاسن الأفعال، والحث على مكارم الخصال[(١)]

وقلّدوهم كذلك في التحليل والتحريم، كما حكى الله عنهم حين قال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[البقرة:١٧٠]، فهذه الآية، جاءت في ختام مجموعة من الآيات، يقول الله فيها﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[البقرة:١٦٨]، فحين أمرهم الله تعالى بالأكل من الحلال وترك الحرام، والبعد عن اتباع خطوات الشيطان الذي يقود إلى الهلاك، كانت الحجة الواهية في فعل الحرام؛ هي اتباع ما وجدوا عليه آبائهم.

وهنا لطيفة حين يتدبر المرء هذه الآيات؛ نبّه عليها الرازي بقوله:"إنما ذكر تعالى هذه الآية عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان؛ تنبيهاً على أنه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان، وبين متابع التقليد، وفيه أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال، وترك التعويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل، أو على ما يقوله الغير من غير دليل".[(٢)]

و لم يتوقف التقليد المذموم في تقليد الكافرين بعضهم بعضاً، وإنما وقع التقليد المذموم من بعض المؤمنين، وما هذا إلا بسبب الجهل، وعدم تمكن الإيمان من القلوب.

جاء هذا المعنى عندما كتب الله النجاة لبني إسرائيل من عدوهم فرعون، حين نجّاهم الله وجاوز بهم البحر، فمرّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، وطلبوا من موسى عليه السلام طلباً في غاية الغرابة، بل وفي غاية الضلال، لقد نسوا نعمة الله عليهم فقالوا﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[الأعراف:١٣٨]، فكان الردّ البليغ من موسى عليه السلام﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[الأعراف: ١٣٨]، فأي جهل أعظم ممن جهل ربه وخالقه، وأراد أن يسوّي به غيره، ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياةً، ولا نشوراً.

ولقد تسرّب هذا التقليد إلى هذه الأمة، كما في قصة الشجرة في غزوة حنين، التي رواها أبو واقد الليثي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر، مرّ بشجرة للمشركين يقال لها (ذات أنواط) يعلّقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله، أجعل لنا ذات أنوط، كما لهم ذات

(١) انظر: تفسير البيضاوي ٣/ ١٥

(٢) التفسير الكبير ٥/ ٧

أنواط، فقال النبي ﷺ: "سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم"(١)

وهذا الداء العُضال تسرّب إلى كثير من أهل البدع؛ كالمتصوفة الذين كثُر فيهم الضلال، وما هذا التقليد الذي تلقوه في عبادهم لله – على حد زعمهم – بتقرّبهم إلى أصحاب القبور، حتى تمثلوا قول المشركين ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر:٣].

وهذا مصداق قول النبي ﷺ: "لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟(٢)

وظهر هذا جلياً؛ في اتباع بعض المسلمين لعادات اليهود والنصارى، وتقليدهم لهم في أعيادهم واحتفالاتهم، ويمضي بهم التقليد حتى يأخذهم شيئاً فشيئاً، بعيداً عن دين ربهم، وسنة نبيهم ﷺ.

وبلغ الحال بالمقلِّدة، أن آثروا اتباع كلام الرجال؛ على كلام النبي ﷺ، مع وضوح ما يؤخذ منه، فإذا قيل لأحدهم مثلاً: إن النبي ﷺ نهى عن كذا، لم يطع، وقال: فلان يجيز ذلك!

وإذا قيل له: إن نكاح التحليل باطل؛ لأن النبي ﷺ لعن فاعله، أجابك بقوله: لا، بل هو جائز في المذهب الفلاني!

وهكذا إلى مئات المسائل...ولهذا؛ ذهب كثير من المحققين- كالرازي في تعليقه الآنف الذكر- إلى أن أمثال هؤلاء المقلدين؛ ينطبق عليهم قول الله تعالى في أهل الكتاب ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١].

ومن خلال ما سبق ذِكره، نصل إلى نتائج ظاهرة، بيانها كالتالي:

أولاً: أن التقليد المذموم من موانع الهداية، فولعهم بالتقليد أوقعهم في خسارةٍ فادحة، كانت نتيجتها عدم هدايتهم، وتوفيقهم للإيمان؛فكثر الفساد بارتكاب الآثام والوقوع في الفواحش.

ثانياً: أن التقليد حملهم على أن ألغوا عقولهم، ففسدت قلوبهم.

---

(١) رواه الترمذي : كتاب الفتن.باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم.ح(٢١٨٠)،وأحمده/٢١٨ح(٢١٩٤٧)، وابن حبان١٥/٩٤ح(٦٧٠٢)، وابن أبي شيبة ٧/٤٧٩.ح(٢٠٧٦٣)، وصححه الألباني في المشكاة٣ /١٤٨٨.ح (٥٤٠٨) .

(٢) أخرجه البخاري.كتاب أحاديث الأنبياء. باب ماذكر عن بني إسرائيل ح(٣٤٥٦)، ومسلم.كتاب العلم. باب اتباع سنن اليهود والنصارى.ح(٢٦٦٩).

ثالثا: التقليد المذموم يسوق إلى الجدال، كما في قولـــه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[لقمان: ٢٠،٢١].

والحق أن الإصرار على التقليد لِما كان عليه الآباء والأسلاف، ليس الغرض منه اتباع سبيل الهـــداية، إنما هو التعصب الممقوت، الذي يراد به طمس هوية الحق، والانتصار لأهل الباطل في باطلهم، ومن هنا تتأكد علاقة التقليد الأعمى بالفساد، ولاسيما فساد المعتقد.

المبحث الرابع

مُوالاةُ المُفسِدينَ واتبَاعهم

لما كانت موالاة المفسدين واتباعهم سبب من أسباب توالد الفساد، نهى الله تعالى عنها المؤمنين في أكثر من موضع، فقال﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[آل عمران:٢٨].

قال ابن عباس رضي الله عنهما:"نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيتخذوهم أولياء"، لأنهم حينئذ لا يكونون من حزب الله ولا من أوليائه في شيء.(١)

فقوله﴿لَّا يَتَّخِذِ﴾ فيه النهي للمؤمنين عن موالاة الكفار لسبب من الأسباب، متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين، استقلالاً أو اشتراكاً، وفي هذه الآية تهديد شديد، وتخويف عظيم لعباده؛ أن يتعرضوا لعقابه بموالاة أعدائه".(٢)

وفي سبب نزولها أربعة أقوال(٣):

أحدها: أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه كان له حلفاء من اليهود، فقال يوم الأحزاب: يا رسول الله: إن معي خمسمائة من اليهود، وقد رأيت أن أستظهر بهم على العدو، فنزلت.

والثاني: أنها نزلت في عبد الله بن أُبيّ وأصحابه من المنافقين، كانوا يتولون اليهود ويأتونهم بالأخبار، يرجون لهم الظفر من النبي ﷺ، فنهى الله المؤمنين عن مثل فعلهم.

والثالث: أن قوماً من اليهود، كانوا يباطنون نفراً من الأنصار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فنهاهم قوم من المسلمين عن ذلك، وقالوا: اجتنبوا هؤلاء اليهود فأبوا؛ فنزلت.

والرابع: أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة(٤) رضي الله عنه وغيره، كانوا يظهرون المودة لكفار مكة، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك.

وفي الآية؛ أن الولاء والبراء، لا يكون إلا لله تعالى ورسوله ﷺ؛ لئلا يترتب على ذلك مفاسد، كما أن الآية ليست خاصة بسببها، فهي لجميع المؤمنين، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولأن الله تعالى يحذر المؤمنين في تذييل الآية من عقابه.

---

(١) جامع البيان ٣١٣/٦.

(٢) انظر: فتح القدير ٣٣١/١

(٣) زاد المسير ٣٧١/١

(٤) حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب بن سهل اللخمي حليف بني أسد بن عبد العزى يقال إنه حالف الزبير ، شهد بدرا . توفى : ٣٠هـ . انظر الاصابة ٥/٢

ثم بيّن – سبحانه وتعالى – أن علّة النهي عن موالاة المفسدين من الكافرين والمنافقين وغيرهم؛ ليست بالتعرض لعقابه فحسب، بل تتعلق بالضرر الواقع منهم على المؤمنين، كما في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[آل عمران:١١٨].

وعلّق ابن كثير على هذه الآية فقال:" يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي يطلعونهم على سرائرهم، وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم؛ لا يألون المؤمنين خبالاً، أي يسعون في مخالفتهم، وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المكر والخديعة؛ ويودون ما يعنت المؤمنين، ويحرجهم ويشق عليهم".(١)

وأضاف الشوكاني أن المراد بقوله ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾"يعني لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم، والخبال والخبل: الفساد في الأفعال والأبدان والعقول".(٢)

ومن ضمن ما ذكرته الآية﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ﴾ وهو ما بدا لهم منهم بألسنتهم، كإقامتهم على كفرهم، وعداوتهم من خالف ما هم عليه مقيمون من الضلالة، فذلك من أوكد الأسباب في معاداتهم أهل الإيمان، لأن ذلك عداوة على الدين، والعداوة على الدين؛ هي العداوة التي لا زوال لها؛ إلا بانتقال أحد المتعاديين إلى ملة الآخر منهما، وذلك انتقال من هدى إلى ضلالة، كانت عند المنتقل إليها ضلالة قبل ذلك.

فكان في إبدائهم ذلك للمؤمنين، ومقامهم عليه، أبين الدلالة لأهل الإيمان؛ على ما هم عليه لهم من البغضاء والعداوة.(٣)

ومِن ثَمَّ؛ يخطيء من ظنّ أن التودد لأعداء الله، والسعي في تقريبهم؛ سوف يجلب محبتهم، ويدفعهم إلى أن يبادلوه حباً بحب، فمن ينتظر منهم الرضى أو ينشده؛ كمن يؤمل من السراب الخادع ماءً، والثقة بودهم وهمٌ كبير، وغفلةٌ عن وقائع التأريخ المتكررة في كل زمان ومكان، ولذلك جاءت النصوص الكثيرة؛ تأمر بمقاطعتهم وعداوتهم؛ مهما تظاهروا بالمحبة الكاذبة، التي طالما اصطادوا الناس بشباكها.

ولذا خشِي الصحابة ﷺ من اتخاذ غير المسلمين أولياء.

---

(١) تفسير القرآن العظيم١/٤٨٨

(٢) فتح القدير ١/٣٧٦

(٣) جامع البيان ٧/٤٥

فقد أخرج ابن أبي حاتم: قيل لعمر بن الخطاب ﷺ: إن هاهنا غلاماً من أهل الحيرة، حافظاً كاتباً، فلو اتخذته كاتباً! فقال: قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين.(١)

وأكّد- تعالى- على هذا المعنى، فقال﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[الممتحنة:١].
وتأمل؛ كيف تحول خوف الصحابة إلى ردّ فعل قوي، لمجابهة موالاة المفسدين، حيث يقول القرطبي: "وروي أن أبا موسى الأشعري قدم على عمر ﷺ بحسَّاب، فرفعه إلى عمر فأعجبه، فقال لأبي موسى: أين كاتبك، يقرأ هذا الكتاب على الناس؟ فقال: إنه لا يدخل المسجد، فقال: لِم! أجنب هو؟ قال: إنه نصراني؛ فانتهره، وقال: لا تُدنِهم؛ وقد أقصاهم الله، ولا تكرمهم؛ وقد أهانهم الله، ولا تأمنهم؛ وقد خوَّنهم الله، ولهذا قال عمر ﷺ: لا تستعملوا أهل الكتاب؛ فإنهم يستحلون الرِّشا، واستعينوا على أموركم، وعلى رعيتكم، بالذين يخشون الله تعالى.
يقول القرطبي معقباً على أثر عمر ﷺ:"وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان؛ باتخاذ أهل الكتاب؛ كتبة وأمناء، وتسوَّدوا بذلك عند الجهلة الأغبياء".(٢)
وقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال:"ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان؛ بطانة تأمره بالمعروف، وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر، وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى".(٣)
ومما أوقع أهل الكتاب في الفساد؛ أنهم سلكلوا سبيل المفسدين من علمائهم وعبّادهم، وجعلوهم أرباباً لهم، يحلّون ويحرِّمون ويشرعون ما ينافي ما جاءت به رسلهم، كما قال تعالى﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[التوبة:٣١].
قال حذيفة وابن عباس ﷺ في تفسير هذه الآية، أنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.(٤)

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧٤٣/٣

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧٨/٦

(٣) أخرجه البخاري.كتاب الأحكام.باب بطانة الإمام وأهل مشورته.ح(٦٧٧٣).

(٤) انظر: جامع البيان ٢١٢/١٤

لهذا كان تحذير موسى عليه السلام لأخيه هارون، كما قال تعالى ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢].

قال ابن كثير: "استخلف موسى عليه السلام على بني إسرائيل أخاه هارون عليه السلام، ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير؛ وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على اللّه، له وجاهة وجلالة صلوات اللّه وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء".(١)

وقال ابن جرير في الآية: "أي لا تسلك طريق الذين يفسدون في الأرض، بمعصيتهم ربهم، ومعونتهم أهل المعاصي على عصيانهم ربهم، ولكن اسلك سبيل المطيعين ربهم"(٢).

ومن الإصلاح – كما قال ابن جريج – أن يَزجر السامريّ، فقوله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تسلك سبيل العاصين، ولا تكن عوناً للظالمين.(٣)

قال ابن عاشور: "فيه تحذير من الفساد بأبلغ صيغة، لأنها جامعة بين نهي ــ والنهي عن فعلٍ تنصرف صيغته أول وهلة إلى فساد المنهي عنه ــ وبينَ تعليق النهي باتباع سبيل المفسدين.

والمفسد من كان الفساد صفته، فلما تعلّق النهي بسلوك طريق المفسدين؛ كان تحذيراً من كل ما يستروح منه مآل إلى فساد، لأن المفسدين قد يعملون عملاً لا فساد فيه، فنُهي عن المشاركة في عمل من عُرف بالفساد، لأن صدوره عن المعروف بالفساد؛ كافٍ في توقع إفضائه إلى فساد، ففي هذا النهي سدّ ذريعة الفساد، وسَد ذرائع الفساد من أصول الإسلام".(٤)

ومن مفاسد اتباع المفسدين؛ الهلاك والخراب، لهذا تحركت عاطفة الأبوة في قلب نوح عليه السلام، لإنقاذ ابنه من غرق محقق، عند تلاطم الأمواج واندفاعها لتغرق أهل الفساد ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود:٤٢].

قال البيضاوي: "﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في الدين والانعزال"(٥)، فإن سلوك طريق المؤمنين ومجالستهم، والانحياز إليهم؛ هو سبيل النجاة الحقة؛ لأنهم في كنف الله وعنايته، حتى وإن

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٦٨/٣

(٢) جامع البيان ٨٨/١٣

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧٩/٤

(٤) التحرير والتنوير ٢٧٢/٨

(٥) تفسير البيضاوي ٢٣٦/٣ .

تقاذفتهم الفتن، وكانت أسبابهم يسيرة، كسفينة من خشب في أمواج كالجبال، كما أن سلوك طريق الكافرين والمنافقين، والانحياز إليهم؛ هو سبيل الهلاك، حتى وإن توفرت لهم الأسباب المادية المنيعة، كالجبال في علوها وصلابتها.

وقد حذّر سبحانه نبيه محمداً ﷺ من موالاة المفسدين، فقال﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[الجاثية: ١٨،١٩]

فأمره بالمداومة على اتباع شريعته، فالأمر لطلب الدوام مثل قوله﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[النساء:١٣٦].

وبيْن قولِه﴿ فَٱتَّبِعْهَا ﴾وقولِه ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ محسِّن المطابقة بين الأمر بالاتباع، والنهي عن اتباع آخر، و﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ هم المشركون، وأهواؤهم: دين الشرك، والمعنى: أن دينهم أعمال أحبوها لم يأمر الله بها، ولا اقتضتها البراهين.

والمقصود من هذا الخطاب؛ إسماع المشركين، لئلا يطمعوا بمصانعة الرسول ﷺ إيَّاهم، حين يرون منه الإغضاء عن هفواتهم وأذاهم، وحِينَ يسمعون في القرآن بالصفح عنهم.

وفيه أيضاً تعريضٌ للمسلمين؛ بأن يحذروا من أهواء الذين لا يعلمون.

قال البغوي:"كانوا يقولون له: ارجع إلى دين آبائك فإنهم أفضل منك، فقال تعالى﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ ﴾".[(١)]

فهذه الجملة؛ تعليل للنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، ويتضمن تعليلَ الأمر باتباع شريعة الله، فإن كونهم لا يغنون عنه من الله شيئاً؛ يستلزم أن في مخالفة ما أمر الله – من اتباع شريعته – ما يوقع في غضب الله وعقابه، فلا يغني عنه اتباع أهوائهم من عقابه[(٢)].

كما بيّن سبحانه وتعالى – في موضع آخر– ثمرة موالاة المفسدين، مقارنة بولايته لأوليائه فقال﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة:٢٥٧]

---

(١) معالم التتريل٧/٢٤٤

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٥/٣٤٨

قال بعض العلماء: الطاغوت: الشيطان، ويدل لهـذا قولـه ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥]، والحق أنّ كل ما عُبد من دون الله فهو طاغوت، والحظ الأكبر للشيطان.(١)

وقال السعدي:"فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله ولياً، ووالوه وتركـوا ولايـة ربهم وسيدهم، فسلطهم عليهم؛ عقوبة لهم، فكانوا يؤزوهم إلى المعاصي أزاً، ويزعجوهم إلى الشر إزعاجاً، فيخرجوهم من نور الإيمان والعلم والطاعـة؛ إلى ظلمـة الكفـر والجهـل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمـسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأولياءه في دار الحسرة، فلهذا قال تعالى﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾".(٢)

لهذا كان التحذير والوعيد؛ من هذا الاتباع المشين لأهل الفساد، قال سـبحانه﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥] فمن والاهم واتبعهم فإنّ مصيره في الدنيا الخذلان، وفي الآخرة جهنم وبـئس المصير.

---

(١) أنظر: أضواء البيان : ٧٣ ، ٧٤

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ١١١.

المبحث الخامس

اِتبَاع الهَوى

من أسباب الفساد اتباع الهوى، إذ هو الدافع القوي لكل طغيان، وكل تجاوز وعصيان، فهو أساس البلوى، وينبوع الشر، وقلَّ أن يؤتى الإنسان؛ إلا من قِبل هواه، فإن داء الجهل؛ يُعالج بالعلم، أما الهوى؛ فهو آفة النفس التي يعزّ جهادها.

وأصل الهوى؛ الميل إلى الشيء، ثم إن اتباع الهوى: ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات، من غير داعية الشرع(١)، فلا تحكيم لعقل ولا لشرع، ومن ثمّ يأتي الفساد.

وسبب تسميته بالهوى؛ فكما قيل: إنما سمي الهوى هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه في النار(٢).

ولذلك ورد ذمّ الهوى في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ذكر الله هوىً في القرآن؛ إلا ذمّه، قال الله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ﴾(٣) [الأعراف:١٧٦].

قال تعالى محذّراً من مغبّة اتباع الهوى ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [ص:٢٦].

فنهى الله تعالى داوود عليه السلام عن اتباع الهوى، وهو نبي معصوم، فكيف بمن لا عصمة له، فاتباع الهوى سبيل إلى الضلال، لا سيما في مجال الأحكام.

وخاطب الله تعالى نبيه محمداً ﷺ؛ مبيناً خطر أهل الكتاب، ناهياً إياه عن اتباع أهواءهم ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٩]

وفي خطابه سبحانه لنبيه موسى عليه السلام قال ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه:١٦].

"فزيادة ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ – في الآية – للإيماء بالصلة إلى تعليل الصدّ، أي: لا داعي لهم للصدّ عن الإيمان بالساعة؛ إلا اتّباع الهوى، دون دليل ولا شُبهة، بل الدليل يقتضي الإيمان بالساعة، كما أشار إليه قوله ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾"(٤).

---

(١) التعريفات ٣٢٠/١

(٢) انظر: التفسير الكبير ٥٣/١٢

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٦٧/١٦

(٤) التحرير والتنوير ٢٠٣/١٦ .

وخشِي النبي ﷺ على أمته من الهوى فقال:" إن مما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى"(١).

وتخوّف من اتباع الهوى على هذه الأمة، العقلاء منها فقال عليّ بن أبي طالب ﷺ:" أخاف عليكم اثنين: اتباع الهوى وطول الأمل، فإن اتباع الهوى؛ يصدّ عن الحق، وطول الأمل؛ ينسي الآخرة.(٢)

وهذا التحذير من اتباع الهوى؛ لما يترتب عليه من فساد المرء، ومن ثمّ المجتمع، فالنفس إذا مالت للشهوات؛ فإنها تميل كذلك بالقلب، وفي هذا يقول ابن الجوزي رحمه الله:"رأيت مَيل النفس إلى الشهوات زائداً في المقدار، حتى إنها إذا مالت؛ مالت بالقلب والعقل والذهن، فلا يكاد المرء ينتفع بشيء من البدن"(٣).

فالهوى هو أول فتنة طرقت العالم، إذ باتباعه ضلّ إبليس، وبه ضلّ كثير من الأمم عن اتباع رسلهم وأنبيائهم، ولهذا حكم الله تعالى؛ أنه لا أحد أضلّ ممن اتبع هواه، فقال سبحانه عن أهل الكتاب ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[القصص:٥٠].

قال الطبري:"فإن لم يجبك هؤلاء القائلون للتوراة والإنجيل، فاعلم أنما يتبعون أهواءهم،وأن الذي ينطقون به، ويقولون في الكتابين، قول كذب وباطل، لا حقيقة له، ومن أضل عن طريق الرشاد، وسبيل السداد؛ ممن اتبع هوى نفسه، بغير بيان من عند الله، إن الله لا يوفق لإصابة الحق، وسبيل الرشد، القوم الذين خالفوا أمر الله وتركوا طاعته، وكذبوا رسوله، وبدلوا عهده، واتبعوا أهواء أنفسهم؛ إيثاراً منهم لطاعة الشيطان على طاعة ربهم".(٤)

ثم إن الهوى سبب في كثير من الأدواء القاتلة، التي أصابت البشرية على مرّ عصورها، وإن هذا الصنف من الناس؛ هم الذين يبتغون الفساد في الأرض، وما وقعت المصائب والمفاسد إلا باتباع الهوى، فما كُذبت الرسل، وما أُمر بالمنكر، ونُهي عن المعروف؛ إلا بسبب اتباع

---

(١) رواه أحمد من حديث أبي برزة الأسلمي٤/٤٢٠.ح (١٩٣٤٨)،وصححه الألباني في الترغيب والترهيب ١/١٢.ح(٥٢)

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف.كتاب الزهد.ح٣٣٨٢٧)،والبيهقي في شعب الإيمان .ح(١٠١٨٧)، وأبو نعيم في الحلية ١/٧٦.ح(٢٣١)

(٣) صيد الخاطر ص٥٤ .

(٤) انظر: جامع البيان ١٩/٥٩٢.

الهوى.

ومن المفاسد التي تولّدت عن اتباع الهوى؛ الاستكبار والتكذيب للرسل، وربما قتلهم، إذ لما قتلت بنو إسرائيل رُسلها؛ جاء نعتهم بالعتو والعناد، والمخالفة والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهوائهم، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوء المعاملة، ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون.

وما ذاك؛ إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبإلزامهم بأحكام التوراة، التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلهذا كان يشق ذلك عليهم، فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧].

فالهوى بطبيعة الحال من أشد وأخطر الأعداء على الإنسان، فهو يقود صاحبه إلى الغواية والضلال، ومن ثّم إلى الهلاك.

إن غواية الهوى بصاحبه تبعد به عن الحق، حتى يكون إلهه هواه، كما قال تعالى ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣،٤٤].

قال ابن كثير رحمه اللَّه في تفسير هذه الآية:" أي بما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه؛ كان دينه ومذهبه، كما قال ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:٨].

ولهذا قال هاهنا ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني، وترك الأول".[1]

واعلم أن الهوى إلهٌ يعبد من دون الله، لذا قال الشنقيطي – رحمه اللَّه – :"وإيضاح أقوال العلماء المذكورة في هذه الآية؛ أن الواجب الذي يلزم العمل به، هو أن يكون جميع أفعال المكلّف؛ مطابقة لما أمره به معبوده جلَّ وعلا، فإذا كانت جميع أفعاله تابعة لما يهواه، فقد صرف جميع ما يستحقه عليه خالقه من العبادة والطاعة إلى هواه، وإذن فكونه اتّخذ إلهه

(١) تفسير القرآن العظيم٣/٣٢١

هواه في غاية الوضوح، وإذا علمت هذا المعنى الذي دلّت عليه هذه الآية الكريمة، فاعلم: أن اللّه جلَّ وعلا بيّنه في غير هذا الموضع، في قولـه ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقوله ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر:٨].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ استفهام إنكار، فيه معنى النفي، والمعنى: أن من أضلّه اللّه فاتّخذ إلاهه هواه، لا تكون أنت عليه وكيلاً، أي: حفيظًا تهديه وتصرف عنه الضلال الذي قدّره اللّه عليه؛ لأن الهدى بيد اللّه وحده لا بيدك، والذي عليك إنما هو البلاغ، وقد بلّغت".(١)

فاتباع الهوى أمره خطير؛ إذ لا يستقيم معه الإنسان، ولا يجدي فيه الهدى، لأن المتبع هواه يعرف الحق، بيد إن الهوى الجامح قد سيطر عليه.

لهذا قال ابن عاشور:"والمعنى: أن حِجاجهم المسلمين مُركَّز على اتباع الهوى والمغالطة، فلا نهوض لحجتهم؛ لا في نفس الأمر، ولا فيما أرادوه، وأنهم لا يرجى لهم اهتداء لأن الله خلقهم غير قابلين للهدَى، فلا يستطيع غيره هداهم، وهذه الآية أصل في التحذير من أن يكون الهوى؛ الباعث للمؤمنين على أعمالهم، ويتركوا اتباع أدلة الحق.(٢)

ومما سبق يتبين أن الهوى؛ كان ولا يزال سبباً في الشرك والكفر، وقد تقرر أن هذا النوع من الفساد، هو أعظم الأنواع، وأشدها خطراً، وذلك لتعلقه بحق الله تعالى، وفي بيان علاقة الهوى بذلك، يقول تبارك وتعالى﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣].

والهوى يقود النفس إلى الشهوة، فإذا تمكنت من الإنسان، وانقاد لها؛ كان بالبهائم أشبه منه بالناس، لأن أغراضه ومطلوباته وهمته؛ تصير أبداً متجهة إلى الشهوات والملذات فحسب، وهذه هي عادة البهائم ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣،٤٤].

ومن يكون بهذه الصفة يَقلّ حياؤه، ويستحب الفواحش، ويُسرّ بمعاشرة السخفاء، ويغلب

(١) أضواء البيان ٦ /٣٣٠

(٢) التحرير والتنوير ٢٠/١٤١

عليه الهزل، وقد يصير من هذه الحال إلى الفجـور، وارتكـاب الفـواحش، والتعـرض للمحظورات، وربما دعته محبة اللذات؛ إلى اكتساب الأموال من أقبح وجوهها، وربما حملته على الغضب والخيانة، وأخذ ما ليس له بحق، فإن اللذات لا تتم إلا بالأموال والأعـراض، فمحب اللذة إذا تعذرت عليه الأموال من وجوهها؛ جسرته شهوته على اكتسابها من غـير وجوهها، ومن تنتهي به شهواته إلى هذا الحدّ؛ فهو أسوأ الناس حالاً، ويصبح من الأشـرار الذين يخاف خبثهم.(١)

فلابد من مخالفة الهوى، وقد قيل:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى ... إلى كل ما فيه عليك مقال(٢)

---

(١) انظر: تهذيب الأخلاق للجاحظ ص ١٦،١٥

(٢) "هذا البيت قاله هشام بن عبد الملك، ولم يقل شعرا غيره" انظر: الكامل للمبرد ٦/٢، أدب الدنيا والدين ص ٣٩

المبحث السادس

الكِبْر

من المفاسد التي تضر بالقلب؛ الكِبْر، والكِبر بالكسر: الكبرياء، والكبر: العظمة والتجبّر، وقيل: الرفعة في الشرف[١]، وهذه المعاني تعطي إشارة إلى ارتباطه بردّ الحق، وظلم الخلق برؤية النفس، لهذا قال الإمام الغزالي: الكبر: هو استعظام النفس، ورؤية قدرها فوق قدر الغير[٢]، وقد بيّن النبي ﷺ معنى الكبر فقال:"الكبر بطر الحق، وغمط الناس"[٣].

قال النووي:"بطر الحق؛ هو دفعه وإنكاره؛ ترفعاً وتجبراً، وغمط الناس؛ معناه احتقارهم".[٤]

ولقد ذكر ابن قدامة؛ أن للكبر درجات فقال:" واعلم أن العلماء والعبّاد في آفة الكبر على ثلاثة درجات: الأولى: أن يكون الكبر مستقراً في قلب الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة، وقد قطع أغصانها.

الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر في حقه، فترى العالم يصعّر خده للناس؛ كأنه معرض عنهم، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم، وهذان قد جهِلا ما أدب الله به نبيه ﷺ، حين قال ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الشعراء:٢١٥].

الدرجة الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه، كالدعاوى والمفاخر، وتزكية النفس، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنَّسب، فالذي له نسب شريف؛ يستحقر من ليس له ذلك النسب، وإن كان أرفع منه عملاً.

قال ابن عباس ﷺ: يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد؛ إلا بالتقوى، قال تعالى﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[الحجرات:١٣].

وكذلك التكبر بالمال، مما يجرى بين الملوك والتجار ونحوهم، والتكبر بالجمال أكثر، كما يجرى بين النساء، ويدعوهن إلى التنقص والغيبة وذكر العيوب..[٥] إلى غير ذلك من المفاسد التي يتسبب فيها الكبر. والكبر سبب من أسباب الإعراض عن الحق، كما حدث مع إبليس، حين أُمر بالسجود لآدم ؊ تعظيماً لقدره، وليس عبادة له، فأعرض عن السجود

---

(١) انظر: لسان العرب ٥ /١٢٥، مادة (كبر)

(٢) احياء علوم الدين ٣/٣٥٣

(٣) أخرجه مسلم.كتاب الإيمان.باب تحريم الكبر وبيانه.ح(١٤٧).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/٩٠.

(٥) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٣٣

اســـتكباراً،قال تعـــالى﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة:٣٤]

قال ابن كثير:"لما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم، دخل إبليس في خطابهم، لأنه وإن لم يكن من عنصرهم؛ إلا أنه كان قد تشبه بهم، وتوسم بأفعالهم، لهذا دخل في الخطاب لهـم، وذُم في مخالفة الأمر".(١)

ثم وجّه الله تعالى سؤالاً لإبليس؛ لِذكر علة امتناعه عن السجود؛ إثر الأمـر بـه، فقـال تعالى﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾[ص:٧٥]، وكانت الإجابة أن قال ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[ص:٧٦].

والمعنى – على مراد إبليس – لو كنت مساوياً لآدم في الشرف؛ لكان يقبح أمري بسجودي له؛ فكيف وأنا خير منه؟ ثم بيّن خيرته بأن أصله من النار، وهي أشرف من الطين، لذا فهو خير من آدم بزعمه.(٢)

وعلّق الشنقيطي على ذلك، فقال:"بل الطين خيرٌ من النار؛ لأن طبيعة النار الخِفَّة والطـيش والإفساد والتفريق، وطبيعة الطين الرزانة والإصلاح، تودعه الحبة فيعطيكها سنبلة، والنـواة فيعطيكها نخلة، فانظر إلى الرياض الناضرة، وما فيها من الثمار اللذيذة، والأزهار الجميلـة، والروائح الطيبة؛ تعلم أن الطين خير من النار"(٣).

فتأمل أثر الكِبر؛ الذي نقل إبليس من رحاب العبودية، إلى مستنقع الفساد والكفر.

وورَّث إبليس الكبرَ لأعوانه، كما هو حال قوم نوح،حيث قـال في وصـفهم﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾[نوح:٧].

وكذا ثمود، الذين حملهم الكبر؛ أن لا ينقادوا للحق الذي اتبعه الضعفاء، فأصـروا علـى كفرهم، قال تعالى﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[الأعراف:٧٥،٧٦].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم١/ ٧٧

(٢) انظر: التفسير الكبير ٢١٢/٢٦

(٣) أضواء البيان ٣٤/١

وأخبر – سبحانه – عن استكبار قوم عاد ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥].

وحكى القرآن ذلك – أيضاً– عن صناديد الكبر والكفر، لما جاءهم موسى بالبينات، فقال تعالى ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت:٣٩]. وقال ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ :٤٧].

وقال ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٣٩].

ولما ذكر الله تعالى فساد عقيدة النصارى، وغلوهم في عيسى عليه السلام، وبيّن أنه عبده ورسوله، ذكر أنه لا يستنكف عن عبادة ربه، قال تعالى ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٧٢].

أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها، لا هو ولا الملائكة المقربون، فنزّههم عن الاستنكاف، ونفيُ الشيء؛ فيه إثبات ضده، فعيسى عليه السلام والملائكة المقربون؛ قد رغبوا في عبادة ربهم، وأحبوها وسعوا فيها، بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف والفوز العظيم، فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيته ولا إلاهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار.(١)

والاستنكاف: التكبّر والامتناع بأنفة، فهو أشد من الاستكبار، ونفي استنكاف المسيح؛ إمّا إخبارٌ عن اعتراف عيسى بأنّه عبد الله، وإمّا احتجاجٌ على النّصارى بما يوجد في أناجيلهم.

قال الله تعالى حكاية عنه ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم:٣٠].

وعطف الملائكة على المسيح، مع أنّه لم يتقدّم ذِكْر؛ لمزاعم المشركين بأنّ الملائكة بنات الله، حتّى يتعرّض لردّ ذلك، إدماج لقصد استقصاء كلّ من ادعيت له بنوة الله، ليشمله الخبر بنفي استنكافه عن أن يكون عبداً لله، فذكروا هنا للدلالة على اعترافهم بالعبوديّة.

والآية تخلص إلى تهديد المشركين، كما أنبأ عنه قوله ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٧٣](٢).

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٢١٦

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣٣٧/٤

ومع ذلك؛ فالنصارى أقرب لأهل الإيمان، من اليهود والمشركين؛ فقد بيّن - تعالى - أن من أسباب ذلك؛ عدم الاستكبار، فقال سبحانه﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[المائدة:٨٢].

قال ابن كثير:"ما ذاك؛ إلا لأن كفر اليهود؛ عناد وجحود ومباهتة للحق، وغَمْط للناس وتَنَقص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيرًا من الأنبياء، حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة وسحروه، وألَّبوا عليه أشباههم من المشركين، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة"(١).

وراحت أدواء الفساد تتناقل من جيل إلى جيل، وكان الكبر أحد وسائل نقلها، وسبيل الصدّ عن الحق.

كما قال تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[الفرقان:٢١].

"لقد استكبوا في أنفسهم؛ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وتجرأوا هذه الجرأة!

فمن أنتم يا فقراء، ويا مساكين! حتى تطلبوا رؤية الله، وتزعموا أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك؟ وأي كِبر أعظم من هذا؟"(٢).

لقد صدهم الكبر عن الحق، كما قال سبحانه﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[غافر:٥٦]، "فهم يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشُبه الفاسدة، بلا برهان ولا حجة من الله،وما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع"(٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١٦٦/٣

(٢) تيسير الكريم الرحمن. ص ٥٨١

(٣) تفسير القرآن العظيم ١٥١/٧

وقال تعالى عن المنافقين، مبيناً إعراضهم عن الحق؛ بسبب استكبارهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون:٥].

ولخطورة الكبر، فقد تربّع على عرش أركان الكفر، فقد ذكر ابن القيم أن أركان الكفر أربعة: الكبر، والحسد، والغضب، والشهوة، فالكبر يمنعه الانقياد، والحسد يمنعه قبول النصيحة وبذلها، والغضب يمنعه العدل، والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة، فإذا انهدم ركن الكبر؛ سهل عليه الانقياد، وإذا انهدم ركن الحسد، سهل عليه قبول النصح وبذله، وإذا انهدم ركن الغضب؛ سهل عليه العدل والتواضع، وإذا انهدم ركن الشهوة؛ سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة. وزوال الجبال عن أماكنها؛ أيسر من زوال هذه الأربعة عمن بُلي بها، ولا سيما إذا صارت هيئات راسخة، وملكات، وصفات ثابتة، فإنه لا يستقيم له معها عمل ألبتة، ولا تزكو نفسه مع قيامها بها، وكلما اجتهد في العمل؛ أفسدته عليه هذه الأربعة، وكل الآفات؛ متولدة منها، وإذا استحكمت في القلب؛ أرته الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، والمعروف في صورة المنكر، والمنكر في صورة المعروف، وقربت منه الدنيا، وبعدت منه الآخرة، وإذا تأملت كفر الأمم؛ رأيته ناشئاً منها، وعليها يقع العذاب، وتكون خفته وشدته؛ بحسب خفتها وشدتها، فمن فتحها على نفسه؛ فتح عليه أبواب الشرور كلها، عاجلاً وآجلاً، ومن أغلقها على نفسه؛ أغلق عنه أبواب الشرور، فإنها تمنع الانقياد، والإخلاص، والتوبة، والإنابة، وقبول الحق، ونصيحة المسلمين، والتواضع لله ولخلقة.[1]

ولابدّ للقلب من طهارته؛ إذا كان فيه ما ينجسه من الكبر، حتى تتمكن حقائق الإيمان من دخوله، قال تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٤١].

فالكبر صارف من صوارف الهداية، قال تعالى ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٤٦].

قال البغوي عند تفسيره لهذه الآية: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الذين يتجبرون على عبادي، ويحاربون أوليائي، حتى لا يؤمنون بي، يعني: سأصرفهم عن قبول آياتي، والتصديق بها،

(١) الفوائد. ص ١٥٧

فعوقبوا بحرمان الهداية؛ لعنادهم للحق كقوله تعالى﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[الصف:٥].

وقال سفيان بن عيينة[(١)]: سأمنعهم فهم القرآن.[(٢)]

وفي قصة صاحبي الجنتين في سورة الكهف، دليل على الأثر السيء للكبر، قال تعالى﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[الكهف:٣٤،٣٦].

فحمله الكبر– عياذاً بالله – على الكفر بخالقه، وإنكار البعث، والتعالي على الخلق.

فأنكر عليه صاحبه ذلك، كما حكى القرآن عنه ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾[الكهف:٣٨]

"فبيّن – جل وعلا – أن ذلك الرجل المؤمن – المضروب مثلاً للمؤمنين، الذين تكبر عليهم أولو المال والجاه من الكفار– قال لصاحبه الآخر الكافر – المضروب مثلاً لذوي المال والجاه من الكفار– منكراً عليه كفره؛﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾، لأن خلقه إياه من تراب ثم من نطفة، ثم تسويته إياه رجلاً، كل ذلك يقتضي إيمانه بخالقه؛ الذي أبرزه من العدم إلى الوجود، وجعله بشراً سوياً، ويجعله يستبعد منه كل البعد الكفر بخالقه الذي أبرزه من العدم إلى الوجود. وهذا المعنى المبين هنا بينه في مواضع أخر، كقوله تعالى﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[البقرة:٢٨]"[(٣)].

وختمت القصة لتبين أن عاقبة أمر هذا الكافر المتكبر هي الخسار ومن اللطائف أن هذه القصة جاءت بعد أمر الله لنبيه أن يصبر نفسه مع ضعفاء المؤمنين، خلافاً لكبراء قريش الذين تكبروا عن الجلوس معهم، فكان عاقبتهم الخسار كما كانت عاقبة صاحب الجنتين.[(٤)]

---

(١) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي الكوفي، ثم المكي، الإمام الكبير، حافظ العصر وشيخ الإسلام، ولد بالكوفة ١٠٧هـ، أخذ عن: عمرو بن دينار والأعمش والزهري، وخلق غيرهم، وعنه: الشافعي وأحمد بن حنبل وابن راهوية وغيرهم، مات بالكوفة ١٩٨هـ وله ٩١سنة.

انظر: سير أعلام النبلاء ٤٥٤/٨، وتذكرة الحفاظ ٢٦٢/١.

(٢) انظر: معالم التنزيل ٢٨٢/٣

(٣) أضواء البيان ٢٧٤/٣

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم١٥٧/٥

المبحث السابع

الحَسَد

الحسد مفسدة عظيمة، ينبني على ظلم الغير، به يعمّ الفساد، وتوغر الصدور، وتتقطع أواصر الحبِّ بين الناس، لهذا عُرّف الحسد: بأنه تمنِّي زوال نعمة المحسود، وحسَدَهُ يحسِده، ويحسُده حسَداً، وحسّده: إذا تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته، أو يسلبهما.(١)

وفي الاصطلاح: هو تمني زوال نعمة المحسود إلى الحاسد(٢)، فهو خلق ذميم، مع إضراره بالبدن، وإفساده للدين.(٣)

والحسد داء عُضال سرى في الدنيا؛ منذ أن خلق الله آدم عليه السلام، وهو ناتج عن البغض والكراهية، والانفعال من أعماق النفس، كما في مكنون نفس اليهود، إذ قال تعالى﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[البقرة:١٠٩].

فالآية تدل على أن الحسد مرض مكنون في أغوار النفس الأمارة بالسوء، لهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"والمقصود أن الحسد مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب، ولا يخلص إلا القليل من الناس، ولهذا يقال لا يخلو جسد من حسد، لكن اللئيم يبديه، والكريم يخفيه".(٤)

وقال البغوي:"نزلت هذه الآية في نفر من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر، بعد وقعة أحد: لو كنتم على الحق ما هُزمتم، فارجِعا إلى ديننا، فنحن أهدى سبيلاً منكم، فقال لهم عمار: كيف نقْضُ العهد فيكم؟ قالوا: شديد، قال فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ﷺ ما عشت. فقالت اليهود: أما هذا فقد صبأ، وقال حذيفة: أما أنا فقد رضيت بالله رباً، وبمحمد نبياً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخواناً، ثم أتيا رسول الله ﷺ، فأخبراه بذلك، فقال رسول الله ﷺ" قد أصبتما الخير، وأفلحتما"، فنزلت الآية"(٥).

---

(١) لسان العرب ٣/ ١٤٨ مادة(حسد).

(٢) التعريفات. ض ٨٧

(٣) أدب الدنيا والدين ص ٣٢٣

(٤) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٢٥

(٥) انظر: معالم التنزيل ١٣٦/١، والعجاب في بيان الأسباب ٣٥٦/١

والمعنى: تمنى وأراد كثير من أهل الكتاب من اليهود، لو يردونكم يا معشر المؤمنين من بعد إيمانكم كفاراً؛ و(حسداً) نُصب على المصدر، أي يحسدونكم حسداً من تلقاء أنفسهم، ولم يأمرهم الله بذلك، من بعد ما تبين لهم الحق في التوراة؛ أن قول محمد ﷺ صدق ودينه حق.(١)

لهذا لو تأملت الآية لوجدها "دليلاً واضحاً؛ على أن حرمان التوفيق أقعدهم عن الإيمان، فإنهم لم يحسدوا غيرهم عليه، إلا بعد أن تبينت لهم حقيقته، إذ محال أن يحسدوا غيرهم على ما هو باطل عندهم، وفي أيديهم ما يزعمون أنه خير منه"(٢). ومما لا شك فيه؛ أن الحسد تترتب عليه مفاسد تتكاثر بنيران الشر التي توقد في القلوب.

ومن مفاسد الحسد؛ أنه سبب لسوء الظن بالله:

إن أول مفاسد الحسد التي يجنيها الحاسد، بنفسه الخبيثة، هو سوء الظن بالله تعالى، فإن الحسّاد الذين يريدون زوال نعم الله عن أصحابها ويتمنّوها لأنفسهم، قال تعالى عنهم﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[النساء:٥٤].

والسؤال الذي يطرح نفسه، هل الحامل لهم على قولهم؛ كونهم شركاء الله، فيفضلون من شاؤوا ؟ أم الحامل لهم على ذلك؛ الحسد لرسول الله ﷺ، وللمؤمنين على ما أتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس ببعيد، ولا غريب على فضل الله ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾"وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته؛ من النبوة والكتاب والملك الذي أعطاه من أعطاه من أنبيائه؛ كداود وسليمان، فإنعامه لم يزل مستمراً على عباده المؤمنين، فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة، والنصر، والملك، لمحمد ﷺ أفضل الخلق، وأجلهم، وأعظمهم معرفة بالله، وأخشاهم له".(٣)

وهذا الحسد من سوء نفوسهم وخبثها، وهل تجد أخبث من نفس اليهود، الذين أساؤا الظن بربهم؟! وكفروا ببعثة محمد ﷺ؛ لأنه لم يبعث منهم، فكفروا به حسداً وغلاً، اعتراضاً منهم على عطاء الله لغيرهم، وعُجْب بأنفسهم، وتكبر على الحق الذي أنزله على أيدي

(١) معالم التنزيل ١٣٦/١
(٢) نكت القرآن للقصاب ١٣٢/١
(٣) تيسير الكريم الرحمن : ١٨٣

رسله، وتحجر على فضل الله وإحسانه، فردّ الله عليهم اعتراضهم الفاسد، وأخبر أهم لا يصلحون للخير، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلاً أن يكونوا من النبيين والمرسلين[١]، فهو سبحانه وتعالى أعلم حيث يضع رسالته، لكن الحسد الذي يعتمل في قلوب اليهود؛ هو الدافع لهذا الظن السيء بالله عز وجل.

وإذا كان الكفر ملة واحدة، فلا غرو أن مشركي مكة يحسدون النبي ﷺ، فقالوا كما حكى عنهم القرآن ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[الزُّخرُف: ٣١،٣٢].

والمعنى - كما سبق بيانه في فساد الكبراء[٢]- لولا نُزّل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجّل في أعينهم من مكة والطائف، وذلك لأنهم - قبحهم الله - كانوا يزدرون بالرسول ﷺ، بغيًا وحسدًا، وعنادًا واستكبارًا، هذا وهم يعترفون بفضله وشرفه ونسبه،وطهارة بيته ومنشئه، حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه "الأمين".[٣]

ومن مفاسد الحسد أنه سبب في المعصية:

والحسد داء متأصل في النفوس الخبيثة، قديم قدم هذه الدنيا، وأول ما ظهر الحسد، ظهر من إبليس اللعين، حين أمر الله تبارك وتعالى الملائكة بالسجود لآدم بقوله ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٣٤].

وما كان السجود من الملائكة؛ إلا بعد أن أظهر الله لهم فضيلة آدم عليه السلام حين أخبرهم بأسمائهم وعلّمهم شيئاً ما علموه، لكن إبليس تغيّظ من ذلك؛ فامتنع من السجود، وقد برّر موقفه بمبررات فاسدة تقدم بها أمام ربه تبارك وتعالى عندما سأله الله تعالى ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[الأعراف:١٢].

كما ظهر أثر الحسد في إبليس، حيث قال ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء:٦٢].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن. ص ٢٧١

(٢) انظر: ص ٢٧٤ وما بعدها.

(٣) تفسير القرآن العظيم٣/٣٣٢

قال العلماء: الذي أحوجه إلى ترك السجود هو الكبر والحسد، فضلّ أبليس عن السبيل، وسعى – حسداً وبغياً – في إضلال ذرية من فضّله الله عليه.

ولذا قال الطبري في تفسير الآية:"واذكر يا محمد، تمادي هؤلاء المشركين في غيهم وارتدادهم، عتوّا على ربهم، بتخويفه إياهم، تحقيقهم قول عدوّهم وعدوّ والدهم – حين أمره ربه بالسجود له فعصاه وأبى السجود له، حسداً واستكباراً – ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وكيف صدّقوا ظنه فيهم، وخالفوا أمر ربهم وطاعته، واتبعوا أمر عدوّهم وعدوّ والدهم"(١).

وهذا ما دفع بعض السلف لأن يقول:" الحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء، يعني حسد إبليس لآدم ﷺ، وأول ذنب عُصي الله به في الأرض، يعني حسد ابن آدم لأخيه حتى قتله"(٢)، وهكذا يُعمِي الحسد بصيرة صاحبه؛ فيأتي بالأقيسة الفاسدة، التي خلّفت معصيته لرب العالمين، وسنَّ سُنّة سيئة إلى يوم الدين حيث أصبح إبليس قدوة للحسّاد.

ومن مفاسد الحسد أيضاً أنه سبب في القتل:

فقد يغلب الحسدُ صبرَ الحاسد وأناتَه؛ فيحمله على إيصال الأذى للمحسود، بإتلاف أسباب نعمته، أو إهلاكه رأساً.

وقد كان الحسد أولَ أسباب الجنايات في الدنيا إذ حسد أحد ابني آدم أخاه على أن قُبِل قربانه،ولم يقبل قُربان الآخر،كما قصّه الله تعالى في سورة العقود(٣)،قال تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٣٠،٢٧].

"ففي هذه الآيات إشارة إلى أن الحسد يطمس البصيرة، ويوقر المسامع، وأن الحاسد لا همّ له؛ إلا أن يُفرغ سُمّ نفسه الخبيثة في المحسود، وذلك لأن قابيل بعد تلك الموعظة المؤثرة؛

---

(١) جامع البيان ٤٨٨/١٧

(٢) أدب الدنيا والدين. ص ٣٢٣

(٣) التحرير والتنوير ٥٥١/٣٠

غلبته نفسه الأمارة، فهوَّنت في عينه قتل أخيه وسهلته، فقتل أخاه، فخسر بذلك دنياه وآخرته، وأصبح إماماً لكل سفاح". (١)

وقد جاء مرفوعاً "لا تقتل نفس ظلماً؛ إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل". (٢)

فانظر إلى هذا الفساد الذي ترتب على الحسد، أنتج أن آصِرة المحبة قد تلاشت من قلب الأخ، فانتهت بقتله لأخيه.

ومن ثمّ قال تعالى ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ [المائدة:٣٢].

وتخصيص بني إسرائيل بالذِكر، لأن الحسد كان منشأ ذلك الفساد، وهو غالب عليهم، وقيل: إنما ذكروا دون الناس؛ لأن التوراة أول كتاب نزل فيه تعظيم القتل، ومع ذلك كانوا أشد طغياناً فيه، وتمادياً، حتى قتلوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكأنه قيل: بسبب هذه العظيمة كتبنا في التوراة تعظيم القتل، وشددنا عليهم، وهم بعدُ ذلك لايبالون، ووصفهم بالإسراف في الفساد فقال ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ وحذف متعلق (مسرفون) لقصد التعميم، والمراد مسرفون في المفاسد التي منها؛ قتل الأنفس، بقرينة قوله ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فقد كثُر في استعمال القرآن ذِكر﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مع ذكر الإفساد. (٣)

ولم تنته المفاسد عند هذا الحدِّ؛ فإنّ الحسد سبب في الكيد.

فلا يزال الحسد موجوداً في قرارة النفوس، يجري في الدماء، إلا من طهّر الله دمه من هذا السم القتّال، والداء العضال، وقد ذكر لنا القرآن قصة عظيمة هي أحسن القصص، قصة يوسف عليه السلام مع إخوته وبدأت القصة بقول يوسف لأبيه﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾[يوسف:٤].

وكان يعقوب عليه السلام يعرف ما قد يُلقيه الشيطان من حسدٍ؛ في قلوب إخوة يوسف عليه السلام

---

(١) من لطائف التفسير، أحمد فرح عقيلان ٣٠٩/١.

(٢) سبق تخريجه ص٧٢

(٣) روح المعاني ١١٧/٦

فحذّره من أن يخبر إخوته فقال له ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[يوسف:٥].

ولما رأى إخوة يوسف؛ ما يُكنّه يعقوب ليوسف وأخيه من حبٍّ صادق؛ ظهر الحسد جلياً واضحاً، فدبّروا الأمر لقتل يوسف،﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف:٩،١٠]، ودارت عجلة الأحداث التي آلمت بيوسف وأبيه.

ومن ذلك؛ كيد اليهود الذي بلغ حدّه، حيث لجؤا إلى أساليب قبيحة، دفعهم الحسد – الذي تغلغل في قلوبهم– أن يسلكوها، قال تعالى﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة٨٩]. "قال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب، يقولون:اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبًا عندنا؛ حتى نعذِّب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمدًا ﷺ، ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به حسدًا للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ ، فقال الله ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾".[١]

وكذلك كيد مشركي مكة، كما في قوله تعالى﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾[القلم:٥١].

قال السعدي:"ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوؤهم، حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم، أي: يصيبوه بأعينهم، من حسدهم وغيظهم وحنقهم، هذا منتهى ماقدروا عليه من الأذى الفعلي، والله حافظه وناصره، وأما الأذى القولي، فيقولون فيه أقوالاً، بحسب ما توحي إليهم قلوبهم، فيقولون تارة مجنون، وتارة ساحر، وتارة شاعر".[٢]

ومن مفاسد الحسد: تمني وقوع الناس في الكفر.

فلا شك أن العاصي؛ يتمنى أن لو كان الناس مثله، يتمرغون في أوحال المعصية، وكذلك أهل الكفر على اختلاف مشاربهم، ومن ذلك اليهود الذين تمنوا أن لو ارتد المسلمون عن

---

(١) جامع البيان ٣٣٥/٢

(٢) تيسير الكريم الرحمن. ص ٨٨٢

دينهم،قال تعالى﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:١٠٩]. قال ابن كثير: "يحذر تعالى عباده المؤمنين؛ عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم، وفضل نبيهم ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والإحتمال، حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح".[1]

ومن شدة حسدهم الذي فضحه الله تعالى به، أن حاولو التشكيك في دين الله تعالى، كما قال سبحانه إخباراً عن قولهم ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[آل عمران:٧٢].

وهذا من شدّة حقدهم، وفساد نياتهم، وخبث طويتهم، وثبت في السنّة النبوية شدّة حسد اليهود خاصة، كما قال النبي ﷺ "ما حسدتكم اليهود على شيء، ما حسدتكم على السلام والتأمين"[2]. وهذا ناتج مكنون ما تحتوي عليه قلوبهم وما يعتمد في صدورهم.

ولخطورة الحسد والحاسد أمر الله بالتعوذ من الحاسد إذا حسد، لذا قال ابن القيم:"وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[الفَلَق:٥]. لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يُخفيه، ولا يترتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه، ولا بلسانه، ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك، ولا يعاجل أخاه؛ إلا بما يحب الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد؛ إلا من عصمه الله، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمنى زيادة الخير له، بخلاف ما إذا حقق وحسد، ورتّب على حسده مقتضاه؛ من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم هذا كله حسد تمني زوال النعمة".[3]

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٨٢/١

(٢) رواه ابن ماجه.كتاب إقامة الصلاة. باب الجهر بآمين.ح(٨٥٦)،وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رواته.انظر: مصباح الزجاجة ١٣٤/١،وصححه الألباني. انظر: صحيح الترغيب والترهيب ١٢٤/١

(٣) بدائع الفوائد ٢٣٦/١

فالحسد الذي يتمنى معه العبد زوال نعمة أخيه مذموم، ومستعاذ منه، كما قال الفخر الرازي:"من المعلوم أن الحاسد هو الذي تشتد محبته لإزالة نعمة الغير إليه، ولا يكاد يكون كذلك إلا ولو تمكن من ذلك بالحيل لفعل، فلذلك أمر الله بالتعوذ منه".[١]

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ١٩٧

المبحث الثامن

الغُلُو

من أسباب الفساد؛ الغلو: وهو في اللغة:"يدلُّ على ارتفاع ومجاوَزةِ قَدْر. يقال: غَلاَ السِّعر يغلو غَلاءً، وذلك ارتفاعُه، وغَلاَ الرَّجلُ في الأمر غُلُوّاً، إذا جاوَزَ حدَّه"(١).

وفي الشرع: مجاوزة الحدِّ؛ أن يزيد في حمد شيء أو ذمّه، على ما يستحق.(٢)وقيل: هو المبالغة في الشيء والتشديد بتجاوز الحدّ(٣).

والغلو يدخل في الاعتقاد،ويدخل في الأعمال، ويدخل في السلوك، فلا يكتفي العبد بمطلوب الشرع، فيغالي ويزيد من عنده؛ تشدداً وتنطعاً، إما في الأشخاص؛ بتجاوز الحدِّ في حقهم، ورفع قدرهم إلى ما لا يستحقون، أو في الأحكام الشرعية؛ بفعل ما لا يدركون فيتأتى الفساد.

والغلو محرّم شرعاً؛ لتضافر النصوص في النهي عنه والتحذير منه، وبيان سوء عواقبه على أهله في العاجل والآجل، قال تعالى﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[النساء :١٧١].

فانظر كيف أدى الغلو بأهل الكتاب إلى فساد معتقدهم، لذا يقول ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية:"يَنهى الله تعالى أهل الكتاب عن الغلوّ والإطراء، وهذا كثير في النَّصارى، فإنَّهم تجاوزوا الحدّ في عيسى عليه السلام، حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إيَّاها، فنقلوه من حيِّز النّبوَّة إلى أن اتَّخذوه إلهًا من دون الله؛ يعبدونه كما يعبدونه، بل غلوا في أتباعه وأشياعه، ممَّن زعم أنَّه على دينه، فادّعوا فيهم العصمة، واتَّبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقًّا أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشادًا، أو صحيحًا أو كذبًا، ولهذا قال تعالى﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[التوبة:٣١].(٤)

وقال تعالى﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن

---

(١) مقاييس اللغة ٣١٢/٤

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ٢٨٩/١

(٣) انظر: فتح الباري ٢٧٨/١٣، الاعتصام للشاطبي ٣٠٤/٣

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم٥٨٩/١.

﴿قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة :٧٧].

قال الطبري معقباً على هذه الآية:"يقول: لا تُفْرِطوا في القول فيما تدينون به؛ من أمر المسيح فتجاوزوا فيه الحقّ إلى الباطل، فتقولوا فيه: هو الله، أو هو ابنه، ولكن قولوا: هو عبد الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.(١)

ومن هذا الغلو في دين النصارى؛ جاءت معظم انحرافاتهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والنصارى أكثر غلواً في الاعتقادات والأعمال،من سائر الطوائف، وإياهم نهى الله عن الغلو في القرآن".(٢)

بل إن أصل الشرك وسبب وقوعه في بني آدم؛ هو الغلو في الصالحين المعظمين، وتجاوز الحدِّ في إطرائهم ومدحهم والثناء عليهم، قال الله تعالى في قوم نوح عليه السلام ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح:٢٣].

وهذه أسماء رجال صالحين، لما ماتوا زيّن الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم لينشطوا –بزعمهم– على الطاعة إذا رأوها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك، فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم، ولهذا أوصى رؤساؤهم للتابعين لهم أن لا يدعوا عبادة هذه الآلهة.(٣)

وقال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ وأمته ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[هود:١١٢].

ففي هذه الآية أمر بالاستقامة وهي الاعتدال والوسط، بين الإفراط والتفريط، وهذا ما يفيده قوله ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾،فهو أمر بالاستقامة دون غلو أو مبالغة تميل بهذا الدين من يسر إلى عسر.

قال القرطبي: "وفيها نهي عن الطغيان، وهو مجاوزة الحدّ".(٤)

كما جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[البقرة:٢٢٩].

---

(١) جامع البيان ٦/ ٣١٦

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ٢٨٩/١

(٣) انظر: جامع البيان ٦٢٩/٢٣، تيسير الكريم الرحمن ص ٨٨٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٧١/٥

ففي الآية تحذير من تعدي الحدود، والأمر بلزومها، فتعديها؛ تجاوزها وعدم الوقوف عليها، وهذا التعدي هو الذي يسعى إليه الشيطان، إذ إن مجمل ما يريد تحقيقه أحد الانحرافين؛ الغلو أو التقصير.

يقول ابن القيم:"وما أمر الله بأمر؛ إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإضاعة؛ وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه، والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أن الجافي عن الأمر؛ مضيع له، فالغالي فيه؛ مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد، وقد نهى الله عن الغلو بقوله ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾[المائدة:٧٧].

والغلو نوعان: نوع يخرجه عن كونه مطيعاً؛ كمن زاد في الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النهي، أو رمي الجمرات بالصخرات الكبار التي يرمى بها في المنجنيق، أو سعى بين الصفا والمروة عشراً، أو نحو ذلك عمداً، وغلوٌ يخاف منه الانقطاع والاستحسار، كقيام الليل كله، وسرد الصيام الدهر أجمع بدون صوم أيام النهي، والجور على النفوس في العبادات والأوراد؛ الذي قال فيه النبي ﷺ: "إن هذا الدين يسرٌ، ولن يُشادَّ الدين أحد؛ إلا غلبه، فسدّدوا وقاربوا ويسروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة".[1]

يعني استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة، فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر؛ بالسير فيها".[2]

والمعنى؛ لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية، ويترك الرفق؛ إلا عجز وانقطع فيغلب.

وقد أكّد النبي ﷺ على القصد في العبادة، وحذّر من الغلو والتشديد؛ في غير ما موضع، فقال ﷺ:"ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد"[3]، وفي صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال:"هلك المتنطعون، قالها ثلاثاً".[4]

قال النّووي:"هلك المتنطّعون: أي المتعمّقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم"[1].

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٢٢

(٢) مدارج السالكين ٤٩٦/٢

(٣) أخرجه البخاري.كتاب أبواب التهجد. باب ما يكره من التشديد في العبادة.ح(١٠٩٩).

(٤) أخرجه مسلم. كتاب العلم. باب هلك المتنطعون.ح(٢٦٧٠).

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبيﷺ:"عليكم من الأعمال ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا"[٢]
وكما بيّن أن الغلو؛ سبب هلاك الأمم قبلنا، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال:"إياكم والغلو، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين".[٣]

وسدّ ﷺ باب الغلو في الأشخاص؛ مهما بلغ قدرهم، حتى لا تقع هذه الأمة في الانحراف الذي وقع فيه النصارى، فعن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:"لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله".[٤]

والمراد: لا تمدحوني، فتغلوا في مدحي، كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام،فادعوا فيه الربوبية والألوهية، وإنما أنا عبد الله، فصفوني بما وصفني به ربي، وقولوا: عبد الله ورسوله.

إلّا أنّ الضُلّال أبوا إلا مخالفة أمره، وارتكاب نهيه، وناقضوه أعظم المناقضة، فغلوا فيه، وبالغوا في إطرائه، وادعوا فيه ما ادعت النصارى في عيسى، أو قريباً منه، فسألوه مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب، وشفاء الأمراض، ونحو ذلك، مما هو مختص بالله وحده لا شريك له، وكل ذلك من الغلو في الدين.

فخشِي النبي ﷺ من الخروج عن جادّة الحق والصواب، مع اعتقاد الغالي بأنه على الحق، كما هو الحال مع الذين يدعون مع الله أحداً، ويطلبون منهم ما لا يطلب إلا من الله تعالى كمغفرة الذنوب، ورزق الأولاد، إلى غير ذلك...

ولعل الحكمة في تحريم الغلو في الدين والتحذير منه، هو ما ينتج عنه من فساد عقدي، وفساد تعبدي، وفساد سلوكي، إضافةً إلى أنه منفِّر لا تحتمله طبيعة البشر، وإن تحملته فئة من فئات المجتمع؛ ضاقت به ذرعاً جل الفئات، كما أنه لا يخلو من جور على حقوق الآخرين؛ التي يجب مراعاتها، وواجباتهم التي ينبغي أداؤها.

---

(١) شرح مسلم للنووي ٢٢٠/١٦

(٢) أخرجه البخاري.كتاب الإيمان.باب أحب الدين إلى الله أدومه.ح(٤٣)، ومسلم.كتاب صلاة المسافرين.باب أمر من نعس في صلاته.ح(٧٨٥).

(٣) أخرجه النسائي.كتاب مناسك الحج.باب إلتاقط الحصى.ح(٣٠٥٧).وابن ماجه.كتاب المناسك.باب قدر حصى الرمي.ح(٣٠٢٩)،وأحمد٢٩٨/٥،والطبراني في الكبير ٢٨٩/١٨.ح(٧٤٢)،وصححه الحاكم٦٣٧/١. ح(١٧١١)، ووافقه الذهبي، وصححه- أيضًا- الألباني. انظر: السلسلة الصحيحة ٣٥٧/٣.ح(١٢٨٣).

(٤) أخرجه البخاري.كتاب الأنبياء.باب قوله"واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها".ح(٣٢٦١).

لهذا قال النبي ﷺ لعبدالله بن عمر رضي الله عنهما حين بلغه انهماكه في العبادة؛ انهماكاً أنساه حق أهله عليه:" ياعبد الله؛ ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ فقال: قلت: بلى يارسول الله، فقال:" فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزورك[1] عليك حقاً..".[2]

"ففيه التحذير من الغلو في الديانة، والتنطع في العبادة، بالحمل على النفس فيما لم يأذن فيه الشرع، وقد وصف الشارع الشريعة بأنها سهلة سمحة".[3]

ثم إن الغلو؛ باعث على السآمة والملل، ولذا لما كَبُر عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال:"يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ".

قال النووي:"ومعناه أنه كبر وعجز عن المحافظة على ما التزمه؛ ووظفه على نفسه عند رسول الله ﷺ، فشقَّ عليه فعله لعجزه، ولم يعجبه أن يتركه لالتزامه له، فتمنى لو قبل بالرخصة فأخذ بالأخف".[4]

إن مَكمن خطر الغلو أنه ابتداع في شرع الله تعالى، حمَل عليه الجهل بالشريعة، وضعف البصيرة، وإن الغالي ليفسد في هذا الدين من حيث أراد الإصلاح، فإن حمل النفس على المشقة، تشديد وتعسف، ينفّر الخلق عن الدين، ويفتح الباب للاتجاهات المنحرفة لنبذ الشريعة؛ بدعوى عدم ملائمتها لواقع الحياة.

ومِن ثَّم ينشأ جيل منحرف؛ يتمرد على الدين، ويحطِّم القيم.

ناهيك عما أحدثه الغلو في جسد هذه الأمة؛ من تفرّق واختلاف، وفتح باباً عظيماً للفتنة بين أهل الإسلام، وهلاك للحرث والنسل.

فواجب على المسلم أن يكون على صراط الله المستقيم، بعيداً عن الغلو وعن الإجحاف، فإنه في أشرف مقاماته حينما يكون واقفاً بين يدي الله - عز وجل - يسأله السلامة من فعل

---

(١) قوله:"لزورك"بفتح الزاي: أي لضيفك. انظر: فتح الباري ١٢٨/١

(٢) أخرجه البخاري.كتاب الصوم.باب حق الجسم في الصوم.ح(١٨٧٤)، ومسلم.كتاب الصيام. باب النهي عن صوم الدهر.ح(١١٥٩) .

(٣) فتح الباري٣٠١/١٢

(٤) شرح النووي على مسلم ٤٣/٨

اليهود والنصارى، كما قال﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[الفاتحة:٦،٧]. أي أخرجنا من غلو النصارى، وإجحاف اليهود.

فينبغي العناية بتحقيق هذا الأصل العظيم، بسلوك سبيل الوسطية والاعتدال؛ الذي هو محل فضل الله عز وجل، وامتنانه على هذه الأمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة:١٤٣].

المبحث التاسع

التَّرَف

الترف داء عُضال، ومرض مُهلِك، إن استشرى في أمّة ذهب بزهرة شبابها، وأورثهم خمولاً ودعةً، وعلّق قلوبهم بالحياة الدنيا وزخارفها، فعمّ الفساد وانتشر، فحق عليهم القول.

والمُتْرَف: المتَنَعّم المُتَوَسّع في مَلاَذّ الدنيا وشَهواتها، وقيل: المترف الذي أبطرته النعمة، وسعة العيش.[١]

ولا شك أنَّ للترف أثره على قلب المرء وسلوكه، فعن معاذ بن جبل ﵁ أنَّ النبي ﷺ قال: "إياك والتنعُّم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين"[٢].

وهذا محمول على المبالغة في التنعُّم والمداومة في قصده، وذلك لأنَّ الإفراط في التنعم - ولو كان بالمباح - يوجب الأنس به، ويُخشى من غائلته، من نحو بطر وأشر، ومداهنة، وتجاوز إلى مكروه، ونحو ذلك، ومكمن خطره؛ أنه يورث المرء ارتياحًا إلى الدنيا، وركونًا إليها، ويبعد عن الخوف الذي هو جناح المؤمن.

ويجدر التنبيه هنا، أن الغنى ليس متعلقاً بالترف ضرورةً، فالغنى قد يؤدي إلى الترف ويسوق إليه، لكن ليس ذلك حتماً، فكم من غني شاكر، بعيد عن الترف، مترفع عنه. فالغنى مرتبة اقتصادية تشير إلى حجم الثروة التي يملكها فرد من الناس، ولكنها لا تقف عند مجرد الرقم الحسابي؛ بل تترك آثاراً في نفس الغني وفي سلوكه، لكن بعض الناس يترفع عن التأثير السلبي بالثروة، ويتخلق بأخلاق الصالحين ويتصف بصفاتهم.

ولذا فشريعة الإسلام؛ تربي المسلم على منهج؛ يمنع تحول الثراء إلى أداة سيطرة يستبد بها الأغنياء بعامة الناس، وبذلك يكون الغنى مهما فحُش؛ مرتبة مقبولة في الاقتصاد الإسلامي، شريطة أداء الحق الواجب، والإنفاق في سبيل الله تعالى، والإخلاق الحميدة، والحكم الصالح، وهذا سياج محكم يمنع الغنى أن يتحول إلى أداة فساد.

ومن ثمَّ؛ فالترف صفة زائدة على الغنى، حيث يفهم من تجاوز المصرف المعتاد، في إشباع الحاجة، ليصل إلى حدّ الإسراف والتبذير، ويظهر بذخاً في الثياب والطعام وأداة الركوب والمسكن، كما هو المألوف من حال المترفين.

ولقد ذُكر الترف في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، كلها في معرض الذم له.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة١٤/١٩٣، لسان العرب ٩/١٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، والبيهقي في سننه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٦٨) .

ومن الحِكم في ذلك – والله أعلم – أن المترفين هم معظم أهل الشرك بمكة، وأما أهل الإيمان يومئذ فهم ضعفاء، قال الله تعالى ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١](١).

ومما يدل على ارتباط الترف بالفساد، قوله تعالى ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا﴾ [الإسراء: ١٦].

والمعنى: "أمرنا مترفيها بطاعة الله وتوحيده، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوا به، (ففسقوا) أي: خرجوا عن طاعة ربهم، وعصوه، وكذبوا رسله ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليها الوعيد ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا﴾ أي: أهلكناها إهلاكاً مستأصلاً، وأكّد فعل التدمير بمصدره؛ للمبالغة في شدة الهلاك الواقع بهم.

وهذا القول الذي هو الحق في هذه الآية، تشهد له آيات كثيرة، كقوله ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨].

فتصريحه – جل وعلا – بأنه لا يأمر بالفحشاء؛ دليل واضح على أن قوله ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ﴾ أي: أمرناهم بالطاعة فعصوا، وليس المعنى؛ أمرناهم بالفسق ففسقوا، لأن الله لا يأمر بالفحشاء(٢).

"وتعليق الأمر بخصوص المترفين، مع أن الرسل يخاطبون جميع الناس، لأن عصيانهم الأمر الموجه إليهم؛ هو سبب فسقهم، وفسق بقية القوم، إذ هم قادة العامّة وزعماء الكفر، فالخطاب في الأكثر يتوجه إليهم، فإذا فسقوا عن الأمر؛ اتبعهم الدهماء، فعمَّ الفسق، أو غلب على القرية، فاستحقت الهلاك"(٣).

وأعقب الله تعالى هذه الآية؛ بقوله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

فضرب مثالاً لإهلاك القرى الذي وصف سببه، وكيفيته في الآية السابقة، وعقّب ذلك بتمثيله؛ لأنه أشد في الكشف، وأدخل في التحذير المقصود.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/٤٤

(٢) انظر: أضواء البيان ٣/٧٥

(٣) التحرير والتنوير ١٤/٤٥

وفي قوله ﴿مِنۢ بَعۡدِ نُوحٍ﴾ إشارة إلى أن زعماء الكفر من قوم نوحٍ؛ مترفين، فهم الذين قالوا﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾[هود:٢٧]،وقال لهم عليه السلام ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٣١](١).

ومن الآيات الدالة على هذا، قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ:٣٤،٣٥].

فقوله في هذه الآية ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ ...﴾الآية، لفظ عام في جميع المترفين من جميع القرى، أن الرسل أمرتهم بطاعة الله فقالوا لهم ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾،وتبجحوا بأموالهم وأولادهم، والآيات بمثل ذلك كثيرة"(٢).

وعليه؛ فالمترفون تأصل فيهم الفساد؛ فأبطرتهم النعمة ورغد العيش، وهم أشد الناس حرصاً على الزيادة في الأحوال، وتوفير الحاجيات، والوصول إلى أكبر قدر من تحصيل الملذات، وكأنهم فيها من المخلدين، وإلى الله ليسوا راجعين.

وإذا كان الشرع قد دعا إلى مجانبة الترف، فإن هذا لا يعني ترك النِعم والملذات، وتحريم الطيبات، كيف؛ وقد قال تعالى ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٢] وإنما المراد عدم تعلق القلب بها، والركون إليها، حتى لا يصل الفساد للقلب؛ فتفسد الجوارح، ومن ثم يؤل الحال؛ إلى فسادٍ وانحلال، فيقلَّ أهل الإصلاح، الذين قال الله تعالى عنهم ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾[هود:١١٦].

فبيّن الله تعالى أن حلول العذاب بالأمم الخالية؛ إنما كان سببه؛ أهل الترف الذين لم يكن فيهم من ينهى عن الفساد، ويأمر بالرشاد، إلا قلة من أهل الفضل والعقل.

وقوله ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾أي: أنهم اتبعوا بسبب مباشرتهم الفساد وتركهم للنهي عنه ما أترفوا فيه، فالمترف آثر ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٤٦/١٤

(٢) أضواء البيان ٧٥/٣

وقوله﴿ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ متضمنة لبيان سبب إهلاكهم، وهي معطوفة على أترفـوا، أي: وكان هؤلاء الذين أتبعوا ما أترفوا فيه مجرمين، والإجرام: الأثام، والمعنى: أهم أهل إجرام؛ بسبب اتباعهم الشهوات، واشتغالهم بها عن الأمور التي يحق الاشتغال بها.(١)

وتأمل هذه الصورة من صور الترف، التي تمثلت في الاستخفاف بعقول الناس، وجعلت صاحبها يغتر ويفخر بملكه، كما قال تعـالى﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾[الزخرف:٥١،٥٤].

ففرعون تبجح أمام القبط(٢)بقوله: أفلا تبصرون أيها القوم، ما أنا فيه من النعيم والخـير، وما فيه موسى من الفقر وعيّ اللسان، فافتخر عدو الله بملكه مصر، وما قد مكّن له مـن الدنيا، استدراجاً من الله له، وحسب أن الذي هو فيه من ذلك، ناله بيده وحولـه، وأن موسى عليه السلام، إنما لم يصل إلى الذي يصفه من النعم، لهذا نسبه إلى المهانة، محتجّـاً علـى جَهَلة قومه؛ بأن موسى عليه السلام لو كان محقاً فيما يأتي به من الآيات والعبر، ولم يكن ذلك سحراً؛ لأكسب نفسه من المُلك والنعمة، مثل الذي هو فيه من ذلك، جهلاً بالله، واغتراراً منه بإملائه إياه.(٣)

وما من نبي أرسله الله في قرية إلا كذبه المترفون بها، واتبعه الضعفاء فيها ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[سبأ:٣٤].

وأخبر تبارك وتعالى عن المترفين المكذبين؛ افتخارهم بكثرة الأموال والأولاد، واعتقادهم أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم، واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هـذا في الـدنيا، ثم يعذبهم في الاخرة﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ:٣٥].

---

(١) انظر: فتح القدير ٢/٧٧٠ .

(٢) جيل بمصر ، وقيل هم أهل مصر . لسان العرب مادة (قبط) ٧/٣٧٣

(٣) انظر: جامع البيان ١١/١٩٥.

وهيهات لهم ذلك، قال الله تعالى﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[التوبة:٥٥].(١)

ولهذا قال الله تعالى تسلية لقلب نبيه ﷺ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[الزخرف٣٢ :٢٤].

وهكذا ترى أن مما حمل هؤلاء وأولئك على التكذيب والكفر؛ هو الترف.

وما حدث مع ثمود قوم صالح من مفاسد، خير شاهد على صدق ذلك، كما قال تعالى ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون:٣٣].

فقال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر والمعاندة، وأطغاهم ترفهم في الحياة الدنيا، معارضة لنبيهم، وتكذيباً وتحذيراً منه ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾أي من جنسكم ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾.(٢)

وقد بين تعالى أن الكفرة المترفين كانوا يسخرون من ضعاف المؤمنين في دار الدنيا، وأن أولئك يسخرون من الكفار يوم القيامة، كما قال تعالى﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة:٢١٢].

وقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾[المطففين:٢٩،٣٢]

إلى قوله تعالى﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٦].فلا ينبغي لمن رأى مسلما في حالة رثة تظهر بها عليه آثار الفقر والضعف، أن يسخر منه لهذه الآيات التي ذكرنا.

ومن ثمَّ كان الترف سبباً لاستحقاقهم العذاب، كما قال تعالى﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٧١٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن. ص ٥٥١

﴿أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:١١،١٣].

وقال تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٤]، أي متنعميهم الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية والنعيم، و لم تحصل لهم المكاره، فإذا أخذناهم بالعذاب، ووجدوا مسّه؛ إذا هم يصرخون ويتوجعون، لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه.(١)

وكما كان الترف من أسباب هلاكهم في الدنيا، فهو سببٌ لعذابهم في الآخرة،قال تعالى ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ۝٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ۝٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ [الواقعة:٤١،٤٥].

و لم يكن الترف سبباً لفساد الكافرين فحسب؛ بل طال أثره السيء أهل الإسلام.

فقد كان أداة هدر لطاقات الأمة مقدّراتها، حيث أغراهم بالإخلاد إلى الأرض، والاغتراف من الملذات والشهوات، والخوض في سفاسف الأمور ودناياها، والتعلُّق بالمناصب والجاه والمال، ونسيان المعاني العلية، وترك بذل النفس في ذات الله تعالى، والنفور من ارتكاب الصعب من الأمور – لا لشيء؛ إلا لأنه يشقُّ على النفس – والميل إلى السهل من الأعمال، حتى قاد ذلك؛ إلى الضعف والهوان.

لقد كان الترف ولا يزال؛ مِعول هدم للدول والشعوب، في القديم والحديث، وتلك سنة كونية لا تتبدل ولا تتغيير، وقد مرّ آنفاً قوله جل ذِكره ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا﴾ [الإسراء:١٦].

إن الأمم التي تقع في الترف واللهو، وتصرف أموالها، في غير محلها، مآلها إلى الهلاك والدمار، والتاريخ شاهد على أثر الترف في أمم ودول، سادت ثم بادت، وأمثلة ذلك تعزّ عن الحصر(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٥٥

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير، والكامل في التاريخ لابن الأثير، والإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب السلماني، وغيرها.

فالترف مُعْدٍ ككُلِ آفة؛ فحين لا يُعالج؛ فإنه ينتشر ولا بدّ؛ فيتعمَّق ويتجذر في الأمة، حتى يدمِّرها، وقد ظهرت معالم ذلك وآثاره، في سقوط بلاد الشام في يد الصليبيين، ثم سقوط بغداد في يد المغول، وزوال الدولة العباسية، فإنهم بعد أن استتب لهم الملك؛ أخذ الترف يسري بينهم سريعاً، خاصة بفعل الحاشية المفسِدة، فانعكس ذلك على ضعفهم، وعدم قدرتهم على القيادة، وتسيير أمور الناس.

ومن قصور الخلافة انتقل الترف بالعدوى إلى قصور الأمراء والوزراء، ثم قصور التجار، وشيئاً فشيئاً؛ غلب الفساد على عاصمة الخلافة بغداد.

وبلغ الترف مبلغه في بلاد الأندلس حتى آل الأمر إلى نهاية مفجعة، وعاقبة سيئة، سُلِب فيها أهل الإسلام؛ قطراً عزيزاً من بلادهم.

وكذا الأمر في العصور المتأخرة للدولة العثمانية فقد انغمس السلاطين والحكام، في طلب الشهوات، وسقطوا في فخّ الترف، والبذخ والإسراف، فاستنزفوا أموال البلاد، وضيعوا حقوق العباد، وفرغت قلوبهم من خشية الله، واستعبدتهم الرغبات والشهوات؟

إن أثر الترف على صاحبه وخيم، ولو لم يكن من آثاره؛ إلا الغفلة عن الله تعالى والدار الآخرة؛ لكفى بذلك مفسدة.

ذلك أن العبد إذا تقلب في المُتعِ والمباهج، وتعلّق بها قلبه، ملكت عليه حياته، وصار لا يستطيع الخلاص منها، بل أصبحت همَّته متعلقة في الازدياد منها، فما يلبث أن يكون في عِداد المترفين، وينظم في سلكهم، ويقفوا آثارهم، ولا تسأل حينئذ عن ضعف الإيمان وتتبع الرُّخص، والتساهل في أمر الصغائر.

لذا حذرنا ربنا من هذه الدنيا أشد التحذير، فقال تعالى﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[الحديد: ٢٠].

وقال النبي ﷺ محذِّراً أصحابه، وأمته من بعدهم "فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما

تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم". [١]

فالترف يضعف دين المرء؛ فيضعف حينئذ ورَعُه، فيهلك شيئاً فشيئاً، فإن من الورع؛ ترك كثير مما لا بأس به من المباح، إبقاءً على صيانة التقوى في النفس، وخوفاً عليها؛ أن يتكدَّر صفوها، ويُطفأ نورها، فإن كثيراً من المباح يكدِّر صفو الصيانة، ويُذهب بهجتها، ويطفىء نورها، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية لتلميذه ابن القيم رحمهما الله، في شيء من المباح: "هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة،فالعارف يترك كثيراً من المباح؛ إبقاءً لصيانة دينه، ولا سيما إذا كان ذلك المباح؛ برزخاً بين الحلال والحرام[٢].

---

(١) أخرجه البخاري.كتاب الرقاق.باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها.ح(٦٠٦١)،ومسلم. كتاب للزهد والرقاق.ح(٢٩٦١).

(٢) انظر: مدارج السالكين ٢/٢٦

المبحث العاشر

الظُلْمُ والعُدوَان

من أسباب الفساد؛ الظلم والعدوان،وأصل الظلم في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه[(١)].

وقيل: إن أصله؛ الجور ومجاوزة الحدّ، ومنه قوله ﷺ في حديث الوضوء"فمن زاد أو نقص، فقد أساء وظلم"[(٢)].

ومن معاني الظلم في القرآن؛ النقص، كما في قوله تعالى﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾[الكهف:٣٣].

وجاء بمعنى الشرك في قوله﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأنعام:٨٢].

فقد فسرها النبي ﷺ بالشرك، كما في قوله تعالى حكاية عن لقمان﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]. وكما جاء بمعنى الميل عن القصد [(٣)].

والظلم في الاصطلاح: هو وضع الشيء في غير موضعه، وفي الشريعة؛ عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور، ومجاوزة الحد.[(٤)]

والمشهور في مذهب الأشاعرة وغيرهم؛ أن الظلم: هو التصرف في ملك الغير بغير حق، أو التصرف في ملك الغير بغير إذنه.

وهذا قول مردود، فليس الظلم: التصرف في ملك الغير بغير إذنه، أو بغير حق،فهذا ليس بمطرد ولا منعكس فقد يتصرف الإنسان في ملك غيره بحق؛ ولا يكون ظالماً،وقد يتصرف في ملكه بغير حق؛ فيكون ظالماً.

وعلى هذا قالوا: إن الظلم لا يمكن أن يقع من الله؛ لأن كل شيء ملك لله جل وعلا يتصرف فيه، فهو يتصرف في ملكه، وإذا ملّك مخلوقاً شيئاً؛ فهذا تمليك مستعار، وإلا فالحقيقة أن الملك لله، فإنه المالك لكل شيء.

وكيف ينفي الرب جل وعلا عن نفسه شيئاً لا يقع، كما قال جل وعلا﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت:٤٦]،﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[طه:١١٢].

---

(١) المصباح المنير ص ١٤٦.

(٢) أخرجه أبو داود. كتاب الطهارة. باب الوضوء ثلاثاً.ح(١٣٥)، وحسنه الألباني في سنن ابي داود

(٣) انظر: لسان العرب ، بصائر ذوي التمييز ٥٤/٣ .

(٤) التعريفات : للجرجاني ص ٤٨

قال المفسرون في هذه الآية: الظلم هو أن تكتب عليه سيئة لم يعملها، والهضم: أن يؤخذ من حسناته التي عملها، وكذلك يقول جل وعلا في الحديث القدسي:"إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً"(١)، فهل يحرم شيئاً لا يمكن وقوعه، هذا لا يمكن! (٢)

"ويجوز أن يُحمل الظلم على ارتكاب الذنوب؛ بقرينة السياق، كإطلاقه في قوله تعالى ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[النساء:١٦٠]". (٣)

والظلم ثلاثة أنواع:

أما الأول: فظلمٌ بين الإنسان وربّه، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾وإياه قصد بقوله ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[هود:١٨].

والثاني: ظلم بينه وبين الناس، وإياه قصد بقوله﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الشورى:٤٠].وقوله تعالى﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾[الشورى:٤٢].

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[فاطر: ٣٢].

قال الراغب:"وكل هذه الثلاثة في الحقيقة؛ ظلم للنفس، فإن الإنسان أول ما يَهُمّ بالظلم؛ فقد ظلم نفسه"(٤).

أما العدوان، فهو كما قال الجرجاني:"أن يتمكن في القلب، قصد الإضرار والانتقام".(٥)

وإذا تأملت الظلم والعدوان؛ تجد ترابطاً وثيقاً بينهما، فالظلم نتيجة للعدوان، والعدوان يمرّ بمراحل، إضمار في النفس، ثم ترجمة بالتعدي، ومن يفعل ذلك فهو من الظالمين، وقد قال تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[البقرة:٢٢٩].

وتذييل الآية أفاد الحصر، وهو حصر حقيقي، إذ ما من ظالم؛ إلا وهو متعدٍ لحدود الله، واسم الإشارة في قوله﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مقصود منه تمييز المشار إليه؛ أكمل تمييز، وهو من يتعدى حدود الله تعالى، اهتماماً بإيقاع وصف الظالمين عليهم(٦).

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر، باب: تحريم الظلم ح (٢٥٧٧)

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٥٠٧/٨، منهاج السنة النبوية ٩٦/٥

(٣) التحرير والتنوير ١٤٧/١٢

(٤) المفردات ص ٣١٥ .

(٥) التعريفات ص ١٥٢.

(٦) انظر: التحرير والتنوير ٦٥٠/٣

لقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان، ونهى عن الظلم والبغي، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النساء:٥٨] والفساد إنما ينتشر بتعدي حدود الله، ومن ثمّ يكون المرء ظلماً لنفسه، وقد جاء التحذير من ذلك، في حال الطلاق أو الإمساك، قال تعالى ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:٢٣١].

فصرّح – تعالى – في هذه الآية بالنهي عن إمساك المرأة مضارة لها، لأجل الاعتداء عليها، بأخذه ما أعطاها، لأنها إذا طال عليها الإضرار؛ افتدت منه ابتغاء السلامة من ضرره[١].

فكلمة ﴿لِّتَعْتَدُوا۟﴾ تشمل الاعتداء على الزوجات، وعلى أحكام الله تعالى، وقوله ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ جعل ظلمهم نساءهم ظلماً لأنفسهم، لأنه يؤدي إلى اختلال المعاشرة، واضطراب حال البيت، وظلم نفسه أيضاً بتعريضها لعقاب الله في الآخرة[٢].

قال ابن القيم مبيناً سببية الظلم في الفساد:"وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة، فإن الشرك أظلم الظلم، كما أن أعدل العدل التوحيد، فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك، ولهذا يجمع سبحانه بينهما؛ أما الأول؛ ففي قوله تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [آل عمران:١٨]، وأما الثاني؛ فكقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]"[٣].

ولعظيم مفسدة الظلم؛ فصّلَ القرآن أخبار الظلمين، وما جرى لهم، حتى اقترن وصفهم بالظلم مع ذِكر هلاكهم، تنبيهاً على عِظم جناية.

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس:١٣]، وقال ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء:١١]، وفي آية ثالثة ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج:٤٨].

وهكذا نجد القرآن الكريم، حافل بطائفة من الآيات التي تؤكد أن الظلم والعدوان سبب

---

(١) أضواء البيان ١/ ١٤٩

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣/ ٦٥٦

(٣) الفوائد ص ٨١.

رئيس للفساد.

فالفساد العقدي – كما سبق – أعظم الظلم، لأنه صرف للعبادة الخالصة إلى غير الله سبحانه، فلهذا استحق صاحبه حرمان الجنة، والخلود في النار، قال تعالى﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾[المائدة:٧٢].

لقد ولَّدَ الظلم فساداً عريضاً في الأرض؛ تمثل في إنكار الحق الذي جاءت به الرسل، ولذا لما حكى الله تعالى عن الأمم السابقة تكذيبهم للرسل علل ذلك بظلمهم، فقال تعالى﴿ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[التوبة:٧٠].

كما أخبر تبارك وتعالى أن العدوان المتأصل في نفوسهم؛ كان باعثاً لهم على تكذيب الرسل، حيث قال ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[يونس:٧٤].

فقوم نوح عليه السلام بلغوا من الظلم مبلغاً، قال تعالى﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴾[النجم:٥٢].

قال الطبري:"وأنه أهلك قوم نوح، من قبل عاد وثمود، إنهم كانوا هم أشد ظلماً لأنفسهم، وأعظم كفراً بربهم، وأشد طغياناً وتمرداً على الله، من الذين أهلكهم من بعد من الأمم"(١).

ولشناعة ظلمهم، جاء الرفض الإلهي؛ للشفاعة فيهم، حين أذن الله بعذابهم، قال تعالى﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾[هود:٣٧].

قال أبو السعود:"وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل؛ ولا تدعني فيهم، وحيث كان فيه ما يلوح بالسببية، أكّد التعليل فقيل: إنهم مغرقون، أي محكوم عليهم بالإغراق، قد مضى به القضاء، وجف القلم، فلا سبيل إلى كفّه، ولزمتهم الحجة، فلم يبق إلا أن يُجعلوا عبرة للمعتبرين، ومثلاً للآخرين".(٢)

وكذا جاء تأكيد ظلمهم بعد عذابهم، قال سبحانه﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[هود:٤٤].

---

(١) جامع البيان ٥٣٩/١١

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٠٦/٤

كما بين الله تعالى أن هلاك من بعدهم هو بسبب كثرة ظلمهم، فقال في حق ثمود ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩].

"أي كفروا بها، ومنعوها شربها، وقتلوها؛ فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر".(١)

وقال واصفاً عذابهم ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [هود:٦٧]، وكذا قال في مدين ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [هود:٩٤].

وفي فرعون وأتباعه من الظالمين، أنزل قوله ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٠٣]. وقال سبحانه ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ [الأنفال:٥٤].

بل جاء صريحاً؛ أن سبب كفرهم وجحودهم؛ ما هو إلا الظلم والعدوان ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٤].

لقد عزم فرعون الطاغية على استئصال موسى عليه السلام، ومن معه من بني إسرائيل؛ عدوان وظلماً، ولكن أخزاه الله؛ فأهلكه بالغرق ﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠].

ومما يدل على أثر الظلم، وأنه باعث له على الفساد، ما ذكر عز وجل عن بني إسرائيل، في قوله ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة:٥٨،٥٩].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً، وقُولوا حِطة؛ فدخلوا يزحفون على أستاههم، فبدَّلوا، وقالوا: حبة في شعرة"(٢).

كما قال تعالى عنهم ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧].

---

(١) تفسير القرآن العظيم٣/٦٧

(٢) أخرجه البخاري.كتاب الأنبياء. باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام ح(٣٢٢٢)، ومسلم. كتاب التفسير.ح(٣٠١٥).

قال ابن كثير:"أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم، وأن يعبدوا كما قال ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾[سبأ:١٥]، فخالفوا وكفروا، فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات، والمعجزات القاطعات، وخوراق العادات"(١).

ولما كان الظلم باعثاً على الفساد، فإن الله تعالى نهى عن الميل إلى الظالمين،والرضا لما هم عليه، فقال ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[هود:١١٣].

بل أكَّد النهي عن موالاتهم؛ ولو كانوا من الأقربين، ومن خالف ذلك فهو عِداد الظالمين، قال تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[التوبة:٢٣].

قال البيضاوي:"نزلت في المهاجرين، فإنهم لما أمروا بالهجرة، قالوا: إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبنائنا وعشائرنا وذهبت تجاراتنا وبقينا ضائعين، وقيل: نزلت نهياً عن موالاة التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة.

والمعنى: لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان، ويصدونكم عن الطاعة، لقوله ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ﴾ إن اختاروه وحرصوا عليه ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوضعهم الموالاة في غير موضعها".(٢)

من جهة أخرى، إذا تأملنا المفاسد التي نهى عنها الشارع الحكيم، وجدنا أثر الظلم فيها ظاهراً، مما يعني عناية الشريعة بدفع المظالم بين الناس، وقد سبقت الإشارة لذلك في موضعه(٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم١/١٣٧

(٢) تفسير البيضاوي ٣/١٣٧

(٣) انظر: الفصل الثاني من الباب الأول ص٣٥.

المبحث الحادي عشر

الفِتَن الدنيوية

الفتن جمع فتنة، وهي في الأصل مأخوذة من قولك: فَتَنْتُ الفضة والـذهب؛ إذا أذبتـهما بالنار؛ لتميّز الرديء من الجيد(١)، وتعني؛ الاختبار والامتحان والابتلاء، لهذا قال الجرجاني: "الفتنة هي ما يبيَّن به حال الإنسان من الخير والشر"(٢).

والقرآن الكريم حافل بآياته الكثيرة التي تدل على هذا المعنى، كقوله تعـالى ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء:٣٥].

فلقد ابتلى الله عباده بالخير والشر، وبالغنى والفقر، والعز والذل، والحياة والموت، فتنة منـه تعالى؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملاً(٣)،وكقوله تعـالى﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[العنكبـوت:٢،٣]، وقوله عن بني إسرائيل﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[المائدة:٧١]

فالفتنة في هذه الآية؛ تعني "أنهم ظنوا، ألا يصيبهم بلاء وعذاب من الله، بـسبب كفـرهم، وقتلهم الأنبياء، لزعمهم الباطل أنهم أبناء الله وأحباؤه".(٤)

وفي القرآن جاءت الفتنة بمعنى الكفر، كما في قوله﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾[آل عمران:٧]

وبمعنى الشرك، كما في قولـه﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[البقرة: ١٩٣].

وبمعنى القتل،كمـا في قولـه تعـالى﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾[النساء:١٠١]

وبمعنى الضلالة، كما في قوله ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ﴾[الصافات:١٦١،١٦٢]، وبمعنى الصدود عن الحق، كما في قوله تعالى﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[المائدة :٤٩]، إلى غير ذلك من المعاني المتعددة في القرآن.

---

(١) انظر: لسان العرب ، مادة فتن ص ٣٣٤٤

(٢) التعريفات ص١٧١.

(٣) انظر: الدر المنثور ٥٣١/٢، تيسير الكريم الرحمن. ص٥٢٢.

(٤) أضواء البيان ٤١٨/١ .

وإذا تأملت معاني الفتنة؛ من كفر، وشرك، وقتل، وضلالة، وصد عن الحق؛ تجدها مفاسد عقدية، وسلوكية، وأخلاقية؛ ويتأكد حينها أن الفتن الدنيوية؛ من أهم دوافع الفساد.

وفي الحديث الصحيح ما يبين أثر مفاسد الفتن على القلب، فعن حذيفة ﵁: سمعت رسول الله ﷺ يقول:"تعرض الفتن على القلوب، كالحصير عوداً عوداً، فأيُّ قلبٍ أشربها؛ نكت فيه نكتةٌ سوداء، وأيُّ قلب أنكرها؛ نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض، مثل الصفا، فلا تضره فتنةٌ ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربّاداً، كالكوز مجخياً[(١)]، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه"[(٢)].

ولعل حديثي في هذا المبحث يقتصر على أبرز الفتن، وهي كما يأتي:

١/ فتنة المال والولد

والحقيقة أن الناس جميعاً بلا استثناء يحب الأموال والأولاد ؛ لأنهما زينة الحياة الدنيا وهذا ما أخبر به الحق سبحانه وتعالى فقال﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[الكهف:٤٦].

"وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا، لأن في المال جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوةً ودفعاً، فصارا زينة الحياة الدنيا، لكن مع قرينة الصفة للمال والبنين، لأن المعنى: المال والبنون زينة هذه الحياة المحتقرة، فلا تتبعوها نفوسكم"[(٣)].

وسرُّ تقديم المال على البنين في الذِكر؛ لأنه أسبق لأذهان الناس، وليرغَب فيه الصغير والكبير، والشاب والشيخ، ومن له من الأولاد ما قد كفاه"[(٤)].

أما عن حقيقة هذه الفتنة، فإذا كان الأموال والأولاد زينة، فإن لهذه الزينة وجهان:

الوجه الأول: أنها زينة حقيقية يتمتع بها المرء، شريطة أن يفهم معنى الزينة على مراد الله سبحانه وتعالى، لتكون وسيلة للقرب منه، لا لتكون الغاية من الدنيا؛ جمع الأموال، وإنجاب

---

(١) يقال : جخا الكوز فتجخى ، كببته فانكب. لسان العرب مادة (جخا) ١٣٣/١٤

(٢) أخرجه مسلم.كتاب الإيمان. باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وأنه يأرز بين المسجدين. ح(٢٣١)، وذكر الحميدي أن هذا الحديث روايةً من حديث حذيفة المتفق عليه، ولو ذكر في المتفق عليه لكان أولى، انظر: جامع الأصول١٠/٢٢، وحديث حذيفة بلفظ قريب عند البخاري.كتاب المناقب. باب علامات النبوة في الإسلام.ح (٣٥٨٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤١٣/١٠

(٤) التحرير والتنوير ٧٧/١٥

الأولاد فقط، بل يجب أن يكون المال والولد؛ خطوة من خطوات القرب إلى الله عز وجل.

الوجه الثاني: أن تكون النفس هي التي زينت حب الأموال والأولاد، فحينئذ ينساق المرء وراءها، فيضل عن الطريق، وتكون سبب غوايته، إذ تجعله يقدم محبة المال والولد؛ على محبة الله تعالى ورسوله ﷺ.

ومع كون المال والولد زينة إلا أنهما فتنة، ودليل ذلك قوله تعالى﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[الأنفال:٢٨].

ومفهوم الفتنة في هذه الآية: الابتلاء والاختبار، ويفسر ذلك قول الله تعالى﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[الأنبياء:٣٥].

وتأمل قول الله تعالى﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[التغابن: ١٥].

تجد هذا النص القرآني، يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية، ويمس وشائج متشابكة دقيقة في التركيب العاطفي وفي ملابسات الحياة، فالأموال والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله تعالى.

وكلمة (فتنة) في الآية تحتمل معنيين:

الأول: أن يفتنكم الله بالأموال والأولاد، بمعنى يختبركم فانتبهوا لهذا، وحاذروا، وكونوا أبداً يقظين، لتنجحوا في الابتلاء، وتخلصوا وتتجردوا لله، كما يفتن الصائغ الذهب بالنار؛ ليخلصه من الشوائب.

الثاني: أن هذه الأموال والأولاد، فتنة لكم توقعكم بفتنتها؛ في المخالفة والمعصية، فاحذروا هذه الفتنة، لا تجرفكم وتبعدكم عن الله، مع أن الله نهى أن تلهنا أموالنا وأولادنا عن الاشتغال بذكره سبحانه وتعالى، وهذا من المفاسد العظيمة، لما يترتب عليها من الخسارة في الدنيا والآخرة، قال تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[المنافقون:٩].

وألمح الخطر في تقديم حب المال والولد، وجميع المَحابّ؛ على حب الله تعالى ورسوله ﷺ، في قوله ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة:٢٤].

فقوله﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ أي انتظروا ما يحل بكم من عقاب﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ الذي لا مرد له ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي الخارجين عن طاعة الله، المقدّمين على محبة الله ورسوله شيئاً من المذكورات(١)، فكل نعمة تصل بالعبد إلى البعد من الرب فهي فتنة ونقمة.

ولقد صوَّر القرآن الكريم أثر الفتنة بالمال على المرء؛ مما يحمله على التمادي في الفساد، فقال تعالى﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[العلق:٦،٧]، فيطغى العبد ويظلم، إذا رأى نفسه غنياً، ويتناسى أن الذي أغناه هو الذي خلقه.

كما جاء ذِكر الوعيد مقروناً بسبب هذه الفتنة، كما في قوله تعالى﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾[الهمزة:١-٣].

وفي الآية تصوير لشدة حبه للمال، حين يظن أن لا حياة له بلا مال، فلذلك يحفظه من النقصان ليبقى حياً، ومن كان كذلك استحق الوعيد بالويل في أول السورة، لأنه بهذا عبدٌ للمال على الحقيقة(٢)، وفي الحديث الصحيح "تعس عبد الدينار"(٣)، وبهذا ينكشف سرٌ من أسرار ما يتناقل من حين لآخر، من أخبار الانتحار بسبب الفقر أو الخسائر المالية، فإن القلوب تعلقت بها تعلّقاً كبيراً.

والمال لا يذم لذاته بل ينبغي أن يمدح، لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا، وقد سماه الله تعالى خيراً فقال﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[العاديات:٨]، وإنما يقع الذمّ لمعنى من الآدمي، وذلك المعنى إما لشدة حرصه،أو تناوله من غير حِلّه، أو حبسه عن حقهِ أو إخراجه في غير وجهه، أو المفاخرة به، ومن ثمّ يكون الفساد.(٤)

٢/ومن الفتن الدنيوية: فتنة النساء.

إن الإسلام اعتنى بالمرأة عناية فائقة، إذ جعلها في مكانة عالية، فهي الدرة المصونة، واللؤلؤة المكنونة، فوضع لها من الضوابط لصيانتها في لباسها وزينتها؛ سداً لذريعة الفساد، وتجفيفاً لمنابع الفتنة بها، ورسم طريقها المستقيم؛ لتصل في نهايته إلى الجنة، لكنها إن انحرفت عن هذا

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٣٣٢ .

(٢) انظر: التفسير الكبير ٣٢ /٨٨ .

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، ح (٢٧٣٠)

(٤) انظر: مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة ٦١/٣

الطريق، وتعدت تلك الضوابط، فإن التبرج يكون حليفها، والشيطان يكون صديقها، والفساد يكون ديدنها، وقد بيّن تبارك وتعالى أنّ النساء من جملة الشهوات المحببة للناس، قال تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[آل عمران: ١٤].

ولا تثريب على المرء في حبّه لزوجه وولده، بل تلك جبلة فطرية، وسنة شرعية، فعن أنس بن مالك ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: "إنما حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة"(١).

إلا أن المحذور الفتنة بهنّ، وهذا سِر تقديم النساء على الباقي من المفاتن المذكروة في الآية، لأن الفتنة بهنّ أشدّ.

قال ابن حجر: "فجعلهنّ من حب الشهوات، وبدأ بهنّ، قبل بقية الأنواع؛ إشارة إلى أنهنّ الأصل في ذلك، وقد قال بعض الحكماء: النساء شرٌ كلهنّ، وأشرّ ما فيهن؛ عدم الاستغناء عنهنّ، لأنها ناقصة العقل والدين، تحمل الرجل على تعاطي ما فيه نقص العقل والدين، كشغله عن طلب أمور الدين، وحمِله على التهالك على طلب الدنيا، وذلك أشد الفساد.(٢)

لذا، فإن القرآن الكريم قد بيّن خطر الفتنة بالنساء، كما في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[التغابن: ١٤، ١٥].

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن الأزواج والأولاد: إن منهم من هو عدو الزوج والوالد، بمعنى: أنه يلتهى به عن العمل الصالح، كقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[المنافقون: ٩].

ولهذا قال هاهنا ﴿ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ قال ابن زيد: يعني على دينكم.

وقال مجاهد في الآية: يحملُ الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبّه إلا أن يطيعه(٣).

---

(١) أخرجه النسائي. كتاب عشرة النساء. باب: حب النساء. ح(٣٩٣٩)، وصححه الألباني في سنن النسائي.

(٢) فتح الباري ٤١/٩

(٣) تفسير القرآن العظيم١٣٩/٨

وسأل رجل ابن عباس رضي الله عنه عن هذه الآية فقال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعوهم، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا الناسَ قد فقهوا في الدين، فَهَمُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾"(١).

لهذا نجد التحذير الشديد من ذلك فيما رواه الشيخان من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء "(٢).

وبيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن المرأة ربما تكون ألعوبة في يد الشيطان، إذ أنها سهمُه الذي إذا رمى به لم يُخطِ، فقال صلى الله عليه وسلم " المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان"(٣)، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"(٤)

وكما حذّر النبي صلى الله عليه وسلم متخوفاً على أمته، من مفاسد هذه الفتنة، فقد تخوفها العقلاء من هذه الأمة أيضاً.

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه:"ابتلتم بفتنة السراء فصبرتم، وستبتلوا بفتنة السراء، وأخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء"(٥)، وهذا سعيد بن المسيب بعد أن جاوز الثمانين، وقد ذهبت إحدى عينيه، والأخرى لم تكن سليمة، ومع هذا كان يقول: ما شيء عندي أخوف من النساء(٦).

وهذا الخوف والتحذير ليس من الافتتان بزينتها فقط، وإنما لأنها تسرق لبّ الرجل، وتسحرعقله، لهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم" ما رأيت من ناقصات عقل، ولا دين؛ أغلب لذي لبّ

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٣٣٥٨/١٠

(٢) أخرجه البخاري.كتاب النكاح.باب ما يتقى من شؤم المرأة.ح(٤٨٠٨)، ومسلم.كتاب الذكر والدعاء. باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء.ح(٢٧٤٠).

(٣) أخرجه الترمذي برقم (١١٧٣) وقال:حسن غريب، ورواه ابن حبان برقم (٣٢٩)

(٤) أخرجه مسلم. كتاب الذكر والدعاء.باب :أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء ح (٢٧٤٣).

(٥) أخرجه ابن ابي شيبة في مصنفه كتاب : الفتن باب : ما ذكر في فتنة الدجال ح ٣٧٢٨١

(٦) لم أقف على تخريجه،وقال القاري في مرقاة المفاتيح ٢٦٠/٦:"رواه أحمد والترمذي وأبو داود، وقال ابن حجر: مختلف في صحته"، وذكره ابن الجوزي في ذم الهوى ص ١٦٤

منكن".[١]

وما فتيء المفسدون؛ يستخدمون المرأة أداةً؛ لتحقيق مآربهم الفاسدة، هدماً لدين الأمّة، وتدميراً للشبابها، فتفننوا في عرض الفساد والرذيلة، والدعوة إلى البِغاء والفاحشة، دون مراعاة للآداب المرعية والحقوق الشرعية،

وهل القنوات التي ملأت الفضاء، إلا أنموذج لهذه الفتنة، التي يراد منها القضاء على مكتسبات المجتمع، من الدين والخلق؟

٣/ فتنة العلم.

العلم أشرف ما رَغب فيه الراغب، وأفضل مطلب، وأنفع مكتسب، لأن شرفه يُثمر على صاحبه، وفضله ينمي على طالبه، لهذا قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[الزمر:٩].

فمَنَع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل، لما قد خص به العالم من فضيلة العلم، قال تعالى﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٣]،فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمراً، أو يفهم منه زجراً[٢].

والمقصود من العلم؛ تحقيق العبودية لله تعالى، برفع الجهل، وتبصرة عباد الله بما شرع، ولذا كان أهله أجدر الناس بالسلامة من فتنة الشيطان، قال تعالى﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الحج:٥٤].

قال السعدي:"لأن الله منحهم من العلم، ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغيّ، فيميزون بين الأمرين، الحق المستقر، الذي يحكمه الله، والباطل العارض الذي ينسخه الله،

---

(١) أخرجه البخاري.كتاب الحيض. باب ترك الحائض الصوم.ح(٢٩٨).ومسلم.كتاب الإيمان.باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات.ح (١٣٢).

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٤٩.

بما على كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم، يُقيِّض بعض أنواع الابتلاء، ليظهر بذلك كمائن النفوس الخيرة والشريرة، ﴿فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾ بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشُبَه، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخشع وتخضع، وتسلّم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم"(١).

ولهذا قال ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر:٢٨]، فكل من كان بالله أعلم، كان أكثر لـه خشية، وأوجبت له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته(٢).

وجعل الله أهله؛ سبباً لدرءِ الناس عن الفتنة، كما في قصة قارون ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[القصص:٨٠].

فإذا انحرف العالِم أو المتعلم عن ذلك؛ فقد ضلّ وأضل، ولذا حذر الله تعالى نبيه ﷺ – بعد الذي آتاه من العلم – من اتباع أهواء المفسدين، فقال﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠]،وقال﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٤٥].

كما أن العلِم قد يكون وبال على صاحبه – عياذاً بالله – كما أخبر سبحانه عن اختلاف الذين أوتوا الكتاب؛ رغم ما آتاهم من العلم، فقال ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ﴾[آل عمران:١٩].

وضرب لنا نموذجاً ممن علموا، لكن فسدت قلوبهم، وعقولهم فضلّوا، قال تعالى﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف:١٧٥- ١٧٦].

والمعنى: أتل يا محمد على اليهود وعلى غيرهم، هذا الخبر المهم الخاص بالذي آتيناه آياتنا، وأوقفناه عليها وعلمناها له، ولكنه لم يعمل بها، وتركها وراءه ظهرياً، عازماً على عدم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٤٢.

(٢) المصدر السابق ص ٦٨٩.

العودة لها أبداً، وقد سبق شيطانه في الفساد سبقاً ملحوظاً، فكان من الغاوين الضالين المفسدين. . هذا الذي أوتي علماً بالكتاب، ولم يعمل به بل صارت روحه مدنسة، وقلبه مظلماً(١).

"وقد تفرّع على هذه الحالة، تمثيله بالكلب اللاهث، لأن اتصافه بالحالة التي صيرته شبيهاً بحال الكلب اللاهث، تفرَّع على إخلاده إلى الأرض، واتباع هواه، فالكلام في قوة أن يقال: ولكنه أخلد إلى الأرض، فصار في شقاء وعناد، كمثل الكلب"(٢).

فهذا وأشباهه؛ فسد وأفسد، لأنه لم يعمل بعلمه، لذا قال يحى بن معاذ(٣): مسكين من كان علمه حجيجه، ولسانه خصيمه، وفهمه القاطع بعذره"

وقد قيل:

إذا العلم لم تعمل به كان حجةً   عليك ولم تُعذر بما أنت حامِل

فإن كنت قد أبصرت هذا فإنما   يصدِّق قول المرء ما هو فاعل

ولذا تخوف سفيان الثوري رحمه الله من ذلك، فقال: ليتني لم أكتب العلم، وليتني أنجو من علمي كفافاً، لا عليّ ولا لي". (٤)

وتخوف أبو الدرداء رضي الله عنه فقال : أخوف ما أخاف إذا وقفت بين يدي الله أن يقول: "قد علمتَ، فماذا عمِلت بما علمت"، وقال بعض الحكماء "خير العلم ما نفع، وخير القول ما ردع" لهذا قال عليّ بن أبي طالب:"إنما زهد الناس في طلب العلم، لما يرون من قلة انتفاع من عَلِمَ بما عَلِم"(٥).

وقال الإمام أحمد:"عزيز عليَّ، أن تذيب الدنيا أكباد رجال، وعت صدورهم القرآن"(٦).

فانظر كيف تحسر هذا الإمام على من هذه حالهم؟!

---

(١) التفسير الواضح ١/ ٧٨٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٥٣/٨

(٣) يحيى بن معاذ أبو زكريا الواعظ ، روى عنه أهل الريوهمذان وسكن نيسابور إلى ان مات بها وقدم بغداد ، توفي عام ٢٥٨هـ ،تاريخ بغداد ٢٠٨/١٤

(٤) اقتضاء العلم العمل. للخطيب البغدادي ص ٢٤.

(٥) أدب الدنيا والدين ص ١٠٤ .

(٦) الآداب الشرعية ٢٤/٢

ولعله استنبطه من قوله تعالى﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الحجر:٨٨].

كل هذا بسبب حب الدنيا التي أحبوا من أجلها، وكرهوا من أجلها، وقد قال تعالى﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[الروم:٧].

قال الشنقيطي:"يجب على كل مسلم في هذا الزمان، أن يتدبر هذه الآية تدبراً كثيراً، ويبين ما دلت عليه لكل من استطاع بيانه له من الناس.

وإيضاح ذلك: أن من أعظم فتن آخر الزمان – التي ابتلي بها ضعاف العقول من المسلمين – شدة إتقان الإفرنج لأعمال الدنيا، مع عجز المسلمين عنها، فظنّوا أن من قدر على تلك الأعمال على الحق، وأن العاجز عنها ليس على حق، وهذا جهل فاحش، وفي هذه الآية إيضاح لهذه الفتنة، وتخفيف لشأنها، فسبحان الحكيم الخبير ما أعلمه، وأحسن تعليمه".(١)

لهذا جاءت سورة الكهف محذِّرة من تلك الفتن؛ ليأمن المرء من غوائل الفتنة، فقد جاءت مفتَتَحة بذِكر القرآن، وهو أعظم وسيلة للنجاة من كل فتنة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾[الكهف:١]، واختُتِمت بالتوحيد، وهو الحسنة العظمى التي لا يبقى معها أثر لأي فتنة ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف:١١٠]

وبينهما أربع فتن كِبار؛ فتنة الدين، وفتنة المال، وفتنة العلم، وفتنة الجاه. فمن أوى إليها؛ كانت نجاة له من الفتن.

كيف وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ" من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِم من الدجال".(٢)

قال النووي:"قيل سبب ذلك ما في أولها من العجائب والآيات فمن تدبرها لم يفتتن بالدجال وكذا في آخرها".(٣)

---

(١) أضواء البيان ١٦٦/٦

(٢) أخرجه مسلم. كتاب صلاة المسافرين.باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي. ح(٨٠٩).

(٣) شرح النووي على مسلم ٩٣/٦.

وقد أخبرنا سبحانه عن حقيقة هذه الفتن بقوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف:٨].

فإنه جعل جميع ما على وجه الأرض، من مآكل لذيذة، ومشارب، ومساكن طيبة، وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار، فتنة واختباراً ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات، فانية مضمحلة، وزائلة منقضية.

وستعود الأرض صعيداً جرزاً، قد ذهبت لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها، هذه حقيقة الدنيا، قد جلاها الله لنا كأنها رأي عين، وحذرنا من الاغترار بها، ورغبنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاغترَّ بزخرف الدنيا وزينتها، من نظر إلى ظاهر الدنيا، دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون لمعرفته، بل همهم تناول الشهوات، من أي وجه حصلت، وعلى أي حالة اتفقت، فهؤلاء إذا حضر أحدهم الموت، قلق لخراب ذاته، وفوات لذاته، لا لما قدمت يداه من التفريط والسيئات".[١]

---

(١) تيسير الكريم الرحمن. ص ٤٧٠

الفصل الثاني

سُبُل مُدَافَعَةِ الفَسَادِ وعِلاَجِهِ

وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول: بيان عاقبة المفسدين.

المبحث الثاني: الإخلاص.

المبحث الثالث: الصلاة.

المبحث الرابع: الدعاء.

المبحث الخامس: التخويف بالله تعالى.

المبحث السادس: السمع والطاعة ونبذ الاختلاف.

المبحث السابع: إقامة الحدود والزواجر الشرعية.

المبحث الثامن: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث التاسع: الجهاد والمدافعة.

المبحث العاشر: الأمر بغض البصر وحفظ الفرج.

تمهيـــــد:

عُني الإسلام ببيان سبل دفع الفساد؛ حفاظاً على المجتمع، وقد أشرت هنا إلى أبرز السبل في دفع الفساد، بعد ما بينت أسبابه ودوافعه، في الفصل السابق.

وحيث كانت صور الفساد كثيرة ومتشعبة؛ فإنه يعزُّ هنا حصر جميع السبل؛ التي تقي مـــن الفساد بجميع صوره، ولذا آثرت في هذا الفصل؛ ذكر أبرزها، وإلا فهي بحاجة إلى مزيـــد بحث وتفصيل.

إن مظاهر الفساد إذا كثرت في مجتمع من المجتمعات، فإنّ آثاره الوخيمة؛ ستأتي بالوبال على الأخضر واليابس، وتعمّ الصالح والطالح، لذا رمتم في هذا الفصل؛ بيان بعض ســبل دفــع الفساد، لأن الإسلام جاء ليصلح لنا الدنيا والآخرة، وما أسرف في شيء على حساب شيء آخر، قال تعالى﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل:٨٩].

فأرشد إلى حلول كثيرة لدفع الفساد، تنقيةً للمجتمع من كل شائبة، لأن الهدف العام؛ هــو تحقيق العبودية لله تعالى، وإحياء الفضيلة، ونشرها في المجتمع، وإماتة الرذيلة، وإزالتها قــدر المستطاع.

ومن هذا المنطلق؛ كان لزاماً علينا تأمل السبل الناجعة في دفع الفساد وعلاجه، والتي أولاها القرآن الكريم عناية بالغة، وقد فصَّلتُ أهمها، في عشرة مباحث، على النحو الآتي:

المبحث الأول

بَيَانُ عَاقِبَةِ المُفسِدِين

دعا القرآن الكريم أصحاب العقول إلى التفكر والتدبر، فيما آل إليه حال المفسدين، من أجل أن يرتدع الناس عن ممارسة أي عمل أو قول يجعل صاحبه من الذين وصفوا بالفساد.(١)

وقد حث الكتاب العزيز، على السعي في الارض؛ من أجل أخذ العظة والعبرة، قال تعالى﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[الروم:٩، ١٠].

وقال تعالى﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾[محمد: ١٠، ١١]

فتراه في عدة مواضع، يلفت الأنظار؛ إلى سوء عاقبة المفسدين، ومن أمثلة ذلك بيان جزاء أمة مدين قوم شعيب عليه السلام، بعد أن نصحهم بقوله﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف:٨٥، ٨٦].

قال ابن كثير في قوله﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾"أي من الأمم الخالية والقرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال؛ باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله".(٢)

ثم توالت الآيات في النصح من شعيب عليه السلام، والتهديد من قومه له، لهذا استحق قومه المصير المحتوم ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾[الأعراف:٩١، ٩٢].

فذكَر هنا أن عذابهم كان رجفة، وفي سورة هود بين أن عذابهم كان صيحة، وأخبر في سورة الشعراء أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، ولا تناقض.

---

(١) استفاض القران في بيان عاقبة المفسدين، كلٌ بحسبه، وذكرت شيئاً من ذلك فيما سبق ، انظر: ص ١٦٢

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٠٩/٢

قال ابن كثير:"وقد اجتمع عليهم ذلك كله، أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم، فيها نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءهم صيحة من السماء، ورجة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾".(١)

وفي القرآن آيات كثيرة تحدثت عن بيان عاقبة المفسدين، ولعل السبب في كثرتها؛ أن القرآن جاء لإصلاح البشرية، فإذا ورد فيه بيان العقاب للمفسدين، كان هذا أدعى إلى أن يكون رادعاً لمن تسول له نفسه بالفساد في الأرض.

ومن هذه الآيات ما ورد في قصة ثمود، كما في قوله تعالى﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ إلى قوله﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[الأعراف:٧٣-٧٩].

و لم يبين هنا سبب رجفة الأرض بهم، ولكنه بين في موضع آخر أن سبب ذلك صيحة الملك بهم، و كما في قوله ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[هود: ٦٧].

والظاهر أن الملك لما صاح بهم، رجفت الأرض من شدة الصيحة، وفارقت أرواحهم أبدانهم، والله جل وعلا أعلم.(٢)

إن الفساد كان السبب في عقاب أمثال هؤلاء، وعلى هذا؛ فإن من شاكل هؤلاء في أفعالهم حلّ به ما حلّ بهم﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠]، ولا يتأتى الهلاك المترتب على الفساد؛ إلا بسبب مقت الله لهم، وهذا يعني أنهم غرقوا في الفساد، وتعلقت به قلوبهم.

وهذا من دوافع نهي الرسل أقوامهم، عن الفساد في الأرض.

وتأمل نصائح الوعاظ لقارون، قال تعالى ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٠٩/٢

(٢) أضواء البيان ٣٥/٢

نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص:٧٧].

فجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ علة للنهي عن الإفساد، لأن العمل الذي لا يحبه الله لا يجوز لعباده عمله"(١).

لهذا جاءت نهاية قارون، مؤيدة لما ذهب إليه أهل العلم والبصر بالدنيا والآخرة، فأضاع دنياه وآخرته ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص:٨١].

مما بينَّه القرآن الكريم في عاقبة المفسدين؛ أنها ليست على درجة واحدة، فكلٌ حسب درجة تكذيبه، فقال تعالى ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٣٨ –٤٠]

"أي فكلاً من هؤلاء الأمم المكذبة ﴿ أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ على قدره وبعقوبة مناسبة له ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ أي عذاباً يحصبهم، كقوم عاد، حين أرسل عليهم الريح العقيم،التي ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧]،﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ كقوم صالح،﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ كقارون،﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ كفرعون وهامان وجنودهما"(٢)

وهذا التغاير في العقاب، يعتبر دليلاً مادياً للمتبعين للحق، وللمعاندين له أيضاً، فالمتبعين يزيد الإيمان في قلوبهم، بسبب ما يشاهدونه من آيات في الأرض، تدل على صدق كلام الأنبياء والمرسلين، وأما المعاندين؛ فعليهم أن يُعمِلوا عقولهم، ويتفكروا في مصير هؤلاء المكذبين،

(١) التحرير والتنوير ١٦/١١

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٦٣١.

وهل أغنت عنهم قوتهم، أو استطاعوا أن يحاربوا الله عز وجل فينتصروا عليه ؟

ومن بيان الكتاب العزيز لعاقبة المفسدين، ما حكاه من نداءات التحذير، وصوت النذير من مؤمن آل فرعون لقومه، كما قال الله تعالى عنه﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾[غافر :٢٩ :٣٣].

أي"يا قوم إني أخاف عليكم؛ بقتلكم موسى إن قتلتموه مثل يوم الأحزاب الذين تحزبوا على رسل الله نوح وهود وصالح فأهلكهم الله بتجرئهم عليهم فيهلككم كما أهلكهم".(١)

لهذا: لما مرّ النبي ﷺ بالديار التي جعلها الله آية للعالمين، أمر الناس أن يتدبروا فيما حدث لهؤلاء القوم المفسدين، فعن ابن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال " لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم".(٢)

يقول ابن حجر: قوله (لا تدخلوا) كان هذا النهي لما مروا مع النبي ﷺ بالحِجر ديار ثمود في حال توجههم إلى تبوك، وقوله:(إلا أن تكونوا باكين) ليس المراد الاقتصار في ذلك على ابتداء الدخول، بل دائماً عند كل جزء من الدخول، وأما الاستقرار فالكيفية المذكورة مطلوبة فيه بالأولوية".(٣)

بهذا الحديث ثبت أنه ﷺ لم ينزل، ولم يُصَلِّ هناك، بل إنه ﷺ لم يرتضِ فعل بعض الصحابة رضي الله عنهم حينما أرادوا الانتفاع من ماء هؤلاء القوم المعذبين.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحِجْر أرض ثمود،

(١) جامع البيان ١٤٠/١٠

(٢) أخرجه البخاري كتاب :أبواب المساجد باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب ح٤٢٣

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ٥٣٠/١

فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا، ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة".(١)

قال النووي: وفى هذا الحديث فوائد منها النهى عن استعمال مياه بئر الحِجر، إلا بئر الناقة، ومنها؛ لو عُجن منه عجيناً؛ لم يأكله، بل يُعلِفه الدواب، ومنها؛ مجانبة آبار الظالمين.(٢)

ومما سبق، يتضح أن بيان القرآن والسنة لعاقبة المفسدين؛ يبعث في نفوس المصلحين الأمل في الثبات على الحق، وتسليتهم بما يلقون من أهل الفساد، لهذا قال تعالى في أعقاب معركة أحد ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:١٣٧،١٣٨].

ففيها تعزية للمؤمنين وتسلية لهم، بأنه قد مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة أمتُحِنوا، وابتُلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، وكانت العاقبة للمتقين، والنصر لعباد الله المؤمنين، ثم أمر الله بالسير بالأبدان والقلوب؛ للنظر في عاقبة المكذبين، فلا نجدهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارتهم، وذهاب عِزِّهم وملكهم، وزوال بزخهم وفخرهم، أفليس في هذا أعظم دليل، وأكبر شاهد، على صدق ما جاءت به الرسل(٣).

---

(١) أخرجه مسلم.كتاب:كتاب الزهد والرقاق.باب:لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين ح(٢٩٨١).

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١١٢/١٨

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ١٤٩.

المبحث الثاني

الإِخْلَاصُ

يندفع الفساد بالإخلاص، وهو من: خَلَصَ الشيء؛ صار خَالِصاً، وخَلَـصَ إليـه الـشيء؛ وصل، وخَلَّصَهُ من كذا تَخْليصاً؛ أي نجاه فَتَخَلَصَ، والإخْلاَصُ أيضاً في الطاعة؛ ترك الرياء، وقد أخْلَصَ لله الدين، وخَالَصَهُ في العِشرة صافاه، وهذا الشيء خَالِصَةٌ لـك؛ أي خاصـة، واسْتَخْلَصَهُ لنفسه استحضه[١].

واصطلاحاً: قال الكفوي: هو القصد بالعبادة إلى أن يُعبد المعبود بها وحده، وقيل: تـصفية السرِّ والقول والعمل.[٢]

وعرّفه ابن القيم فقال:"الإخلاص: قصد المعبود وحده بالتعبد".[٣]

وقال الهروي[٤]:"الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب".[٥]

وترجع أهميته؛ إلى أنه شرط لقبول الأعمال، لهذا قال تعـالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾[الكهف: ١١٠]،وقال تعالى ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾[البينة: ٥].

"أي جاعلين دينهم خالصاً له تعالى، أو جاعلين أنفسهم خالصة له تعالى في الدين، حنفـاء مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام".[٦]

"والمقصد من الآية؛ إبطال الشرك في عبادة الله تعالى، وفي إبطاله؛ تحقيق لمعنى القِسط الذي في قوله ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾[الأعراف: ٢٩]".[٧]

بل إن الإخلاص إذا انتفى عن العمل، فلا ثواب لصاحبه، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[الزمر:٦٥].

قال الشوكاني: "هذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل؛ لأن الله سبحانه قد عصمهم عن

---

(١) لسان العرب ٢٦/٧ مادة (خلص)

(٢) الكليات للكفوي ص٦٤.

(٣) مدارج السالكين ٥٢٧/١

(٤) عبدالله بن محمد بن اسماعيل الأنصاري الهروي الحلبي الصوفي ت/٤٥٨هـ هداية العارفين ٢٣٥/١

(٥) منازل السائرين ص ٤٠

(٦) إرشاد العقل السليم ١٨٥/٩

(٧) التحرير والتنوير ٦٩/٨

الشرك، ووجه إيراده على هذا الوجه؛ التحذير والإنذار للعباد من الشرك، لأنه إذا كان موجباً لإحباط عمل الأنبياء على الفرض والتقدير؛ فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولى.

قيل: وفي الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: ولقد أوحى إليك لئن أشركت، وأوحى إلى الذين من قبلك كذلك"(١).

ولقد امتدح الله تعالى؛ الرسل في إخلاصهم، فقال عن موسى عليه السلام ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾[مريم:٥١].

قال الطبري:"﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾ بكسر اللام من المخلص بمعنى: إنه كان يخلص لله العبادة ويفرده بالألوهة من غير أن يجعل له فيها شريكاً، وقرأ ذلك عامة قرّاء أهل الكوفة، خلا عاصم﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾ بفتح اللام من مُخْلَص(٢)، بمعنى: إن موسى كان الله قد أخلصه واصطفاه لرسالته، وحمله نبياً مرسلاً.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي: أنه كان ﷺ مخلِصاً عبادة الله، مُخْلَصا للرسالة والنبوّة، فبأيتهما قرأ القارئ؛ فمصيب الصواب"(٣).

وإذا كان تزيين الشيطان سبباً من أسباب الفساد، فإن الإخلاص لله تعالى؛ يكون عاصماً لصاحبه من الوقوع في مكائد الشيطان، فالشيطان لا سبيل له إلى المخلصين، لهذا﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[ص: ٨٢، ٨٣].

والاستثناء يُعد إقراراً من الشيطان بضعفِه على عدم تمكنه من إغواءِ المخلصين.

لذا قال الزمخشري:"استثنى المخلِصين؛ لأنه علِم أن كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه".(٤)

إضافة إلى أنهم فرّغوا قلوبهم لله تعالى، فلم تكن المنكرات مزيَّنة في نفوسهم، من هنا نجد

---

(١) فتح القدير ٦٧٥/٤

(٢) انظر: الحجة في القراءات السبع للحسين بن أحمد بن خالوية ص ١٩٤

(٣) جامع البيان ٣٨٠/٨

(٤) الكشاف ٦٤١/١

الداعي المظلوم، والمضطر قد فرَّغ قلبه لله، ولا يزين في نفسه شيء يلهيه عن دعوته؛ حتى يتحقق مراده.

وقال الشنقيطي: "أقسم الشيطان بعزّة الله، على أنه سيُضلّ بني آدم؛ بتزيين الشهوات لهم، وإدخال الشُبَه عليهم، حتى يصيروا غاوين جميعاً، ثم لَمّا علِم أن كيده لا ينجع إلا في أتباعه، وأحزابه من أهل الكفر والمعاصي، استثنى من لا يقدر على إضلاله، ولا يجد السبيل إلى إغوائه، فقال﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي: الذين أخلصتهم لطاعتك، وعصمتهم من الشيطان الرجيم".(١)

وقد ذكر سبحانه أن الشيطان لا سلطان له على المخلصين، فقال﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[النحل:٩٨-١٠٠].

وقد ضرب الله تعالى نموذجاً لأثر الإخلاص في دفع الفساد، فقال في حق نبيه يوسف عليه السلام ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[يوسف:٢٤].

قال البيضاوي:"اللذين أخلصهم الله لطاعته، وقرأ ابن كثير(٢)وأبو عمرو(٣)وابن عامر(٤) ويعقوب(٥)؛بالكسر في كل القرآن إذا كان في أوله الألف واللام(٦)، أي الذين أخلصوا دينهم لله"(٧). ومن قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

---

(١) أضواء البيان ٢٦٤/٦

(٢) عبد الله بن كثير الداري المكي أبو معبد إمام في القراءة ت/١٢٠هـ. تهذيب الكمال ٤٦٨/١٥

(٣) أبو عمرو بن العلاء بن عمار التميمي المازني المقريء ت/١٥٤هـ تقريب التهذيب لا بن حجر ٦٦٠

(٤) عبد الله بن عامر بن يزيد بن تميم اليحصبي .ت/١١٨هـ. تهذيب الكمال ١٤٨/١٥

(٥) يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي.المقرئ ت/٢٠٥هـ تهذيب الكمال ٣١٤/٣٢

(٦) انظر: الحجة في القراءات السبع ص ١٩٤

(٧) تفسير البيضاوي ٢٨٢/٣

والمعنى: بسبب إخلاصه صرفنا عنه السوء، وكذلك كل مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل.(١)

فقوله ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق، والمخلصون هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته، بأن عصمهم عما هو قادح فيها.(٢)

وإذا كان الإخلاص هو سبب نجاة العبد من كيد الشيطان وتزيينه وإغوائه، والوقوع في براثنه، فإن انتفاء الإخلاص، أو ضعفه؛ يجعل الشيطان مستحوذاً عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فقد تبين أن إخلاص الدين لله يمنع من تسلط الشيطان، ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب، كما قال تعالى﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[يوسف:٢٤]،فإذا أخلص العبد لربه الدين كان هذا مانعاً له من فعل ضد ذلك، ومن إيقاع الشيطان له فى ضد ذلك، وإذا لم يخلص لربه الدين، ولم يفعل ما خلق له، وفطر عليه، عوقب على ذلك، وكان من عقابه تسلط الشيطان عليه، حتى يزين له فعل السيئات، وكان إلهامه لفجوره عقوبة له على كونه لم يتق الله تعالى".(٣)

"وهذا إنما يبتلى به أهل الإعراض عن الإخلاص للّه، الذين فيهم نوع من الشرك، فامرأة العزيز كانت مشركة، فوقعت مع تزوجها فيما وقعت فيه من السوء، ويوسف عليه السلام مع عزوبته، ومراودها له، واستعانتها عليه بالنسوة، وعقوبتها له بالحبس على العفة؛ عصمه اللّه بإخلاصه للّه"(٤).

ولما تحدّث ابن القيم رحمه الله عن داء العِشق، الذي ابتلي به من ابتلي، قال:"ودواء هذا الداء القتّال؛ أن يعرف أن ما ابتلي به من هذا الداء المضاد للتوحيد؛ إنما هو من جهلِه وغفلةِ قلبه عن الله، فعليه:أن يعرف توحيد ربه وسننه وآياته أولاً، ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بم يشغل قلبه عن دوام الفكر فيه، ويكثر اللَّجأ والتضرع إلى الله سبحانه؛ في صرف ذلك عنه، وأن يرجع بقلبه إليه، وليس له دواءٌ أنفع من الإخلاص لله.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٠٣، ٤٠٧

(٢) إرشاد العقل السليم ٤/٢٦٧

(٣) مجموع الفتاوى ٣/١٠٧

(٤) المصدر السابق ٤/٧٠

وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[يوسف:٢٤]؛ فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه.

فإن القلب إذا خلص وأخلص عمله لله؛ لم يتمكن منه عشق الصور؛ فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ؛ كما قال[1]:

أتاني هواها قبلَ أنْ أعرِفَ الهوى فصادفَ قلباً خالياً فتمكّنا"[2]

ومن ثَمّ؛ فكلّما كان العبد موحدًا مخلصًا لله تعالى؛ كان أكثر طمأنينة وسعادة، وكلّما كان بعيداً عن الله تعالى؛ كان أكثر حيرة وضلالاً، كما قال سبحانه ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٧١]، فلا سبيل لدفع الفساد إلا بالإخلاص، حتى لا يقع العبد فريسة للشيطان.

والناس قاطبة، يدركون أثر الإخلاص؛ فيلجأون إليه ساعة الضر، قال الله تعالى﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[يونس:٢٢،٢٣].

قال السعدي:"انقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة؛ إلا الله وحده، فدَعوُه مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله الذي اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد إلا هو، ولا يدفع عنهم المضايق إلا هو، فهلاّ أخلصوا لله العبادة في الرخاء، كما

---

(١) البيان والتبيين ص٢٣٣

(٢) الجواب الكافي ص ١٥٠.

أخلصوها في الشدة ؟ ولكن هذا البغي يعود وباله عليه".(١)

فالمشركون حينما يُضيَّق عليهم يعلنون الإخلاص؛ رجاء النجاة مما هم فيه من هلاك، قال تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾[الإسراء:٦٧].

"فالكفار إذا مسّهم الضر في البحر، واشتدت عليهم الريح فغشيتهم أمواج البحر؛كأنها الجبال، وظنوا أنهم لا خلاص لهم من ذلك﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي غاب عن أذهانهم وخواطرهم في ذلك الوقت؛ كل ماكانوا يعبدون من دون الله جل وعلا، فلا يدعون في ذلك الوقت؛ إلا الله جل وعلا وحده، لعلمهم أنه لا ينقذ من ذلك الكرب، وغيره من الكروب؛ إلا هو وحده جل وعلا، فأخلَصوا العبادة والدعاء له وحده؛ في ذلك الحين الذي أحاط بهم فيه هول البحر، فإذا نجاهم الله وفرَّج عنهم، ووصلوا البر؛ رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، كما قال تعالى﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾".(٢)

كما تقرر ذلك - أيضاً - في قوله تعالى ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[لقمان:٣٢].

قال أبوالسعود:"﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ﴾ لزوالِ ما ينازعُ الفطرةَ من الهَوَى والتَّقليدِ بما دهاهم من الدَّواهي والشَّدائدِ"(٣).

إذاً الإخلاص في الأعمال يكتب لصاحبها النجاة، وعلى هذا فإن أهل الإخلاص لله تعالى؛ أولى بالأمن من غيرهم، لأنهم قوم نقَّوا أنفسهم مما سوى الله تعالى.

وفي قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم صخرة الغار؛ ما يدل على ذلك، فعن عبد الله بن عمر ﵄ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:"انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم، حتى أووا المبيت إلى غار، فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل؛ فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة؛ إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم..." الحديث.(٤)

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٣١٦

(٢) أضواء البيان ٣/٢٤٢

(٣) إرشاد العقل السليم ٥/٣٠٣

(٤) أخرجه البخاري الاجارة باب : من استاجر أجيراً. ح(٢١٥٢).

ولما أدرك المشركون حقيقة توحيد الله تعالى؛ كرهوا إخلاص العبادة له سبحانه، لهذا قال جل وعلا﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[غافر:١٤].

والمعنى:"ولو كره عبادتكم إياه مخلصين له الطاعة؛ الكافرون المشركون في عبادتهم إياه الأوثانَ والأنداد".(١)

قال السعدي:"ولما كانت الآيات تثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص للّه، رتَّب الأمر على ذلك؛ بالفاء الدالة على السببية، فقال سبحانه ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة.

والمعنى: أخلصوا للّه تعالى في كل ما تدينونه به وتتقربون به إليه﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يثنكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده، غاية الكراهة، وهذا واضح غاية الوضوح، كما في قوله تعالى﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[الزمر:٤٥]".(٢)

وهذا يؤكد عِظم فسادهم في عدم إخلاصهم لله تعالى، في كل أحوالهم، فلما فقدوا إخلاص العمل لله؛ كان الفساد ملازماً لهم.

ومن هنا؛ فإن الله تعالى اشترط ذلك، وذكر أنه لا خلاص لأهل الكتاب عن فسادهم، إلا بالإخلاص لله تبارك وتعالى، كما في آية آل عمران ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران:٦٤].

---

(١) جامع البيان ٨٩/٨

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٤٢١

والإخلاص يطهّر كل شائبة؛ ظاهرة كانت أو باطنة، ولذا فالمخلِصون يقصدون بأعمالهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[الإنسان:٩]. أي: لا جزاء مالياً، ولا ثناء قولياً(١).

وفي بيان أثر الإخلاص على صاحبه يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:"فإن المخلص لله، ذاق من حلاوة عبوديته لله؛ ما يمنعه عن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله؛ ما يمنعه عن محبة غيره، إذ ليس عند القلب؛ لا أحلى، ولا ألذ، ولا أطيب، ولا ألين، ولا أنعم؛ من حلاوة الإيمان، المتضمن عبوديته لله، ومحبته له، وإخلاصه الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله، فيصير القلب منيباً إلى الله، خائفاً منه، راغباً راهباً.

كما قال تعالى﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾[ق:٣٣]، إذ المُحب يخاف من زوال مطلوبه، وحصول مرغوبه، فلا يكون عبداً لله ومحبه؛ إلا بين خوف ورجاء؛ قال تعالى﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[الإسراء:٥٧]،وإذا كان العبد مخلصاً له؛ اجتباه ربه فيحيي قلبه، واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك، من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك؛ بخلاف القلب الذي لم يخلص لله؛ فإنه في طلب وإرادة وحب مطلق، فيهوى ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه، كالغصن أيُّ نسيم مرَّ بعطفه أماله.

فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة؛ فيبقى أسيراً عبداً لمن لو اتخذه هو عبداً له؛ لكان ذلك عيباً ونقصاً وذماً، وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة، وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يُثني عليه، ولو بالباطل، ويعادي من يذمه، ولو بالحق، وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدى من الله. ومن لم يكن خالصاً لله عبداً له، قد صار قلبه معبداً لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحبَّ إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلاً له خاضعاً؛ وإلا استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٩٠١.

وصار فيه من السوء والفحشاء؛ ما لا يعلمه إلا الله، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه؛ فالقلب إن لم يكن حنيفاً مقبِلاً على الله، معرِضاً عما سواه؛ وإلا كان مشركاً". [(١)]

ولن يصل العبد بأعماله إلى الجنة محاطة برحمة الله، إلا إذا كانت مكلَّلة بالإخلاص، لهذا قال تعالى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠].
ومدح الله تعالى أهل الجنة فقال﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾[الإنسان: ٢١].

(١) رسالة العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٩.

المبحث الثالث

الصَلاة

من وسائل دفع الفساد الصلاة، فإذا حافظ عليها العبد؛ كانت سبباً في منعه من الوقوع في الفساد، لهذا قال تعالى﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت:٤٥].

"ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها، وشروطها، وخشوعها؛ يستنير قلبه ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل، أو تُعدم رغبته في الشر، فبالضرورة مداومتها، والمحافظة عليها، على هذا الوجه؛ تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها".(١)

فهي تشتمل على ترك الفواحش والمنكرات، إذ إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك.(٢)

قال ابن تيمية رحمه الله:"وأمر الصلاة عظيم، فهي قِوام الدين وعماده، وتعظيمه تعالى لها في كتابه؛ دليل على أنها فوق جميع العبادات، فإنه سبحانه يخصُّها بالذِكر تارة، ويقرنها بالزكاة تارة، وبالصبر تارة، وبالنسك تارة، كقوله تعالى﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[البقرة: ٤٣]، وقوله﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[البقرة:٤٥]، وقوله﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾[الكوثر:٢]، وقوله﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢،١٦٣].

وتارة يفتتح بها أعمال البر، ويختمها بها، كما ذكره في سورة سأل سائل، وفي أول سورة المؤمنون، قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾إلى قوله﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾[المؤمنون:١-١٠]".(٣)

وكيف لا تكون دافعة للفساد؛ وهي أعظم شعار الدين، وركنه الركين، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:"بُني الإسلام على خمس؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان".(٤)

ولقد ذُكِرت الصلاة في القرآن في مواضع كثيرة، وذلك لشرفها وعِظم قدرها، فكل التكاليف؛ جاءت بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، عدا الصلاة التي فرضت مباشرة من الله لنبيه ﷺ ليلة الإسراء، وهو في السماء السابعة، بل إنها العبادة الوحيدة، التي لا رخصة في

---

(١) تيسير الكريم الرحمن. ص ٦٣٢

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٤٩/٣

(٣) مجموع الفتاوى ٤٣٠/٣

(٤) أخرجه البخاري.كتاب:الإيمان. باب الإيمان وقول ﷺ "بني الإسلام على خمس".ح(٨).

سقوطها، بخلاف بقية الأركان غير الشهادتين، لهذا فإن من تركها فقد كفر ،كما ورد في حديث جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:"إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة".[(١)]

فقد جعلها الله من ميثاقه على عباده، وشرطاً لصلاحهم، فقال في شأن بني إسرائيل ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى ...﴾[المائدة:١٢].

وكم كانت شرطاً لقبول توبة المشركين﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[التوبة:١١]

ولذا لما عَظُم فساد المنافقين؛ ثقلت عليهم الصلاة؛ وكأن القرآن يشير إلى أن مثل هؤلاء لا سبيل إلى صلاحهم وهذه حالهم﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء:١٤٢]، وقال ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[التوبة:٥٤].

ومن حافظ عليها كانت سبباً في نجاته في الدنيا من الذنوب والآثام، وفي الآخرة من الخزي والحسرة، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أنه ذكر الصلاة يوماً، فقال:"من حافظ عليها، كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها، لم يكن له نور، ولا برهان، ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف".[(٢)]

ومن عظيم حكمة الله تبارك وتعالى؛ أن الصلوات خمس مفرّقة على ساعات النهار والليل، فلو كانت الصلاة في وقت واحد من اليوم؛ ربما كان هذا معناه أن الله يُذكَر في وقت واحد من اليوم، لكن جعلها الله كذلك؛ ليكون المسلم على اتصال بالله تعالى في كل حين من حياته، فإذا كان دائم الصلة بالله تعالى في الليل والنهار؛ فسيكون بعيداً عن دائرة الفساد.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣٩)

(٢) حديث حسن ورواه الإمام أحمد في مسنده ٢/١٦٩

فالصلاة عبادة لها مغزى ومعنى، وليس المراد منها هو الحركات المجردة، دون إعمال الفكر والتدبر، وقد قال تعالى﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[طه:١٤].

قال السعدي:"قوله﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ اللام للتعليل أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي، لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وهو عبودية القلب، وبه سعادته، فالقلب المعطّل عن ذكر الله، معطَّل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات، التي المقصود منها؛ إقامة ذكره، وخصوصاً الصلاة"(١).

فالصلاة لها ثمرات تعود على صاحبها، ومن ثمراتها؛ أن تنهاه صلاة عن أفعال المفسدين، فعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، قال:"إنه سينهاه ما يقول".(٢)

لهذا قال ابن عباس وابن مسعود ﷺ: فإن قال قائل: وكيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر، إن لم يكن معنياً بها، ما يُتلى فيها ؟

قيل: تنهى من كان فيها، فتحول بينه وبين إتيان الفواحش، لأن شُغله بها يقطعه عن الشُغل بالمنكر(٣).

وقال ابن مسعود ﷺ:"من لم يطع صلاته؛ لم يزدد من الله إلا بُعداً، وذلك أن طاعته لها؛ إقامته إياها بحدودها، وفي طاعته لها؛ مزدجر عن الفحشاء والمنكر".(٤)

وعلى هذا؛ فإن المحافظة على الصلاة المفروضة؛ تكفر الذنوب السالفة، ويدل لذلك، قوله تعالى﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[هود:١١٤].

قال ابن عاشور:"انتقل إلى خطاب النبي ﷺ، وهذا الخطاب يتناول جميع الأمة، بقرينة أن المأمور به من الواجبات على جميع المسلمين، لا سيما وقد ذكر معه ما يناسب الأوقات المعينة للصلوات الخمس.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٠٣

(٢) حديث صحيح ورواه أحمد في مسنده ٤٤٧/٢

(٣) جامع البيان ١٥٥/٢٠

(٤) ذكره السيوطي في الدر وعزاه لسعيد بن منصور وأحمد في الزهد وابن جرير وغيرهم. الدر المنثور٤٦٥/٦ وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٢٥٨/٢

وجملة ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مسوقة مساق التعليل للأمر بإقامة الصلوات، وتأكيد الجملة بحرف (إن)؛ للاهتمام وتحقيق الخبر، و(إن) فيه؛ مفيدة معنى التعليل والتفريع، وهذا التعليل؛ مؤذن بأن الله جعل الحسنات يذهبن السيئات، والتعليل مشعِر بعموم أصحاب الحسنات، لأن الشأن أن تكون العلة أعم من المعلول، مع ما يقتضيه تعريف الجمع باللام من العموم، وإذهاب السيئات؛ يشمل إذهاب وقوعها؛ بأن يصير انسياق النفس إلى ترك السيئات سهلاً وهيناً، كقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]. ويكون هذا من خصائص الحسنات كلها، ويشمل أيضاً محو إثمها إذا وقعت، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلها، فضلاً مِن الله على عباده الصالحين، ومحمل السيئات هنا؛ على السيئات الصغائر التي هي من اللَّمم".(١)

إذاً الصلاة تقي العبد من التمادي في السير في طريق المفسدين، لأنه إذا حافظ على الصلاة فان ذنوبه تمحى، ودليل ذلك ما رواه ابن مسعود ﷺ: أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة حرام، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك، فأنزلت عليه﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾. فقال الرجل: أليّ هذه ؟ قال ﷺ: "لمن عمِل بها من أمتي".(٢)

ومما يدل على محوها آثار الفساد التي يقترفها العبد، قوله تعالى﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[العنكبوت:٤٥].

قال القرطبي:" لم يختلف أحد من أهل التأويل، في أن الصلاة في هذه الآية؛ يراد بها الصلوات المفروضة، وخصَّها بالذِكر؛ لأنها ثانية الإيمان، وإليها يُفزع في النوائب، وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة".(٣)

ويضيف ابن عاشور معنى آخر على ما قاله القرطبي، فيقول:"والمقصود أن الصلاة تيسر للمصلي ترك الفحشاء والمنكر، وليس المعنى: أن الصلاة صارفة المصلي عن أن يرتكب

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٤٩

(٢) أخرجه البخاري كتاب : التفسير، سورة هود. ح (٤٤١٠)

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٩٣/٩

الفحشاء والمنكر، فإن المشاهد يخالفه، إذ كم من مصلٍ يُقيم صلاته، ويقترف بعض الفحشاء والمنكر، كما أنه يصح أن يكون المراد؛ أنها تصرف المصلي عن الفحشاء والمنكر، ما دام متلبساً بأداء الصلاة، لقلَّة جدوى هذا المعنى، فإن أكثر الأعمال يصرِف المشتغل به؛ عن الاشتغال بغيره، وإذ كانت الآية مسوقة للتنويه بالصلاة، وبيان مزيتها في الدين، تعيّن أن يكون المراد؛ أن الصلاة تحذّر من الفحشاء والمنكر، تحذيراً هو من خصائصها.

وللمفسرين طرائق في تعليل ذلك منها: ما قاله بعضهم: إن المراد به ما للصلاة من ثواب عند الله، فإن ذلك غرض آخر، وليس منصبّاً إلى ترك الفحشاء والمنكر، ولكنه من وسائل توفير الحسنات، لعلها أن تَغمر السيئات، فيتعين لتفسير هذه الآية تفسيراً مقبولاً؛ أن نعتبر حكمها عاماً في كل صلاة، فلا يختص بصلوات الأبرار، وبذلك تسقط عدَّة وجوه، مما فسروا به الآية، وفي الصلاة أعمال قلبية؛ من نية، واستعداد للوقوف بين يدي الله، وذلك يذكّر بأن المعبود؛ جدير بأن تمتثل أوامره، وتجتنب نواهيه، فكانت الصلاة بمجموعها؛ كالواعظ الناهي عن الفحشاء والمنكر، فإن الله قال ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، ولم يقل: تصدُّ وتحُول، ونحو ذلك، مما يقتضي صرف المصلي عن الفحشاء والمنكر".[1]

ومما يؤكد نهي الصلاة عن المنكر؛ ذِكرها في ثنايا النهي عن الربا قال سبحانه﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة:٢٧٦،٢٧٧].

ولما كان أثرها عظيماً في درء الفساد؛ فقد اجتهد الشيطان؛ لصدِّ الناس عنها بكل سبيل؛ لما يعلمه – عدو الله – من أثر الصلاة على صلاح أهلها،فقال تعالى﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة:٩١].

لهذا أمر الله تعالى بالاستعانة بها، كما في قوله تعالى ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[البقرة:٤٥].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٨٩/٧

لما فيها من تلاوة كتاب الله، الداعية آياته إلى الحذر من الدنيا، المسلِّية للنفوس عن زينتها وغرورها، المذكِّرة بالآخرة، وما أعد الله فيها لأهلها، ففي الاعتبار بها؛ المعونة لأهل طاعة الله على الجِدّ فيها.[١]

فهي صفة المصلحين﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٠] وأهل الصلاة هم المنتفعون بالنذارة ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾[فاطر:١٨].

وقد قال ﷺ:"وجعلت قرة عيني في الصلاة"[٢].

(١) جامع البيان ١/٣٩٨

(٢) حديث حسن ورواه احمد في مسنده ١٢٨/٣

المبحث الرابع

الدّعَاء

الدعاء في اللغة: يدور حول معانٍ، منها؛ الاستغاثة واللجوء إلى الله والرغبة إليه، وعليه فالدعاء: واحد الأَدْعية، وأَصله دُعاو، لأنه من دَعَوْت، إلا أن الواو لَمَّا جاءت بعد الأَلف هُمِزتْ، ودَعا الرجلَ دَعْواً ودُعاءً؛ ناداه، والاسم الدعْوة، ودَعَوْت فلاناً؛ أَي: صِحْت به واسْتَدْعَيْته.[١]

وفي الاصطلاح: أفاد معنى التذلّل، كما عرّفه الطيبي: بأنه إظهار غاية التذلّل والافتقار إلى الله، والاستكانة له، وما شرعت العبادات؛ إلا للخضوع للباري، وإظهار الافتقار إليه.[٢]

وهو في القرآن؛ إما دعاء العبادة، أو دعاء المسألة، وهو: دعاء ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه، وكل من يملك الضر والنفع؛ فإنما هو المعبود بحق.

أما دعاء العبادة؛ فهو ما يتضمن الثناء على الله بما هو أهله، ويكون مصحوباً بالخوف والرجاء، والدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان، فالعبد يدعو للنفع، أو لدفع الضر؛ دعاءَ المسألة، ويدعو خوفاً ورجاءً؛ دعاءَ العبادة، فكل دعاء عبادة؛ مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة؛ مستلزم دعاء العبادة. وقد ورد المعنيان جميعاً في قوله تعالى ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف:٥٥،٥٦].

وأما قوله تعالى﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة:١٨٦].

فإنه يتناول نوعي الدعاء أيضاً، وبكل منهما فُسّرت الآية، قيل: المعنى أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان متلازمان.[٣]

فإذا دعا العبد ربه أن يبعده عن الفساد وأهله، فإن الله يستجيب دعاءه.

ولا يليق بالعبد أن يفتُر عن الدعاء، مهما كان تقصيره في جنب الله تعالى، فلقد استجاب الله دعاء شر خلقه إبليس حين ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[ص:٧٩].

---

(١) انظر: لسان العرب ٢٥٧/١٤ مادة (دعا).

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر ٩٥/١١

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ٢٣٧/١٠، ١٠/١٧.

وفي القرآن الكريم تضافرت الآيات في الأمر بالدعاء، كما في قوله﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠].

قال ابن كثير: "هذا من فضله تبارك وتعالى، وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفّل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: يا من أحب عباده إليه من سأله، فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه؛ من لم يسأله، وليس أحد كذلك غيرك يا رب".(١)

فالدعاء عبادة نتعبد به، كما كان منهج الأنبياء عليهم السلام، وعباد الله الصالحين، لأنه التجاء إلى الله تعالى، وطلب الحماية منه، ولقد كان رسول الله ﷺ في أعلى المقامات، ومع هذا كان يطلب من ربه سبحانه وتعالى المزيد، فعن المغيرة بن شعبة ﷺ قال:كان النبي ﷺ يصلي حتى ترمّ أو تنتفخ قدماه، فيقال له، فيقول:" أفلا أكون عبداً شكوراً".(٢)

ولما كان الدعاء بهذه المترلة العالية، كان مطلباً لكل الصالحين، حكى ذلك القرآن الكريم كما في قوله﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠].

أي يفزعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء والشدة، وقيل: المعنى يدعون وقت تعبدهم، وهم بحال رغبة ورجاء، ورهبة وخوف، لأن الرغبة والرهبة متلازمان.(٣)

وأضاف العلامة السعدي:"أن المعنى أنهم يسألوننا الأمور المرغوب فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بنا، من الأمور المرهوب منها، من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون، لا غافلون لاهون، ولا مدلون".(٤)

والدعاء هو سبيل عباد الله المتقين في كل زمان؛ لدرء شر المفسدين، قال تعالى﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١٠٩/٤

(٢) أخرجه البخاري كتاب : الرقاق باب : الصبر عن محارم الله.ح(١٠٧٨).ومسلم. كتاب:كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب إكثار الأعمال ح ٢٨١٩

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٤٩/١١

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص٥٣٠

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[آل عمران:١٤٦-١٤٨].
قال الإمام الطبري:" لم يعتصموا إذ قُتل نبيهم؛ إلا بالصبر على ما أصابهم، ومجاهدة عدوهم، وبمسألة ربهم المغفرة والنصر على عدوهم".[١]
"فما كان قولهم إلا هذا القول، وهو إضافة الذنوب إلى أنفسهم – مع كونهم ربانيين – هضماً لها، وقدَّم الدعاء والاستغفار من الذنوب، على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب، والنصرة على الأعداء؛ لأنه أقرب إلى الإجابة لما فيه من الخضوع والاستكانة".[٢]

إنّ هؤلاء مع ما هم فيه من جهد ومشقة؛ إلا أنهم لم يغفلوا الدعاء؛ من أجل التواصل الذي هم في حاجة إليه مع الله تبارك وتعالى، لهذا قال تعالى ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾فكانت النتيجة ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[البقرة:٢٥٠-٢٥١].

"وذكر تعالى عن نوح وموسى عليهم السلام التشديد في الدعاء على قومهما، فقال عن نوح عليه السلام ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح:٢٧]، وقال عن موسى عليه السلام ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[يونس:٨٨].
والظاهر أن نوحاً وموسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، ما دَعَوا ذلك الدعاء على قومهما؛ إلا بعد أن علِما من الله، أنهم أشقياء في علم الله، لا يؤمنون أبداً، أما نوح فقد صرح الله تعالى له بذلك في قوله﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[هود:٣٦]، وأما موسى فقد فهِم ذلك من قول قومه له ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[الأعراف:١٣٢]، فإنهم قالوا هذا القول بعد مشاهدة تلك الآيات العظيمة

(١) جامع البيان ٤٦٤/٣
(٢) تفسير النسفي ١٨٣/١

المذكورة في "الأعراف" وغيرها".[١]

قال القرطبي: "وقد استشكل بعض الناس هذه الآية فقال: كيف دعا عليهم وحُكْم الرسل استدعاء إيمان قومهم؟ فالجواب: أنه لا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن من الله، وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن، ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن، دليله قوله لنوح عليه السلام ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ وعند ذلك قال ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ والله أعلم".[٢]

وقال عليه السلام في دعائه ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح:٢٨] "والتبار الهلاك والخسار، فهو تخصيص للظالمين من قومه بسؤال استئصالهم، بعد أن شملهم وغيرهم بعموم قوله ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾؛ حرصاً على سلامة المجتمع الإنساني من شوائب المفاسد، وتطهيره من العناصر الخبيثة[٣].

وفي دعاء لوط عليه السلام أشارة إلى ذلك ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٠]

وهذا إبراهيم عليه السلام وهو إمام الحنفاء دعى ربه أن يجنبه وذريته أعظم الفساد، فقال ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

فدعاء المؤمن في شدة الأزمات والشدائد، دعاء عبد يئس من المخلوقين، وتعلّق قلبه بالخالق وحده، الذي يجيب المضطر إذا دعاه ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

وتأمل حال الشدَّة التي عاشها النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في غزوة بدر، صورها الله تعالى بقوله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩].

يقول القرطبي: "واستغاثتهم؛ أنهم لما علموا أنه لا بدّ من القتال، طفقوا يدعون الله، ويقولون: أي ربنا انصرنا على عدوّك، يا غياث المستغيثين أغثنا".[٤]

---

(١) أضواء البيان ٢/٢٤٨

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨/٣٧٥

(٣) التحرير والتنوير ٢٩/١٩٩

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢/٢٣٢

وكان النبي ﷺ يكثر من بعض الدعوات يسأل فيها ربه الثبات على الحق، فعن أَنسٍ ﷺ قال: كان رسول اللَّه ﷺ يُكْثِر أَن يقول:" يا مُقَلِّبَ القُلوب ثَبِّت قَلبي على دِينك، فقلت: يَا رسول اللَّه؛ آمنا بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء".(١)

وهذا نبي الله يوسف ﷺ لما استعانت عليه امرأة العزيز بنساء المدينة، استعان عليهن بالله عز وجل،حيث قال ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[يوسف:٣٣،٣٤]

والمتأمل في الآيتين؛ لا يجد صيغة الدعاء ظاهرة، لهذا قال الزمخشري:"وإنما ذكر الاستجابة ولم يتقدم الدعاء، لأن قوله "إلا تصرف عني" فيه معنى طلب الصرف، والدعاء باللطف".(٢)

إذاً الدعاء هو سلاح المؤمن في كل حين، فإذا أهمله؛ فهو على وشك الهلاك، وإذا كان المسلم على اتصال دائم بالله تعالى، يدعوه ليلاً ونهاراً، فإن الله تعالى لا يتخلى عن عباده الذين يدعونه أبداً، كما لم يتخل عن يوسف ﷺ.

ولذلك باشر النبي ﷺ الدعاء؛ في التاليف القلوب وإصلاحها، قال أبو هريرة ﷺ: قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه، على النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله: إن دوساً عصت وأَبَت، فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس، فقال ﷺ:"اللهم اهدِ دوساً وأتِ بهم".(٣)

وإذا جلت بقلبك مع هذا النص القرآني ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾[آل عمران:١٩٥]، تجد أن الله تعالى أجاب دعاء عباده سريعاً.

لهذا قال ابن عاشور:"دلت الفاء على سرعة الإجابة بحصول المطلوب، ودلت على أن مناجاة العبد ربه بقلبه، ضرب من ضروب الدعاء قابل للإجابة".(٤)

---

(١) رواه الترمذي في سننه كتاب القدر. باب:ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن.ح(٢١٤٠)

(٢) الكشاف ٥٨٥/١

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الجهاد. باب: الدعاء للمشركين.ح(٢٧٧٩).

(٤) التحرير والتنوير ١٧٤٢

"وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب، ولما كان الصحابة ﭬ أعلم الامة بالله ورسوله، وأفقههم في دينه كانوا أقوم بهذا السبب، وشروطه، وآدابه من غيرهم، وكان عمر ﭬ يستنصر به على عدوه، وكان أعظم جندِه، وكان يقول للصحابة: لستم تنصرون بكثرة، وانما تنصرون من السماء، وكان يقول: إني لا أحمل هم الإجابة ولكن همَّ الدعاء، فاذا أُلهمت الدعاء معه، فإن الاجابة معه".(١)

فإذا توفر الإيمان في القلوب، واتجه الناس بالدعاء لربهم؛ استجاب دعاءهم، وهذا من مظاهر تأييد الله لعباده الصالحين.

ومن الموطن التي يتجلى فيها أثر الدعاء في دفع الفساد؛ أمره سبحانه إيانا؛ أن نسأله كل يوم وليلة مرات عديدة في صلاتنا؛ أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، وهم أولو الهدى والرحمة، ويجنبنا طريق المغضوب عليهم؛ وهم ضد المرحومين، وطريق الضالين؛ وهم ضد المهتدين، ولهذا كان هذا الدعاء؛ من أجمع الدعاء، وأفضله، وأوجبه.(٢)

ولذا كان دعاء فاتحة الكتاب من أنفع الدعاء وأجمعه لاشتماله على طلب العون في فعل الصالح وترك الفاسد.

قال ابن القيم:"فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا وعلى دفع ما يضاده وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: تأملت أنفع الدعاء؛ فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]".(٣)

وقال رحمه الله:"ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة، لا سبيل إلى نيله؛ إلا بمعرفة الحق، وإيثاره على غيره، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق، والبغي يمنعه من إرادته؛ كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت؛ أن يهديه الصراط المستقيم، تعريفاً، وبياناً وإرشاداً، وإلهاماً وتوفيقاً، وإعانةً، فيعلمه ويعرفه، ثم يجعله مريداً له قاصداً لاتباعه،

---

(١) الجواب الكافي ص ٩.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان ١٧٥/٢

(٣) مدارج السالكين ٧٨/١

فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم، الذين عدلوا عنه على عمد وعلم، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال.

وكان السلف يقولون: من فسد من علمائنا؛ ففيه شبه من اليهود،ومن فسد من عبادنا؛ ففيه شبه من النصارى، وهذا كما قالوا؛ فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود.. وأما من فسد من العباد، فعبد الله بمقتضى هواه، لا بما بعث به رسوله..فشبهه بالنصارى ظاهر.

فعلى المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البُعد، إلى هذا الدعاء الذي ليس للعبد دعاء أنفع منه ولا أوجب منه عليه، وأن حاجته إليه؛ أعظم من حاجته إلى الحياة والنَفَس؛ لأن غاية ما يقدر بفوتهما موته، وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين. آمين"[1].

وقد تحدث القرآن الكريم عن الفساد المحقق؛ لمن أمِن مكر الله تعالى، وغفل عن دعائه، فهؤلاء الذين اغتروا بحياتهم الدنيا، واطمأنوا بها، وكأن العذاب لم يكتب إلا على الذين من قبلهم، تأمل قوله تعالى ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٣، ٤٤].

ولذا كان لِزاماً على المرء؛ أن يجتهد في أمر الدعاء؛ بتحقيق شروطه وآدابه، والمجاهدة في دفع موانعه؛ ليكون أقرب إلى الصلاح في كل أحواله.

ومما سبق يتجلى أثر الدعاء في دفع الفساد؛ سواء أكان باعث الفساد من النفْس، أو الغير.

---

(١) بدائع الفوائد ٢/٢٦٩

المبحث الخامس

التخويف بالله تعالى

من السُبُل التي يندفع بها الفساد؛ خوف العبد من ربه، والخَوْفُ: هو الفَزَع، خافَه يخافُه خَوْفاً، وخِيفةً ومَخافةً، والتخَوُّفُ التَّنَقُّصُ، كما في التنزيل﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾[النحل:٤٧].

قال الزجاج :ويجوز أَن يكون معناه؛ أَو يأْخذهم بعد أَن يُخيفَهم، بأَن يُهْلِك قَريةً؛ فتخاف التي تليها.

وكذلك التخْويفُ، يقال خَوَّفَه وخوَّفَ منه، وخَوَّف الرجلَ؛ جعل الناسَ يَخافونه، وفي التنزيل ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران:١٧٥]، أَي يجعلكم تخافون أَولياءه.(١)،

والخوف من الله؛ هو عبارة عن تألم القلب واحتراقه؛ بسبب توقع مكروه في الاستقبال.(٢)

أما التخويف من الله تعالى؛ فهو الحثّ على التحرُّز، وفي ذلك يقول تعالى﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾[الزمر:١٦].

والخوف من الله تعالى لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب، كاستشعار الخوف من الأسد، بل إنما يراد به؛ الكفُّ عن المعاصي، واختيار الطاعات، ولذلك قيل: لا يُعدُّ خائفاً؛ من لم يكن للذنوب تاركاً.(٣)

هذا ولقد جاء القرآن بهذا الإسلوب، والهدف منه؛ أن يحمل على ترك الفساد أو يعالج صوراً للفساد، ويمكن تأمل ذلك بالإشارة لما يأتي:

١/**تخويف الله تعالى عباده بنفسه**، كما في قوله سبحانه﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:٣٠]، فأخبر عز وجل أنه رؤوف بعباده، رحيم بهم، وأن من رأفته بهم؛ تحذيره إياهم نفسه، وتخويفهم عقوبته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معاصيه.(٤)

---

(١) انظر: لسان العرب ٩/٩٩ مادة(خوف).

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٣١٤

(٣) المفردات للراغب. ص ١٦١

(٤) جامع البيان ٣/٢٣٠

وهذا التحذير من الله تعالى؛ حتى لا يغتر الإنسان بنفسه، فيتبع هواه؛ فيقع في الممنوع شرعاً، إذ التحذير؛ من شأنه أن يغرس في القلوب التذكر والاعتبار، والوجل والخوف من الله، ومن عقابه.

٢/وتارة يكون التخويف بالقرآن، كما في قوله تعالى﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[الأنعام:٥١].

قال ابن كثير:"أي، وأنذر بهذا القرآن يا محمد، فيعملون في هذه الدار، عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه".(١)

"وهذا القرآن نذارة للخلق كلهم، ولكن إنما ينتفع به﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فهم متيقنون للانتقال، من هذه الدار إلى دار القرار، فلذلك يستصحبون ما ينفعهم، ويدَعُون ما يضرهم".(٢)

وتخصيص ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ بالذِكر، لأن الإنذار يؤثر فيهم؛ لِما حلَّ بهم من الخوف، بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر؛ لجحوده به وإنكاره له، فإنه لا يؤثر فيه ذلك.(٣)

لهذا قال تعالى﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[ق:٤٥]، فمن خاف من الله تعالى، فإنه يسلك طريق الطاعة، ويستشعر لذتها، وبرْد حلاوتها، فحينها تكون طاعته صارفة له عن الفساد.

٣/وأما التخويف من عقاب الله؛ فكثير في القرآن، ومن ذلك قول الله تعالى﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[يوسف:١٠٧].

قال الطبري:"أفأمن هؤلاء الذين لا يُقرّون بأن الله ربهم؛ إلا وهم مشركون في عبادتهم إياه غيره،﴿أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تغشاهم من عقوبة الله وعذابه؛ على شركهم به،أو تأتيهم القيامة فجأة، وهم مقيمون على شركهم وكفرهم بربهم، فيخلّدهم الله عز وجل في ناره،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ١٨١/٢

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٨

(٣) فتح القدير ١٧٢/٢

وهم لا يدرون بمجيئها وقيامها".(١)

ولذا عاب الله تعالى على من يعملون السيئات، ويأمنون عقابه، فقال تعالى ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾[النحل:٤٥–٤٧]، وفي الآية تهديد شديد، بوعيد الله تعالى للمشركين، بقرب العذاب لهم، إذا استمروا على ما هم فيه من فساد.

٤/ ونجد التخويف أيضاً بيوم القيامة، ذلك اليوم الذي يكافئ الله تعالى فيه المُحسن على إحسانه، والمسيئ على إساءته، لهذا قال تعالى محذراً من لذلك اليوم﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾[مريم:٣٩، ٤٠]

قال السعدي:"الإنذار هو: الإعلام بالمخوف على وجه الترهيب، والإخبار بصفاته، وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد، يوم الحسرة حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد، ويسألون عن أعمالهم، فمن آمن بالله واتبع رسله؛ سعِد سعادة؛ لا يشقى بعدها، ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله؛ شقي شقاوة؛ لا سعادة بعدها، وخسر نفسه وأهله، فحينئذ يتحسر ويندم ندامة تتقطع منها القلوب، وتنصدع منها الأفئدة، وأي حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته، واستحقاق سخطه والنار على وجه لا يتمكن من الرجوع ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا ؟! فهذا قدامهم،والحال أنهم في الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم، لا يخطر بقلوبهم، ولو خطر فعلى سبيل الغفلة، قد عمتهم الغفلة، وشملتهم السكرة، فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسله، قد ألهتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتهم المنقضية الفانية".(٢)

ويوم القيامة؛ وصِف باليوم العظيم؛ لشدة ما فيه من أهوال تنخلع لها القلوب، لهذا قال تعالى ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾[الزمر: ١٣]، لذلك فإن الأنبياء عليهم السلام، قد تخوفوا على أقوامهم خطر هذا اليوم، قال تعالى عن نوح عليه السلام﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾[الأعراف:٥٩].

---

(١) جامع البيان ٣١٤/٧

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٤٦

وكذا قال شعيب عليه السلام ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾[هود:٨٤].

ولما طلب المشركون من النبي ﷺ أن يغيّر كلام ربه، أو يبدّله؛ خوّفهم بالله، لأنه ﷺ أشد الناس خشية لله، قال تعالى﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[يونس:١٥].

٥/ ويأتي التخويف بالنار، وفي من الترهيب ما ينبه الإنسان ليستعتب نفسه، وليكون على حذر دائم، حتى لا يكون من الخاسرين، وإليه الإشارة في قوله تعالى﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾[الزمر:١٤- ١٦].

وقوله﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾[إبراهيم:٤٤]. والإنذار يكون قبل وقوع الشيء، فتصوّر الشيء فرع عن تأمّله، فحين يتأمل المرء حال أصحاب النار، وهم فيها، كما بيَّنه القرآن، يدفعهم هذا التأمل إلى عدم الوقوع في المفاسد التي توجب السعير ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾[النساء:٥٥].

فمن شاء اتبع الحق ففاز ونجا، ومن شاء اتبع الباطل فضل وهوى، قال تعالى ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾[الكهف:٢٩].

فالأمر موقوف على الاختيار، لذا قال الزمخشري:"جاء الحق وزاحت العِلل، فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم؛ من الأخذ في طريق النجاة، أو في طريق الهلاك".(١)

والتخيير في الآية؛ جاء عقبه الحديث عما أُعِدَّ للمفسدين والظالمين، فدلَّ هذا؛ على أن المراد هو التحذير من اتباع طريق المفسدين، المفضى إلى العذاب الأليم.

---

(١) الكشاف ٧٠٨/١

وهذه صورة من صور العذاب بالنار يخوف الله بها عباده، حيث قال﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[الأنبياء:٣٩].

ومعنى الآية الكريمة:"لو يعلم الكفار الوقت الذي يسألون عنه بقولهم: متى هذا الوعد؟ وهو وقت صعب شديد، تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام، فلا يقدرون على منعها ودفعها عن أنفسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم، لمّا كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم بذلك هو الذي هوّنه عليهم".(١)

فجهلهم بوقوع العذاب، واستخفافهم بكلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ؛ هو الذي جرّهم إلى الوقوع في هذا العذاب الأليم، وهذا الذي أُعد لهؤلاء في النار، الهدف منه؛ الردع للمتجاوزين الحدّ، عن الإفساد في الأرض، قال تعالى﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ [ص:٥٥– ٥٧].

وهؤلاء يقال لهم يوم القيامة ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[المرسلات:٢٩-٣٤].

ثمرات التخويف بالله:

العبد المحب لله الخائف منه الراجي رحمته، كالطائر ذا الرأس والجناحان، فرأس الطائر المحبة، وجناحاه الخوف والرجاء، لهذا فإن التخويف بالله؛ أثمر حتى ظهر أثره على عباد الله، فأقبلوا على فعل الطاعات، وترك المنكرات، لهذا كانوا﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[السجدة:١٦]، خوفاً من عقاب ربهم، وطمعًا في ثوابه ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾[الإنسان:١٠].

ومدحهم الله تعالى؛ لخوفهم ألاّ تقبل أعمالهم، فقال ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾[المؤمنون:٦٠].

---

(١) أضواء البيان ٤/٢٢٥

فعن عائشة ﵂ قالت: قلت:"يا رسول الله، قول الله﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر،وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال:"لا، ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويصلي، وهو مع ذلك يخاف الله ان لا يتقبل منه".(١)

وقال تعالى﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾[الرعد:١٩-٢١].

وقال فيمن زكّاهم ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾[النور: ٣٧].

كما بيّن الكتاب العزيز؛ ثمرة ذلك في الآخرة، ليستصحب العبد خوفه من ربه في كل دقيق وجليل، إذ الخوف من الله؛ هو الحاجز القوي أمام دفعات الهوى العنيفة، فقال تعالى﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾[النازعات:٤٠- ٤١]، ومن وراء هذه الجنة جنتان، قال سبحانه ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[الرحمن:٤٦].

لذا كان النبي ﷺ أشد الناس خوفاً من الله تعالى، وكذلك كان صحابته ﵃ ومن تبعهم، مع كثرة عملهم، وشدة إخلاصهم لربهم، ففي حديث أنس بن مالك ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول:"يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"، فقال له أصحابه وأهله: يا رسول الله: أتخاف علينا وقد آمنا بك وبما جئت به، قال:"إن القلوب بيد الله عز وجل يقلبها كيف يشاء".(٢)

وإذا كان النبي ﷺ بهذا الحال فما بالنا نحن ؟

فالواجب علينا أن نكون على حذر دائم، لأنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرن.

عواقب انعدام الخوف من الله

إذا عدم الخوف من الله؛ فإن العبد يأمن مكر الله تعالى، لهذا قال تعالى﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا

---

(١) رواه الترمذي كتاب التفسير .سورة المؤمون٠ح(٣١٧٥).

(٢) سبق تخريجه ص (٣٨٨)

مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٦-٩٩].

فلا يجوز لهم أن يَأمنوا ليلاً أو نهاراً، بعد تكذيب محمد ﷺ.[١]، إذ الأمن من العذاب، أو الركون إلى الدنيا، ينافي الخوف من الله تعالى، وعلى هذا فإن المسلم، لابدّ أن يكون على خوف دائم، وهذا الخوف يجعله على اتصال دائم بربه، ليكون بمنأى عن الولوج فيما يؤدي إلى المفاسد.

فالتوبيخ الذي جاء إلى أهل مكة، ومن على شاكلتهم، هو بسبب أمنهم من العذاب، لهذا فإن التخويف بالله تعالى، أو بالنار، أو التوعد بالانتقام من الظالمين؛ يجعل العبد يحذر على نفسه من اتباع الشيطان، لأن طريقه يؤدي إلى الوقوع في الفساد الذي نهى الله عنه.

وخلاصة القول؛ فإن خوف الصالحين في الدنيا مع صلاحهم، يكون سبباً في أمنهم يوم الفزع الأكبر، وأمن الفجار في الدنيا مع فجورهم؛ سيكون سبباً في خوفهم عند الحساب، فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى:"وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين، ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا، أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا؛ أمّنته يوم أجمع عبادي".[٢]

---

(١) الوجيز للواحدي ١/ ٤٠٤

(٢) حديث حسن وأخرجه ابن المبارك في الزهد مرسلاً (١٥٧) ووصله يحيى بن صاعد في زوائد الزهد (١٥٨) وأبونعيم من طريق أخرى (٦/٩٨) وذكر الهيثمي أنه مروى عن الحسن مرسلاً وعن أبي هريرة بنحوه، وقال: رواهما البزار عن شيخه محمد بن يحيى بن ميمون و لم أعرفه. وبقية رجال المرسل رجال الصحيح وكذلك رجال المسند غير محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، انظر: مجمع الزوائد ٣٠٨/١٠

المبحث السادس

السَمعُ والطَاعَةُ ونَبذُ الاختِلاف

من سنن الله تعالى التي حكم بها بين عباده؛ أنهم لا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك، وأنه كتب ذلك عليهم ابتلاء، ولا رادّ لقضاء الله تعالى، فقد قال سبحانه ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[هود:١١٨،١١٩].

وأخبر سبحانه على سبيل التحذير؛ بخوض طوائف من هذه الأمة بما خاضت به الأمم السابقة من الأهواء فقال ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾[التوبة:٦٩].

"فقوله﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات، وهذا داء العصاة، وقوله﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ إشارة إلى اتباع الشبهات، وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات، وكثيراً ما يجتمعان".[1]

والاختلاف قد يكون عن اجتهاد وحسن نية، ويؤجر عليه المخطئ؛ ما دام متحريًا للحق، والمصيب أكثر أجرًا، وقد يُحمد المخطئ على الاجتهاد أيضًا، أما إذا وصل إلى حد الافتراق فهو مذموم كلّه، بينما الافتراق لا يكون عن اجتهاد، ولا عن حسن نية، وصاحبه لا يؤجر عليه، بل هو مذموم، وآثم على كل حال، ومن هنا، فهو لا يكون إلا عن ابتداع، أو عن اتباع هوى، أو تقليد مذموم، أو جهل مطبق.

إن الفرقة والاختلاف، داءان وبيلان يقعدان بالأفراد والأمم عن الإصلاح والبناء، ويمكنان للهدم والفساد، ويسببان ظلمة القلوب، وفساد الألسن، والطعن في الناس، وقد يؤديان إلى الاحتراب والاقتتال.

وما أُصيب بنو إسرائيل بالنقص والخذلان، وحاق بهم الذل والهوان، وحقَّت عليهم اللعنة – رغم أن النبوة كانت فيهم، وقد فضلوا على العالمين- إلا لعدم سماعهم وطاعتهم للحق، وكثرة اختلافهم على أنبيائهم، واتباع أهوائهم، وأدَّى بهم ذلك؛ إلى الفُرقة والعداوة والبغضاء، يقول تعالى في شأن اليهود﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[المائدة:٦٤]،

وفي شأن النصارى قال سبحانه﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[المائدة:١٤].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١٠٧/١

والمعنى:"فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة، ولذلك فإن طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم؛ لا يزالون متباغضين متعادين، يكفِّر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، فكل فرقة تحرم الأخرى، ولا تدعها تلِج معبدها".(١)

وبلغ بهم اختلافهم وفرقتهم مبلغ الشقاق والعناد والقتال؛ كما في قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾[البقرة:١٧٦].

ولقد نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا كبني إسرائيل في فرقتهم واختلافهم، وتباغضهم وتناحرهم؛ حتى لا يضلِّوا كما ضلوا، ويزيغوا كما زاغوا، فقال ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[آل عمران:١٠٥].

وقال تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[الروم:٣١-٣٢].

وإذا نظرنا حال العرب قبل الاسلام؛ وجدناهم أمماً متناحرة، تتقاذفهم النعارات الجاهلية، وتقام بينهم الحروب لأي سبب، لهذا دعانا الله تعالى إلى الوحدة والإئتلاف؛ لما في ذلك من المصالح العظيمة، ونهانا عن التفرق والاختلاف؛ للما يترتب عليها من مفاسد وخيمة، فقال ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[آل عمران:١٠٣].

ولما أمر الله تعالى بسلوك هذا الطريق الأوحد، نهى عن الطُرق الأخرى؛ التي ينتج عنها التفرق والاختلاف؛ لئلا تفسد القلوب والمجتمع، فقال ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[الأنعام:١٥٣].

لذا قال الطبري عند هذه الآية:"ولا تسلكوا طريقاً سواه، ولا تركبوا منهجاً غيره، ولا تبغوا ديناً خلافه من اليهودية والنصراينة والمجوسية وعبادة الأوثان، وغير ذلك من الملل، فإنها بِدع وضلالات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾".(٢)

وقال تعالى﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[الشورى:١٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٣ .

(٢) جامع البيان ٣٩٦/٥

ومع هذا التحذير العظيم من التفرق والاختلاف الذي أبدى فيه القرآن وأعاد، فإن أمّة الإسلام؛ وإن كانت معصومة من الإجتماع على ضلالة، فإنها ليست معصومة من التفرق والاختلاف، الذي يتسبب في البدع والضلالات، واتباع الهوى، وتعطيل السُنن، والغرور بالدنيا وزخارفها؛ ولذلك أخبر النبي ﷺ عن هذا الاختلاف محذّراً فقال:"وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار؛ إلا واحدة"(١). وهذه الواحدة هي من سلكت سبيل المرسلين، والفِرق الباقية الهالكة؛ هي التي ابتدعت في الدين.

وعليه فإن الإسلام بعد الجاهلية؛ قد نقض التفاضل المبني على التفرقة، وأكّد الحرص على الوحدة والائتلاف، وقطع كل طريق يفسدها؛ لأن المؤمنين إخوة، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الحجرات:١٠].

وبيّن النبي ﷺ هذا الأمر فقال:"يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى..." الحديث(٢)

كما أكد النبي ﷺ أيضاً على الاجتماع تحت راية واحدة، وبيّن أن الإمامة العظمى من أعظم مقاصد الدين، وآكد فرائضه، وهي نيابة عن النبوة في حراسة الدين، وسياسة الدنيا، ولا تبرأ ذمة المسلمين؛ حتى تجتمع كلمتهم؛ على إمام يسوسهم بكتاب الله، ووجوب مناصحة أولي الأمر، والتزام الطاعة لهم في غير معصية ما أقاموا في الأمة كتاب الله.

ولقد حكى القرآن أثر الاختلاف على من كان قبلنا، فقال تعالى﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة:٢١٣].

فاختلافهم فيما بينهم فرّق جماعتهم، وجعلهم أمماً متناحرة، وفِرقاً كثيرة، كل واحدة تزعم

---

(١) سبق تخريج ص (٦٤)

(٢) رواه أحمد في مسنده من حديث أبي نضرة ٤١١/٥

أن الحق معها، فدفعهم هذا؛ إلى قتال بعضهم بعضاً، مما جعلهم بعد ذلك لا قيمة لهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[البقرة:٢٥٣].

فالاختلاف بينهم قائم بسبب تفرق أمرهم، فآمن منهم من آمن، وكفر منهم من كفر، فكان موجب هذا الاختلاف؛ التفرق والمعاداة والمقاتلة، ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبة للأسباب.(١)

وتوعد الله تعالى الذين فرقوا دينهم فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[الأنعام:١٥٩].

قال السعدي:"يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم، أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكلٌّ أخذ لنفسه نصيباً من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئاً، كاليهودية والنصرانية والمجوسية، أو لا يكمل بها إيمانه، بأن يأخذ من الشريعة شيئاً ويجعله دينه، ويدعُ مثله، أو ما هو أولى منه، كما هو حال أهل الفُرقة من أهل البدع والضلال، والمفرقين للأمة".(٢)

فلو كان الاختلاف بين الناس شيئاً هيناً، لما ترتّب عليه ما ترتّب، ولما توعَّد الله بمثل ما توعد به في القرآن؛ من عذاب أليم، أو نفي المثليَّة عن نبيه ﷺ.

ثم أمرنا سبحانه بالسمع والطاعة لله، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[النساء:٥٩].

والمعنى:"يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ربكم، فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه،وأطيعوا رسوله محمداً ﷺ فإن في طاعتكم إياه؛ لربكم طاعة، وذلك أنكم تطيعونه؛ لأمر الله إياكم بطاعته".(٣)

لهذا قال ابن عاشور:"لما أمر الله الأمّة بالحكم بالعدل؛ عقّب ذلك بخطابهم بالأمر بطاعة الحُكام وولاة أمورهم، لأن الطاعة لهم؛ هي مظهر نفوذ العدل الذي يحكم به حكامهم،

(١) تيسير الكريم الرحمن. ص ١٠٩

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٢

(٣) جامع البيان ١٤٩/٤

فطاعة الرسول ﷺ تشتمل على احترام العدل المشروع لهم، وعلى تنفيذه، وطاعة ولاة الأمور؛ تنفيذ للعدل، وأشار بهذا التعقيب إلى أن الطاعة المأمور بها هي الطاعة في المعروف، ولهذا قال علي رضي الله عنه:"حقٌ على إمام أن يحكم بالعدل، ويودي الأمانة، فإذا فعل ذلك؛ فحقٌ على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا".(١)

وأمر الله بطاعة الله ورسوله، وذلك بمعنى طاعة الشريعة، فإن الله هو منزل الشريعة ورسوله ﷺ مبلغها والحاكم بها في حضرته.(٢)

"ولما كانت الحوادث لا تخلوا من حدوث الخلاف بين الرعية، وبينهم وبين ولاة أمورهم، أرشدهم الله إلى طريقة فصْل الخلاف؛ بالرد إلى الله تعالى وإلى الرسول ﷺ، ومعنى الردّ إلى الله؛ الرد إلى كتابه، كما دل على ذلك قوله في نظيره ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[النساء:٦١].

ومعنى الردّ إلى الرسول ﷺ؛ إنهاء الأمور إليه في حياته وحضرته، كما دل عليه قوله في نظيره ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ فأما بعد وفاته أو في غيبته، فالردّ إليه؛ الرجوع إلى أقواله وأفعاله، والاحتذاء بسنته(٣)، وروى أبو داود عن أبي رافع رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:"لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكة، يأتيه الأمر مما أمرت به، أو نهيت عنه، فيقول: لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه"(٤).

كما بيّن إن الفلاح يكون في طاعة المؤمنين لربهم سبحانه وتعالى، واتباع أمر نبيهم ﷺ، لهذا قال ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥١- ٥٢].

وكشف – سبحانه – حال أهل النفاق في إقرارهم بالسمع والطاعة؛ ثم مخالفتهم لما أقروا به؛ نافياً عنهم الإيمان، بعد ما زعموه لأنفسهم ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ

---

(١) معالم التنزيل ٤٤٤/١

(٢) التحرير والتنوير ٩٧٢

(٣) التحرير والتنوير ١٦٦/٤

(٤) رواه أبو داود. كتاب النسنة. باب في لزوم السنة ح(٤٦٠٥).

﴿مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[النور:٤٧-٥٠].

ولهذا ذمّ الله تعالى قوم موسى عليه السلام، فقال﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[البقرة:٩٣].

وهكذا ترى أن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ؛أمر حتم لا ينفك أحدهما عن الآخر، ولهـذا جعل الله جزاءها كمـا في قولـه تعـالى﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[النساء:٦٩].

قال الطبري:"يعني بذلك جل ثناؤه ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بالتسليم لأمرهما وإخـلاص الرضى بحكمهما والانتهاء إلى أمرهما، والانزجار عما نهيا عنه من معصية الله؛ فهو مع الذين أنعم الله عليهم بهدايته، والتوفيق لطاعته في الدنيا من أنبيائه وفي الآخرة إذا دخل الجنة".(١)

وأخبر النبي ﷺ أن مِن طاعته؛ طاعة أولي الأمر، فعن أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال:"من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني"(٢)، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:"إسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي؛ كأن رأسه زبيبة".(٣)

وبيّن ﷺ أن هذه الطاعة واجبة في غير معصية الله، فقال:" إنما الطاعة في المعروف"(٤).

ولقد كان السّلف الصالح رضي الله عنهم يولون هذا الأمر اهتماماً خاصاً، لا سيما عنـد ظهـور بوادر الفتنة، نظراً لما يترتب على الجهل به، أو إغفاله؛ من الفساد العريض على العباد

---

(١) جامع البيان ١٦٥/٤

(٢) أخرجه البخاري.كتاب الأحكام. باب قوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) ح (٦٧١٨).

(٣) أخرجه البخاري.كتاب الأحكام. باب أجر من قضى بالحكمة. ح(٦٧٢٣).

(٤) أخرجه البخاري كتاب : الاحكام باب : السمع والطاعة للامام ح (٦٧٢٦)

والبلاد، والعدول عن سبيل الهدى والرشاد.

وقد علم بالضرورة من دين الإسلام أنه لا دين إلا بجماعةٍ، ولا جماعة إلا بإمامةٍ، ولا إمامة إلا بسمعٍ وطاعةٍ.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله:"وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين، ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم".(١)

قال الحسن البصري في الأمراء:"هم يلون من أمورنا خمساً: الجمعة، والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود، والله لا يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، مع أن طاعتهم والله لغبطةٌ وأن فرقتهم لكفرٌ"(٢). يعني به كفراً دون كفرٍ.

وقد قال النبي ﷺ:"من خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة؛ مات ميتة جاهلية"(٣)، وروي عنه ﷺ أنه قال:"من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات؛ فميتته جاهلية".(٤)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:"وأما أهل العلم والدين والفضل فلا يرخصون لأحد فيما نهى الله عنه؛ من معصية ولاة الأمور، وغِشهم، والخروج عليهم؛ بوجه من الوجوه؛كما قد عُرِف من عادات أهل السنة والدين، قديمًا وحديثًا، ومن سيرة غيرهم"(٥).

وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال:"لا بد للناس من إمارة، برَّة كانت أو فاجرة، قيل له: هذه البرَّة قد عرفناها، فما بال الفاجرة؟ قال: يؤمن بها السبيل، ويقام به الحدود، ويجاهد به العدو، ويقسم بها الفيء".(٦)

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٢٦٢

(٢) جامع العلوم والحكم ٢٦٢ والشريعة للآجري ٥٦/٤

(٣) أخرجه مسلم كتاب : الامارة باب : وجوب ملازمة جماعة المسلمين ح (١٨٥١)

(٤) أخرجه مسلم كتاب : الامارة باب : وجوب ملازمة جماعة المسلمين ح (١٨٤٨)

(٥) مجموع الفتاوى ١٢/٣٥.

(٦) ذكره شيخ الإسلام في السياسة الشرعية ص ٨٧. ولم أقف عليه.

بل أرشد الشارع الحكيم على الصبر على ما يُكره من الولاة؛ ما لم يكن كفراً بواحاً؛ حِرصاً على اجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرّقهم؛ فعن عبادة بن الصامت ﷺ قال:"بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره وأن لا ننازع الأمر أهله"(١)

وروى عرفجة(٢) ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ستكون هناتن وهنات(٣)، ورفع صوته، ألا من خرج على أمتي وهم جميع، فاضربوا عنُقه بالسيف، كائناً من كان".(٤)

فكل من ثبتت إمامته؛ وجبت طاعته، وحرُم الخروج عليه، وقتاله، لقول تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء:٥٩].

ولقد فقِه الصحابة ﷺ هذه النصوص، وأدركوا مغزاها، فامتثلوا أمر الشريعة في هذا الباب، درءً للفتنة والفُرقة بين أهل الإسلام.

ومواقفهم في ذلك كثيرة، فمن ذلك أن عثمان ﷺ صلى بالناس في الحج فجعل يتمها أربعاً بلا قصر، فكرِه ذلك ابن مسعود ﷺ؛ لعلمه أن النبي ﷺ كان يقصر الصلاة بمنى، فقيل له: أفلا أنكرت ذلك عليه، فقال:" إن الخلاف شرٌ"(٥).

بل إنهم ﷺ قاتلوا الخوارج(٦) درءً لفتنتهم عن المسلمين، وامتثالاً لأمر النبي ﷺ فيهم حيث قال:" يأتي في آخر الزمان، قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّميَّة، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة".(٧)

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب الاحكام. باب: كيف يبايع الامام الناس ح(٦٧٧٤)

(٢) عرفجة بن أسعد بن كرب التميمي العطاردي، أصيب أنفه في الجاهلية،فاتخذ أنفاً من ورِق فأنتن،فأمره النبي ﷺ أن أتخذ أنفاً من ذهب، انظر: الإصابة ٤/٤٨٤

(٣) الهنات جمع هنة وتطلق على كل شيء ، والمراد بها هنا هو الفتن. لسان العرب ١٥/٣٦٥

(٤) أخرجه مسلم. كتاب الإمارة. باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع. ح(١٨٥٢)

(٥) أخرجه أبو داود. كتاب المناسك. باب الصلاة بمنى.ح(١٩٦٠)، والطبراني في الأوسط.٦/٣٧٨. ح(٦٦٣٧)

(٦) انظر : البداية والنهاية ٦/٢١٦ وما بعدها.

(٧) أخرجه البخاري. كتاب المناقب. باب علامات النبوة. ح(٣٤١٥).

وبعد هذا خطورة الإخلال بهذا السبيل؛ لما يترتب عليه من مفاسد دينية ودنيوية، واختلال للأمن، وضياع لبلاد الإسلام، وإدخال الوهن على المسلمين، وتسليط الأعداء عليهم.

المبحث السابع

إقامة الحدود والزواجر الشرعية

الحدود في الإسلام جزء من تشريع إلهي كامل، أنزله رب العالمين، ليكون نظاماً يكفل لمن اتبعه؛ السعادة والأمان والاستقرار، إلى قيام الساعة.

"ومع حرص الإسلام على تربية الضمير دينياً، وخلق الوازع الإيماني القوي في كيان الإنسان؛ لم يغفل أن يُقيم إلى جانب هذا الوازع الذاتي؛ وازعاً من خارج الذات؛ وهو وازع السلطان، بحيث إذا غفل وازع الضمير قام مقامه وازع السلطان، وبهذا تكمل الرقابة على الإنسان، وتقفل الثغرة التي يمكن أن ينفذ منها إلى الفساد.

ومع أن الشريعة أوجبت لمرتكبي الجرائم والمنكرات عقوبات أخروية؛ جزاءً لما ارتكبوه من معاصي وآثام، فإنها قررت عقوبات دنيوية على تلك الجرائم، وذلك لأن بعض الناس ممن ضعفت نفوسهم، وانعدمت أخلاقهم، وقلَّ حياؤهم، لا يردعهم عن طغيانهم، ولا يزجرهم عن غيهم، الوعيد بعقاب بعد الموت؛ بل لا يردعهم إلا العقاب العاجل الفوري، ليذوقوا ألم العقوبة، ومرارة العذاب؛ فيمتنعوا من تكرار الجريمة، ويترجر غيرهم، فينقاد للامتثال والطاعة، وعدم التردي في مزالق الرذيلة.

فاقتضت حكمة الخالق جل وعلا، فرض الجزاء العادل ليتناسب مع الجريمة وأثرها السيء في المجتمع، وليستأصل بوادر الشرّ من حين ظهورها، ويقضي على جراثيم الجريمة في مهدها، ويحفظ للناس مصالحهم التي لا تستقيم الحياة بدونها، ولا تنهض إلا عليها".[(١)]

قال الماوردي:"فأما المحرمات التي يمنع الشرع منها، واستقر التكليف عقلاً أو شرعاً بالنهي عنها، فتنقسم قسمين:

منها؛ ما تكون النفوس داعية إليها، والشهوات باعثة عليها، كالسِفاح وشرب الخمر، فقد زجر الله عنها؛ لقوة الباعث عليها، وشدة الميل إليها، بنوعين من الزجر:

أحدهما: حدّ عاجل، يرتدع به الجريء.

والثاني: وعيد آجل، يزدجر به التقي.

ومنها؛ ما تكون النفوس نافرة منها، والشهوات مصروفة عنها،كأكل الخبائث والمستقذرات، وشرب السموم المتلفات، فاقتصر الله في الزجر عنها بالوعيد، وحدّه دون الحدّ؛ لأن النفوس

---

(١) آثار تطبيق الشريعة الإسلامية في منع الجريمة، د.محمد الزاحم، ص ٨٩.

مستعدة في الزجر عنها، ومصروفة عن ركوب المحظور منها"[١].

والمتأمل في الغاية التي شرعت الحدود لأجلها؛ يدرك أثر هذا السبيل في دفع الفساد، ونجد ذلك في عدّة أمور، من أبرزها:

١/حفظ المصالح.

قال الإمام الغزالي في بيان ذلك:"والمصلحة هي عبارة في الأصل عن جلب منفعة، أو دفع مضرة، ولسنا نعني به ذلك، فإن جلب المنفعة ودفع المضرة، مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكنّا نعني بالمصلحة؛ المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة؛ وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة؛ فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول؛ فهو مفسدة، ودفعها مصلحة.

وهذه الأصول الخمسة:حفظها واقع في رتبة الضرورات، فهي أقوى المراتب في المصالح.

ومثاله: قضاء الشرع بقتل الكافر المُضِل، وعقوبة المبتدِع الداعي إلى بدعته، فإن هذا يفوت على الخلق دينهم، وقضاؤه بإيجاب القصاص أدبه حفظ النفوس، وإيجاب حدّ الشرب، إذ به حفظ العقول التي هي ملاك التكليف، وإيجاب حدّ الزنا؛ إذ به حفظ النسل والأنساب، وإيجاب زجر الغُصاب والسُراق؛ إذ به يحصل حفظ الأموال التي هي معاش الخلق، وهم مضطرون إليها.

وتحريم تفويت هذه الأصول الخمسة والزجر عنها، يستحيل أن لا تشتمل عليه مِلّة من المِلل، وشريعة من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق، ولذلك لم تختلف الشرائع؛ في تحريم الكفر والقتال والزنا والسرقة وشرب المسكر".[٢]

ومن ثمَّ؛ فإن الحدود في الإسلام، لها ضابط يحفظ التوازن بين حقوق الفرد والجماعة معاً، فمن حق الفرد على الجماعة؛ تحقيق مصالحه وحفظها، وصيانة حياته ومقوماتها، والعمل على حمايته ليس فقط من غيره؛ بل من نفسه أيضاً، وللمجتمع كذلك الحق في صيانة كيانه من كل اعتداء أو مِساس، وفي الحصول على حياة آمنة وادعة، تتسم بالطُهر والعفاف،

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ١١٢

(٢) المستصفى في علم الأصول.لأبي حاكد الغزالي.١/٣٧٩

وجميع الجرائم التي حرمها الإسلام، إنما هي من النوع الذي لو ترك وشأنه؛ لأدى إلى اضطراب المجتمع، وإشاعة الفوضى والقلاقل فيه.

٢/ إقامة العدل:

فالفرد في مجتمعه له حقوق وعليه واجبات، فإذا عرف كلٌّ حقه؛ فأخذه من غير زيادة، وعرف الواجب عليه؛ فأداه من غير نقص؛ عَمَّ المجتمع الخير وساده العدل.

إلا أن ذلك متعذّر في جميع الناس؛ فإن فيهم من يتعدى حقوق غيره ويظلمهم، فإّذا لم يكن هناك حدود وزواجر، تطبّق على أمثال هؤلاء؛ فإن الموازين حينئذٍ تختل، فينتشرالظلم،وتسلب الحقوق.

وإذا علِم الناس أن المُفسد، سينال عقوبته مهما كان، وأنه لا فرق في الشريعة بين أفراد المجتمع رئيسهم ومرؤسهم، غنيهم وفقيرهم، كلٌ منهم تقام عليه حدود الله إذا تجاوزها، استرتاح ضمائرهم، واطمئنت نفوسهم، وإذا ما كان العكس؛ فإنه سيصبّ جام غضبه على مجتمعه، ويستنفر حقده عليه؛ قتلاً وسرقة وخيانة.

لهذا كان القصاص هو الجزاء العادل، قال تعالى﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:١٧٩].

قال الشوكاني:"جعل الله في القصاص حياة ونكالاً وعظةً، إذا ذَكَرَه الظالم المعتدي؛ كفَّ عن القتل".[١]

وقال الزمخشري:"القصاص قتل وتفويت للحياة، وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة، ومن إصابة محزّ البلاغة؛ بتعريف القصاص وتنكير الحياة؛ لأن المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب[٢]، حتى كاد يُفني بكر بن وائل، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله؛ فتثور الفتنة، ويقع بينهم التناحر، فلما جاء الإسلام بشرع القصاص؛ كانت فيه حياة أي حياة، أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل، لوقوع العِلم بالاقتصاص من

---

(١) فتح القدير ٢٧١/١

(٢) المهلهل بن ربيعة التغلبي واسمه امرؤ القيس، ويقال عدي بن ربيعة، وأخوه كليب.
انظر:سيرة بن هشام ١٢٨/٤ ، طبقات فحول الشعراء للجمحي ٣٩/١

القاتل، لأنه إذا همَّ بالقتل؛ فعلِم أنه يقتص منه، فارتدع؛ سلِم صاحبه من القتل، وسلِم هو من القَوَد، فكان القصاص سبب حياة نفسين".(١)

وعلى هذا فإنه يجب أن يطبق شرع الله عز وجل على كل الناس على القريب والبعيد، السيد والمسود، الشريف والوضيع، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يُكلّم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد؛ حِبُ رسول الله ﷺ، فكلَّمه أسامة رضي الله عنه فقال ﷺ:"أتشفع في حد من حدود الله"، ثم قام فاختطب، ثم قال:"إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت؛ لقطعت يدها".(٢)

٣/ رحمة المجتمع:

ذلك أن الأثرة والظهور فُطِر حبها في النفوس، مما قد يحمل صاحبه على الظلم والعدوان، وقد قال تعالى﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم:٣٤]. فالنفس إن لم تُهذّب؛ تميل إلى ما في أيدي الآخرين، والاعتداء عليهم.

ولو ترك هذا الإنسان وشأنه؛ لعمّ الظلم، وشاع الفساد، وانتهكت الأعراض، واستبيحت المحارم، وصار حال المجتمع أشبه بحال سِباع ضارية في غابة، يأكل القوي الضعف.

فشرع اللطيف الخبير؛ العقوبات الرادعة عن الجرائم؛ رحمة بالمجتمع؛ ليعيش أفراده آمنون على دينهم ودنياهم.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم رحماء بينهم، وليس مقتضى هذه الرحمة؛ أن يترك المفسدون وشأنهم؛ ليعثوا فساداً في الأرض، وتعطّل فيهم حدود الله تعالى، كيف وقد قال سبحانه في حدّ الزناة ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[النور:٢].

---

(١) الكشاف ٢٤٨/١

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأنبياء .باب:أم حسبت أن أصحاب الكهف.ح (٢٣٨٨)، ومسلم.كتاب الحدود. باب قطع السارق الشريف وغيره.ح(١٦٨٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"فإن إقامة الحدّ من العبادات؛ كالجهاد في سبيل الله، فينبغي أن يعرف أن إقامة الحدود؛ رحمة من الله بعباده، فيكون الوالي شديداً في إقامة الحدّ، لا تأخذه رأفة في دين الله، فيعطِّله، ويكون قصده؛ رحمة الخلق بكفِّ الناس عن المنكرات، لا إشفاء غيظه، وإرادة العلو عن الخلق به، متزلة الوالد إذا أدَّب ولده، فإنه لو كفّ عن تأديب ولده؛ كما تشير به الأم رِقةً ورأفةً؛ لفسد الولد، وإنما يؤدبه رحمة به، وإصلاحاً لحاله، مع أنه يود ويؤثر أن لا يحوجه إلى تأديب، وبمتزلة قطع العضو المتأكل، وبمتزلة شرب الإنسان الدواء الكريه، وما يدخله على نفسه من المشقة؛ لينال به الراحة.

فهكذا شُرِعت الحدود، وهكذا ينبغي أن تكون نية الوالي في إقامتها، متى كان قصده صلاح الرعية، والنهي عن المنكرات، بجلب المنفعة لهم، ودفع المضرة عنهم، وابتغى بذلك وجه الله تعالى، وطاعة أمره".[1]

٤/ إصلاح الجاني.

الحدود التي جاءت بها الشريعة؛ ربما نظر بعض الناس إليها بعين واحدة، فينظر إلى الجاني والعقوبة التي سينالها، ولا ينظر إلى المجتمع الذي يتضرر بأذية المفسدين، فيتصور العقوبات تعذيباً للجاني، وانتقاماً منه، وهذا تصوّر خاطيء يخالفه الشرع والعقل، فإن العقوبات التي فرضتها الشريعة، منها: ما جاء ليجتث عضواً فاسداً في المجتمع لا سبيل إلى إصلاحه، وبقاءه سيكون سبباً في شيوع الفاحشة والفساد.

ومنها: ما جاء لإصلاح ومعالجة العضو المريض الذي يمكن أن يكون صالحاً في المجتمع.

ومن أسباب إقامة الحدود؛ تطهير الجاني من ذنبه، وتكفير خطاياه، ليقيه من عقاب الآخرة، لما روى عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه:"بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم، فأجره على الله، ومن

---

(١) السياسة الشرعية ص١٢٥.

أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا؛ فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً، ثم ستره الله؛ فهو إلى الله؛ إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك".(١)

كما أن الشرع ندب إلى العفو عن الحدود، قبل أن تبلغ الإمام، كما قال تعالى في المحاربين ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[المائدة:٣٤].

قال السعدي:"فيسقط عنه ما كان لله، من تحتم القتل والصلب والقطع والنفي، ومن حق الآدمي أيضاً، إن كان المحارب كافراً ثم أسلم، فإن كان المحارب مسلماً؛ فإن حق الآدمي لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال. ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب- بعد القدرة عليه- أنها لا تسقط عنه شيئاً، والحكمة في ذلك ظاهرة.

وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه، تمنع من إقامة الحد في الحرابة، فغيرها من الحدود - إذا تاب من فعلها، قبل القدرة عليه- من باب أولى".(٢)

والشريعة لا تهتم بإقامة الحدّ فقط، وإنما تُغلِق كل الطُرق المؤدية إلى ذلك، فمثلاً الزنى، نجد أن كل مقدماته قد حرِّمت؛ فالنظرة إلى الأجنبية، والخلوة بها بلا محرم، والخضوع بالقول من النساء، وما شابهها؛ كلها حرام، حتى تُغلق كل الأبواب المؤدية إلى الفاحشة.

وينبغي أن يُعلم أن الإسلام لا يعتمد على العقوبة في إنشاء الحياة النظيفة بين الناس، ولا يتخذها الوسيلة الوحيدة لذلك، وإنما يعمل على الوقاية من الجريمة، ومحاربتها بالضمير الوازع، والنفس المهذبة، والسلوك المستقيم، وتوفير أسباب الحياة النظيفة لكل الناس، فمن ارتضى هذه الأسباب، واتخذها منهج حياته؛ ارتقى وعزّ بالإسلام، وسعِد بالمجتمع، وسعِد به مجتمعه، ومن هجر هذه الأسباب ونفر منها، وسعى في الأرض فساداً، دون رادع من خُلق، أو وازع من ضمير، فهو كمن يتمرغ في الوحل مختاراً، وحُق للإسلام أن يُنزل به عقابه؛ ليحمى الناس من شروره، ويوفر للمجتمع أمنه واستقراره.

والجرائم التي أرصد لها الإسلام حدوداً معينة، بعضها جاء به القرآن الكريم، وبعضها الآخر ورد في السنة، وهى: السرقة والزنا والقذف وشرب الخمر والردة والبغي والحرابة - وهى

(١) سبق تخريجه ص ٨٢

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٢٩.

التي تسمى بقطع الطريق - ، ثم جريمة قتل العمد ، والقتل شبه العمد، والقتل الخطأ، والعقوبة المقررة للجرائم السبعة الأولى تسمى حدًّا، بمعنى أن العقوبة المقررة فيها، هي حق اللّه تعالى.

والعقوبات المقررة في الإسلام؛ عقوبات ملائمة للجرائم المرصودة لها، وقد شرعت على أساس محاربة الدوافع الخاصة بكل جريمة، فهي في الزنا الرجم للمحصن كما جاء في السنّة "واغد يا أنيس إلى امرأة هذا؛ فإن اعترفت فارجمها"[(١)]، ولغير المحصن جلد مائة وتغريب عام كما قال تعالى﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾[النور:٢].

قال الشنقيطي:"والحاصل أن الرجم عقوبة سماوية معقولة المعنى، لأن الزاني لما أدخل فرجه في فرج امرأة على وجه الخيانة والغدر، فإنه ارتكب أخس جريمة عرفها الإنسان، بهتك الأعراض، وتقذير الحُرمات، والسعي في ضياع أنساب المجتمع الإنساني، والمرأة التي تطاوعه في ذلك مثله، ومن كان كذلك؛ فهو نجس قذر، لا يصلح للمصاحبة، فعاقبه خالقه الحكيم الخبير، بالقتل ليدفع شرّه البالغ غاية الخبث والخسة، وشر أمثاله عن المجتمع، ويطهره هو من التنجيس بتلك القاذورة التي ارتكب، وجعل قِتلته أفظع قِتلة؛ لأن جَرِيمته أفظع جريمة، والجزاء من جنس العمل.

وغلَّظ جلَّ وعلا عقوبة المحصن بالرجم، تغليظاً أشد من تغليظ عقوبة البكر بمائة جلدة، لأن المُحصن قد ذاق عُسَيْلة النساء، ومن كان كذلك يعسر عليه الصبر عنهن، فلما كان الداعي إلى الزنى أعظم؛ كان الرادع عنه أعظم وهو الرجم، وأما جلد الزاني البكر؛ ذكراً كان أو أنثى؛ مائة جلدة، فهذا منصوص بقوله﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور:٢]، لأن هذه العقوبة تردعه وأمثاله عن الزنى، وتطهره من ذنب الزنى".[(٢)]

قال الزمخشري:"ولذلك وفى الله فيه عقد المائة بكماله بخلاف حد القذف وشرب الخمر، وشرع فيه القتلة الهولة وهي الرجم ونهى المؤمنين عن الرأفة على المجلود فيه، وأمر بشهادة

---

(١) أخرجه البخاري.كتاب الوكالة. باب الوكالة في الحدود. ح(٢١٩٠)، ومسلم.كتاب:الحدود. باب من اعترف على نفسه بالزنا.ح(١٦٩٧).

(٢) أضواء البيان ٣٦/٣.

الطائفة للتشهير، فوجب أن تكون طائفة يحصل بها التشهير، والواحد والثنان ليسوا بتلك المثابة، واختصاصه المؤمنين؛ لأن ذلك أفضح والفاسق بين صلحاء قومه أخجل".(١)

وهي في السرقة القطع، وفي القذف والشرب الجلد، وهى في الحرابة بحسبها، كما سبق، قال سبحانه ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[المائدة:٣٣].

وهي في الردة والبغي القتل، وهي في القتل والجرح العمد القصاص، وفي القتل الخطأ الدية، وعلّة التشديد في هذه الجرائم بالذات؛ أنها من الخطورة بمكان، والتساهل فيها؛ يؤدى إلى انهيار الأخلاق، وفساد المجتمعات، إذ هي جرائم رئيسة تتصل بالحياة العامة، ولا يقتصر ضررها على مرتكبيها فقط، ولكنه يتعدى إلى الأفراد والجماعات، فالقتل العمد عدوان على الحياة التي اختص اللّه وحده بمنحها للإنسان، فهو عدوان على حق اللّه، زِد على ذلك ما يترتب على هذه الجريمة من الاستهانة بحرمة الدماء، وتأريث الأحقاد والعداوات، وإشاعة الفتن والذعر بين الناس؛ ولذلك كان قتل نفس واحدة بمثابة عدوان على البشرية كلها، قال تعالى ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ﴾[المائدة:٣٢]، وكأن قتل النفس عمداً هو الجرم الذي لا يكفِّر عنه دية ولا عتق رقبة ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾[النساء:٩٣].

قال ابن القيم في تقرير ما سبق:"فكان من بعض حكمته سبحانه ورحمته؛ أن شرع العقوبات في الجنايات الواقعة بين الناس بعضهم على بعض، في النفوس والأبدان والأعراض والأموال، كالقتل والجراح والقذف والسرقة، فأحكم سبحانه وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات، غاية الإحكام، وشرعها على أكمل الوجوه المتضمنة لمصلحة الردع والزجر، مع عدم المجاوزة لما يستحقه الجاني من الردع، فلم يشرع في الكذب قطع اللسان ولا القتل، ولا في الزنا الخِصاء، ولا في السرقة إعدام النفس، وإنما شرع لهم في ذلك ما هو موجب أسمائه

---

(١) الكشاف ٨٢٧/١

وصفاته، من حكمته ورحمته، ولطفه وإحسانه، وعدله لتزول النوائب وتنقطع الأطماع؛ عن التظالم والعدوان، ويقتنع كل إنسان بما أتاه مالكه وخالقه، فلا يطمع في استلاب غير حقه.
ومن ثمّ؛ فتفاوت العقوبات بتفاوت الجنايات، فهي متباينة في القلة والكثرة، ومتفاوتة في شدة الضرر وخفته، كتفاوت سائر المعاصي في الكِبَر والصِغر، وما بين ذلك.

فلما تفاوتت مراتب الجنايات؛ لم يكن بُدٌّ من تفاوت مراتب العقوبات، وكان من المعلوم؛ أن الناس لو وكِلوا إلى عقولهم في معرفة ذلك، وترتيب كل عقوبة على ما يناسبها من الجناية جنساً ووصفاً وقدراً؛ لذهبت بهم الآراء كل مذهب، وتشعبت بهم الطرق كل مشعب، ولعظم الاختلاف، واشتد الخطب، فكفاهم أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين، مؤنة ذلك، وأزال عنهم كُلفته، وتولى بحكمته وعلمه ورحمته تقديره، نوعاً وقدراً، ورتّب على كل جناية ما يناسبها من العقوبة، ويليق بها من النَّكال.
ثم بَلَغ من سعة رحمته وجوده؛ أن جعل تلك العقوبات كفارات لأهلها، وطهرة تُزيل عنهم المؤاخذة بالجنايات إذا قدِموا عليه، ولا سيما إذا كان منهم بعدها التوبة النصوح والإنابة، فرحمهم بهذه العقوبات؛ أنواعاً من الرحمة في الدنيا والآخرة، وجعل هذه العقوبات دائرة على ستة أصول، قتل وقطع وجلد ونفي تغريم مال وتعزير".(١)

إن التطبيق العملي لهذه الحدود يسهم بدون شك إسهاماً كبيراً في تحقيق الأمن للناس، وبالمقابل ينعكس إهماله وتضييعه، كسائر حدود الشرع، سلباً على الأمن والاستقرار، ويفتح الطريق لتفاقم الفساد في المجتمع.
وما ذكره أهل العلم، من أن الأحكام الشرعية تدور من حيث الجملة، على وجوب حماية الضروريات الخمس، والعناية بأسباب بقائها مصونة سالمة؛وهي: الدين، والنفس، والعرض، والعقل، والمال، وقدر تلك الأخطار العظيمة التي تنشأ عن جرائم الاعتداء على حرمات المسلمين في نفوسهم، أو أعراضهم، أو أموالهم،وما تسببه من التهديد للأمن العام في الأرض، والله – سبحانه – قد حفظ للناس أديانهم، وأبدانهم، وأرواحهم،وأعراضهم،وعقولهم؛ بما

---

(١) إعلام الموقعين ١٢٥/٢

شرعه من الحدود والعقوبات التي تحقق الأمن العام والخاص، وإن تنفيذ الحدود الشرعية؛ كفيل بإشاعة الأمن والاطمئنان، وردع من تسول له نفسه الإجرام والاعتداء على المسلمين.

المبحث الثامن

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من السبل التي يندفع بها الفساد؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
قال ابن جرير:"وأصل المعروف كل ما كان معروفاً فِعله، جميلاً مستحسناً غير مستقبح، في أهل الإيمان بالله، وإنما سُميت طاعة الله معروفاً؛ لأنه مما يعرفه أهل الإيمان، ولا يستنكرون فعله، وأصل المنكر؛ ما أنكره الله، ورأه قبيحاً فعله، ولذلك سميت معصية الله منكراً؛ لأن أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها، ويستعظمون ركوبها".(١)
اذاً المعروف: كل ما أمر الله ورسوله به، والمنكر: كل ما نهى الله ورسوله عنه.

قال تعالى﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠].

فأخبر سبحانه عن سبب خيرية هذه الأمة؛ أنه أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر،كما قال ابن كثير:"والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس، ولهذا قال﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾،والصحيح أن هذه الآية عامّة في جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرى﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي خياراً ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[البقرة:١٤٣]الآية.(٢)
كما ورد في فضل هذه العبادة؛ آيات منها، قوله تعالى﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].
قال ابن كثير:"منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمقصود من هذه الآية، أن تكون فِرقة من هذه الأمة؛ متصدّية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبِه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ"من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"(٣) أ.هـ.(٤)

---

(١) جامع البيان ٣٨٩/٣
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٥١٩/١
(٣) أخرجه مسلم.كتاب الإيمان. باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان.ح(١٨٦)
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ٥١٥/١

وقال الجصاص:"أكّد الله تعالى فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في مواضع من كتابه، وبيّنه رسول الله ﷺ في أخبار متواترة عنه فيه، وأجمع السلف وفقهاء الأمصار على وجوبه، وإن كان قد تعرِض أحوال من التقية؛ يسع معها السكوت، فمما ذكره الله تعالى حاكياً عن لقمان ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[لقمان:١٧]، يعني – والله أعلم – واصبر على ما ساءك من المكروه عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما حكى الله تعالى لنا ذلك عن عبده؛ لنقتدي به، وننتهي إليه.

وقال تعالى فيما مدح به سالف الصالحين من الصحابة ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[التوبة:١١٢]".(١)

وأخبر جل وعلا أن ذلك من آمارات الولاية بين المؤمنين، وسبب في رحمة الله لهم،فقال ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[التوبة:٧١].

وفي المقابل عاب القرآن على بني إسرائيل، تركهم لهذه الشعيرة العظيمة، بل كان ذلك سبباً في استحقاقهم اللعنة، عياذاً بالله.

فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:"إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله، ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك؛ ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾[المائدة:٨١]،

ثم قال:"كلا والله، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه

(١) أحكام القرآن للجصاص ٤/١٥٤

على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض، ثم ليلعننكم كما لعنهم".[(١)]

قال ابن كثير:"كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمّهم على ذلك؛ ليحذر أن يُرتكب مثل الذي ارتكبوه، فقال﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾"[(٢)].

ولما ذكر سبحانه هلاك الأمم السابقة في سورة هود قال﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[هود:١١٦]،يعني لو كان فيهم من أولئك أحد؛ لنجوا من العذاب.

كما جعل سبحانه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ سبباً للنصر والتمكين في الأرض، فقال ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[الحج:٤٠- ٤١].

وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً بليغاً، بيّن فيه أثر هذه الشعيرة العظيمة في الإصلاح ودفع الفساد، فقال:"مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا؛ هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم؛ نجوا، ونجوا جميعا".[(٣)]

فهكذا الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، لو تركوا الناس في المعاصي، ولم يأمروهم ولم ينهوهم هلك الجميع، وإذا قاموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ نجا الجميع من العقوبة. وقد قال تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الأنفال:٢٥].

ولذا بيّن أن سبب بقاء هذه الأمة، وتمكينها في الأرض، وإمدادها بالنصر، هو قيامها بالأمر

---

(١) أخرجه أبو داود.كتاب الملاحم.باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.ح(٤٣٣٦)وقال الألباني: حسن لغيره.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٦٠

(٣) أخرجه البخاري.كتاب: الشركة.باب:هل يقرع في القسمة.ح(٢٣٦١).

بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[هود:١١٧]،أي قائمون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وسمّى ذلك إصلاحاً؛ و لم يقل أهلها صالحون؛ لأن صلاحهم بأنفسهم بدون إصلاح غيرهم؛ لا يكون ضماناً لبقائهم، فقد أخرج الشيخان في صحيحهما عن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً مرعوباً، يقول:"لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج، مثل هذه" وحلّق بإصبعيه الإبهام، والتي تليها، فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال:"نعم إذا كثر الخبث"[١].

فهو سبب للنجاة من مصائب الدنيا، وعذاب الآخرة، فقد قال تعالى في قصة أصحاب السبت﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[الأعراف:١٦٥].

فدلّت الآية؛ على أنه إذ لم يُنه عن المنكر، فإن ذلك مؤذن بهلاك الناس، فعن أبي بكر رضي الله عنه قال: يا أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة:١٠٥]، قال:وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول:" إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم الله بعقاب".[٢]

وعن جرير[٣] قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول:"ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لايغيروا؛ إلا يوشك أن يعمّهم الله منه بعقاب".[٤][٥]

وهكذا يتبين ألا تعارض بين هذه الآية، وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال الجصاص:"أحكم الله تعالى فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، وربما ظن من لا فِقه له؛ أن ذلك منسوخ، أو مقصور الحكم على حال دون

---

(١) سبق تخريجه، ص ٢٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٧/١ وقال شعيب الأرناؤوط صحيح.

(٣) جرير بن عبد الله بن جابر البجلى القسرى ، أبو عمرو ، و قيل أبو عبد الله ، اليمانى صحابي جليل بسط له النبي ﷺ رداءه وأكرمه.مات٥١هـ. انظر:الإصابة ٤٧٥

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٣٦٤/٤ وحسنه شعيب الأرناؤوط

(٥) تفسير القرآن العظيم ١١٣/٢

حال، وتأوّل فيه قول الله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ وليس التأويل على ما يظن هذا الظانّ، لو تجردت هذه الآية عن قرينة، وذلك لأنه قال﴿ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ احفظوها﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ ومن الإهتداء اتباع أمر الله في أنفسنا، وفي غيرنا، فلا دلالة فيها إذاً على سقوط فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".(١)

وقال الشنقيطي:"قد يتوهم الجاهل من ظاهر هذه الآية الكريمة؛ عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن نفس الآية فيها الإشارة إلى أن ذلك فيما إذا بلغ جهده فلم يَقبل منه المأمور، وذلك في قوله ﴿ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ لأن من ترك الأمر بالمعروف؛ لم يهتد.

ومما يدل على أن تارك الأمر بالمعروف غير مهتد، أن الله تعالى أقسم أنه في خسر في قوله تعالى﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾[العصر:١-٣]، فالحقُّ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعد أداء الواجب؛ لا يضر الآمر ضلال من ضل".(٢)

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ من أعظم شعائر هذا الدين، وهو الذي بعث الله به النبيين أجمعين ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ ﴾[النحل:٣٦].

وجاء في وصف الله لنبيه ﷺ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾[الأعراف:١٥٧].

ولو طُوي بساطه، وأهمل علمه وعمله، لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمّت الفترة، وانتشرت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، وخربت البلاد، وهلك العباد.

---

(١) أحكام القران للجصاص ١٥٥/٤

(٢) أضواء البيان ٤٥٩/١

وحتى يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبباً في دفع الفساد، فيلزم فيه شروط من أهمها[1]؛ أن يكون الآمِر؛ له علم يعلم به؛ أن ما يأمر به معروف، وأن ما ينهى عنه منكر، لأنه إن كان جاهلاً بذلك؛ فقد يأمر بما ليس بمعروف، وينهي عما ليس بمنكر، ولا سيما في هذا الزمن الذي عمّ فيه الجهل، وصار فيه الحق منكراً، والمنكر معروفاً، والله تعالى يقول ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]، فدل على أن الداعي إلى الله؛ لا بدَّ أن يكون على بصيرة، وهي الدليل الواضح الذي لا لبس في الحق معه.

وينبغي أن تكون دعوته إلى الله بالحكمة، وحسن الأسلوب، واللطافة مع إيضاح الحق، لقوله تعالى﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ﴾[النحل:١٢٥]، فإن كانت دعوته إلى الله بقسوة وعنف، فإنها تضر أكثر مما تنفع، فلا ينبغي أن يُسند الأمر بالمعروف إسناداً مطلقاً؛ إلا لمن جمع بين العلم والحكمة والصبر على أذى الناس، لأن الأمر بالمعروف، وظيفة الرسل وأتباعهم، وهو مستلزم للأذى من الناس، لأنهم مجبولون بالطبع على معاداة من يتعرض لهم في أهوائهم الفاسدة، وأغراضهم الباطلة، ولذا قال العبد الصالح لقمان الحكيم لولده، فيما قص الله عنه﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[لقمان:١٧]، ولما قال النبي ﷺ لورقة بن نوفل:"أو مخرجي هم؟" يعني قريشاً، أخبره ورقة؛ أن هذا الدين الذي جاء به، لم يأت به أحد إلا عُودِي.[2]

كما أنه لا يَحكم على الأمر بأنه منكر؛ إلا إذا قام على ذلك دليل من كتاب الله تعالى، أو سنة نبيه ﷺ، أو إجماع المسلمين.

وأما إن كان من مسائل الاجتهاد، فيما لا نص فيه، فلا يحكم على أحد المجتهدين المختلفين؛ بأنه مرتكب منكراً، فالمصيب منهم مأجور بإصابته،والمخطيء منهم معذور، كما هو معروف في محله.

واعلم أن الدعوة إلى الله بطريقين: طريق لينٍ، وطريق قسوةٍ. أما طريق اللين فهي الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وإيضاح الأدلة في أحسن أسلوب وألطفه. فإن نجحت هذه الطريق فبها ونعمت، وهو المطلوب، وإن لم تنجح تعينت طريق القسوة بالسيف حتى يعبد

---

(١) انظر: أضواء البيان ٤٦٢/١

(٢) سبق تخريجه ص ٢٠١

الله وحده، وتقام حدوده، وتمتثل أوامره، وتجتنب نواهيه، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحديد:٢٥].

ففيه الإشارة إلى إعمال السيف بعد إقامة الحجة، فإن لم تنفع الكتب تعينت الكتائب، والله تعالى قد يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

كما يشترط في جواز الأمر بالمعروف، ألا يؤدي إلى مفسدة أعظم من ذلك المنكر، لإجماع المسلمين على ارتكاب أخف الضررين.

ويشترط في وجوبه - أيضاً - مظنّة النفع به، فإن جزم بعدم الفائدة فيه؛ لم يجب عليه، كما يدل له ظاهر قوله تعالى ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾[الأعلى:٩]، وقوله ﷺ:"بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شُحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنياً مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العوام، فإن من ورائكم أياماً، الصابر فيهن كالقابض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم"، وفي لفظ قيل: يا رسول الله: أجر خمسين رجلاً منا، أو منهم؟ قال:"بل أجر خمسين منكم".(١)

وهذه الصفات المذكورة في الحديث من الشح المطاع، والهوى المتبع...الخ، مظنّة لعدم نفع الأمر بالمعروف. فدلّ الحديث على أنه إن عدمت فائدته سقط وجوبه.

وهذه العبادة المهمّة، لها حِكم ظاهرة، وآثار نافعة، للأمة وللقائم بها، ومن تلك الحِكم:

الأولى: إقامة حجة الله على خلقه، كما قال تعالى﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾[النساء:١٦٥].

الثانية: خروج الآمِر من عُهدة التكليف بالأمر بالمعروف، كما قال تعالى، في صالحي القوم الذين اعتدى قوم منهم في السبت﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾[الأعراف:١٦٤].

الثالثة: رجاء النفع للمأمور، كما قال تعالى﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الذاريات:٥٥].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: التفسير. سورة المائدة. ح(٣٠٥٨) وقال: حسن غريب.

المبحث التاسع

الجِهَادُ والمُدَافَعَة

سنن الله تعالى في عباده لا تتبدل ولا تتغير، ولا يمكن لأي قوة مهما بلغت؛ أن تعطِّل لله تعالى أمراً، أو تردّ له قدراً، أو تُبطل سنة من سننه ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[الأحزاب: ٣٨] وقوله ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[النحل: ٤٠].

ومن سننه تبارك وتعالى أنْ قدَّر التدافع بين الإيمان والكفر، وبين العدل والظلم، وبين الحق والباطل﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[البقرة: ٢٥١]،﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[الحج: ٤٠].

والجهاد – كما قال الراغب – "من الجُهد والجَهد؛ وهي الطاقة والمشقة، وقيل الجَهد بالفتح: المشقّة، والجُهد بالضمّ: الوسع".[1]

وأما معنى الجهاد في الاصطلاح؛ فله إطلاقان:

١/ إطلاق خاص؛ ويراد به: بذل الجهد في قتال الكفار[2].

٢/ إطلاق عام؛ وقد عرّفه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله:"الجهاد؛ حقيقة الاجتهاد في حصول ما يحب الله تعالى من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفعِ ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان".[3]

وتحت هذا المعنى العام للجهاد؛ يدخل جهاد النفس في طاعة الله تعالى، وترك معصيته، وجهاد الشيطان، وجهاد المنافقين، وجهاد الكفار، ومن ذلك جهاد البيان والبلاغ، ومدافعة الفساد والمفسدين، بل إن الجهاد بالسيف؛ ما شُرع إلا لإقامة دين الله في الأرض، وصدّ المحارب له.

قال تعالى﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج:٧٨].

قال القرطبي:"قيل: عنى به جهاد الكفار، وقيل: هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به، والانتهاء عن كل ما نهى الله عنه، أي جاهدوا أنفسكم في طاعة الله، وردوها عن الهوى، وجاهدوا الشيطان في رد وسوسته، والظلمة في رد ظلمهم، والكافرين في رد كفرهم"[4].

---

(١) المفردات ص ٩٩.

(٢) فتح الباري ٦/٣

(٣) الفتاوى الكبرى ١٨٢/٥

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٩١/١٢

وقال ابن القيم:"لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبّته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة، كان رسول الله ﷺ في الذروة العُليا منه، واستولى على أنواعه كلّها، فجاهد في الله حق جهاده، بالقلب والجنان، والدعوة والبيان، والسيف والسِنان، وكانت ساعاته؛ موقوفة على الجهاد، بقلبه ولسانه ويده، ولهذا كان أرفع العالمين ذكراً وأعظمهم عند الله قدراً.

وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه، وقال ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[الفرقان:٥١،٥٢].

فهذه سورة مكية أُمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان، وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين؛ إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[التوبة:٧٣].

فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمّة، وورثة الرسل، والقائمون به؛ أفراد في العالم، والمشاركون فيه، والمعاونون عليه، وإن كانوا هم الأقلين عدداً؛ فهم الأعظمون عند الله قدراً".(١)

فالجهاد فرضه الله تعالى من أجل ردع أهل الفساد، كما مرّ آنفاً في قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾.

قال ابن عاشور:"أمر رسوله ﷺ بمسمعٍ منهم بأن يجاهدهم ويجاهد المستترين لكفرهم بظاهر الإيمان نفاقاً، حتى إذا لم تؤثر فيهم الموعظة بعقاب الآخرة يخشون أن يسلط عليهم عذاب السيف في العاجلة، فيقلعوا عن الكفر فيصلح نفوسهم، وإنما أمر رسوله ﷺ بذلك لأن الكفار تألبوا مع المنافقين بعد هجرة النبي ﷺ فاتخذوهم عيوناً لهم، وأيدي يدسون بها الأذى للنبي ﷺ وللمؤمنين، فهذا نداء للنبي ﷺ يأمره بإقامة صلاح عموم الأمّة بتطهيرها من الخُبثاء".(٢)

وعليه؛ فالجهاد أوسع من أن يضيّق على ساحة المعارك، فميادينه لا تتوقف ما دام في الأرض حق وباطل.

---

(١) زاد المعاد ٥/٣.

(٢) التحرير والتنوير ٤٥٢/٩

قال السعدي:"كم في كتاب الله من الآيات المتعلقة بالجهاد أمراً به، وحثاً عليه، وبيان لفضله، وفضل أهله وكمالهم، وكثرة ثوابهم، وعلو درجاتهم، وذكر ثمراته الجميلة، ونهياً عن ضدِّه، وبيان ما على المتقاعدين عنه من النقص العظيم، والعقوبات الدنيوية والأخروية، وكم فيه من ذكر مضاعفة النفقة فيه، وأنها من أعظم الجهاد".

ثم قال:"وجهاد الدعوة إلى دين الإسلام، والتحذير من الأديان الباطلة، وهذا مفروض منذ ابتدأت الرسالة، وهو فرض في كل وقت، بما يناسب الوقت ويليق به، قال تعالى﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[النحل:١٢٥]، وقال تعالى﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾[الفرقان:٥٢]، أي: جاهد أهل الباطل كلهم بالقرآن، فهذا فرض عين على كل مسلم، أن يقوم بما يقدر عليه ويعلِّمه، وعلى أهل العلم من ذلك، ما ليس على غيرهم، لأن معهم السلاح التام الحقيقي لهذا الجهاد، وهو العلم الذي خلاصته وروحه؛ شرح ما في دين الإسلام من المحاسن والمزايا والفضائل، شرحاً يُطابق الواقع، فإنه إذا شُرِح على هذا الوجه وبيِّنت محاسنه وفضائله؛ قبِله كل مُنصِف قصْده الحق، وكان أيضاً ذلك قامعاً للمبطلين الملحدين الذين ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[الصف:٨]".(١)

فلولا الجهاد؛ لانتشر الفساد في الارض، ولما ارتدع الظالمون والمفسدون، فالجهاد يمنع طغيان المشركين، وتمادي الظالمين.

وجهاد الكفار بالقتال؛ فإما أن يكون جهاد دفع، أو جهاد طلب.

فأما جهاد الدفع، فهو جهاد الصائل والمعتدي - سواء كان فرداً أو طائفة - ومنعه من فتنة المسلمين في دينهم، والاعتداء على الأنفس والأعراض، أو الاستيلاء على بلاد المسلمين.

وقد دلّ عليه قوله تعالى﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج:٣٩]

ومن حديث القرآن عن هذا النوع، وأثره في دفع الفساد، ما حكاه عن قوم طالوت، حيث

---

(١) فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن. لابن سعدي ص١٣٠.

قال تعالى ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة٢٥٠].

فقد أخذ هؤلاء بالأسباب، فخرجوا بعد ما أعدوا العُدّة لملاقاة جالوت ومن معه من الظالمين، ثم دعوا ربهم أن ينصرهم على القوم الكافرين، فاستجاب الله تعالى لهم ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].

لهذا شُرع للمؤمنين مدافعة الكفر وأهل الفساد، ومقارعتهم بالحجة والبرهان، ومقاتلتهم بالسيف والسِنان.

والنوع الثاني: جهاد الطلب والابتداء، وهو تطلب الكفار في عقر دارهم، ودعوهم إلى الإسلام، وقتالهم إذا لم يقبلوا الخضوع لحكم الإسلام، ليكون الدين كله لله.

وذهب الجمهور(١)؛ إلى أن هذا النوع من الجهاد فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، إلا أن يستنفر الإمام جميع الناس للجهاد؛ فلا يسوغ لأحد حينئذ أن يتخلّف.

وجاءت الإشارة إليه في قوله تعالى﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال:٣٩].

قال أبو السعود:"﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾وتضمحل الأديان الباطلة إما بإهلاك أهلها جميعا أو برجوعهم عنها خشية القتل﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾عن الكفر بقتالكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامهم".(٢)

وقال السعدي:"فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين اللّه الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان".(٣)

وقد نهى الله عباده عن الوهن في جهاد الكفار، فقال تعالى﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[النساء:١٠٤].

---

(١) المغني لابن قدامة ٣٥٩/١٠

(٢) إرشاد العقل السليم ٢١/٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٢١.

قال الشنقيطي: "نهى الله تعالى المسلمين في هذه الآية الكريمة عن الوهن، وهو الضعف في طلب أعدائهم الكافرين، وأخبرهم بأنهم إن كانوا يجدون الألم من القتل والجراح؛ فالكفار كذلك، والمسلم يرجوا من الله من الثواب والرحمة، ما لا يرجوه الكافر، فهو أحق بالصبر على الآلام منه، وأوضح هذا المعنى في آيات متعددة، كقوله﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾[آل عمران:١٣٩،١٤٠] وكقوله﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد:٣٥]، إلى غير ذلك من الآيات". (١)

وابتلى الله المسلمين بالقتال؛ لتبين الصادق من الكاذب، وإلا فأن الله تعالى قادر على نصرهم دون قتال، ولكنه شرع الجهاد لحِكمٍ منها؛ اختبار الصادق في إيمانه، وغير الصادق فيه، حيث قال ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:٤]، وقال في أواخر هذه السورة التي سمّيت بسورة القتال(٢)﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾[محمد:٣١].

كما أشار تعالى إلى حكمته في ذلك في آيات من كتابه، فقال تعالى ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾[آل عمران:١٧٩] وقوله﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ﴾[التوبة:١٦]،وقوله﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران:١٤٢] إلى غير ذلك من الآيات.

ومنها؛ تسهيل نيل فضل الشهادة في سبيل الله بقتل الكفار لشهداء المسلمين، ولولا ذلك لما حصّل أَحدٌ فضل الشهادة في سبيل الله ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ﴾

وفيه تمحيص للمسلمين واختبارهم، فمن امتثل أمر الله تعالى، وجاهد في سبيله لنصر دينه، وإعلاء كلمته؛ فهو المؤمن حقاً، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصاً في إيمانه.(٣)

---

(١) أضواء البيان ٣٠٦/١

(٢) قال ابن عاشور: قوله ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أن المعني بها هذه السورة، فتكون تسميتها "سورة القتال" تسمية قرآنية. انظر:التحرير والتنوير ٤٩/٢٦

(٣) تيسير الكريم الرحمن. ص ٧٨٩.

وقد تكون الغلبة لأهل الحق تارة، ولأهل الباطل تارة أخرى؛ وذلك ابتلاءً وامتحاناً للعباد، وتمحيصاً للقلوب، وتمييزاً للثابت على الحق من الناكص على عقبيه، المبدل لدين الله تعالى، والحكمة من هذه السنّة؛ ثابتة منصوص عليها في الكتاب العزيز.

ففي أعقاب غزوة أحد جاءت الآيات؛ لتكشف عن سنة مدافعة العباد بعضهم ببعض، ولتجمع الحِكم الآنفة الذِكر في موضع واحد، حيث قال تعالى ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٠-١٤٢].

والمعنى: لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا، ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله، والصابرين على مقاومة الأعداء[1]،كما أن في الآية بيان لحال المسلمين في الجهاد، الذي يتوقف عليه تمحيصهم، وبيان الصادق منهم والكاذب.

لهذا قال تعالى في مفتتح سورة العنكبوت ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[العنكبوت: ٢،٣].

"فالناس لا يُتركون بغير اختبار ولا ابتلاء ﴿أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ في أموالهم وأنفسهم، وليس الأمر كما حسِبوا، بل لابدّ أن يختبرهم؛ حتى يتبين المخلِص من المنافق، والصادق من الكاذب، فالآية مسوقة لإنكار ذلك الحسبان، واستبعاده، وبيان أنه لابد من الامتحان بأنواع التكاليف وغيرها".[2]

وختمها سبحانه بقوله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ثم كان من سنّة الله تعالى؛ أن جعل العاقبة لأهل الحق والإيمان والعدل، على أهل الباطل والكفر والظلم، بشرط أن يكونوا قائمين بأمر الله تعالى، ناصرين لدينه، مستمسكين بشريعته، فإن غلبهم أعداؤهم؛ فبسبب تقصيرهم في دينهم، ومعصيتهم لربهم.

وهذه السنة العظيمة جاء ذكرها في آيات كثيرة في كتاب الله تعالى، بل أقسم عليها الرب

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٠٨.

(٢) انظر: فتح القدير ٤/ ٢٣٠ .

جل جلاله في قوله﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[الحج:٤٠]،وقوله﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[النور:٥٥]،وقوله﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[محمد:٧]،وقوله﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[المجادلة:٢١].

وغيرها من الآيات.

فهذا وعد لابد أن يكون، على الرغم مما يبدوا أحياناً؛ من الظاهر الذي يخالف هذا الوعد الصادق، فإنه إذ أخلَّ أهل الحق بهذا الشرط، المتمثل في نصر الله تعالى بالاستمساك بدينه، وتعظيم شريعته، والعمل بها، فقدوا سبب النصر، وعوقبوا بالذل والهوان، وتسلط الأعداء؛ تذكيراً لهم وتأديباً، لعلهم إلى ربهم يرجعون، وبدينهم يستمسكون، وعن المعاصي ينتهون، وهذا التأديب والتذكير، ذاق شدته ومرارته؛ أفاضل هذه الأمة حين عصى الرماة في غزوة أُحد أمر الرسول ﷺ(١)، فانقلب ميزان المعركة لصالح المشركين، وأصاب المسلمين كرب شديد، وألمت بهم محنة عظيمة، وأحاط المشركون بالنبي ﷺ في نفر قليل من الصحابة ﷺ، وشُجَّ رأس النبي ﷺ، وكُسِرت رباعيته، وأشاع المشركون قتله، وقُتل سبعون من خيار الصحابة ﷺ، ومَثَّل المشركون ببعضهم، وأُصيب أهل المدينة في آبائهم وأزواجهم وإخوانهم وأولادهم، وأنزل الله تعالى آيات كريمات تبين أن معصيتهم هي سبب مصابهم،قال تعالى ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[آل عمران:١٦٥].

والجهاد له أثره في تثبيت دعائم الإيمان، ومحاربة المعاندين والمخالفين، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه حينما قاتل المرتدين، ومانعي الزكاة الذين قالوا بعدم فرضيتها(٢)،فلولا الجهاد لضاعت فرائض الدين، ولتسلّط على هذه الأمة؛ شياطين الإنس والجن، الذين يكيدون بها وبأهلها.

وقد رتّب تبارك وتعالى على إقامة الجهاد مصالح عظيمة، كما قال تعالى﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام ٤/٤

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الزكاة. باب وجوب الزكاة ح (١٣٣٥)

﴿قُلُوبِهِمْ﴾[التوبة:١٤،١٥].

قال ابن عاشور:"ضمن للمسلمين من تلك المقاتلة؛ خمس فوائد، تنحل إلى اثنتي عشرة، إذ تشتمل كل فائدة منها؛ على كرامة للمؤمنين، وإهانة لهؤلاء المشركين، وروعي في كل فائدة منها، الغرض الأهم، فصرح به، وجعل ما عداه حاصلاً بطريق الكناية

الفائدة الأولى: تعذيب المشركين بأيدي المسلمين،وهذه إهانة للمشركين وكرامة للمسلمين.

الثانية: خزي المشركين، وهو يستلزم عزة المسلمين.

الثالثة: نصر المسلمين، وهذه كرامة صريحة لهم، وتستلزم هزيمة المشركين، وهي إهانة لهم.

الرابعة: شفاء صدور فريق من المؤمنين، وهذه صريحة في شفاء صدور طائفة من المؤمنين وهم خزاعة، وتستلزم شفاء صدور المؤمنين كلهم، وتستلزم حرج صدور أعدائهم، فهذه ثلاث فوائد في فائدة.

الخامسة: إذهاب غيظ قلوب فريق من المؤمنين، أو المؤمنين كلهم، وهذه تستلزم ذهاب غيظ بقية المؤمنين، الذي تحملوه من إغاظة أحلامهم، وتستلزم غيظ قلوب أعدائهم، فهذه ثلاث فوائد في فائدة.

والتعذيب تعذيب القتل والجراحة، وأسند التعذيب إلى الله، وجعلت أيدي المسلمين آلة له؛ تشريفاً للمسلمين".(١)

وليتحقق بهذا السبيل مصلحة الإسلام ودفع الفساد؛ فإن ينبغي أن يُصان مفهوم الجهاد عن تحريف الغالين، وتأويل الجافين، ومن هنا فقد بيّنت النصوص الشريعة، ضوابط الجهاد وشروطه، والتي من أهمها:

١/ أن يكون بنيّة خالصة لله تعالى، ولإعلاء كلمته، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال:جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: "الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذِكر، والرجل يقاتل ليُعرف، فمن في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله".(٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٤٥٢/٩

(٢) أخرجه البخاري كتاب : الجهاد باب : من قاتل لتكون كلمة الله هي العيا ح (٢٦٥٥)

٢/ أن يكون بإذن ولي الأمر، كما دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني، وإنما الإمام جُنَّة يقاتل من ورائه ويتقى به، فإن أمر بتقوى الله وعدل؛ فإن له بذلك أجراً، وإن قال بغيره؛ فإن عليه منه".(١)

قال ابن قدامة:"ولا يخرجون إلى الجهاد إلا بإذن الأمير، لأن أمر الحرب موكول إليه".(٢)

٣/ القدرة على الجهاد، فإن النبي ﷺ لم يقاتل كفار قريش قبل الهجرة، بل إن القتال لم يشرع إلا بعد الهجرة، لأن المسلمين كانوا في حال ضعف وقلة، وبعد الهجرة؛ قامت دولة الإسلام وأصبحت قوية؛ فشرع حينها الجهاد.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب : الجهاد باب : يقاتل من وراء الإمام ويتقى به ح (٢٧٩٧) ومسلم كتاب : الإمارة باب : وجوب طاعة الأمراء ح (١٨٣٥)

(٢) المغني ٣٣/١٣

المبحث العاشر

الأمر بغض البصر وحفظ الفرج

أمر الله تعالى بغض الأبصار وحفظ الفروج، وذلك سبيل للازم للسلامة المرء من الفساد.

ويقال: غَضَّ طَرْفَه وبَصره يَغُضُّه غَضّاً وغَضاضاً وغِضاضاً وغَضاضةً؛ فهو مَغْضُوضٌ وغَضِيضٌ؛ كفَّه وخفَضَه وكسره، وقيل: هو إِذا دانى بين جفونه ونظر، وقيل: الغَضِيضُ الطرْفِ المُسْتَرْخي الأَجفانِ، وفي التنزيل ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾[لقمان:١٩]، أَي اخْفِضِ الصوت.(١)

والغض: صرْف المرء بصره عن التحديق، وتثبيت النظر، ويكون من الحياء، كما قال عنترة(٢):

أغض طرفي حين تبدو جارتي   حتى يواري جارتي مأواها

ومادة الغض؛ تفيد معنى الخفض والنقص.(٣)

وغضّ البصر؛ لو لم يكن فيه من النفع؛ إلا أمر الله تعالى؛ لكفى بذلك دلالة على أثره في صلاح القلوب، قال تعالى﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾[النور:٣٠].

قال ابن كثير:"هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين؛ أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلاّ إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد؛ فليصرف بصره عنه سريعاً، كما روى مسلم عن جرير البجلي رضي الله عنه قال:"سألت النبي ﷺ عن نظرة الفُجأة، فأمرني أن أصرف بصري"(٤)، وفي رواية لبعضهم، فقال "أطرق بصرك"(٥)، يعني: انظر إلى الأرض، والصرف أعمّ، فإنه قد يكون إلى الأرض، وإلى جهة أخرى".(٦)

والأمر بالغضّ، لأن النظر إلى ما حرم الله؛ يؤدي إلى الوقوع فيما حرم الله تعالى.

---

(١) لسان العرب ١٩٦/٧ مادة (غض)

(٢) عنترة بن شداد بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن ربيعة بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس العبسي البداية والنهاية ٢٢٠/٢

(٣) التحرير والتنوير ٨٩/١٨

(٤) أخرجه مسلم. كتاب الأدب. باب نظرة الفجأة. ح(٢١٥٩).

(٥) ذكره ابن كثير وقال : رويناه في الحديث الصحيح، البداية والنهاية ٧٩/٥

(٦) تفسير القرآن العظيم ٣٧٦/٣

قال القرطبي في قوله ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾"وصَلَ - تعالى - بذكرِ السِتر مـا يتعلق به من أمر النظر، ولم يذكر الله تعالى ما يُغضُّ البصر عنه ويُحفظ الفرج؛ غير أن ذلك معلوم بالعادة، وأن المراد منه، المحرَّم دون المحلّل، وما ذكره هنا من الأمر بغض البصر، قـد جاء في آية أخرى تهديد من لم يمتثله، ولم يغض بصره عن الحرام، وهي قوله تعـالى﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[غافر:١٩]، وفي البخاري:"وقال سعيد بن أبي الحسن[١] للحسن؛ إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورؤوسهن؟ قال: اصرف بصرك، يقـول تعـالى ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾.

وقال قتادة: عما لا يحل لهم ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾[النور:٣١]، خائنة الأعين مـن النظر إلى ما نهي عنه.

وبه تعلم؛ أن قوله تعالى﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾فيه الوعيد لمن يخون بعينه بالنظر إلى ما لا يحل له، وهذا الذي دلت عليه الآيتان من الزجر عن النظر إلى ما لا يحـل، جـاء موضحاً في أحاديث كثيرة.[٢]

قال الشوكاني:"وخصّ المؤمنين مع تحريمه على غيرهم؛ لكون قطع ذرائع الزنا؛ الـتي منـها النظر؛ هم أحق من غيرهم بها، وأولى بذلك ممن سواهم"[٣].

"وفي هذا الأمر بالغضّ؛ أدب شرعي عظيم، في مباعدة النفس عن التطلع إلى ما عـسى أن يوقعها في الحرام، أو ما عسى أن يكلفها صبراً شديداً عليها"[٤].

وقال البغوي:"قال أبو العالية:كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا والحرام، إلا في هذا الموضع، فإنه أراد به الاستتار، حتى لا يقع بصر الغير عليه".[٥]

ومن عناية الشريعة بهذا الأمر أن الأصل في مشروعية الاستئذان؛ إنما هو للاحتراز من وقوع النظر إلى ما لا يريد صاحب المترل النظر إليه لو دخل بغير إذن، وأعظم ذلـك النظـر إلى

---

(١) سعيد بن أبي الحسن: يسار الأنصارى، مولاهم البصرى، أخو الحسن البصرى ت: ١٠٠هـ . تهذيب الكمال ٣٨٥/١٠

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠٠/١٢ ، أضواء البيان ٥٠٩/٥

(٣) فتح القدير ٣٣/٤

(٤) التحرير والتنوير ٩٠/١٨

(٥) معالم التتريل ٦/ ٣٢

النساء الأجنبيات، وقد قال ﷺ:"إنما جعل الاستئذان من أجل البصر"(١).

وأكّد هذا – أيضاً – في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:"إياكم والجلوس في الطرقات" فقالوا ما لنا بدٌّ، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها. قال: فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر".(٢)

قال ابن القيم(٣):والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان؛ فإن النظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى؛ فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل، ولا بد، ما لم يمنع منه مانع.

وفى هذا قيل:الصبر على غضّ البصر أيسرُ من الصبر على ألم ما بعده.

ومن آفات النظر: أنه يورث الحسرات والحرقات، فيرى العبد ما ليس قادراً عليه، ولا صابراً عنه، وهذا من أعظم العذاب: أن ترى ما لا صبر لك عنه، ولا عن بعضه، ولا قدرة لك عليه، ولا عن بعضه، قال الشاعر:

وكُنتَ متى أرسلْتَ طَرْفكَ رائِداً ... لقلْبك يوماً أتعبتْكَ المناظِرُ
رأيتَ الذي لا كُلُّهُ أنتَ قادرٌ عليهِ ... ولا عن بعضهِ أنت صابرُ

وفي غض البصر عدة منافع:

أحدها: أنه امتثال لأمر الله، الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده؛ وليس للعبد في دنياه وآخرته؛ أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى.

الثانية: أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم، الذي لعل فيه هلاكه إلى قلبه،وقد قال النبي ﷺ "النظرة سهم من سهام إبليس".(٤)

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب الاستئذان. باب الاستئذان من أجل البصر.ح(٥٨٨٧).

(٢) رواه البخاري. كتاب المظالم. باب أفنية الدور. ح (٢٣٣٣)، ومسلم.كتاب اللباس. باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه.ح(١٢١٢).

(٣) انظر: الجواب الكافي ص ١٠٥ وما بعدها

(٤) الحاكم في المستدرك من حديث حذيفة كتاب الرقاق.ح(٧٨٧٥)، وقال:هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.والطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود.ح(١٠٣٦٢)

الثالثة: أنه يورث القلب أُنساً بالله، وجمعيَّة على الله؛ فإن إطلاق البصر؛ يفرِّق القلب ويشتته ويبعده عن الله، وليس على القلب شيء أضر من إطلاق البصر؛ فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه.

الرابعة: أنه يقوي القلب ويفرحه، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه، والله سبحانه يجزي العبد على عمله، بما هو من جنس عمله، ومن ترك لله شيئاً؛ عوضه الله خيراً منه.

فإذا غض بصره عن محارم الله؛ عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عِوضة عن حبسه بصره لله، ويفتح له باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة، التي إنما تنال ببصيرة القلب.

وضدُّ هذا ما وصف الله به اللوطية من العَمَه الذي هو ضد البصيرة، فقال تعالى ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[الحِجر:٧٢]،فوصفهم بالسَّكرة التي هي فساد العقل، والعَمَه الذي هو فساد البصيرة، فالتعلّق بالصّور يوجب فساد العقل، وعمه البصيرة، وسكر القلب.

الخامسة: أنه يسدّ على الشيطان مدخله إلى القلب؛ فإنه يدخل مع النظرة، وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهوى في المكان الخالي؛ فيمثل له صورة المنظور إليه، ويزينها، ويجعلها صنماً يعكف عليه القلب، ثم يعِدُه، ويُمنِّيه، ويوقد على القلب نار الشهوة.

السادسة: أن بين العين والقلب منفذاً وطريقاً يوجب اشتغال أحدهما عن الآخر، وأن يصلح بصلاحه، ويفسد بفساده؛ فإذا فسد القلب؛ فسد النظر، وإذا فسد النظر؛ فسد القلب، وكذلك في جانب الصلاح.

فإذا خربت العين وفسدت؛ خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ ؛فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه والأنس به والسرور بقربه فيه، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك.

والله سبحانه وتعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس،وهم: اللوطية، والنساء، أما اللوطية فسبقت الإشارة إلا فسادهم، وأما النساء؛ فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف عليه السلام وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتُلي به؛ أمر لا يصبر عليه؛ إلا من صبَّره الله عليه؛ فإن موافقة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع.

ومع هذه الدواعي كلها؛ فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى فقال﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]، وعلِم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن؛ صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه.

فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور:

أما مصالح الدين؛ فإنها منوطة بلمِّ شعث القلب، وإقباله على الله، وعشق الصور أعظم شيءٍ تشعيثاً وتشتيتاً له، وأما مصالح الدنيا؛ فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين؛ فمن انفرطت عليه مصالح دينه، وضاعت عليه؛ فمصالح دنياه أضيع وأضيع.

وعلى هذا؛ فإن الله لم يشرع لعباده غض البصر وحفظ الفرج؛ إلا رحمة بهم؛ لأنه إذا فتح هذا الباب؛ فإنه يؤدى إلى اختلاط الأعراض والأنساب، وفساد عريض في الأرض.

إذاً البصر يجب صونه عما محارم الله تعالى، لأنه تعالى قال ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾[الإسراء:٣٦] وقال تعالى﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[فصلت:٢٠].

ولما كان إطلاق البصر داعية لفساد القلوب؛ سدّ الله تبارك وتعالى لنا أبوابه؛ حتى لا يغرق المسلم في بحر الفساد بسبب النظر المحرّم، لذلك أمر الله تعالى بحفظ الفرج، كما أمر بحفظ الأبصار التي هى باعثة إلى ذلك.

ففي مفتتح سورة المؤمنون؛ استحثّ الله عباده إلى جملة من الفضائل، واصفاً أهلها بالفلاح، وكان من تلك الصفات، قوله تعالى﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾[المؤمنون:٦،٧].

ففي قوله﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ دلالة إلى أن من تجاوز ذلك فهو ملوم،"وزيد ذلك التحذير تقريراً بأن فرّع عليه ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾[المؤمنون:٧]، لأن داعية غلبة شهوة الفرج على حفظ صاحبه إياه، غريزة طبيعية يخشى أن تتغلب على حافظها، فالإشارة بذلك إلى المذكور في قوله ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ أي وراء الأزواج والمملوكات ، أي غير ذينك الصنفين".(١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/١٣

"ومن تمام حفظ الفروج تجنب ما يدعو إلى ذلك، كالنظر واللمس ونحوهما. فحفظوا فروجهم من كل أحد إلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ من الإماء المملوكات، وقوله ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، المتجرئون على محارم الله. وعموم هذه الآية، يدل على تحريم نكاح المتعة، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصودا بقاؤها، ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك".(١)

قال البغوي:"وفيه دليل على أن الاستمناء باليد حرام، وهو قول أكثر العلماء".(٢)

وتكرر الوعد الحسن على ذلك في مواضع، كما قال تعالى في سورة الأحزاب﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ ..﴾ حتى قوله﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الأحزاب:٣٥].

قال ابن عاشور:"وأما حفظ الفروج، فلأن شهوة الفرج شهوة جبلية، وهي في الرجل أشدّ، وقد أثنى الله على الأنبياء بذلك فقال في يحيى عليه السلام ﴿وَحَصُورًا﴾ [آل عمران:٣٩]،وقال في مريم ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾[الأنبياء:٩١]، وهذا الحفظ له حدود سنتها الشريعة، فالمراد: حفظ الفروج على أن تستعمل فيما نهي عنه شرعاً، وليس المراد: حفظها عن الاستعمال أصلاً، وهو الرهبنة؛ فإن الرهبنة مدحوضة في الإسلام بأدلة متواترة المعنى".(٣)

قال ابن القيم:"إن للعفة لذَّة؛ أعظم من قضاء الوطر، لكنها لذة يتقدمها ألم حبس النفس، ثم تعقبها اللذة، أما قضاء الوطر، فالبضد من ذلك.

ومن أجل ذلك نهانا الله تعالى من الاقتراب من الزنا، فقال تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

قال السعدي:"والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله، لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن من حام حول الحمى، يوشك أن يقع فيه، خصوصاً هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٥٤٧

(٢) معالم التنزيل ٥/ ٤١٠

(٣) التحرير والتنوير ٢٥٣/٢١

ووصف الله الزنى وقبّحه بأنه ﴿كَانَ فَاحِشَةً﴾ أي: إثماً يستفحش في الشرع والعقل والفطر لتضمنه التجري على الحرمة في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب، وغير ذلك من المفاسد".(١)

فعن المقداد بن الأسود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:"ما تقولون في الزنا؟ قالوا هو حرام حرمه الله عز وجل ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة" (٢)

ولذلك فإن المؤمنين أصحاب النفوس السوية والفطرة السليمة لا يحبون هذا الأمر،فعن أبي أمامة ﷺ:"أن فتى شابًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه، مه، فقال: أدنه، فدنا منه قريبًا، فقال: أجلس فجلس، فقال:أتحبه لأمك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال:لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟.. إلى أن قال: فوضع النبي ﷺ يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهِّر قلبه، وحصِّن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت على شيء".(٣)

ومن عناية الشريعة بهذا الأمر؛إلى تزويج على الزواج والإحصان؛ لما فيه من قطع دابر الفتنة والفاحشة، كما قال تعالى ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور:٣٢].

قال أبو السعود:" بعد ما زجر تعالى عن السفاح ومباديه القريبة والبعيدة أمر بالنكاح فإنه مع كونه مقصودا بالذات من حيث كونه مناطا لبقاء النوع خير مزجرة عن ذلك"(٤).

وأرشد العاجزين عن النكاح وأسبابه؛ بالاستعفاف، فقال ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ [النور:٣٣].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٥٧

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢٥٦/٥

(٣) أخرجه مسلم كتاب : الطهارة باب : باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذ حصلت في المسجد وأن الأرض تطهر بالماء من غير حاجة إلى حفرها ح (٢٨٥)

(٤) إرشاد العقل السليم ١٧١/٦

الباب الثالث

آثَارُ الفَسَاد

وفيه فَصْلان:

الفَصل الأول: آثَارُ الفَسَادِ في الدُّنيا.

الفصل الثاني: آثَارُ الفَسَادِ في الآخِرَة.

تمهيد :

من منهج القرآن الكريم في دفع الفساد؛ بيان الأثر المترتب عليه في الدنيا والآخرة، وقد ثنّى الله تعالى ذكر هذا الأثر في مواضع كثيرة، على التفصيل والإجمال..ولا يكاد التالي- للكتاب العزيز- ينفك عن مشهد تلك الآثار، في بيانٍ بديع، بلغ المنتهى في الوعظ والتذكير، والزجر والتحذير، كيف وقد قال جل ذِكره﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[النور:٣٤].

فهذا تعظيم وتفخيم لهذه الآيات التي تلاها الله، على عباده ، ليعرفوا قدرها، ويقوموا بحقها، فهي واضحة الدلالة ، على كل أمر يحتاجون إليه، وكان مما أنزل فيها مثلاً من أخبار الأولين وصفة أعمالهم، وما جرى عليهم؛ ليكون مثالاً ومعتبراً، لمن فعل مثل أفعالهم؛ أن يجازى مثل ما جُوزوا.

فالقرآن أبلغ واعظ في وعده ووعيده، وترغيبه وترهيبه، والمتقون هم المنتفعون بالآيات؛ فتهديهم إلى سبيل الرشاد، وتعظهم وتزجرهم عن طريق الغيّ، وأما باقي الناس؛ فهي بيان لهم، تقوم به عليهم الحجة من الله، ليهلك من هلك عن بينة.(١)

هذا وقد جاءت هذه الآثار ؛ مبثوثة في ثنايا هذا البحث ، إذ لا انفصام بينها وبين ما سبق من أسباب الفساد وسبل دفعه ، ووصف أهله ، فإن من عادات القرآن أن يذكر أحوال الكفار إغلاظاً عليهم ، وتعريضاً بتخويف المسلمين ، ليكرِّه إياهم لأحوال أهل الكفر ، وقد قال ابن عباس: كل ما جاء في القرآن من ذم أحوال الكفار ، فمراد منه أيضاً تحذير المسلمين من مثله في الإسلام.(٢)

فجمعت هنا في آثار الفساد ما تفرّق ، وحررت ما تيسّر لمزيد البيان والاعتبار ، وآثرت ذكرها على سبيل الاختصار ، وهي على ما يأتي:

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ١٤٩،٥٦٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٥٤٩/٢

الفصل الأول

آثَارُ الفَسَادِ في الدُّنيا

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: اختلال الأمن.

المبحث الثاني: الضلال والطبع على القلب.

المبحث الثالث: الاستدراج.

المبحث الرابع: حبوط العمل.

المبحث الخامس: انتفاء محبة الله وتوفيقه.

المبحث السادس: العقوبة والهلاك.

المبحث الأول

اختِلالُ الأَمْنِ

من آثار الفساد في الدنيا الشعور بالقلق والاضطراب، وهو ما يُعرَف باختلال الأمن.

فالخَلَلُ هو: اضطراب الشيء، وعدم انتظامه[١]، ويطلق على الوَهْنُ في الأمـرِ، والرِّقَّـةُ في الناسِ، والانْتشارُ، والتَّفَرُّقُ في الرأي.[٢]

والأمَانُ والأَمَنةُ بمعنى، وقد أمِنَ من باب فهِم وسلِم، وأمَاناً وأَمَنَةً بفتحتين فهو آمِنٌ، وآمَنـهُ غيره من الأمْنِ، والأمَان والإيمانُ التصديق، والله تعالى المُؤْمِنُ، لأنه آمـنَ عبـاده مـن أن يظلمهم.

والأمْنُ ضد الخوف،والأَمَنةُ الأمن كما مرّ،ومنه قوله تعالى﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾[آل عمـران:١٥٤].[٣]

فالأمن مما تطمئن به القلوب، فإذا فارقها؛ كان الاضطراب والخلل الناتج عن الفساد.

وعلى هذا؛ فإن المقصود باختلال الأمن؛ عدم انضباطه، مما يترتب عليه انتـشار الفوضـى، وعدم راحة القلب.

والمتأمل في كتاب الله تعالى، يجد أن القرآن الكريم قد كفل للإنسان أمْنه وطمأنينته في دنياه وأخراه، وهو أمنٌ كامل وشامل في حياة الإنسان، لا يتوفر ضمانه لحياة الإنسان فحـسب، بل هو يحتاج إلى الأمن على عقيدته التي يؤمن بها، وعلى موارد حياته الاقتصادية والمادية.

لهذا؛ امتنّ الله تعالى على قريش بما هيأه لها من الأمن دون سائر القبائل، ليكون ذلك داعيًـا لها إلى عبادة الله تعالى وتوحيده،فقال تعالى﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[قريش:٣،٤].

وهذا تذكير يبعث في النفوس؛ الحياءَ من الله تعالى، وما كانت قريش تجهل قيمة البيت، وأثر حرمته في حياتها، وما كانت في ساعة الشدَّة والكربة تلجأ؛ إلا إلى رب هذا البيت وحده، وها هو ذا عبدالمطلب لا يواجه أبرهة بجيش ولا قوة، ولا بصنم ولا وثن، إنما يواجهه برب هذا البيت الذي يتولى حماية بيته! ولم يقل له: إن الآلهة ستحمي هذا البيت، بل مـا زاد أن قال:"أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه"[٤].

---

(١) المصباح المنير ١/١٨٠

(٢) القاموس المحيط ١٨٥٠

(٣) مختار الصحاح ص٢٠

(٤) الفصول في سيرة الرسولﷺ لابن كثير ص ٢٩

ولكن فساد الجاهلية، لا يثوب إلى حق، ولا يرجع إلى عقل.

فالأمن الحقيقي يكون لمن آمن بالله ووحده، ولم يخلط إيمانه بشائبة شرك، وأن غير ذلك من الأمن تبع له،وهذا ما حكاه القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام مع قومه،فقال ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨١].

فهذا جواب إبراهيم عليه السلام لقومه حين خوّفوه من آلهتهم أن تمسّه بسوء، لذكره إياها، فأجابهم: وكيف أخاف وأرهب ما أشركتموه في عبادتكم ربكم، فعبدتموه من دونه، وهو لا يضر ولا ينفع ؟ ولو كانت تنفع أو تضر؛ لدفعت عن أنفسها كَسْري إياها، وضربي لها بالفأس، وأنتم لا تخافون الله الذي خلقكم ورزقكم، وهو القادر على نفعكم وضركم في إشراككم في عبادتكم إياه، وهو سبحانه لم يعطكم على إشراككم إياه في عبادته؛ حجة ولا برهاناً، ولم يجعل لكم به عذراً، فأي الفريقين أحق بالأمن ؟

وكأنه يقول: أنا أحق بالأمن من عاقبة عبادتي ربي مخلصاً له العبادة، حنيفاً له ديني، بريئاً من عبادة الأوثان والأصنام؛ أم أنتم الذين تعبدون من دون الله أصناماً، ولم يجعل الله لكم بعبادتكم إياها؛ برهاناً ولا حجة ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ صدق ما أقول، وحقيقة ما أحتج به عليكم، فأخبروني: أي الفريقين أحق بالأمن؟ (١)

قال ابن عاشور:"كلمة ﴿ وَكَيْفَ ﴾ في الآية؛ تُفيد الاستفهام الإنكاري، لأنهم دعوه إلى أن يخاف بأس الآلهة؛ فأنكر هو عليهم ذلك، وقلب عليهم الحجة، فأنكر عليهم أنهم لم يخافوا الله؛ حين أشركوا به غيره بدون دليل نصبه لهم، فجمعت ﴿ وَكَيْفَ ﴾الإنكار على الأمرين"(٢).

وإنكار إبراهيم عليه السلام عليهم عدم خوفهم من الله، لأنه تحقّق فيهم هذا الاتهام الذي وجهه لهم؛ إذ الانسلاخ من الإيمان سبب في عدم تحقق الأمن، لهذا عاب عليهم.

إنّ الأمن من أجلّ النعم التي ينعم الله بها على عباده، فإذا انعدم ودخل مكانه الشرك أبدل

---

(١) انظر: جامع البيان ٢٤٩/٥

(٢) التحرير والتنوير ٥٣٦/٧

الله النعمة نقمة، وتحوّل الأمن إلى خوف، إذ الشرك والفساد سبب في ضياع الأمن من الأمة، لهذا قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[الأنعام:٨٢]، فالذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئاً، هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.(١)

لهذا كانوا هم الأحق بالأمن ممن أشركوا،ومعنى قوله ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ لم يخلطوه بشرك، لما ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية،قال أصحاب رسول الله ﷺ : أينا لم يظلم؟ فنزلت ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[لقمان:١٣](٢). وليس الإيمان به سبحانه أن يصدق بوجود الصانع الحكيم، ويخلط بهذا التصديق الإشراك به، وليس من قضية الخلط بقاء الأصل بعد الخلط حقيقة.(٣)

قال السعدي في قوله﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾"الأمن من المخاوفِ والعذاب والشقاء، والهدايةُ إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً، لا بشرك، ولا بمعاص؛ حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة، وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات؛ حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها، ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء".(٤)

وعلى هذا؛ فإن الفساد عدو الأمن، لأنه إذا حلَّ بقوم انعدم أمنهم، لهذا قال تعالى في بيان حال المنافقين﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾[الأحزاب:١٩].

فدلت هذه الآية على أن الخوف لما جاء؛ تحوّلوا من حال إلى حال، إذ كانوا قبل مجيء الخوف في أمن، فلما وقع منهم الفساد؛ بدّل الله تعالى أمنهم خوفاً، وبيّن في موضع آخر شدة خوفهم، فقال﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[المنافقون:٤]، فهم في خوف وهلع إذا سمعوا صيحة

(١) انظر:تفسير القرآن العظيم ٢/٢٠٥

(٢) رواه البخاري.كتاب الإيمان.باب ظلم دون ظلم ح(٣٢)،وبنحوه عند مسلم.كتاب الإيمان.باب:صدق الإيمان وإخلاصه.ح(١٩٧)

(٣) إرشاد العقل السليم ٣/ ١٥٦

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٦٣

في خصومة، أو أنشدت ضالة، خشوا أن يكون ذلك غارة من المسلمين عليهم، للإيقاع بهم(١).

وإذا انتشر الفساد، وعمت البلوى، وبعُدَ الناس عن منهج الله تعالى، حُرموا نعمة الأمن، إلا أنه قد يعود إليهم أمنهم؛ شريطة أن يتحقق فيهم الإيمان والعمل الصالح، لهذا قال تعالى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]

والاستخلاف في الأرض؛لا يكون إلا إذا كان هناك أمن، ومن ثمَّ، تقام شعائر الإسلام، لهذا يقول ابن كثير - رحمه الله - في إيضاح المقصود بهذه الآية الكريمة:"هذا وعدٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنَّه سيجعل أُمَّته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً".(٢)

ولولا وقوف أهل الإيمان في طريق المفسدين ودرئهم لإفسادهم؛ لاختلّ الأمن، ولهدمت أماكن العبادة، قال تعالى﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

والمعنى: لولا وجود سنّة التدافع بين الناس؛ لاعتدوا على مواضع عبادة المسلمين، ولهدِّمت المعابد من صوامع وبيع وصلوات.

ويجوز أن يكون المراد: لولا ما سبق قبل الإسلام؛ من إذن الله لأمم التوحيد بقتال أهل الشرك- كما قاتل داود جالوت- وكما تغلَّب سليمان على ملكة سبأ؛ لمحق المشركون معالم التوحيد، كما محق بختنصر هيكل سليمان، فأذن للمسلمين بالقتال، كما أذن لأمم قبلهم؛ لكيلا يطغى عليهم المشركون، كما طغوا على من قبلهم .(٣)

ومما قص الله تعالى علينا من أخبار السابقين للعلم والعظة والاعتبار: قصة قوم سبأ، وقد أنعم الله عليهم بالخيرات، ورزقهم من الطيبات حتى شبعوا وأَمِنُوا، لكنهم بطروا وكفروا، فكانت

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢١٥/٢٨

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٠١/٣

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٣٢١/١٧

أمة سبأ الكفورة المعذبة، مثلاً لكفار قريش؛ لإنذارهم من العذاب، كما عذب الله تعالى قوم سبأ.

فجدير بأهل القرآن، وهم يتلون هذه القصة؛ أن يدركوا هذا المعنى العظيم، وأن يتعظوا بما حلَّ بقوم سبأ؛ لئلا يسلكوا مسلكهم، وليجانبوا طريقتهم.

إن سبأً قومٌ نعموا بالأمن، فاكتملت نعمهم، ودُفعت النقم عنهم، وكُفُوا مئونة الطعام والشراب، وهما قيام الحياة؛ فأرزاقهم حاضرة، وأرضهم مخضرة، وسماؤهم ممطرة، وثمارهم يانعة، وضروعهم دارَّة، تحيط بمساكنهم الأشجار والثمار، وتملأ جنبتي بلادهم؛ يشربون من الماء أعذبه، ويتنفسون من الهواء أنقاه، حتى ذكر المفسرون خلو أرضهم وأجوائهم من الهوام والحشرات المؤذية، وهذا من أكمل ما يكون للعيش الرغيد، والراحة التامة، والنعم الكاملة.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٩]

والمعنى: وجعلنا لسبأ مع ما آتيناهم في مساكنهم من فُنون النِّعمِ بينهم بين بلادهم وبين القُرى الشَّاميةِ التي باركنا فيها للعالمين ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ متواصلة يُرى بعضُها من بعضٍ لتقاربها فهي ظاهرة لأعينُ أهلها، أو راكبة متنَ الطريق غير بعيدة عن مسالكهم حتَّى تخفى عليهم ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلناها في نسبة بعضها إلى بعضٍ على مقدار معيَّن يليقُ بحال أبناء السَّبيلِ، قيل: كان الغادي من قرية يقيلُ في أخرى، والرَّائحُ منها، يبيت في أُخرى، إلى أنْ يبلغَ الشَّامَ. كلُّ ذلك كان تكميلاً لما أُوتوا من أنواع النَّعماءِ وتوفيراً لها في الحضر والسَّفرِ ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ في تلك القُرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ متى شئتُم من الليالي والأيَّامِ ﴿ءَامِنِينَ﴾ من كلِّ ما تكرهونه، لا يختلف الأمنُ فيها باختلاف الأوقاتِ، أو سيروا فيها آمنينَ، وإن تطاولتْ مُدَّةُ سفرِكم وامتدتْ لياليَ وأيَّاماً كثيرة، أو سيروا فيها لياليَ أعمارِكم وأيَّامَها، لا تلقَون فيها، إلا الأمنَ ، لكن لا على الحقيقة بل على تتريل تمكينهم من السَّيرِ المذكور، وتسوية مباديه وأسبابه على الوجه المذكور، مترلة أمرهم بذلك.(١)

(١) انظر: إرشاد العقل السليم ١٢٩/٧

قال البغوي:"قوله ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ لا تخافون عدوًا ولا جوعًا ولا عطشًا، فبطروا وطغوا، ولم يصبروا على العافية، وقالوا: لو كانت جناتنا أبعد مما هي كان أجدر أن نشتهيه".(١)

ولم يطلب سبحانه منهم مقابل هذه النعم المتتابعة؛ إلا شكره عليها، بإقامة دينه، وتحقيق توحيده، لكنهم قابلوا دعوة الله تعالى لهم بالإعراض والاستكبار، والإعراضُ أشد أنواع الكفر، فاستحقوا العذاب والدمار، وتبدل الأمن إلى خوف وفزع ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ ففتح الله تعالى عليهم سدهم؛ ليغرق بلادهم، ويهلك حرثهم وأنعامهم، ويتلف أشجارهم وثمارهم، فأضحت بلادهم بعد الخضرة مغبرة، وبعد السعة ضيقة، وذهبت نعمهم في لمح البصر، وصاروا ممحلين لا يلوون على شيء.

ولم تتغير نعم سبأ عليهم؛ إلا لما أعرضوا عن دين الله تعالى، ولم يشكروا له نعمه عز وجل؛ ولذلك بيَّن الله تعالى سبب زوال نعمتهم بقوله عز وجل ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾[سبأ:١٧].

لقد كان قوم سبأ؛ ظالمي أنفسهم، لأنهم اعتدوا في الدعاء مع إعراضهم وتحديهم، فقالوا ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾، وهذا القول كان منهم بطراً وطغياناً؛ لّما سئموا النعمة، ولم يصبروا على العافية، فتمنوا طول الأسفار، والتباعد بين الديار، وسألوا الله تعالى أن يجعل بينهم وبين الشام، مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة الماء والشجر والأمن والمفاوز والقفار والبراري المتباعدة الأقطار، فملّوا العافية، فطلبوا الكدّ والتعب، كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم، مكان المنّ والسلوى، حيث قالوا ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا ﴾[البقرة:٦١]، فأجابهم الله إلى ذلك، وخرَّب تلك القرى المتواصلة، وذهب بما فيها من الخير والماء والشجر.(٢)

فكانت عقوبة الله تعالى لهم أن أفقرهم بعد الغنى، وشردهم بعد الاستقرار، وفرقهم بعد الاجتماع، ومزقهم في الأقطار، وجعل خبرَهم أحاديث يتحدث بها الناس في مجالسهم، ويحكون ما جرى لهم.

قال ابن كثير:"أي جعلناهم حديثاً للناس، وسمراً يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله

---

(١) معالم التنزيل ٦/٣٩٦

(٢) فتح القدير ٤/٤٥٧

بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد ههنا وههنا، فصارت العرب تتمثل بهم في الفُرقة، فتقول في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبأ، وأيادي سبأ "[(١)]

فإذا تبدلت الأحوال وتقلبت الأزمان، فهذا دليل زوال النعم، وبناءاً على ما تقدم؛ فإن الأمن لا يحصل لأهل المعاصي أبداً مهما كانت مكانتهم، وهذا ما حدث مع أهل مكة حينما خالفوا أمر رسول الله ﷺ، فتحول الأمن إلى خوف، ولم يعصمهم من الله عاصم، قال تعالى ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[النحل:١١٢]

قال الشنقيطي:"قال بعض أهل العلم:"إن هذا مثلٌ ضربه الله لأهل مكة"، وهذا الصفات المذكورة التي اتصفت بها هذه القرية – تتفق مع صفات أهل مكة المذكورة في القرآن.

وقوله ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ وقع نظيره قطعاً لأهل مكة، لما لجّوا في الكفر والعناد، ودعا عليهم رسول الله ﷺ، وقال"اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنين يوسف"[(٢)]، فأصابتهم سَنَة أذهبت كل شيء، حتى أكلوا الجيف والعِلْهز[(٣)]، وأصابهم الخوف الشديد بعد الأمن، وذلك الخوف من جيوش رسول الله ﷺ، وغزواته وبعوثه وسراياه، وهذا الجوع والخوف، أشار لهما القرآن على بعض التفسيرات.

فقد فسر ابن مسعود رضي الله عنه آية الدخان ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[الدخان:١٠]، بما يدل على ذلك لذا،قال:"إنما كان هذا، لأن قريشاً لما استعصوا على السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد"[(٤)].أ.هـ[(٥)]

وتأمل حكمة تقديم الأمن على الطمأنينة، فالطمأنينة لا تحصل بدون الأمن، كما أن الخوف يسبّب الانزعاج والقلق.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٠٩/٦

(٢) أخرجه البخاري.كتاب الاستسقاء. باب دعاء النبي ﷺ "اجعلها عليهم سنين".ح(٩٦١).

(٣) شيء يَتَّخذونه في سِنِي المجاعَة يَخْلِطون الدَّمَ بأوْبَارِ الإبل ثم يَشْوُونه بالنَّار ويأكلونه.انظر: النهاية في غريب الأثر ٥٦٣/٣

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير. سورة الدخان. ح(٤٥٤٤)

(٥) انظر: أضواء البيان ٤٥٦/٢

وفي قوله ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ سِرٌّ لطيف؛ لأن إضافة اللباس إلى الجوع والخوف؛ تُشعر وكأن ذلك ملازم للإنسان، ملازمة اللباس للابِسه.(١)

فاختلال الأمن؛ مرتبط بجريرة المفسدين، لأنهم يسعون في الأرض فساداً، وقد سبق بيان ذلك في وصف المنافق حيث قال تعالى ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥].

ولليهود كذلك شأنهم في زعزعة الأمن، ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤]، وهم أيضاً قتلة الأنبياء والمصلحين، وفيهم قال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١].

ومن ثمَّ؛ يتبين أن اختلال الأمن قرين الفساد، سواء كان عقوبة من الله تعالى على الإفساد، أو باشره المفسدون بأنفسهم.

وبهذا يظهر وجه الدلالة في دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام؛ حين ربط الأمن والرزق بالإيمان، فقال ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة:١٢٦].

وهكذا نجد التلازم بين الأمن والرزق، وبين الخوف والجوع، مطّرداً في القرآن كله، مما يؤكد أهمية المحافظة على الأمن؛ لما يترتب على ذلك من آثار كبرى في حياة الناس وعباداتهم، واستقرارهم البدني والنفسي، وأي طعم للحياة والعبادة؛ إذا حل الخوف؟ بل تتعثر مشاريع الدين والدنيا، وتدبر سورة قريش تجد ذلك جلياً.

(١) التحرير والتنوير ١٤/٣٥٤

المبحث الثاني

الضَلالُ والطَّبعُ علَى القَلب

من آثار الفساد؛ تنكُّب طريق الهداية، فيضِّل المرء عن جادة الطريق؛ فيهلك، إذ الضلال من: ضَلَّ الشيء: ضاع وهلك، يضِل بالكسر ضَلاَلاً، والضَّالَّةُ ما ضلَّ من البهيمة للذكَر والأنثى، وأرض مَضَلَّة بفتح الضاد وكسرها،وفتح الميم فيهما؛ أي يضل في الطريق، وفلان يلومني ضَلَّةً؛ إذا لم يوفق للرشاد في عذله، ورجل ضِلِّيلٌ ومُضَلَّلٌ أي ضال جداً، والضَّلاَلُ ضد الرشاد، وقد ضَلَّ يضِل بالكسر ضَلاَلاً وضَلاَلَةً، قال تعالى ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾[سبأ: ٥٠](١)

أما الطبع فمن: طَبَعَ، والطبْعُ والطَّبِيعةُ: الخَلِيقةُ والسَّجِيّةُ التي جُبِلَ عليها الإنسان، وطبَع الله على قلبه؛ ختم على المثل، ويقال طبَع الله على قلوب الكافرين نعوذ بالله منه؛ أَي خَتَمَ فلا يَعِي، وغطّى فلا يُوَفَّقُ لخير(٢)، فالطبع على القلب إذاً نتيجة للضلال، تضاف على رصيد نتائج الفساد.

وعلى هذا؛ فإن الضلال والطبع المقصود بهما هنا؛ هو الحيرة والانتكاسة بعد الهداية، كما في قوله تعالى﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأنعام: ٧١].

والمعنى: قل أنعبد من دون الله ما لا يقدر على نفعنا وضرنا، ونرجع إلى الشرك، بعد إذ هدانا الله، فأنقذنا منه ورزقنا الإسلام، ونكون كالذي استهوته الشياطين، وذهبت به مردة الجن في الأرض، متحيراً ضالاً عن الطريق، مع أن لَهُ أصحاب يهدوه إلى الطريق المستقيم، يقولون له: ائتنا فإِنَّ هُدَى الله، وهو الإِسلام، هُوَ الهدى وحده، وما عداه ضلال.(٣)

ومن الناس من يشتري الضلالة بالهدى، كما قال تعالى عن المنافقين﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٥ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٦ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾[البقرة: ١٥-١٨].

---

(١) مختار الصحاح ٤٠٣

(٢) لسان العرب ٢٣٢/٨

(٣) انظر: تفسير البيضاوي ٤٢١/٢

قال ابن كثير:"وقوله ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يعني في ضلالهم وكفرهم الذي غمرهم دَنَسُه، وعَلاهم رجْسه، يترددون حيارى ضُلالاً، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً؛ لأن الله تعالى قد طبع على قلوبهم، وختم عليها، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رُشْدًا، ولا يهتدون سبيلاً".(١)

فهؤلاء عميت قلوبهم عن الحق؛فكانوا أصحاب التجارة الخاسرة، لأنهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

فعن ابن عباس وابن مسعود ﷺ،قالوا: أنهم الذين أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، وقيل:اشتروا الكفر بالإيمان، فشبَّههم الله سبحانه في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى؛ بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله، وانتفع بها، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها، فبينا هو كذلك؛ إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى ولو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع، والله أعلم.(٢)

وحاصل قول المفسرين فيما تقدم: أن المنافقين عَدَلوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا الهدى بالضلالة، وهو معنى قوله تعالى﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أي بذلوا الهدى ثمناً للضلالة.

وكذا ثمود الذين توفرت لهم أسباب الهداية، لكنهم استحبوا العمى وهو الضلالة، على الهدى، كما قال تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧].

وعلى هذا؛ فإن الطبع يترتب عليه عدم فهم القرآن، قال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[محمد:٢٤]. فشبّه الله تعالى القلوب في عدم فهمها للقرآن؛ بالأبواب الموصدة بأقفال، لهذا يقول ابن القيم:"وأما القفل في هذه الآية، فكما قال ابن عباس ﷺ:"يريد على

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٨٣/١

(٢) انظر: المصدر السابق.

قلوب هؤلاء أقفال"، وقال مقاتل[(١)]:"يعني الطبع على القلب"،وكأن القلب بمترلة الباب المرتج الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه ما لم يفتح القفل؛ لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يُرفع الختم والقفل عن القلب؛ لم يدخل الإيمان والقرآن، وتأمل تنكير القلب وتعريف الأقفال، فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء، وقلوب من هم بهذه الصفة، ولو قال: أم على القلوب أقفالها؛ لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة، وفي قوله (أقفالها) بالتعريف؛ نوع تأكيد، فإنه لو قال أقفال، لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم، فلما أضافها إلى القلوب؛ عُلِم أن المراد بها ما هو للقلب، بمترلة القفل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصة بها، التي لا تكون لغيرها، والله أعلم.[(٢)]

فحرمان فهم كلام الله تعالى؛ من أعظم أسباب الضلال، إذ لا يُتصور أن يحسن العبد عمله دون فهم سديد لمرامي الآيات،وإذا أُغلق القلب فلا خير فيه، لأنه حينئذ يكون ينبوع للشر.

قال ابن القيم:"حياة القلب وإشراقه؛ مادة كل خير فيه، وموته وظلمته؛ مادة كل شر فيه، وأصل كل خير وسعادة للعبد؛ بل لكل حي ناطق؛كمال حياته ونوره، فالحياة والنور مادة الخير كله، قال تعالى﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:١٢٢].

فجمع بين الأصلين: الحياة والنور، فبالحياة تكون قوته وسمعه وبصره وحياؤه وعفته وشجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن، وبغضه للقبيح، فكلما قويت حياته؛ قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته؛ ضعفت فيه هذه الصفات، وحياؤه من القبائح؛ هو بحسب حياته في نفسه فالقلب الصحيح الحيّ إذا عرضت عليه القبائح؛ نفر منها بطبعه، وأبغضها و لم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت؛ فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه:"هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر"، وكذلك القلب المريض بالشهوة؛ فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك، بحسب قوة المرض وضعفه".[(٣)]

---

(١) مقاتل بن حيان النبطى، أبو بسطام البلخى، الخزاز، مولى بكر بن وائل. قال ابن حجر: صدوق فاضل، أخطأ الأزدى فى زعمه أن وكيعاً كذّبه. مات قبيل ١٥٠ هـ باهند. انظر: تهذيب التهذيب ٢٤٨/١٠

(٢) انظر: شفاء العليل ٩٤/١

(٣) إغاثة اللهفان ٢٢/١

فأهل الفساد حوّل الله تعالى قلوبهم عن فهم طريق الصواب؛ نقمة عليهم في الدنيا، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[الأعراف:١٧٩].

فبيّن أنهم عطلوا جوارحهم فقال ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾أي: لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد قيام الحجة ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ما ينفعهم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها،﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة كَالبهائم، التي فقدت العقول، وهؤلاء آثروا ما يفنى على ما يبقى، فسُلِبوا خاصية العقل﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من البهائم، فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان، تدرك بها مضرتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالاً منهم.(١)

لكنَّ هؤلاء خلق الله لهم الأفئدة والأسماع والأبصار، لتكون عوناً لهم على القيام بأمره سبحانه، فاستعانوا بها على ضِدّ هذا المقصود؛ فاستحقوا أن يكونوا ممن ذرأ اللّه لجهنم.

قال ابن القيم:"صرف الله قلوبهم عن القرآن وتدبره؛ لأنهم ليسوا أهلاً له، فالمحل غير صالح ولا قابل، فإن صلاحية المحل بشيئين؛ حسن فهم، وحسن قصد، وهؤلاء قلوبهم لا تفقه، وقصودهم سيئة، وقد صرح سبحانه بهذا في قوله ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[الأنفال:٢٣]، فأخبر عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم، يدخل بسببه إلى قلوبهم، فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به، وإن سمعوه سماعاً تقوم به عليهم حجته، فسماع الفهم الذي سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم، ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم، هذا السماع الخاص وهو الكبر والتولي والإعراض، فالأول مانع من الفهم، والثاني مانع من الانقياد والإذعان، فأفهام سيئة، وقصود ردية، وهذه نسخة الضلال، وعَلَم الشقاء، كما أن نسخة الهدى وعَلَم السعادة؛ فهم صحيح، وقصد صالح، والله المستعان".(٢)

وتأمل قوله سبحانه ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة:١٢٧]، كيف جعل هذه الجملة الثانية – سواء كانت خبراً، أو عادةً – عقوبة لانصرافهم، فعاقبهم عليه بصرف

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن. ص ٣٠٩

(٢) شفاء العليل ص ٩٧.

آخر، غير الصرف الأول، فإن انصرافهم كان لعدم إرادته سبحانه ومشيئته لإقبالهم، لأنه لا صلاحية فيهم ولا قبول، فلم ينلهم الإقبال والإذعان فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن، فجازاهم على ذلك صرفاً آخر، غير الصرف الأول، كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى، إزاغةً غير الزيغ الأول ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[الصف:٥]، وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه، فلا يمكنه من الإقبال عليه.(١)

كما جاء بيان هذا الأثر فيما توعد به سبحانه بقوله ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾[الأعراف:١٠٠].

والمعنى: أو لم يبين للذين يستخلفون في الأرض، بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا عن أمر ربهم ﴿أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي لو نشاء فعلنا بهم، كما فعلنا بمن قبلهم، فأخذناهم بذنوبهم، وعجلنا لهم بأسنا، كما عجلنا لمن كان قبلهم، ممن ورثوا عنه الأرض، فأهلكناهم بذنوبهم ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ يقول: ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ موعظة ولا تذكيراً سماع منتفع بهما.(٢)

قال السعدي:"أي: إذا نبههم الله فلم ينتبهوا، وذكرهم فلم يتذكروا، وهداهم بالآيات والعبر فلم يهتدوا، فإن الله تعالى يعاقبهم ويطبع على قلوبهم، فيعلوها الران والدنس، حتى يختم عليها، فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير، ولا يسمعون ما ينفعهم، وإنما يسمعون ما به تقوم الحجة عليهم".(٣)

كما أن الرضا بمخالفة الحق، والاستمرار في الفساد؛ أثر للطبع على القلوب، كما قال تعالى ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٨٦ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾[التوبة٨٦،٨٧]

قال السدي:"رضوا بأن يقعدوا، كما قعدت النساء"(٤)، إذ النساء هن الخوالف اللاتي لا يخرجن للجهاد، لهذا طبع على قلوب المنافقين بسبب أعمالهم الضالة.

---

(١) المصدر السابق ص ٩٧.

(٢) جامع البيان ١١/٦

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٩٨

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ١٨٥٩/٦

كما أن التعنّت، وادعاء عدم الفهم؛ يؤدي إلى الطبع على قلب صاحبه، فلا يعي الحق أبداً، ولا يعرف له طريقاً، قال تعالى﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[محمد:١٦].

"وقولهم هذا ظاهر عليه الخبث، إذا لو كانوا مؤمنين محبين، لقالوا: ماذا قال رسول الله آنفاً، ولكن قالوا: ماذا قال آنفاً، وهم يعنون أن ما قاله الرسول ﷺ ليس بشيء مفيد يُرجع إليه، قال تعالى﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي البُعداء في الشر والنفاق، الذين طبع الله على قلوبهم، أي بالكفر والنفاق، وذلك لكثرة تلوثهم بأوضار الكفر والنفاق، حتى ران على قلوبهم ذلك، فكان ختماً وطابعاً على قلوبهم، واتبعوا أهواءهم، فهما عِلتان؛ الأولى: الطبع المانع من طلب الهداية، والثانية: اتباع الهوى، وهو يُعمي ويُصم، فلذا هم لا يهتدون"(١).

ومن هنا؛ يتبين أن رفض الحق وعدم قبوله؛ يترتب عليه أن يستمر العبد في الفساد، ولا يستطيع أن يهتدي إلى طريق الصواب، وهذا ما جعل موسى عليه السلام يدعو قائلاً ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[يونس:٨٨].

فهذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه، لما أبوا قبول الحق، واستمروا على ضلالهم وكفرهم، معاندين جاحدين، ظلماً وعلواً وتكبراً وعتواً، فقال ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي أهلكها، وقوله ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: اطبع عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾،وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له أنهم لا خير فيهم، ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أمَّن عليها أخوه هارون، فقال تعالى ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾[يونس:٨٩]، يعني من تدمير آل فرعون.(٢)

لقد ظل موسى عليه السلام زماناً طويلاً؛ يردد عليهم النصائح والمواعظ، ويحذرهم عذاب الله وأليم نقمته، وينذرهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين، فما يزيدهم إلا ضلالاً، فلم تبق له حيلة؛ إلا الدعاء عليهم.

(١) أيسر التفاسير ٥/٨٠

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/٥٤٦

يقول الطبري:"كأن موسى قال: ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال، وليكونوا ضُلاَّلاً، وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا".(١)

والضلال ينتج عن المشركين، كما ذكر ربنا سبحانه هذا، في مواضع كثيرة في القرآن، فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء:١٦٧]. فوصف الله تعالى ضلالهم بالضلال البعيد؛"لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال، ولأن المُضلّ؛ يكون أغرق في الضلال، وأبعد من الانقلاع عنه".(٢)

لهذا كان إبراهيم عليه السلام يصف عبادة قومه بالضلال، كما في قوله تعالى﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٧٤]،وقوله تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الأنبياء:٥٤].

وإذا ذُكر فساد اليهود؛ فلا ريب أن الضلال عندهم بلغ ذروته؛ حتى إنهم عبدوا العجل؛ بعد ما رأوا الآيات البينات.

ولا يزال الضلال بصاحبه؛ حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن، وقد جاءت الإشارة لذلك في قوله تعالى﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[فاطر:٨].

قال ابن كثير:"يعني:كالكفار والفجار،يعملون أعمالاً سيئة؛ وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا، أي: أفمن كان هكذا قد أضله الله؛ ألك فيه حيلة؟ لا حيلة لك فيه".(٣)

وقيل: نزلت في أصحاب الأهواء والبدع، وقيل: منهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم، فأما أهل الكبائر فليسوا منهم، لأنهم لا يستحلون الكبائر(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:"ولهذا قال أئمة الإسلام؛ كسفيان الثوري وغيره؛ إن البدعة؛ أحبّ إلى إبليس من المعصية؛ لأنّ البدعة لا يُتاب منها، والمعصية يتاب منها.

ومعنى قولهم إن البدعة لا يتاب منها: أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله تعالى ولا

(١) جامع البيان ٥٣٠/١

(٢) تفسير البيضاوي ٢٨٢

(٣) تفسير القرآن العظيم ٥٣٥/٦

(٤) انظر: معالم التنزيل ٤١٣/٦

رسوله ﷺ؛ قد زُيّن له سوء عمله، فرآه حسناً، فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً؛ لأن أول التوبة؛ العلم بأن فعله سيئ ليتوب منه، أو بأنه ترك حسناً مأموراً به؛ أمر إيجاب أو استحباب؛ ليتوب ويفعله، فما دام يرى فعله حسناً؛ وهو سيئ في نفس الأمر؛ فإنه لا يتوب،ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة؛ بأن يهديه الله ويرشده، حتى يتبين له الحق، كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين، وطوائف من أهل البدع والضلال، وهذا يكون بأن يتّبع من الحق ما علمه، فمن عمل بما علِم؛ أورثه الله علم ما لم يعلم، كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧]،وقال تعالى﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء:٦٦،٦٨]...وشواهد هذا كثيرة في الكتاب والسنة.

وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلَمه؛ تبعاً لهواه، فإن ذلك يورثه الجهل والضلال، حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح، كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف:٥]،وقال ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠]وقال ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]".(١)

---

(١) مجموع الفتاوى ٩/١٠.

المبحث الثالث

الاستِدرَاج

من آثار الفساد في الدنيا الاستدراج، يقال:استدرجه أي: خدعه، واستدرجه بمعنى أدناه منه على التدريج؛ فتدرج هو، وقيل:استدرجه؛ استدعى هلكته، من درج: مات، واستدراج الله تعالى العبد، بمعنى: أنه كلما جدّد خطيئة؛ جدّد له نعمة، وأنساه الاستغفار، وفي التتريل العزيز﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:١٨٢].

أي: سنأْخُذُهم قليلاً قليلاً ولا نُباغِتُهم، وقيل معناه: سنأخذهم من حيث لا يحتسبون، وذلك أَن الله تعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به، فيركنون إِليه، ويأْنسون به، فلا يذكرون الموت، فيأْخذهم على غِرَّتِهم؛ أَغْفَلَ ما كانوا[1]، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حُمِلَ إِليه كُنوز كِسرَى:"اللهم إِني أَعوذ بك أَن أَكونَ مُستَدْرَجاً، فإِني أَسمعك تقول ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾".[2]

"وأصل الاستدراج؛ التقريب مترلة من الدرج، لأن الصاعد يترقى درجة درجة".[3]

ويبين ابن القيم حقيقة الاستدراج، فيقول:"وهؤلاء إذا انكشف الغطاء، وثبتت حقائق الأمور؛ علموا أهم لم يكونوا على شيء، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، فمن أعظم الغِرّة؛ أن تراه يتابع عليك نِعمَه، وأنت مقيم على ما يكره".[4]

والله تعالى يكره منك أن تعصيه، ويحب منك أن تطيعه، لهذا قال الماوردي:"وليس وإن نال أهل المعاصي لذة من عيش، أو أدركوا أمنية من دنيا، كانت عليهم نعمة، بل قد يكون ذلك استدراجاً ونقمة"[5].

وروى عقبة بن عامر[6] رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:"إذا رأيت الله تعالى يعطي العباد ما يشاءون على معاصيهم إياه؛ فإنما ذلك استدراج منه لهم، ثم تلا﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ

(١) انظر: تاج العروس ٥٥٩/٥، لسان العرب ٢٦٦/٢ مادة(درج).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى.كتاب:أقسام الفيء.باب: الاختيار في التعجيل بقسمة مال الفيء إذا اجتمع.ح(١٢٨١٢).

(٣) فتح الباري ١٦٩٧/٤

(٤) انظر: الروح ص ٢٤٤

(٥) أدب الدنيا والدين. ص ١١١.

(٦) عقبة بن عامر الجهني أبو حماد، وقيل أبو سعاد وقيل أبو عامر و قيل أبو عمرو٠صحابي توفي عام ٦٠هـ بمصر. انظر:الإصابة ٥٢٠/٤

﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[الأنعام:٤٤].[1]

وتفيد الآية: أنهم لما تركوا الاتعاظ بما ذكِّروا به من البأساء والضراء، وأعرضوا عن ذلك ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي:لما نسوا ما ذكروا به؛ استدرجناهم بفتح أبواب كل نوع من أنواع الخير عليهم﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ من الخير على أنواعه، فرح بطر وأشر، وأعجبوا بذلك، وظنوا أنهم إنما أعطوه؛ لكون كفرهم الذي هم عليه حقاً وصواباً ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾أي فجأة وهم غير مترقبين لذلك، والبغتة: الأخذ على غِرّة من غير تقدمة أمارة.[2]

فهؤلاء انهمكوا في معاصيهم،ولم يتعظوا بما نالهم من البأساء والضراء أولاً، ثم أنعم الله عليه ببعض نِعمِه، فلما لم يتعظوا بما حدث لهم، فتحنا عليهم أبواب كل شيء، من النعم الكثيرة، كالرخاء وسعة الرزق؛ مكراً بهم واستدراجاً لهم.

وهذا ما دفع الحسن البصري – رحمه الله – يقول:"من وسّع الله عليه، فلم ير أنه يُمكر به؛ فلا رأي له، ومن قُتِّر عليه، فلم ير أنه ينظر له؛ فلا رأي له، ثم قرأ ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنعام:٤٤-٤٥]، قال: مُكِر بالقوم، ورب الكعبة، أُعطوا حاجتهم ثم أُخِذوا".[3]

وقال قتادة:"بَغَت القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قط؛ إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون".[4]

هذا على مستوى الجماعة، أما على مستوى الأفراد، فإن العبد إذا أمِن مكر الله؛ فهو حريّ أن تعجّل له العقوبة، أو يختم له بالسوء، وليعلم العبد أن هدا استدراج.

لهذا قال النبي ﷺ"إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا ما يحب، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك منه استدراج".

وقد ردّ سبحانه على يظن أن العطاء والمنع؛ لازم إكرام الله أو إهانته للعبد، فقال ﴿فَأَمَّا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٤٥/٥ .

(٢) فتح القدير ١٦٨/٢

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ١٢٩١/٤

(٤) المصدر السابق ١٢٩١/٤

ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴾ [الفجر:١٥-١٦].

(كلا) أي ليس كل من أنعمته ووسعت عليه رزقه؛ أكون قد أكرمته، وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه؛ أكون قد أهنته، بل أبتلى هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء، فالله تعالى يعطي الدنيا لمن يحب، ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا لمن يحب.

وقال بعض السلف: رب مستدرج بنعم الله عليه، وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس، عليه وهو لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه، وهو لا يعلم.(١)

وعلى هذا؛ فإن الاستدراج نقلة من حال إلى حال على مهل، أي تدرج من الأعلى إلى الأدنى، أي من نِعَم إلى نِقم، ومن أمن إلى خوف، فالاستدراج يسبقه وجود نعمة، ثم تسلب هذه النعمة مرة واحدة، دون إنذار مسبق لصاحبها.

قال تعالى في شأن يهود بني قريظة ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[الحشر:٢].

فهذا الذي حصل لهم من العذاب الذي زلزلهم، ما كان يخطر لهم على بال، ولو خطر لهم ما سيترل بهم؛ لأخذوا حذرهم، فلو كان الله تعالى يريد لهم الخير؛ لأخذوا حذرهم مما سيحدث لهم، لكن تُركوا في النعم ودُنسوها بالمعاصي والمفاسد، فتركهم الله تعالى يتنعمون بها، ظانين أنهم تكون لهم أبد الآبدين، ثم كانت المفاجأة من الله تعالى لهم؛أن جاءهم العذاب من حيث لا يحتسبون.

إذاً الاستدراج يكون لمن ترك التدبر والاتعاظ عن عمد وقصد، ثم يظلوا على تلك الحالة مدّة، ويتمسكون بمعاصيهم، لهذا فإن الله تعالى يضلّهم أكثر من ضلالهم الذي يعيشون فيه، قال تعالى ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [البقرة:١٥].

فالاستهزاء من الله بهم؛ "هو استدارجهم بدرور النِعم عليهم، فالله تعالى يظهر لهم من الإحسان في الدنيا؛ خلاف ما يغيب عنهم، ويستر عنهم من عذاب الآخرة،فيظنون أنه راضٍ عنهم،وهو تعالى قد حتم عذابهم، فهذا على تأمل البشر؛كأنه استهزاء ومكر وخداع".(٢)

---

(١) انظر: الجواب الكافي ص ٢٢

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٥٣/١

وقد يظن بعض المستدرَجين، أن الله تعالى يدَّخر خيراً لهم، والأمر على العكس تماماً، قال تعالى ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[آل عمران:١٧٨].

"ذكر في هذه الآية الكريمة؛أنه يملي للكافرين ويمهلهم لزيادة الإثم عليهم وشدة العذاب. وبين في موضع آخر؛أنه لا يمهلهم متنعمين هذا الإمهال؛ إلا بعد أن يبتليهم بالبأساء والضراء، فإذا لم يتضرعوا أفاض عليهم النعم وأمهلهم،حتى يأخذهم بغتة،كما في قوله﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[الأنعام:٤٢،٤٥].

وبيّن في موضع آخر: أن ذلك الاستدراج من كيده المتين، وعلى هذا،فإنه يكون من طرق لا يعلمها العبد"[١]،فقال﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف:١٨٢،١٨٣].

قال ابن كثير:"ومعناه أنه يفتح لهم أبواب الرزق، ووجوه المعاش في الدنيا،حتى يغتروا بما هم فيه، ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولهذا قال تعالى﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾أي: وسأملي لهم؛ أي أطول لهم ما هم فيه ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف:١٨٣]، أي قوي شديد.[٢]

فنِعَم المستدرجين؛ تكون سبباً في عذابهم في الدنيا، لأنها تلهيهم وتشغلهم عن طريق الصواب قال تعالى﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[التوبة:٥٥].

إذ الإنعام على العبد بالمال أو بالبنين، لا يلزم منه رضى الله عن العبد، فقد بيّن سبحانه أن الكفار يغترون بذلك الاستدراج، فيظنون أنه من المسارعة لهم في الخيرات، وأنهم يوم القيامة يؤتون خيراً من ذلك الذي أوتوه في الدنيا، قال تعالى ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾

---

(١) أضواء البيان ٢١٨/١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٥٨/٢

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[المؤمنون:٥٥،٥٦].

قال ابن كثير:"يعني أيظن هؤلاء المغرورون؛ أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد، لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ كلا، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سبأ:٣٥]، لقد أخطأوا في ذلك، وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك؛ استدراجاً وإنظاراً وإملاءً، ولهذا قال﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ وقال قتادة: مُكِر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم؛ ولكن اعتبروهم بالإيمان والعمل الصالح".(١)

فقد يجعل الله تعالى مال العبد كثيراً، ونعمه عليه لا تعد ولا تحصى، فيظن أن هذه الزيادة دليل على رضا الله تعالى عنه، قال تعالى﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر ١١،١٧]

فقد نزلت في الوليد بن المغيرة، وقوله﴿وَحِيدًا﴾ أي: خَلَقه وحده، لا مال له ولا ولد، وهذا وعيد من الله تعالى له؛ إذ غمرته نعم الله تعالى، ثم انشغل بها عنه، فاستدرجه الله بها، وسينقلب حاله من حال راحة وتنعم، إلى حالة سوأى في الدنيا، ثم إلى العذاب الأليم في الآخرة، وكل ذلك إرهاق له(٢).

وقد يستغرب البعض بل قد ييأس، وهو يرى بعض الكفرة يبغون ويظلمون، ومع ذلك لم يأخذهم الله بعذاب، ولكن من فَقِه سنن الله تعالى، وآثارها في الأمم السابقة؛ لا يستغرب ولا ييأس؛ لأنه يدرك أن هؤلاء الكفرة، يعيشون سنة الإملاء والاستدراج، التي تقودهم إلى مزيد من الظلم والطغيان، وبالتالي إلى نهايتهم وهلاكهم؛ لكن في الأجل الذي حدده الله، قال تعالى﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾[الكهف:٥٩].

وتظهر سنة الله تعالى في الإملاء والاستدراج، حين يشتد على الرسل والمصلحين التكذيب، ويبلغ الإعراض منتهاه، حتى إن الرسل والدعاة؛ربما انتابهم شعور باليأس والإحباط، ولكن الله تعالى يكتب لهم الغلبة بعد حين، قال تعالى﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[يوسف:١١٠].

---

(١) المصدر السابق ٣/٣٣٠

(٢) انظر: الدر المنثور ٨/٣٢٩، التحرير والتنوير ٢٩/٢٨٥

"فأخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام، وأن الله تعالى يمهلهم، ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم، حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل، حتى إن الرسل على كمال يقينهم، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده؛ ربما أنه يخطر بقلوبهم، نوع من الإياس، فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ وهم الرسل وأتباعهم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولا يرد عذابنا، عمن اجترم وتجرأ على الله".(١)

وربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله؛ فظنّ أن لا عقوبة، وغفْلته عما عوقب به؛ عقوبة! وربما كان العقاب معنوياً، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني ؟ فقيل له: كم أعاقبك، وأنت لا تدري، أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي ؟(٢).

ولما كان الاستدراج من سنن الله تعالى في المعرضين؛ نهى الله نبيه ﷺ، أن يستعجل العذاب لقومه، بأن يدعو الله عليهم بتعجيله لهم،فقال﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[الأحقاف:٣٥].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من النهي عن طلب تعجيل العذاب لهم، جاء موضحاً في آيات أخر، كقوله تعالى﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾[المزمل:١١]. ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق:١٧]

فالمراد بالآيات، نهيه ﷺ عن طلب تعجيل العذاب لهم، لأنهم معذبون لا محالة؛ عند انتهاء المدة المحدودة للإمهال، كما يوضحه قوله﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾[مريم:٨٤]، وقوله﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[لقمان:٢٤].وقوله أيضاً﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾[الحج:٤٤](٣).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٠٧

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي ص ١٤

(٣) أضواء البيان ٢٤١/٧

المبحث الرابع

حُبُوط العَمَل

من آثار الفساد الخطيرة، التي ينبغي التنبيه إليها؛ ردّ العمل، أو حبوط الأعمال، وعدم قبولها، وهذه أمر بيّن اللّه تعالى خطره، وعظم شأنه، في مواضع عِدة.

ولئن كان حبوط العمل؛ يتجلى للعبد في موقف الحساب، كما قال تعالى ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[الفرقان:٢٣]، إلا أن له أثره على صاحبه في الدنيا؛ ذلك أن العمل الصالح؛ يزكّي صاحبه، فيثمر فيه استقامة قلبه، وصلاح حاله، وقد قال تعالى﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[محمد:١٧]، والعكس بالعكس، فقد قال في شأن المفسدين ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف:٥].

فمن الفساد ما يحبط العمل كله، كما قال تعالى﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾[التوبة:٥٣،٥٤].

فبين الله تعالى أن بطلان نفقات المنافقين، السبب فيها هو فسادهم ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾خارجين عن طاعة اللّه، ثم بين صفة فسقهم وأعمالهم، فقال﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان، فهؤلاء لا إيمان لهم، ولا عمل صالح، حتى إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن، إذا قاموا إليها قاموا كسالى، قال ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ أي: متثاقلون، لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم(١)، لذا قال ﷺ:"من ترك صلاة العصر؛ فقد حبط عمله".(٢)

ومما يحبط العمل كله: الكفر والصدّ عن سبيل الله ومشاقة الرسول ﷺ.

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[محمد: ٣٢].

ففي الآية إخبار عمن كفر، وصدّ عن سبيل الله، وخالف الرسول ﷺ وشاقّه،وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى، أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها، وسيحبط

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٣٤٠

(٢) أخرجه البخاري. كتاب مواقيت الصلاة. باب إثم من ترك العصر. ح (٥٢٨)

الله عمله، فلا يثيبه عليه، بل يحبطه ويمحقه بالكليّة، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.(١)

وهذه الأعمال التي عملها الكفار – من اليهود والنصارى ومشركي قريش وغيرهم– يرجون بها الثواب؛ لكنها مع كفرهم برسول الله ﷺ أصبحت باطلة، أو سيبطل أعمالهم التي عملوها، والمكايد التي نصبوها في مشاقة الرسول ﷺ، فلا يصلون منها إلى أغراضهم، بل يستنصرون بها، ولا يثمر لهم، إلا القتل والجلاء عن أوطانهم.(٢)

والكفر بالله تعالى؛ تولدت عنه مفاسد عظيمة؛ كالكفر بآياته، وقتل النبيين والذين يأمرون الناس بالقسط، لذا قال تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[آل عمران٢١،٢٢].

وليس هذا فحسب؛ بل تولّد عنه التكذيب بآيات الله ولقاء الآخرة،كما قال تعالى﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[الأعراف:١٤٧].

ومن المفاسد المحبطة للأعمال: الرِدّة.

قال تعالى﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة:٢١٧].

ذلك أن القلب السليم؛ الذي ذاق الإسلام وعرفه، لا يمكن أن يرتد عنه؛ إلا إذا فسد فساداً لا صلاح فيه.

والتقييد بقوله﴿فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ﴾ دل بمفهومه؛ على أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام؛ فإنه يرجع إليه عمله، وكذلك من تاب من المعاصي، فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة.(٣)

ومما يحبط الأعمال كلها؛ الشرك.

قال القرطبي:"استظهر علماؤنا بقوله تعالى﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[الزمر:٦٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٣١/٤

(٢) انظر: الكشاف ٣٣١/٤

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٨٩

قالوا: وهو خطاب للنبي ﷺ والمراد أمّته: لأنه ﷺ يستحيل منه الردة شرعاً.

وقيل: بل هو خطاب للنبي ﷺ على طريق التغليظ على الأمة، وبيان أن النبي ﷺ على شرف مترلته؛ لو أشرك لحبط عمله، فكيف أنتم؟ لكنه لا يشرك لفضل مرتبته".(١)

ونحو ذلك في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨].

فقد جاءت هذه الآية "تفظيعاً لأمر الشرك، وأنّه لا يغتفر لأحد، ولو بلغ من فضائل الأعمال مبلغاً عظيما"(٢)، فمن أشرك بطل عمله الصالح فلا يثاب عليه، لا بقليل ولا بكثير.

وقال تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾[التوبة:١٧].

والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة بيت الله، وعبادة غيره.(٣)

وجاء في سبب نزولها؛ أنه لما أُسر العباس؛ عيّره المسلمون بالشرك وقطيعة الرحم، وأغلظ له علي رضي الله عنه في القول، فقال: ما بالكم تذكرون مساوينا،وتكتمون محاسننا، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني، فترلت﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ التي يفتخرون بها، بما قارنها من الشرك﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾لأجله.(٤)

ولهذا عقّب الله تعالى؛مؤكدًا أن أعمال المفسدين وإن كانت في ظاهرها صالحة؛ فإنها لا وزن لها في الحقيقة، إذ لا يستوي الصالح بالطالح أبداً، لهذا قال تعالى﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[التوبة:١٩].

وما أشار إليه القرآن؛ فيه تسلية لأهل الإيمان، بأن أهل الكفر ليسو على شيء، فهم كرهوا ما أنزل الله، لهذا قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[محمد:٩].

كما أنهم اتبعوا ما أسخط الله فحبطت أعمالهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[محمد:٢٨].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤٠/٣

(٢) التحرير والتنوير ٥٦٧/٩

(٣) إرشاد العقل السليم ٥٠/٤

(٤) أسباب الترول للواحدي ١/ ١٦٣

وإتباعهم ما أسخط الله؛ هو إتباعهم الشرك، وكراهتهم رضوان الله؛ كراهتهم أسباب رضوانه، وهو الإسلام.[(١)]

أما سوء الأدب مع رسول الله ﷺ فمحبط لبعض العمل:

ومن سوء الأدب معه ﷺ رفع الصوت عليه، ولقد عدّ العلماء رفع الصوت بعد وفاته؛ كرفعه في حياته أو عند قبره، قال تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾[الحجرات:٢].

قال القرطبي:"هذا في حال حياته وبعد مماته، لأنه محترم حيًا وميتًا ﷺ فقال﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾[الحجرات:٣].

فعبّر بغض الصوت مع أن الغض للبصر، وهذا أعلى مراتب الأدب مع النبي ﷺ".[(٢)]

" فحذر الله المؤمنين من حبوط أعمالهم؛ بالجهر لرسول الله ﷺ، كما يجهر بعضهم لبعض، وليس هذا بردَّة، بل معصية تحبط العمل، وصاحبها لا يشعر بها، فما الظن بمن قدَّم على قول الرسول ﷺ وهدية وطريقه؛ قول غيره وهديه وطريقه".[(٣)]

قال ابن عاشور:"معنى الآية: أن عدم الاحتراز من سوء الأدب مع النبي ﷺ بعد هذا النهي، قد يفضي بفاعله إلى إثم عظيم، يأتي على عظيم من صالحاته، أو يُفضي به إلى الكفر.

وأقول: لأن عدم الانتهاء عن سوء الأدب مع الرسول ﷺ ؛ يعوّد النفس بالاسترسال فيه، فلا تزال تزداد منه، وينقص توقير الرسول ﷺ من النفس، وتتولى من سيء إلى أشد منه؛ حتى يؤول إلى عدم الاكتراث بالتأدب معه؛ وذلك كفر، وهذا معنى ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ لأن المنتقل من سيء إلى أسوأ، لا يشعر بأنه آخذ في التملّي من السوء بحكم التعود بالشيء قليلاً، حتى تغمره المعاصي، وربما كان آخرها الكفر، حين تغرى النفس بالإقدام على ذلك، ويجوز أن يُراد؛ حبط بعض الأعمال، على أنه عام مراد به الخصوص، فيكون المعنى حصول حطيطة في أعمالهم، بغلبة عِظم ذنب جهرهم له بالقول، وهذا مجمل لا يعلم مقدار الحبط

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٥٤٢/٢٦

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٦٢/١٦

(٣) الوابل الصيب ص ١٥.

إلا الله تعالى". (١)

ومن المفاسد التي تحبط العمل أو بعضه؛ إرادة الحياة الدنيا وزينتها.

قال تعالى﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[هود:١٥،١٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية:"إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً، يقول من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً، أو صلاةً، أو تهجداً بالليل، لا يعمله إلا التماس الدنيا، يقول تعالى: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمله؛ لالتماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين.

قال قتادة:"من كانت الدنيا همّه ونيته وطلبته؛ جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة، وليس له حسنة يعطى بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة". (٢)

وقد ضرب لذلك مثلاً في سورة البقرة، فقال جل جلاله﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة:٢٦٦].

ففي صحيح البخاري عن عمر رضي الله عنه أنه قال يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هذه الآية نزلت﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس رضي الله عنه: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا أخي: قُل، ولا تحقر نفسك،قال ابن عباس: ضُربت مثلاً لعمل، قال عمر:أي عمل؟ قال:لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان؛ فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله". (٣)

وللمفسرين في معنى هذه الآية، ثلاثة أقوال(٤):

أحدها: أنه مثل للمرائي في النفقة، ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليها.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٤٢/٢٦

(٢) تفسير القرآن العظيم ٧٥١/١

(٣) أخرجه البخاري.كتاب التفسير.باب سورة البقرة.ح(٤٢٦٤)

(٤) أنظر:تفسير ابن أبي حاتم ٥٢٢/٢، النكت والعيون للماوردي ٣٤٢/١

والثاني: هو مثل للمفرِّط في طاعة الله لملاذّ الدنيا، يحصل في الآخرة على الحسرة العظمى.
والثالث: هو مثل للذي يختم عمله بفساد، وهو قول ابن عباس رضي الله عنه، كما سبق.
قال السعدي:"وهذا المثل مضروب لمن عمل عملاً لوجه الله تعالى، من صدقة أو غيرها، ثم عمل أعمالاً تفسده، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات...وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرَّته، ثم إنه أصابه الكِبَر فضعف عن العمل وزاد حرصه، وكان له ذرية ضعفاء ما فيهم معاونة له، بل هم كَلٌّ عليه، ونفقته ونفقتهم من تلك الجنة، فبينما هو كذلك؛ إذ أصاب تلك الجنة إعصار، وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجو، وفي ذلك الإعصار نار؛ فاحترقت تلك الجنة، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكِبَر من الهمِّ والغمِّ والحزن، فلو قدر أن الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن؛ كذلك من عمل عملاً لوجه الله، فإن أعماله بمنزلة البذر للزروع والثمار، ولا يزال كذلك، حتى يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية الحُسن والبهاء، وتلك المفسدات التي تفسد الأعمال؛ بمنزلة الإعصار الذي فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات، وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه؛ هباء منثوراً، ووجد الله عنده فوفاه حسابه،والله سريع الحساب.
فلو علم الإنسان وتصور هذه الحال، وكان له أدنى مسكة من عقل؛ لم يُقدِم على ما فيه مضرته،ونهاية حسرته، ولكن ضعف الإيمان والعقل، وقلة البصيرة، يصير صاحبه إلى هذه الحالة، التي لو صدرت من مجنون لا يعقل؛ لكان ذلك عظيماً وخطره جسيماً، فلهذا أمر تعالى بالتفكر وحثَّ عليه، فقال﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾".(١)

وعلى هذا فإن الفساد يترتب عليه حبوط الأعمال، لأن هؤلاء فعلوا أفعالاً تخالف الشريعة، لكن ليست كلها على درجة واحدة.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ١١٤

المبحث الخامس

انتفاء محبة الله وتوفيقه

نَهْجُ الفساد يتعارض كلياً مع محبة الله تعالى، فمن ادّعى الحب وأتى بنقيضه، فكأنه جمع بين ضدين في وقت واحد، وهذا أمر محال.

وهذا مرتبط بلا ريب بتوفيق الله تعالى للعبد، ولذا قال ابن القيم:"وقد أجمع العارفون؛ على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شر فأصله خذلانه لعبده، وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكللك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك".(١)

وقد جاء بيان ذلك في مواضع، فمن ذلك قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[البقرة:٢٠٥].

قال ابن كثير:"أي: لا يحب من هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك".(٢)

فالآية بعمومها تشمل كل فساد كان في دين، أو أرض، أو مال، أو عِرض.

وقيل: معنى لا يحب الفساد، أي لا يحبه من أهل الصلاح، أو لا يحبه ديناً، ويحتمل أن يكون المعنى: لا يأمر به، والله أعلم.(٣)

وأضاف الشوكاني في معنى انتفاء محبة الله، للفساد بكل أنواعه، فقال:"ويشمل كل نوع من أنواعه، من غير فرق بين ما فيه فساد الدين، وما فيه فساد الدنيا".(٤)

فإذا كان الله تعالى لا يحب الفساد؛ فهو لا يحب المفسد في الأرض، وبهذا يظهر العبد الصادق في عبوديته، من الكاذب فيها، وهذا ما دفع ابن القيم، ليقول:"إذا كانت المحبة له؛ فهي حقيقة عبوديته وسرّها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي؛ تتبين حقيقة العبودية والمحبة".(٥)

فكما أن الطاعات تقرِّبه من محبة الله تعالى، كما في الحديث القدسي:"وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه"...الحديث(٦)، فكذلك المعاصي تُباعد العبد عن ربه تبارك وتعالى، ولذا كرِه الله جميع صور الفساد.

---

(١) الفوائد ص١٠١

(٢) تفسير القرآن العظيم١/٣٣٢

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣/٢٠

(٤) فتح القدير ١/٣١٨

(٥) مدارج السالكين ١/٩٩

(٦) أخرجه البخاري. كتاب الرقاق. باب التواضع.ح(٦١٣٧)

لذا نجد القرآن الكريم، يعرض هذا الأمر في أكثر من موضع بأسلوب بديع، يبين الله تعالى فيه؛ عدم حبِّه للمفسدين، ولا الظالمين، ولا المسرفين، ولا المستكبرين، ولا المعتدين، ولا الخائنين...الخ.

قال تعالى في اليهود ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[المائدة:٦٤].

قال الرازي:"وذلك يدل على أن الساعي في الأرض بالفساد؛ ممقوت عند الله تعالى".(١)

وقال البِقاعي:"أي لا يفعل معهم فعل المُحب، فلا ينصر لهم جيشاً، ولا يعلي لهم كعباً، ولا يصلح لهم شأناً، وبذلك توعدهم سبحانه في التوراة؛ أنهم إذا خالفوا أمره؛ سلّط عليهم من عذابه، بواسطة عباده، وبغير واسطتهم".(٢)

كما نفى - سبحانه - محبته عن المسرفين، فقال تعالى ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[الأنعام:١٤١].

قال ابن عاشور:"وأكد بـ{إنَّ} لزيادة تقرير الحكم، فبيّن أن الإسراف من الأعمال التي لا يحبها، فهو من الأخلاق التي يلزم الانتهاء عنها، ونفي المحبة مختلف المراتب، فيعلم أن نفي المحبة يشتد بمقدار قوة الإسراف، وهذا حكم مجمل، وهو ظاهر في التحريم، وبيان هذا الإجمال، هو في مطاوي أدلة أخرى، والإجمال مقصود".(٣)

كما كَرِه - سبحانه - الاعتداء، وهو من المفاسد، فقال ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة:١٩٠].

فنفى الله تعالى هنا حُبّه للمعتدين الذين يجاوزون حدوده، فيستحلون ما حرّمه الله عليهم، من قتل مَن لا يستحق القتل.

وكرِه أيضاً؛ الظلم الذي هو من أهم أسباب الفساد؛ كما أسلفنا، وكره أهله فقال تعالى ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

قال الطبري:"والله لا يحب من ظلم غيره حقاً له، أو وضع شيئاً في غير موضعه، فنفى - جل

---

(١) التفسير الكبير ٣٩/١٢

(٢) نظم الدرر ٧٨٠/٢

(٣) التحرير والتنوير ٩٢/٧

ثناؤه – عن نفسه بذلك أن يظلم عباده، فيجازي المسيء ممن كفر؛ جزاء المحسنين ممن آمن به، أو يجازي المحسن ممن آمن به، واتبع أمره، وانتهى عما نهاه عنه، فأطاعه؛ جزاء المسيئين ممن كفر به،وكذّب رسله، وخالف أمره ونهيه، فقال: إني لا أحب الظالمين، فكيف أظلم خلقي؟ وهذا القول من الله – تعالى ذِكره – وإن كان خرج مخرج الخبر؛ فإنه وعيد منه للكافرين به وبرسله، ووعد منه للمؤمنين به وبرسله، لأنه أعلم الفريقين جميعاً أنه لا يبخس هذا المؤمن حقه، ولا يظلم كرامته، فيضعها فيمن كفر به، وخالف أمره ونهيه، فيكون لها بوضعها في غير أهلها ظالماً".(١)

"وإيراد الظلم؛ للإشعار بأنهم بكفرهم؛ متعدون متجاوزون على الحدود، واضعون للكفر مكان الشكر والإيمان".(٢)

لذا فإن الله تعالى لا يحب من وضع شيئاً في غير موضعه، ولا من استكبر أو اعتدى، كل هذا من الله تعالى؛ زجراً للناس من أجل أن يبتعد المسلم عن كل صور الفساد.

وهكذا يتبيّن، أنه لا أعظم؛ من انتفاء محبة الله للعبد، فإن انتفاء محبته – تعالى – يترتب عليها حرمان العبد من نعمة التوفيق، فلا يوفق إلى خير أبداً،بل يُحبس عن التوفيق للطاعات.

فمن حُبس عن طاعة، فليكن على وجل؛ من أن يكون ممن خذّلهم الله، وثبّطهم عن الطاعة كما ثبّط المنافقين، قال تعالى ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾[التوبة:٤٦].

فلمّا لم يكن عند المنافقين استعداد للخروج – للغزو مع النبي ﷺ – عن عمد وقصد؛ كرِه الله تعالى خروجهم؛ فحبسهم عن الخروج.

قال الشوكاني:"لو كانوا صادقين فيما يدعونه، ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك، ولكن لم يكن معهم من العُدّة للجهاد – وهي ما يحتاج إليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح – لما تركوا إعداد العدَّة وتحصيلها، قبل وقت الجهاد،كما يستعد لذلك المؤمنون، فمعنى هذا الكلام: أنهم لا يريدوا الخروج أصلاً ولا استعدوا للغزو،لذلك ﴿كَرِهَ

---

(١) جامع البيان ٣/٢٩٢

(٢) تفسير ابي السعود ٢/٤٥

﴿ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ يعني كرِه الله خروجهم، فتثبطوا عن الخروج ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ قيل القائل لهم: هو الشيطان، بما يلقيه إليهم من الوسوسة،وقيل:قاله بعضهم لبعض، وقيل: قاله رسول الله ﷺ غضباً عليهم،وقيل: هو عبارة عن الخذلان؛ أي أوقع الله في قلوبهم القعود خذلاناً لهم.(١)

وهكذا تفعل المفاسد بأهلها، فتحرمهم التوفيق للطاعة، نعوذ بالله من الخذلان.

قال تعالى عن الظالمين الذين حرموا بظلمهم هداية التوفيق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١]

والمعنى:"أن وقوعهم في الكفر، هو بسبب عدم هدايته – سبحانه – لهم، لأنهم ظلموا أنفسهم بما يوجب الكفر، كمن يوالي الكافرين مثلاً.

قال أبو السعود:"هذا تعليل لكون من يتولاهم منهم، أي لا يهديهم إلى الإيمان، بل يخليهم وشانهم، فيقعون في الكفر والضلالة".(٢)

فعدم التوفيق للهدى والرشاد، سببه الفساد؛ إذ المفسدون الذين طغوا، وأسرفوا في طغيانهم، سلبهم الله محبته وتوفيقه، فلا يُريهم الحق، بل يمدهم في طغيانهم وضلالهم.

وهذا ما عُوقِب به المنافقين ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[البقرة:١٤،١٥].

فأهل النفاق لا يحبهم الله، فيخذّلهم بسبب مكنون ما في قلوبهم من كفر، وإصرارهم عليه، ويحجبهم طرق التوفيق عن أنفسهم، حتى يزداد الران والظلمة على قلوبهم، ويتمكن الشيطان من إغوائهم؛ فيزيدهم طغياناً، مصداق قوله ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٢].

وحاصل الأمر أن قلوبهم تزايدت فيها الظلمة، وتزايد النور في قلوب المسلمين، فسمي ذلك التزايد مدداً، وأسنده إلى الله تعالى؛ لأنه مسبب عن فعله بهم.(٣)

وكذا حِرمان الكافرين من التوفيق والهداية؛ فقد كان ذلك أثراً لفسادهم، قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النحل:١٠٤].

---

(١) فتح القدير ٨٩/٥

(٢) تفسير أبي السعود ٤٨/٣

(٣) انظر: التفسير الكبير ٦٥/٢

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره، وتَغَافل عما أنزله على رسوله، و لم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته، وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة"(١).

وقال السعدي:"﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيردونها ولا يقبلونها،﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ حيث جاءهم الهدى فردّوه، فعوقِبوا بحرمانه، وخذلان الله لهم"(٢).

فهذا ظاهر الدلالة على عدم توفيقهم، لأنهم إذا حُرموا الهداية؛ فقد وقعوا في الضلالة، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

ومثل ذلك قوله تعالى﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[آل عمران:٨٦].

فقد قيل في معنى الآية"لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم، ولا يقبلون على الإسلام، فأما إذا أسلموا وتابوا، فقد وفقهم الله لذلك".(٣)

ومما سبق يتضح أن قلة التوفيق وعدم هدايته لهم، نتيجة حتمية لبغض الله لهم، لأنهم أتوا ما نهاهم عنه، لهذا فإذا ما جئتهم بكل آية ما تبعوك ولا انقادوا لك، فإذا كان الله سبحانه لا يحب لهم ما عملوه بل يسخط عليهم ويغضب عليهم، ولا يهديهم إلى صالح أبداً، فيجب على المسلم أن يحذر حتى لا يحدث له ما حدث للظالمين.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/٦٠٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٥٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤/١٣٠

المبحث السادس

العُقُوبَةُ والهَلَاكُ

من آثار الفساد؛ ما جعله الله تبارك وتعالى من أنواع العقاب في الدنيا لبعض المفسدين، ولم يدخرها كلها لهم في الآخرة، من أجل أن يظهر للناس بعض آثار الفساد على أهله، لأخذ العظة والعبرة من مآل المفسدين.

والعقوبة والهلاك؛ كلاهما نكالٌ بالمفسدين، إلا أن العقوبة أعم وأشمل، لأن الهلاك قد يقع على بعض المفسدين دون بعض، أما العقوبة فدائرتها أوسع، لذا نجدها – في القرآن– تنوّعت حسب حال المفسدين.

والعقوبة والعذاب حقٌ لله تعالى، ليس أمرها لأحد سواه، فهُما تحت مشيئته سبحانه وإرادته، بيد إنه تعالى جعل من عقوبة الحدود؛ ما هو محل اجتهاد الحاكم،فيما لا يخرج عن حدّ الشرع، قال تعالى في شأن حدّ المُلاعِنة﴿ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [النور:٨].

إن قدرة الله تعالى فوق ما يظن الخلق، وأمره سبحانه لا يرده شيء؛ فقضاؤه نافذ، وحكمه لازم ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾[القمر:٥٠]، ولو أراد سبحانه لأرسل عذابه على عباده، قال سبحانه في المكذبين من قريش ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴾[المؤمنون:٩٥] وفي آية أخرى ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾[الزُخرف:٤١،٤٢].

وقد أخبرنا سبحانه بوقوع عذابه على بعض عباده، وعذابه سبحانه قد يصيب العباد في الدنيا، وقد يؤخر لهم في الآخرة، وقد يجمع الله تعالى لبعض عباده، عذاب الدنيا مع عذاب الآخرة؛ كما أهلك سبحانه المكذبين، وتوعدهم في الآخرة بالعذاب الأليم.

كما أن عذابه – تعالى – لا يمنع منه حذر محاذر، ولا يردُّه حِرص حريص، ولا ينجي منه استخفاء ولا احتراز، ولا تقف أمامه قوة، مهما كانت، ولا يدفعه أحد، مهما بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾[الطور:٧،٨].

فقد يكون ريحاً صرصراً، أو فيضاناً مغرقاً، أو زلزالاً أو مدمِّراً، أوباءً مهلِكاً، أو عدواً مسلَّطاً، ولربما كان فتنة عمياء، تموج كموج البحر، يقتل فيها الناسُ بعضهم بعضاً،﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾[الأنعام:٦٥]،﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩]

قال قتادة:"إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من آياته؛ لعلهم يعتبرون، أو يذّكرون، أو يرجعون، ذُكِر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه فقال:"يا أيها الناس، إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه"[١]، وورد أن المدينة زلزلت في عهد عمر رضي الله عنه فقال: "أحدثتم والله، لئن عادت لأخرجن من بين ظهرانيكم».[٢]

ومن تأمل في عقاب الله تعالى للمفسدين؛ وجد تناسباً بين فسادهم من جهة، وبين ما استحقوه من العقاب، من جهة أخرى، وذلك في القرآن الكريم أكثر من أن يحصر.

فمن ذلك ما حدث لقوم نوح عليه السلام لما أكثروا الضلال، عاقبهم الله تعالى؛ بأن جمع لهم بين مرارة الإغراق، وحرارة الإحراق؛ مقابل أعظم الذنبين؛ الضلال والإضلال، فقال تعالى﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾[نوح:٢٤،٢٥].

وتأمل خبر قوم صالح لما كذبوه﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[الأعراف: ٧٧،٧٩]،

فكما عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم؛ كان عِقابهم الإبادة وقطع دابرهم.

وأما عاد فاستكبروا، وأعرضوا، وافتخروا بقوتهم ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ﴾ [فصلت:١٥]،فكان عقابهم؛ الريح العقيم.

وليس عن هذا ببعيد؛ عذاب قوم لوط عليه السلام، فقد عاقبهم الله تعالى عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم، وجمع عليهم من أنواع العقوبات، ما نكّل بهم نكالاً؛ لم ينكّله بأمّة سواهم؛ وذلك لِعظم جريمتهم.

وكلتا الأمتين – عاد وقوم لوط – أهلكهم الله بالحاصب، وهي ريح قوية تحمل من شدتها التراب والحصباء، فتحصب بها الناس[٣]، وقد تشتد شدةً تقتلع الحجارة؛ فترمي بها الناس.

(١) جامع البيان ٤٧٨/١٧

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى صلاة الخسوف باب : باب لا يصلي جماعة عند شيء من الآيات.ح(٦٧١٠)

(٣) انظر: لسان العرب ٣١٨/١ مادة (حصب).

فأما عاد فقال تعالى فيهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[فصلت:١٦]، فكانت ريحاً شديدة ترفعهم وتصرعهم، كما قال تعالى في وصف فعلها بهم ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾[القمر:٢٠].

لقد ظنت عاد أنها الريح التي اعتادوها، تحمل السحب وتسوقها إليهم؛ فإذا هو حاصب يحمل العذاب الأليم ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف:٢٥].

فاستمرَّ حاصبهم أياماً، حتى أفناهم الله تعالى به ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[الحاقة:٧].

وأما قوم لوط عليه السلام، فقال الله تعالى فيهم ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾[القمر:٣٤]، وبلغ من شِدَّة الحاصب الذي اجتاحهم؛ أنه رفع ديارهم إلى عنان السماء، وقذفهم بحجارة أهلكتهم في ديارهم ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[الحجر:٧٤]، ومناسبة ذلك أنهم لما انتكست عقولهم، وخالفوا فطرة الله عز وجل، فواقَعوا من ليس محلاً للمواقعة؛ قلب الله ديارهم.

وقد أنذر الله تعالى هذه الأمة بالحاصب من الريح، وخوفهم به، في موضعين من القرآن، فقال تعالى ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾[الإسراء:٦٨] وفي موضع آخر ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[المُلك:١٧].

ثم أتى بعد هؤلاء، قوم شعيبٌ عليه السلام، فأنذر قومه، وذكَّرهم ما حلَّ بالمفسدين قبلهم، فقال لهم ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[هود:٨٩]، لكنهم لم يعتبروا؛ فقضى الله تعالى بإهلاكهم ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الشعراء:١٨٩].

"فبيّن في هذه الآية أن ظلمهم؛ هو تكذيب رسولهم وتطفيفهم في الكيل، وبخسهم الناس أشياءهم، وأن انتقامه منهم؛ بعذاب يوم الظلة، والظلة سحابة أظلتهم فأضرمها الله عليهم ناراً فأحرقتهم، والعلم عند الله تعالى".[1]

---

(١) أضواء البيان ٢/٢٨٨

والهلاك الذي أصاب قوم شعيب؛ ذَكر – تعالى – في سورة الأعراف؛ أنه رجفة، وذكر في سورة هود؛ أنه صيحة، وذكر في سورة الشعراء؛ أنه عذاب يوم الظلة.

فأجاب ابن كثير رحمه الله عن ذلك، فقال:"وقد اجتمع عليهم ذلك كله، فأصابه عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام".(١)

وما أحدثته سبأ من الإعراض، باستبدالهم الشكر بالكفر، ناسبه تبديل جنتيهم بجنتين، قال تعالى في وصفهما ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾[سبأ:١٦].

"فلما أعرضوا عما أمروا به، عوقبوا بإرسال السيل، والتفرق في البلاد".(٢)

"فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطغتهم؛ فأبادها عليهم، فأرسل عليها سيل العرم؛ وهو السيل المتوعر الذي خرّب سدّهم، وأتلف جناتهم، وخرّب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ أي شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعاً ﴿خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وهذا من جنس عملهم، فكما بدلوا الشكر الحسن؛ بالكفر القبيح؛ بُدِّلوا تلك النعمة بما ذكر، ولهذا قال﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾[سبأ:١٧]،أي وهل نجازي جزاء العقوبة – بدليل السياق – إلا من كفر بالله، وبطر النعمة، فلما أصابهم ما أصابهم؛ تفرقوا".(٣)

وتأمل لما افتخر فرعون، فنادى في قومه ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الزخرف:٥١]، كانت عقوبته وهلاكه من جنس ما افتخر به، فأُغرِق في البحر، قال تعالى﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزُّخرُف:٥٥،٥٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٤٩/٣

(٢) المصدر السابق ٧٠٠/٣

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٦٧٧

قال الشوكاني:"قال المفسرون:﴿ءَاسَفُونَا﴾:أغضبونا، والأسف الغضب، وقيل: أشد الغضب، وقيل: السخط، وقيل المعنى: أغضبوا رسلنا، ثم بيَّن العذاب الذي وقع به الانتقام فقال ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في البحر".[١]

وقد عرض القرآن صوراً لعذاب آل فرعون، فمن ذلك؛ قوله تعالى﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[الفجر:١٠،١٤]

قال أبو السعود:"أنزل عليهم عقيب ما فعلوه من الطغيان والفساد؛ سوط عذاب، أي عذاباً شديداً، لا يدرك غايته، وتسميته سوطاً؛ للإشارة إلى أن ذلك بالنسبة إلى ما أعد لهم في الآخرة؛ بمنزلة السوط عند السيف، والتعبير عن إنزاله بالصبِّ للإيذان بكثرته واستمراره وتتابعه، فإنه عبارة عن إراقة شيء مائع أو جارٍ مجراه في السيلان، كالرمل والحبوب وإفراغه بشدة وكثرة واستمرار، ونسبته إلى السوط مع أنه ليس من ذلك القبيل؛ باعتبار تشبيهه في نزوله المتتابع المتدارك على المضروب؛ بقطرات الشيء المصبوب".[٢]

كما أنزل عليهم جملة من العقوبات، قبل استئصالهم، فقال تعالى﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[الأعراف:١٣٠].

فهذا"شروع في تفصيل مبادئ الهلاك الموعود، وإيذان بأنه تعالى لم يمهلهم بعد ذلك، ولم يكونوا في خفض ودعة، بل رتبت أسباب هلاكهم، فتحولوا من حال إلى حال، إلى أن حل بهم عذاب الاستئصال. والسنون جمع سَنَة، والمراد بها: عام القحط"[٣]، تقول العرب: مستهم السنَة، أي: جدب السَنة، وشدة السنة، وقيل: أراد بالسنين؛ القحط سنة بعد سنة،﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والغلات بالآفات والعاهات، وقال قتادة: أما السنين فلأهل البوادي، وأما نقص الثمرات فلأهل الأمصار،﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي:يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم؛ معاتبة من الله لهم، لعلهم يرجعون عن كفرهم، فلم ينجع فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد[٤].

---

(١) فتح القدير ٧٩٧/٤

(٢) تفسير ابي السعود ١٥٤/٩

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٦٣/٣

(٤) انظر: معالم التنزيل ٢٦٨/٣، تيسير الكريم الرحمن ص٣٠٠

وهذا قارون حين أبطره ماله الذي أعطاه الله إياه، ولكنه ادّعى كِبراً وعناداً أنما جلبه بعلمه فقال ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾[القصص:٧٨]. فلما علا في الأرض؛ كانت عقوبته الخسف؛ معاملة له بمقتضى فساده ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾[القصص:٨١].

فهذه آيات بيّنات، تؤصل أن العذاب مرهون بالفساد، فإذا أفسدت أمة من الأمم، حلَّ بها عذاب الله تعالى، لأنه لا يحيق المرء السيئ إلا بأهله ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾[الطلاق:٨،٩]. ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾[ص:١٤].

وبهذا يتبين أنه تعالى، أهلك جميع الأمم المكذبة لرسلها؛ بعذاب مستأصل[1]، كما بيّن ذلك في قوله ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾[المؤمنون:٤٤].

فقوله﴿فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا﴾ أي بالهلاك، فلم يبق منهم باقية، وتعطلت مساكنهم من بعدهم ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث بهم من بعدهم، ويكونون عبرة للمتقين، ونكالاً للمكذبين، وخزياً عليهم مقروناً بعذابهم ﴿فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ ما أشقاهم!!. وتعسا لهم، ما أخسر صفقتهم!!.[2]

وقد جاء صريحاً؛ أن المفسدين ينالهم العذاب في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[آل عمران:٥٦].

قال السعدي:"أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك، مما هو نموذج من عذاب الآخرة، وأما عذاب الآخرة، فهو الطامة الكبرى،والمصيبة العظمى، ألا وهو عذاب النار، وغضب الجبار، وحرمانهم ثواب الأبرار".[3]

(١) أضواء البيان ٣/٣٠٤
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٥٢.
(٣) المصدر السابق ص ١٣٢.

وممن حق عليهم ذلك؛ بنو إسرائيل، فقد أنزل الله تعالى عليهم عقوبته وسخطه؛ جزاء إعراضهم وعنادهم، وجاء بيان ذلك في عِدة مواضع، كما في قوله ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٦٧] أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم.

ويقال: إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين،وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين وغيرهم، ثم صاروا في قهر النصارى وإذلالهم، وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام، ومحمد ﷺ، فكانوا تحت صغاره وذمته؛ يؤدون الخراج والجِزى.(١)

والمشركون زمن النبي ﷺ، نالهم من العذاب ما نالهم؛ بسبب تكذيبهم وإعراضهم، قال سبحانه﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[الرعد:٣١].

قال ابن عباس رضي الله عنه:"أراد بالقارعة: السرايا التي كان رسول الله ﷺ يبعثهم إليهم"(٢).

كما أخبر سبحانه عن عقوبة المنافقين في الدنيا،فقال سبحانه﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾[الأحزاب:٦٠، ٦١].

ثم قال﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب:٦٢].

قال ابن كثير:"هذه سنته في المنافقين، إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم، ولم يرجعوا عما هم فيه، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾أي: وسنة الله في ذلك لا تُبدل ولا تغير".

ومن عقوبة الكافرين في الدنيا؛ ازديادهم من الآثام والسيئات، فإن طول العمر؛ يكون شراً للمرء، وضرراً عليه؛ إذا لم يحسن العمل، قال تعالى﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[آل عمران:١٧٨]، فهؤلاء الكفار يملي الله لهم

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤٩٧/٣

(٢) انظر: جامع البيان ٤٥٨/١٦، ومعالم التنزيل ٣٢٠/٤.

– أي يمدهم بالرزق والعافية وطول العمر والبنين والزوجات – لا لخير في أنفسهم، بل ليزدادوا بذلك إثماً.

ومن العقوبات الدنيوية: ما ذكره سبحانه من الحدود على الجنايات، وقد سبق بيان ذلك في موضعه.

ومن العقوبات التي تظهر إذا عمَّ الفساد والفجور، ما دلّ عليه عموم قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[الأنفال:٥٣].

فقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح من حديث عبد الله بن مسعود ﵁ أن النبي ﷺ قال: "ما ظهر في قوم الربا والزنا؛ إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل"(١).

وقال النبي ﷺ:"يا معشر المهاجرين: خمسٌ إن ابتليتم بهنّ، وأعوذ بالله أن تدركوهن، لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا".(٢)

وما هو نازل اليوم بالأمم من كثرة الحروب والفيضانات والزلازل والأمراض والأدواء المعضِلة؛ كل ذلك من آثار الفساد الذي شاع في كل مكان وناد.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٠٢/١ وصححه الشيخ شعيب الارناؤوط .

(٢) سبق تخريجه. ص٧٢

الفصل الثاني

آثـار الفساد في الآخرة

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الخسارة والحسرة.

المبحث الثاني: مضاعفة الأوزار والسيئات.

المبحث الثالث: تغليظ العذاب.

المبحث الأول

الخَسَارةُ والحَسَرة

تتعدى آثار الفساد إلى الآخرة، فلو اقتصرت على الدنيا، لكان الأمر أخف؛ لكن عذاب الآخرة أشد ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾[طه:١٢٧]، فيتحسر المفسدون على أنفسهم، يوم لا ينفع فيه حسرة ولا ندامة.

ولقد أكّد القرآن الكريم، أنه بعد البعث والنشور، وانكشاف الأمور، يخلد الناس إما في الجنة أو النار، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار خيبة على خيبتهم،ولذا وصف الله تعالى يوم القيامة؛ بأنه يوم الحسرة، قال تعالى ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[مريم:٣٩].

"والحسرة: أشد الندم والتلف، على الشيء الذي فات، ولا يمكن تداركه، والإنذار: الإعلام المقترن بتهديد، أي أنذر الناس يوم القيامة، وقيل له يوم الحسرة؛ لشدّة ندم الكفار فيه على التفريط، وقد يندم فيه المؤمنون؛ على ما كان منهم من التقصير.

المعنى: أنذر الخلائق يوم الحسرة، إذا فُصِل بين أهل الجنة وأهل النار، ودخل كلٌّ إلى ما صار إليه، مخلداً فيه﴿وَهُمۡ﴾ أي اليوم ﴿فِي غَفۡلَةٖ﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون به.[١]

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨]"[٢].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:"إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت؛ كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا قال: فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا ؟ قال: فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت، فيؤمر به، فيذبح، قال: ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت" ثم قرأ ﷺ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[مريم:٣٩].[٣]

وقد أقسم تعالى على تحقق الخسران، وأنه لا ينجو منه إنسان، إلا بأربعة أمور:

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢٣٣/٥

(٢) أضواء البيان ٤٢٢/٣

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الايمان. باب تفاضل أهل الايمان.ح (٢٢).

الأول: الإيمان، الثاني: العمل الصالح، الثالث: التواصي بالحق، الرابع: التواصي بالصبر.
وذلك في قوله﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[العصر:١،٣].

وما تضمنته سورة العصر، جاء مبيناً في عدّة مواضع، في الكتاب العزيز.

فقد جاء وصف الخسران مقترناً بالكفر، كما في قوله تعالى﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[الزمر:٦٥]. وقوله﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾[الأنعام:٣١] أي لأنهم لم يعملوا لهذا اللقاء، وقصروا أمرهم في الحياة الدنيا، فضيعوا أنفسهم، وحظهم في الآخرة.

وأما الخسران بترك العمل، فكما في قوله تعالى﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾[الأعراف:٩] لأن الموازين هي معايير الأعمال.

وأما الخسران بترك التواصي بالحق، فليس بعد الحق إلا الضلال، والحق هو الإسلام بكامله وقد قال تعالى﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥].

وأما الخسران بترك التواصي بالصبر، فكما قال تعالى﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾[الحج:١١].(١)

كما وصف بالخسران متبع الشيطان،﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾[النساء:١١٩].

وبيّن في مواضع أخر،أن المفعول المحذوف الواقع عليه الخسران هو أنفسهم، كقوله﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾[الأعراف:٩]،وقوله ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[المؤمنون:١٠٣]

وزاد في مواضع أخر؛ خسران الأهل مع النفس، كقوله ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾[الزمر:١٥]، وقوله في الشورى ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾[الشورى:٤٥]

---

(١) انظر: أضواء البيان ٩/٩٠

كما بيّن في موضع آخر؛ أن خسران الخاسرين؛ قد يشمل الدنيا والآخرة، قال تعالى﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[الحج:١١](١).

فأما خسارتهم أنفسهم؛ فبصرف أعمارهم – التي هي رأس مالهم – إلى الكفر والمعاصي، فلم ينتفعوا بها، وكل من لم ينتفع بنفسه؛ فقد خسرها.(٢)

بل إنهم تسببوا لها في العذاب، في حين حسبوا أنهم سعوا لها في النعيم والنجاح،وهو تمثيل لحالهم في إيقاع أنفسهم في العذاب، وهم يحسبون أنهم يلقونها في النعيم، بحال التاجر الذي عرض ماله للنماء والربح فأصيب بالتلف.

وأما خسرانهم أهليهم؛ فهو مثل خسرانهم أنفسهم، وذلك أنهم أغروا أهليهم من أزواجهم وأولادهم بالكفر، كما أوقعوا أنفسهم فيه، فلم ينتفعوا بأهليهم في الآخرة، و لم ينفعوهم، فكان خسرانهم خسراناً عظيماً.(٣)

"وقيل: فرِّق بينهم وبينهم، فاشتدّ عليهم الحزن، وعظم الخسران".(٤)

ولما شرح الله تعالى خسرانهم؛ وصف ذلك الخسران بالفظاعة، فقال﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾،"وهذا يدل على غاية المبالغة من وجوه: أحدها: أنه وصفهم بالخسران، ثم أعاد ذلك بقوله﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾وهذا التكرير لأجل التأكيد. وثانيها: ذكره حرف "أَلاَ" وهو للتَّنْبِيهِ، وذكر التنبيه يدل على التعظيم كأنه قيل: بلغ في العِظَم إلى حيث لا تصل عقولكم إليه، فتنبهوا لَهُ.وثالثها: قوله﴿هُوَ الْخُسْرَانُ﴾ ولفظ " هو " يفيد الحصر،كأنه قيل: كل خسران يصير في مقابلته كلا خسران. ورابعها: وصفه بكونه خسراناً مبيناً وذلك يدل على التهْويل".(٥)

وقد أخبر سبحانه عن حسرة أهل النار، في مواضع عِدّة من كتابه العزيز، قال تعالى ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ

---

(١) انظر: أضواء البيان١٥٩/٢

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم ٢٣٢/٣، الجامع لأحكام القرآن ٢١٨/٧

(٣) انظر: التحرير والتنوير٤٦/٢٤

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٧٢١

(٥) اللباب في علوم الكتاب ٤٩٠/١٦

تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾[المؤمنون:١٠٣-١٠٧].

قال ابن كثير:"هذا تقريع من الله، وتوبيخ لأهل النار، على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم، التي أوبقتهم في ذلك، فقال﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت عليكم الكتب، وأزلت شُبهكم، ولم يبق لكم حجة كما قال تعالى﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[النساء:١٦٥]،وقال﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء:١٥]،وقال ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[الملك:٨-١١].

ولهذا قالوا﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ أي:قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فضللنا عنها،ولم نُرزقها،ثم قالوا ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ أي اردُدنا إلى الدنيا، فإن عُدنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قال عنهم﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾[غافر:١١]، أي لا سبيل إلى الخروج، لأنكم كنتم تشركون بالله، إذا وحَّده المؤمنون[1].

فهؤلاء استحقوا ما هم فيه من عذاب؛ بسبب تماديهم في الفساد، حال حياتهم الدنيا، ثم موتهم على تلك الحالة، فإذا ما جاء أحدهم يوم القيامة وأبصر الحقائق، وأصبح الغيب الذي كان يكذب به؛ واقعاً أمام عينيه، هنا تكون الحسرة على ما فرط في جنب الله تعالى.

بل يقال لهم ساعة العذاب ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ ﴾ من أجل أن يتحسروا على صنيعهم، حال حياتهم الدنيا.

ومن علامات خسارتهم؛ اسوداد وجوههم، قال تعالى﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[آل عمران:١٠٦].

فهذه خسارة ما بعدها خسارة، إذ تعظم حسرتهم، إذا قيل لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟

قال القرطبي:"يعني يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم، تكون وجوه المؤمنين مبيضَّة، ووجوه الكافرين مسودَّة، ويقال: إن ذلك عند قراءة الكتاب، إذا قرأ المؤمن كتابه، فرأى

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٣٤٥

في كتابه حسناته؛ استبشر وابيضّ وجهه، وإذا قرأ الكافر والمنافق كتابه، فرأى فيه سيئاته؛ أسود وجهه، ويقال: إن ذلك عند الميزان، إذا رجحت حسناته أبيض وجهه، وإذا رجحت سيئاته؛ اسود وجهه، ويقال: ذلك عند قوله تعالى ﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[يس:٥٩].

ويقال: إذا كان يوم القيامة؛ يؤمر كل فريق، بأن يجتمع إلى معبوده، فإذا انتهوا إليه؛ حزنوا واسودّت وجوههم".(١)

ومن مشاهد الحسرة؛ أن الأعضاء شاهدة عليهم، وهذا أبلغ ما يكون في توبيخهم، من أجل أن تزداد حسرتهم، في ذلك المشهد العظيم، قال تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾[فُصِّلَت:٢٠-٢٤].

فهؤلاء المفسدون كانوا يظنون أن أعضائهم لا تتكلم، ولا تشهد عليهم أبداً، لأنهم كانوا قوماً ماديين؛ لا يؤمنون إلا بما شاهدوه أمام أعينهم، لهذا فإنهم يتعجبون منها، وهي تتكلّم عن ما اقترفوه بها حال الحياة.

قال ابن كثير:"قوله﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار، يوزعون أي: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[مريم:٨٦]،أي عطاشاً، وقوله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ أي وقفوا عليها﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بأعمالهم، مما قدموه وأخروه، لا يكتم منه حرف﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ أي لاموا أعضاءهم وجلودهم، حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾أي فهو لا يخالف ولا يمانع، وإليه ترجعون".(٢)

والمعنى: أنه نعى عليهم سوء استدلالهم، وفساد قياسهم في الأمور الإلهية، وقياسهم الغائب على الشاهد، حتى استدرجوا في الضلالة، فأحالوا رسالة البشر عن الله، ونفوا البعث، ثم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦٢/٤

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٢١/٤

أثبتوا شركاء لله في الإلهية، وتفرع لهم من ذلك كله؛ قطع نظرهم عما وراء الحياة الدنيا، وأمنهم من التبعات في الحياة الدنيا، فذلك جماع قوله تعالى﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[فصلت:٢٣]، فأسباب الضلال في العقائد كلها؛ إنما تأتي على الناس من فساد التأمل، وسرعة الإيقان،وعدم التمييز بين الدلائل الصائبة، والدلائل المشابهة وكل ذلك يفضي إلى الوهم، المعبّر عنه بالظن السيئ أو الباطل.(١)

ولشدة ما يترل بهم من العذاب، يتمنى أحدهم العودة للحياة؛ من أجل أن يعمل صالحاً يكافأ عليه، فيردّ الله تعالى عليهم طلبهم هذا، لأنهم عُمِّروا في حياتهم الدنيا، ولم يأخذوا منها إلا الحسرة والندامة،قال سبحانه﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[فاطر:٣٧]

فينادون فيها، ويجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾أي يسألون الرجعة إلى الدنيا؛ ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علِم سبحانه، أنه لو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام:٢٨].

فلا يجيبهم إلى سؤالهم، كما قال تعالى مخبراً عنهم في قولهم ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ﴾[غافر:١١،١٢] أي لا يجيبكم إلى ذلك، لأنكم كنتم كذلك، ولهذا قال ههنا ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾؟ [فاطر:٣٧]، أي: أو ما عِشتم في الدنيا أعماراً، لو كنتم ممن ينتفع بالحق؛ لانتفعتم به في مدة عمركم.(٢)

هذا ويقال لهم، على سبيل التبكيت والذمّ ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[يس٦٣-٦٤].

يُقال ذلك؛ وقد بُرِّزت الجحيم لهم، تقريعاً وتوبيخاً ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أي هذه التي حذرَتكم الرسل فكذبتموهم.

وفي هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحزنهم؛ من ثلاثة أوجه:

أحدها: قوله﴿ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ ﴾"وهذا أمرُ تنكيل وإهانة، كقوله﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٨٧/٢٤

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧٣٦/٣

﴿ٱلْكَرِيمُ﴾[الدخان:٤٩]أي: ادخلوها من فوق، وقاسوا فنون عذابها اليوم، بكفركم المستمر في الدنيا، وقوله تعالى﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾[يس:٦٥] أي ختماً يمنعها عن الكلام.

وهذا التفات إلى الغَيبة؛ للإيذان بأن ذكر أحوالهم القبيحة، استدعى أن يُعرِض عنهم، ويحكى أحوالهم الفظيعة لغيرهم، مع ما فيه من الإيماء الى أن ذلك، من مقتضيات الختم، لأن الخطاب لتلقى الجواب، وقد انقطع بالكلية.

الثاني: قوله ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني:العذاب حاضر، ولذاتك قد مضت، وبقي اليوم العذاب،فالتعريف في ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ تعريف العهد،أي هذا اليوم الحاضر، وأريد به جواب ما كانوا يقولون في الحياة الدنيا؛ من استبطاء الوعد والتكذيب، إذ يقولون﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٤٨].والباء في ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ سببية،أي بسبب كفركم في الدنيا"

الثالث: قوله﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فإن الكفران يُنبئ عن نعمة كانت؛ فكُفِر بها، وحياء الكفور من المنعم، من أشد الآلام.(١)

وقال تعالى في بيان حسرتهم﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[الأنعام:٢٧،٢٨].

قال ابن كثير:"يذكر تعالى حال الكفار، إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين،قال تعالى ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾[الأنعام:٢٨]،أي: بل ظهر لهم حينئذ، ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها في الدنيا، أو في الآخرة، كما قال قبله بيسير ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[الأنعام:٢٣،٢٤].

ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم، من صِدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خِلافه، كقوله مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[الإسراء:١٠٢]، وقوله ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا

---

(١) انظر:إرشاد العقل السليم١٧٦/٧،اللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٥٤/١٦،التحرير والتنوير ٢٥٥/٢٢

﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:١٤].

ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء؛ المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس، ويبطنون الكفر، ويكون هذا؛ إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكيّة، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكيّة، وهي العنكبوت فقال ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[العنكبوت:١١]".[١]

وبعد أن يذوقوا النار، يُزاد لهم من عذابها، جزاء ما كسبت أيديهم؛ فتزداد حسرتهم على أنفسهم.

ومن حديث القرآن عن حسرتهم،قوله تعالى ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[الأنعام:٣١].

قال الطبري:"وكِس الذين كذبوا بلقاء الله ببيعهم منازلهم من الجنة، بمنازل من اشتروا منازله من أهل الجنة من النار، فإذا جاءتهم الساعة بغتة، قالوا إذا عاينوا ما باعوا وما اشتروا، وتبينوا خسارة صفقة بيعهم التي سلفت منهم في الدنيا، تندماً وتلهفاً على عظيم الغبن الذي غبنوه أنفسهم، وجليل الخسران الذي لا خسران أجلَّ منه﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ يقول:يا ندامتنا على ما ضيعنا فيها يعني: صفقتهم تلك.[٢]

"وهذا شهادة من الله عليهم بالخسران، والمعنى أن من باع آخرته بالدنيا، فقد خسِر، لأنه أعطى الكثير الشريف الباقي، وأخذ القليل الخسيس الفاني".[٣]

وقوله ﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا﴾ وقع النداء على الحسرة، وليست بمنادي في الحقيقة، ولكنه يدل على كثرة التحسر، ومثله: يا للعجب، ويا للرخاء، وليسا بمنادين في الحقيقة، ولكنه يدل على كثرة التعجب والرخاء.

والمعنى: يا حسرتنا احضري، فهذا أوانكِ، كذا قال سيبويه[٤]في هذا النداء وأمثاله.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١٧٢/٢

(٢) جامع البيان ١٧٧/٥

(٣) التفسير الكبير ٨٣/١٧

(٤) أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الملقب بسيبويه، مولى بني الحرث بن كعب، ولد ببيضا سكن البصرة وتوفي بمدينة ساوة سنة ١٧٧هـ. انظر:هداية العارفين ٤٢٧/١

وقيل: هو تنبيه للناس، على عِظم ما يحلُّ بهم من الحسرة، كأنهم قالوا: يا أيها الناس تنبهوا على عظيم ما بِنا من الحسرة.(١)

بل إن الشيطان يتبرأ من أتباعه بعد ضلالهم واتباعهم له، فتزيد حسرتهم، قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[إبراهيم:٢٢].

قال ابن كثير: يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس – لعنه الله – يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغبناً إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي على ألسنة رُسُله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً، وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم..﴿فَلَا تَلُومُونِي ﴾ اليوم ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج، واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أي بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال.

وقوله﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ قال ابن جرير:"يقول: إني جحدت أن أكون شريكا لله عز وجل".(٢)

قال ابن كثير معقباً:"وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾[الأحقاف:٥،٦]، وقال ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾[مريم:٨٢]".(٣) وقال تعالى﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾[الفرقان:٢٧-٢٩].

"فأخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ، أنه إذا كان يوم القيامة؛ ندم

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤١٢/٦، فتح القدير ١٦٠/٢

(٢) جامع البيان ٥٦١/١٦

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤٩٠/٤

حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفاً، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط، أو غيره من الأشقياء فإنها عامة في كل ظالم كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ ﴾[الأحزاب:٦٦] الآيتين.

فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعضّ على يديه قائلاً ﴿يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ يعني من صرفه عن الهدى، وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف،أو غيرهما ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ ﴾ وهو القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ﴾ أي بعد بلوغه إليّ".(١)

وفي صورة أخرى،يتبيّن فيها؛ أن الحسرة ظاهرة على الوجوه،﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[السجدة:١٢].

والمعنى: ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة؛لرأيت العجب، وقيل المعنى: يا محمد قل للمجرم؛ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم، لندمت على ما كان منك.

فهم ناكسو رءوسهم من الندم والخزي والحزن والذل والغم، عند المحاسبة والجزاء، يقولون ربنا أبصرنا ما كنا نكذب وسمعنا ما كنا ننكر، وقيل: أبصارنا صدق وعيدك، وسمعنا تصديق رسلك، فأبصروا حين لا ينفعهم البصر، وسمعوا حين لا ينفعهم السمع، فطلبوا الرجوع إلى الدنيا، وهيهات.(٢)

كما أن ملائكة النار، توبخهم قبل دخولها، فيعترفون بخطأهم،قال تعالى﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر:٧١]

فهم يساقون إلى النار سوقاً عنيفاً، بزجر وتهديد ووعيد، كما قال عز وجل ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور:١٣] أي يدفعون إليها دفعاً، وقوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ أي بمجرد وصولهم إليها؛ فتحت لهم أبوابها سريعاً؛ لتعجّل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية، الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾؟ أي من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ

---

(١) المصدر السابق ٤٢١/٣

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٨٧/١٤

ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ ﴾ أي يقيمون عليكم الحجج والبراهين، على صحة ما دعوكم إليه ﴿ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا ﴾ أي ويحذرونكم من شر هذا اليوم فيقولون﴿ بَلَىٰ ﴾ أي قد جاءونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين﴿ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أي ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق لنا من الشقوة التي كنّا نستحقها، حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل، كما قال عز وجل مخبراً عنهم في الآية الأخرى ﴿ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[الملك:٨-١٠] أي رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة ﴿ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[الملك:١١] أي بُعداً لهم وخساراً.[1]

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/٨٤

المبحث الثاني

مُضَاعَفَةُ الأَوزَارِ والسَيِّئَاتِ

من رحمة الله تعالى؛ أن جعل الحسنة بعشر أمثالها،قال تعالى ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]،والله يضاعف لمن يشاء، وجعل السيئة بمثلها﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ولو ضاعف الله السيئات مضاعفة الحسنات؛ لهلك الناس، ولكن الله ذو فضل على العالمين.

ولعل من الحكمة في ذلك؛ أن يبادر العبد للإقلاع عن الذنب، ويجدد الإيمان بالتوبة.

كما ذكر جلَّ وعلا أن من اهتدى؛ فعمل بما يرضي الله جلَّ وعلا، أن اهتداءه ذلك إنما هو لنفسه، لأنه هو الذي ترجع إليه فائدة ذلك الاهتداء، وثمرته في الدنيا والآخرة. وأن من ضلّ عن طريق الصواب؛ فعمل بما يسخط ربه جلَّ وعلا، أن ضلاله ذلك، إنما هو على نفسه. لأنه هو الذي يجني ثمرة عواقبه السيئة الوخيمة، فيخلد به في النار،وبين هذا المعنى في مواضع كثيرة. كقوله﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ﴾[فُصِّلَت:٤٦]، وقوله﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[الروم:٤٤]، والآيات بمثل هذا كثيرة.

إلا أن من الناس من يضاعف الله تعالى يوم القيامة حسناهم، وآخرين تضاعف أوزارهم؛ كما دلت على ذلك النصوص الشرعية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"والداعي إلى الهدى والضلالة لما كانت إرادته جازمة كاملة في هدى الأتباع وضلالهم وأتى من الإعانة على ذلك بما يقدر عليه؛ كان بمنزلة العامل الكامل، فله من الجزاء؛ مثل جزاء كل من اتبعه: للهادي مثل أجور المهتدين، وللمضل مثل أوزار الضالين، وكذلك السانّ سنة حسنة،وسنة سيئة؛ فإن السُنة هي ما رسم للتحري، فإن السانّ كامل الإرادة لكل ما يفعل من ذلك، وفعله بحسب قدرته، ومن هذا قوله في الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: لا تقتل نفس ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل".(١)

فالكِفْل النصيب، مثل نصيب القاتل، وهو كما استباح جنس قتل المعصوم، لم يكن مانع يمنعه من قتل نفس معصومة، فصار شريكاً في قتل كل نفس، ومنه قوله تعالى ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا

---

(١) سبق تخريجه انظر:ص ٧٢.

وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[المائدة:٣٢].

ويشبه هذا؛ أنه من كذّب رسولاً معيناً؛ كان كتكذيب جنس الرسل، كما قيل فيه﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء:١٠٥]،﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء:١٢٣]، ونحو ذلك"[١].

ولذا جاء ذكر مضاعفة الأوزار مقترناً بتضعيف العذاب، قال تعالى﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾[هود:٢٠].

أي يضاعف لهم العذاب بسبب كونهم يستطيعون السمع والإبصار في دار الدنيا، وتركوا الحق مع أنهم يستطيعون إدراكه بأسماعهم وأبصارهم.

قال الرازي:"قيل سبب تضعيف العذاب في حقهم؛ أنهم كفروا بالله وبالبعث وبالنشور، فكفرهم بالمبدأ والمعاد؛ صار سبباً لتضعيف العذاب، والأصوب أن يقال: إنهم مع ضلالهم الشديد، سعوا في الإضلال، ومنع الناس عن الدين الحق، فلهذا المعنى حصل هذا التضعيف عليهم".[٢]

وقال أبو حيان:"يضاعف لهم العذاب؛ يشدد ويكثّر، وهذا استئناف إخبار عن حالهم في الآخرة، لأنهم جمعوا إلى الكفر بالبعث؛ الكذب على الله، وصدّ عباده عن سبيل الله، وبغي العوج لها.

وقوله﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ أخبار عن حالهم في الدنيا على سبيل المبالغة، يعني: السمع للقرآن، ولِما جاء به الرسول ﷺ ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ أي: ينظرون إليه لبغضهم فيه، ألا ترى إلى حشو الطفيل بن عمرو أذنيه من الكرسف، وإباية قريش أن يسمعوا ما نقل إليهم من كلام الرسول حتى تردّهم عن ذلك مشيختهم؟

أو إخبار عن حالهم إذا ضُعِّف لهم العذاب، أي: أنه تعالى حتم عليهم بذلك، فهم لا يسمعون لذلك سماعاً ينتفعون به، ولا يبصرون لذلك، وقيل: الضمير في (كانوا) عائد على أولياؤهم آلهتهم أي: فما كان لهم في الحقيقة من أولياء، وإن كانوا يعتقدون أنهم أولياء.

---

(١) مجموع الفتاوى ٤٣٦/٢

(٢) التفسير الكبير ١٦٥/١٧

ويعني أنه من لا يستطيع أن يسمع ولا يبصر فكيف يصلح للولاية ؟ ويكـون ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ﴾ اعتراضاً، وما على هذه الأقوال نفي".(١)

كما أن الفرق الضالة يوم القيامة، كل واحدة منها تلقي باللوم على صاحبتها، لأجـل أن تنجو من عذاب الله، فيخبرهم – تعالى – أن عقابهم جميعاً مضاعف،قال تعالى﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٨].

فهذا خبر من الله تعالى عن محاورة الأحزاب من أهل الملل الكافرة في النار يوم القيامة، فإنهم إذا اجتمعوا فيها، فاداركوا، قالت أخرى أهل كل ملة دخلت النار، لأولاها الذين كـانوا قبلهم في الدنيا: ربنا هؤلاء أضلونا عن سبيلك، ودعونا إلى عبادة غيرك،وزينوا لنـا طاعـة الشيطان، فآتهم اليوم من عذابك الضعف على عذابنا.

وأما قوله ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ فإنه خبر عن جوابه لهم، أي:لكلّكم- أوّلكم وآخركم وتابعوكم ومتبعوكم – ﴿ضِعْفٌ﴾ أي: مكرر عليه العذاب، وضعف الشيء مثله مرة.(٢)

فأخبر سبحانه أن الأتباع دعوا على أئمة الضلال بتضعيف العذاب، كما أخبر عنهم بذلك في قولـه تعـالى﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[الأحزاب:٦٧، ٦٨].

وأخبر سبحانه أن لكل من المتبعين والأتباع؛ تضعيفاً من العذاب. ولكن لا يعلـم الأتبـاع التضعيف، ولهذا وقع عظيم الذم واللعنة لأئمة الضلال.

ومن هذا الباب قوله تعـالى﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[العنكبوت:١٢،١٣].

فأخبر أن أئمة الضلال لا يحملون من خطايا الأتباع شيئاً، وأخبر أنهم يحملون أثقالهم، وهي أوزار الأتباع من غير أن ينقص من أوزار الأتباع شيء؛ لأن إرادتهم كانت جازمة بذلك، وفعلوا مقدورهم، فصار لهم جزاء كل عامل؛ لأن الجزاء على العمل؛ يُستحق مع الإرادة

(١) البحر المحيط ٢١٢/٥

(٢) انظر: جامع البيان ٤٨٢/٥

الجازمة، وفعل المقدور منه.

وهو كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس عن أبي سفيانﷺ: أن النبي ﷺ كتب إلى هرقل كتاباً، وفيه:"فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين"[(١)] [(٢)]

فأخبر أن هرقل لما كان إمامهم المتبوع في دينهم؛ أن عليه إثم الأريسيين وهم الأتباع، وهذه الكلمة تقلب إلى ما هو أعم من ذلك،ومعلوم أنه إذا تولى عن أتباع الرسول ﷺ كان عليه مثل آثامهم، من غير أن ينقص من آثامهم شيء.[(٣)]

فليس الأمر مقتصراً على أوزارهم فقط، بل إنهم سيآخذون بأوزار الذين كانوا يضلونهم في الحياة الدنيا،كما قال تعالى﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[النحل:٢٥].

قال الطبري:"يقول هؤلاء المشركون – لمن سألهم ماذا أنزل ربكم؟ – الذي أنزل ربنا فيما يزعم محمد عليه: أساطير الأولين، لتكون لهم ذنوبهم التي هم عليها مقيمون من تكذيبهم الله وكفرهم بما أنزل على رسوله ﷺ، ومن ذنوب الذين يصدونهم عن الإيمان بالله يضلون يفتنون منهم بغير علم، وقوله﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ يقول: ألا ساء الإثم الذي يأثمون والثقل الذي يتحملون".[(٤)]

قال مجاهد: يحملون أثقالهم ذنوبهم، وذنوب من أطاعهم،ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً.[(٥)]

واللام في قوله﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ ﴾ تتعلق بمحذوف دل المقام عليه؛ أي: قدرنا عليهم أن يقولوا في القرآن: أساطير الأولين؛ ليحملوا أوزارهم.

فالأوزار الحاصلة لضلال الأتباع وهي حاصلة من جهة الآمر، ومن جهة المأمور الممتثل، فالقدرتان مشتركتان في حصول ذلك الضلال؛ فلهذا كان على هذا بعضه، وعلى هذا بعضه، إلا أن كل بعض من هذين البعضين، هو مثل وزر عامل

---

(١) أخرجه البخاي الجهاد باب : هل يرشد المسلم اهل الكتاب ح ٢٧٧٨

(٢) أي الأتباع من أهل مملكته، وهي في الأصل جمع أريسي وهو الحرّاث والفلاح. انظر:فتح الباري ١٩/١

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ٤٣٦/٢

(٤) جامع البيان ٥٧٥/٧

(٥) تفسير القرآن العظيم ٧٤٧/٢

كامل، كما دلت عليه سائر النصوص مثل قوله:"من دعا إلى الضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة"[١].

وفائدة وصف المتبعين لغيرهم بقوله﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يذكرها لنا الإمام البيضاوي فيقول:

"أي يضلون من لا يعلم أنهم ضُلاّل، وفائدتها الدلالة على أن جهلهم لا يعذرهم، إذ كان عليهم أن يبحثوا، ويميزوا بين المحق والمبطل ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بئس شيئاً يزرونه فعلهم".[٢]

وأوضح تعالى هذا المعنى في قوله ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٣].

"فإن قيل: ما وجه تحملهم بعض أوزار غيرهم المنصوص عليه فيما سبق؟ مع أن الله يقول ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر:١٨]،ويقول﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[الأنعام:١٦٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

فالجواب – والله تعالى أعلم-: أن رؤساء الضلال وقادته تحملوا وزرين: أحدهما: وزر ضلالهم في أنفسهم.

والثاني: وزر إضلالهم غيرهم؛ لأنه من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً، وإنما أخذ بعمل غيره؛ لأنه هو الذي سنه وتسبب فيه، فعوقب عليه من هذه الجهة لأنه من فعله، فصار غير مناف لقوله﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾".[٣]

وقد قال ﷺ "ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة، فعُمِل بها بعده؛ كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء".[٤]

ومن سياق الآيات السابقة؛ يظهر أثر الفساد في مضاعفة الأوزار، ومن ثمّ مضاعفة العذاب. ولا يقتصر ذلك على الإضلال فحسب؛ بل إن جملة من الكبائر مرتبطة بهذا الأثر الفادح،

---

(١) أخرجه مسلم. كتاب العلم. باب من سن سنة حسنة.ح(٢٦٧٤)

(٢) تفسير البيضاوي ص٣٩٣

(٣) انظر: أضواء البيان ٣٦٤/٢

(٤) أخرجه مسلم. كتاب العلم. باب من سن سنة حسنة.ح (٢٦٧٤)

قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان:٦٨،٦٩].

قال الزمخشري:"فإن قلت: ما معنى مضاعفة العذاب؟ قلت: إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك؛ عُذِّب على الشرك،وعلى المعاصي جميعاً، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه.(١)

وقال تعالى﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾[الأنعام:١٢٤].

قال ابن كثير:"هذا وعيد شديد من الله، وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة – بين يدي الله – صغار وهو الذلة الدائمة، لّما أنهم استكبروا؛ فأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة، لما استكبروا في الدنيا، كقوله تعالى﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠] أي صاغرين ذليلين حقيرين.

وقوله تعالى﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ لما كان المكر غالباً؛ إنما يكون خفياً، وهو التلطف في التحيل والخديعة؛ قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة، جزاء وفاقاً ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف:٤٩]،كما قال تعالى﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[الطارق:٩] أي تظهر المستترات والمكنونات والضمائر.

وجاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال:"ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان بن فلان"(٢)

والحكمة في هذا؛ أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس، ففي يوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل.(٣)

وفي تصوير بليغ لعبئ الأوزار عليهم، يقول تعالى﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه:١٠٠،١٠١]

فذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أن من أعرض عن هذا الذكر الذي هو القرآن العظيم، أي صدّ وأدبر عنه، و لم يعمل بما فيه من الحلال والحرام، والآداب والمكارم، و لم

---

(١) الكشاف ٨٧١/١

(٢) أخرجه البخاري. أبواب الجزية والموادعة. باب إثم الغادر للبر والفاجر. ح(٣٠١٥)

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢٣٢/٢

يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من القصص والأمثال، ونحو ذلك فإنه يحمل يوم القيامة وزراً.

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة:"يريد بالوزر العقوبة الثقيلة الباهظة. سمّاها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها، بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره، ويلقي عليه بهره. أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم".(١)

قال الشنقيطي:"وقد دلّت آيات كثيرة من كتاب الله تعالى؛ على أن المجرمين يأتون يوم القيامة يحملون أوزارهم، أي: أثقال ذنوبهم على ظهورهم، كقوله ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[الأنعام:٣١]، وقوله﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[النحل:٢٥]، وقوله في ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[العنكبوت:١٣].

وبهذه الآيات التي ذكرنا وأمثالها في القرآن، تعلم أن معنى قوله تعالى ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾، وقوله﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ أن المراد بذلك الوزر المحمول؛ أثقال ذنوبهم وكفرهم يأتون يوم القيامة يحملونها؛ سواء قلنا إن أعمالهم السيئة تتجسم في أقبح صورة وأنتنها، أو غير ذلك،والعلم عند الله تعالى".(٢)

---

(١) الكشاف٣/٨٧

(٢) أضواء البيان ٤/٩٥

المبحث الثالث

تَغليظُ العَذابِ

لقد وصف الله سبحانه وتعالى عذاب المفسدين في الآخرة بأنه عذاب غليظ، لأنهم حين كانوا في الدنيا؛ طُلب منهم اتباع منهج الله تعالى فرفضوا، وحاربوا الحق وأهله، لهذا جعل الله تعالى في عذابهم قسوة عليهم يوم القيامة، جزاءًا بما كسبت أيديهم، قال تعالى﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾[النبأ: ٣٠].

أي يقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه، وآخر من شكله أزواج، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال:"لم يترل على أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً".(١)

ومن أدل البراهين على تغليظ العذاب، قوله تعالى﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل:٨٨].

قال ابن عاشور في قوله ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾"لما ذكر العذاب الذين هم لاقوه على كفرهم؛ استأنف هنا بذكر زيادة العذاب لهم على الزّيادة في كفرهم؛ بأنهم يصدّون الناس عن اتّباع الإسلام، وهو المراد بالصدّ عن سبيل الله، وزيادة العذاب: مضاعفته".(٢)

وهذا من تغليظ العذاب لهم، أما سِرُّ تنكير العذاب الأول في قوله ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ "فلأنه نوع خاص لقوم بأعيانهم، وعرَّف العذاب الثاني؛ لأنه العذاب الذي يعذَّب به أكثر أهل النار، فكان في شهرته بمترلة النار، في قول القائل: نعوذ بالله من النار، وقد قيل: إنما زِيدوا هذا العذاب على ما يستحقونه من عذابهم؛ بصدِّهم عن سبيل الله".(٣)

فالعذاب متفاوت؛ بحسب تفاوت الأعمال، فليس عذاب من كفر، كعذاب من عصى، قال تعالى ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[فصلت:٥٠].

وقال تعالى عن شدَّة عذاب آل فرعون في الآخرة﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[غافر:٤٦].

كما أخبر أن المنافقين أنهم في أسفل دركات الجحيم﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[النساء:١٤٥]

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٩٤/٤

(٢) التحرير والتنوير ٣٢١/١٤

(٣) زاد المسير ٤٨١/٤

لذا سلى الله تعالى نبيه ﷺ متوعدًا أهل الكفر بشدة العذاب، فقال تعالى﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٣،٢٤].

وقد اشتمل الكتاب العزيز على بيان مفصّل للعذاب، ويظهر فيه تغليظ العذاب على أهل الفساد، نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

فمن صور تغليظ العذاب: السحب في النار على الوجوه.

قال تعالى في شأن المجرمين الذين بلغوا في الإفساد مرتبة متقدمة﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر:٤٧،٤٨].

"والسحْبُ: الجرّ، وهو في النار أشد من ملازمة المكان؛ لأنه به يتجدد مماسة نار أخرى، فهو أشد تعذيباً، وجُعل السحْب على الوجوه إهانة لهم".(١)

ومما يزيد في ألمهم، وهم يجرون على وجوههم؛ يحدث ذلك وهم مقيدون بالسلاسل والأغلال، قال تعالى﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر:٧١- ٧٢]، فيعذبون بأشد أنواع العذاب، إذ ينتقلون من عذاب غليظ إلى آخر أغلظ، فتقلّب وجوههم في النار، كما يقلب الشواء ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ [الأحزاب:٦٦].

فيحاولون ردّ النار عن وجوههم؛ فلا يستطيعون، مصداق قوله تعالى﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[الأنبياء:٣٩،٤٠].

ولا حيلة لهم إلى الخروج من النار، لكون ملائكة العذاب تحول بينهم وبين ما أرادوا، معهم مقامع من حديد﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج:٢١، ٢٢].

ومن صور تغليظ العذاب:إنضاج الجلود.

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[النساء:٥٦].

فلشدَّة العذاب؛ تأكل النار لحومهم، لهذا قال الحسن:"كلما أنضجتهم فأكلت لحومهم، قيل

(١) التحرير والتنوير ٤٦/٢٧

لهم: عودوا فعادوا".(١) وذلك ليذوقوا مرارة الألم، وقسوة العذاب، مرة بعد أخرى.

يقول الرازي في قوله تعالى ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ "يعني كلما ظنوا أنهم نضجوا واحترقوا وانتهوا إلى الهلاك؛ أعطيناهم قوة جديدة من الحياة، بحيث ظنوا أنهم الآن حدثوا ووجدوا، فيكون المقصود بيان دوام العذاب، وعدم انقطاعه".(٢)

فإذا كان هذا العذب بنار انتظرت أصحابها طوال هذه الفترة، أليس هذا يدل على شدتها وحدَّتِها!

ومن صور تغليظ العذاب بأهل الفساد؛ حين يقدم له الطعام والشراب، فمن صنوف طعامهم الزقوم، وهي شجرة خبيثة في أصلها وطلعها، قال تعالى ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٢– ٦٨]

فتمتلىء البطون من هذا الطعام الخبيث ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الواقعة:٥١– ٥٣]، فتغلي منه البطون ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٣– ٤٦].

فتأمل خبث هذا الطعام الذي لو قطر منه قطرة في الأرض؛ لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، كما روى ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]،فقال: لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا؛ لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمكن يكون طعامه" (٣).

ثم يقدم لهم طعاماً ذا شوك، لا يُسمن ولا يُغني من جوع ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية:٦،٧]. ثم يأتي إليهم صديد أهل النار ليأكلوه.

وحين يُساق المجرمون إلى النار في ذل وصَغار، وقد بلغ منهم العطش مبلغه، فيزدادون هماً وغماً، ويقدم لهم شراب بعد الطعام الذي وقف في حلوقهم ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل:١٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٣٧/٢.

(٢) التفسير الكبير ١٠٩/١٠

(٣) أخرجه الحاكم وصححه، في المستدرك. كتاب التفسير. سورة ال عمران. ح(٣١٥٨).

وإذا قرّبوه ليشربوا؛ أحرق وجوههم وشواها﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[الكهف:٢٩] وإذا شربوه قطَّع أمعائهم ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾[محمد:١٥].

والأشق عليهم ليس شربهم للحميم فقط؛ بل صبُّه فوق رؤوسهم﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾[الحج:١٩،٢٠].

والحميم: الماء الشديد الحرارة، والإصهار: الإذابة بالنار، أو بحرارة الشمس، وما في بطونهم: أمعاؤهم، أي هو شديد في النفاذ إلى باطنهم.(١)

"وذكر في موضع آخر أنهم يسقون مع الحميم الغساق، كقوله﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾[ص:٥٧،٥٨]،وقوله﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ [النبأ:٢٤،٢٥]، والغساق: صديد أهل النار، أعاذنا الله والمسلمين منها"(٢).

ومن شدة ما هم فيه من عذاب ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[مريم:٨٦]، فقوله﴿ وَنَسُوقُ ﴾ يدل على أنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف، كأنهم نَعَم عِطاش، تُساق إلى الماء، والورد: اسم للعطاش، لأن من يرد الماء، لا يرده إلا للعطش.

وهذا أبشع ما يكون من الحالات، سوقهم على وجه الذل والصغار، إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، في حال ظمئهم ونصبهم يستغيثون فلا يغاثون،ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾[مريم:٨٧] أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى، وقد أخبر أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لأنهم لم يتخذوا عنده عهداً بالإيمان به وبرسله، وإلا فمن اتخذ عنده عهداً فآمن به وبرسله واتبعهم، فإنه ممن ارتضاه الله، وتحصل له الشفاعة، كما قال تعالى﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾[الأنبياء:٢٨].

ومن صور تغليظ عذابهم – عياذاً بالله — أنهم ينادون على خازن جهنم، يتوسلون به إلى الله سبحانه، ليسأله لهم أن يقضي عليهم بالموت، ليستريحوا من العذاب ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف:٧٧].

---

(١) لسان العرب ١٢ /١٤٠ ماة (حمم)

(٢) أضواء البيان ١٥١/٢

فلا يردُّ عليهم في الحال؛ إهانة لهم، ثم يبين لهم بعد حين، أنهم في العذاب خالدون، فلا ينفعهم توسلهم.

قال الطبري:"ونادى هؤلاء المجرمون – بعد ما أدخلهم الله جهنم، فنالهم فيها من البلاء ما نالهم – مالكاً خازن جهنم ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ أي: ليُمتنا ربك، فيفرغ من إماتتنا، فذُكِر أن مالكاً لا يجيبهم في وقت قيلهم له ذلك، ويدعهم ألف عام بعد ذلك، ثم يجيبهم، فيقول لهم ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾".[1]

وقد دل على خلودهم فيها آيات كثيرة، كما قال تعالى﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾[فاطر:٣٦]، وقال عز وجل﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [الأعلى:١١- ١٣].

فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[الزخرف:٧٧] قال ابن عباس رضي الله عنهما: مكث عنهم ألف سنة، ثم قال:إنكم ماكثون"[2]

أي لا خروج لكم منها، ولا محيد لكم عنها، ثم ذكر سبب شقوتهم، وهو مخالفتهم للحق، ومعاندتهم له فقال﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ﴾[الزخرف:٧٨] أي بيناه لكم ووضحناه وفسرناه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[الزخرف:٧٨] أي ولكن كانت سجاياكم لا تقبله، ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة.

ثم يبين الله تعالى أن درجة عذابهم واحدة لا تقل أبداً، فليس الحال كما هي نار الدنيا، أنها تبدأ هادئة ثم تشتد ثم تخمد، وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾[الإسراء:٩٧].

كما قال ابن كثير:"أي منقلبهم ومصيرهم﴿جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ﴾قال ابن عباس رضي الله عنهما: سكنت، وقال مجاهد: طفئت ﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ أي لهباً ووهجاً وجمراً، كما قال﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:٣٠][3].

---

(١) جامع البيان ٢١٢/١١

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٣٢٨٦/١٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم٩٠/٣

فالمراد أن النار لا تضعف لضعف مصدرها، ولكن قد تضعف من أجل أن يتمكن المفسدون من الكلام، لأنها اذا اشتدت؛ كثر صياحم وأصواتهم.

قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾[فاطر: ٣٦].

وورد في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال "أما أهل النار الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها ولا يحيون".(١)

قال أبو السعود:"لا يحكم عليهم بموت ثانٍ فيموتوا ويستريحوا، ونصَبه بإضمار (إن)، وقرىء (فيموتون) عطفاً على (يُقضى)، كقوله تعالى ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾[المرسلات:٣٦]، ولا يخفف عنهم من عذابها بل كلما خبت زِيد إسعارها،﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي كل كفور مبالغ في الكفر أو الكفران، لا جزاء أخف وأدنى منه".(٢)

وقال ابن عاشور:"ووقع الإخبار عن نار جهنم بأنها﴿لَهُمۡ﴾ بلام الاستحقاق، للدلالة على أنها أعدت لجزاء أعمالهم، كقوله تعالى﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] وقوله﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾[آل عمران:١٣١]، فنار عقاب عصاة المؤمنين نار مخالفة، أو أنها أعدت للكافرين، وإنما دخل فيها من أدخل من المؤمنين الذين ظلموا أنفسهم، لاقترافهم الأعمال السيئة، التي شأنها أن تكون للكافرين.

وقدم المجرور في ﴿لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ على المستند إليه؛ حتى إذا سمعه السامعون، تمكن من نفوسهم تمام التمكن".(٣)

وجلودهم اذا بليت وأكلتها النار، ليس معنى هذا أنهم قد انتهى عذابهم، ولكن تخرج لهم جلوداً أخرى يعذبون بها أيضاً.

قال تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ٥٦].

قال الرازي في هذه الآية:وفيه سؤالان:

---

(١) أخرجه مسلم. كتاب الايمان. باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار. ح (١٨٥)

(٢) إرشاد العقل السليم ١٥٤/٧

(٣) التحرير والتنوير ٧٥٦/٢٢

السؤال الأول: لما كان تعالى قادراً على إبقائهم أحياء في النار أبد الآباد، فلِم لم يبقِ أبدانهم في النار مصونة عن النضج والاحتراق، مع أنه يوصل إليها الآلام الشديدة، حتى لا يحتاج إلى تبديل جلودهم بجلود أخرى ؟

والجواب: أنه تعالى لا يسأل عما يفعل، بل نقول إنه تعالى قادر على أن يوصل إلى أبدانهم آلاماً عظيمة، من غير إدخال النار، مع أنه تعالى أدخلهم النار.

السؤال الثاني: الجلود العاصية إذا احترقت، فلو خلق الله مكانها جلوداً أخرى وعذبها؛ كان هذا تعذيباً لمن لم يعص، وهو غير جائز؟

والجواب عنه من وجوه:

الأول: أن يجعل النضج غير النضيج، فالذات واحدة، والمتبدل هو الصفة، فإذا كانت الذات واحدة؛ كان العذاب لم يصل إلا إلى العاصي، وعلى هذا التقدير؛ المراد بالغيرية: التغاير في الصفة.

الثاني: المعذب هو الانسان، وذلك الجلد ما كان جزأ من ماهية الانسان بل كان كالشيء الملتصق به، الزائد على ذاته، فاذا جدد الله الجلد، وصار ذلك الجلد الجديد سبباً لوصول العذاب إليه؛ لم يكن ذلك تعذيباً الا للعاصي.

الثالث: أن المراد بالجلود، السرابيل قال تعالى ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾[إبراهيم:٥٠] فتجديد الجلود؛ إنما هو تجديد السرابيلات وطُعن في هذا القول؛ إنه ترك للظاهر، وأيضا السرابيل من القطران، لا توصف بالنضج، وإنما توصف بالاحتراق.

الرابع: يمكن أن يقال؛ هذا استعارة عن الدوام وعدم الانقطاع، كما يقال لمن يراد وصفه بالدوام؛ كلما انتهى فقد ابتدأ، وكلما وصل الى آخِره؛ فقد ابتدأ من أوله، فكذا قوله ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ يعني كلما ظنوا أنهم نضجوا واحترقوا وانتهوا إلى الهلاك، أعطيناهم قوة جديدة من الحياة بحيث ظنوا أنهم الآن حدثوا ووجدوا، فيكون المقصود بيان دوام العذاب، وعدم انقطاعه".(١)

وهذا العذب الذي نالهم في الآخرة؛ هو في انتظارهم منذ الحياة الدنيا، فما بنارٍ انتظرت أصحابها طوال هذه المدة، هذا يدل على شدتها وحدتها.

---

(١) التفسير الكبير١٠/١٠٧

قال تعالى ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾[إبراهيم:١٥-١٧].

قال ابن كثير:"وقوله ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أي: وله من بعد هذه الحال، عذاب آخر غليظ، أي مؤلم صعب شديد، أغلظ من الذي قبله، وأدهى وأمر.

وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾[الصافات: ٦٤-٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى جحيم، عياذا بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾[الرحمن:٤٣-٤٤].

وقال ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة:٤١-٤٤]،وقال تعالى﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾[ص:٥٥-٥٨]،إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله عز وجل، جزاء وفاقاً ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[فصلت:٤٦](١).

"وهذا وصف حاله وهو في الدنيا، لأنه مرصد لجهنم، فكأنها بين يديه؛ وهو على شفيرها، أو وصف حاله في الآخرة، حين يبعث ويوقف".(٢)

فما أغلظ عذاب المفسدين، وإنه لحقيق بمن تأمل صور هذا العذاب؛ أن يرتدع عن الفساد، ويبادر بالتوبة والإنابة، قبل الندامة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦٩٢/٢

(٢) الكشاف ٦٢٦/١

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ونسأله تعالى التوفيق والسداد، فإنه لولا توفيقه لما تيسر للعبد أمر، ولا وصل إلى غاية، فهو نعم المولى ونعم النصير.

وبعد هذا الجهد المتواضع في هذا البحث، أدركت بلسان الحال والمقال؛ أنه مهما تأنق المرء في تحرير المقالات، وتحبير العبارات - وهو يوضح معاني كلام الله تعالى- فما هو؛ إلا كالشرح لشذرة من معانيه الظاهرة، وكالكشف للمعة يسيرة من أنواره الباهرة، إذ لا قدرة لأحدٍ على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الكتاب، وما تضمنه من لُبِّ اللباب.

وبعد أن منَّ الله عليّ بفضله وتوفيقه؛ إتمام هذا البحث، أختمه بذكر النتائج التي توصلت إليها، فقد جرت عادة الباحثين؛ أن يسجِّلوا ما توصلوا إليه من نتائج، في خاتمة بحوثهم.

وإني أجد من الصعوبة بمكان؛ حصر كل النتائج التي توصلت إليها، وذلك لما حتمته طبيعة البحث من شمولية في العرض، وما دخل تحت ذلك من جزئيات.

وقد اجتهدت في تحرير أبرز النتائج، وهي كما يأتي:

١/ شمولية القرآن الكريم في بيان الفساد، وكشف كل مفسدة بحسبها، وعلاجها بما يناسبها.

٢/ إعجاز القرآن الكريم، وعالمية رسالته للناس كافة، إذ إن منهجه في دفع الفساد؛ صالح لكل زمان ومكان.

٣/ أساليب النهي عن الفساد، في الكتاب العزيز؛ هي المنهج الأمثل في دفع الفساد، فقد بلغت الغاية، في البلاغة والبيان، والحجة والبرهان، ومن ذلك؛ عنايته بتنوع الأساليب في علاج الفساد؛ ولذلك أثره الإيجابي في منهج الإصلاح.

٣/ إن دفع الفساد في الكتاب العزيز؛ يرتكز على عنايته بحفظ الضروريات الخمس: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال، فكل ما ألحق ضرراً بهذه الضروريات؛ فقد اعتُبر مفسدة، ورتَّب عليها الأحكام المناسبة لها.

٥/ إبراز الكتاب العزيز لمنهج الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام — في دفع الفساد،فهم القدوة في ذلك، فينبغي للمصلحين أن يلزموا نهجهم، ويقفوا آثارهم؛ لإصلاح الناس.

٦/ غياب المنهج الشرعي في دفع الفساد؛ سبب عظيم لوقوع الفساد وانتشاره، فوجبت العناية بطلب العلم الشرعي، من مصادره الأصلية الصحيحة.

٧/ إن أعظم الفساد؛ ما أخلّ بالمعتقد، ورأس ذلك الإشراك بالله، وتكذيب رسله.

٨/ اليهود أعظم الأمم فساداً، ولذا فصّل القرآن في بيان فسادهم، تحذيراً لهذه الأمة

عن مشاهتهم.

٩/ أهل النفاق؛ هم أخطر أصناف المفسدين، ولذا كشف القرآن فسادهم، للحذر منهم، وردّ كيدهم.

١٠/ إن الكفر بالله تعالى، سبب رئيس للفساد في الأرض.

١١/ الكبر والحسد والغلو؛ لها آثارها البالغة في وقوع المرء في الفساد،فيلزم الحذر منها، ومجاهدة النفس في دفعها.

١٢/ إن الفتن التي تعرِض للناس؛ سبب عظيم للانحراف عن الدين، والتمادي في الفساد.

١٣/ إن الأزمات المالية والمشاكل الاقتصادية، نتيجة حتمية لإقصاء المنهج الإسلامي في المعاملات، وتغييبه عن الواقع.

١٤/ إن معظم العادات الفاسدة التي يتلقفها الناس، الباعث عليها؛ التقليد المذموم واتباع الهوى.

١٥/ من أخطر المفاسد العملية؛ إشاعة الفواحش، وتلك سُنّة للمفسدين عبر القرون.

١٦/ إن القرآن الكريم أبرز عاقبة الفساد ومآل المفسدين، مما يؤكد أهمية هذا السبيل في دفع الفساد.

١٧/ العناية بتحقيق الإخلاص لله تعالى، فإن لذلك أثره في صلاح العبد في الظاهر والباطن.

١٨/ كما أن المداومة على العبادات، ومن أجلها الصلاة والدعاء، من أعظم سبل الاستقامة ومجانبة الفساد.

١٩/ العناية بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، فإن ذلك من أبرز السبل لدفع الفساد وعلاجه.

٢٠/ إن الصراع بين الحق والباطل ماضٍ إلى قيام الساعة،وعليه؛ فإن مجاهدة الكافرين والمنافقين ومدافعتهم؛ أمرٌ لازم، لئلا يغشى الفسادُ الناسَ كافة.

٢١/ العناية بإصلاح المجتمع، ودرء الفساد عنه قبل وقوعه، منهج شرعي، عُني القرآن الكريم بتحقيقه، والدعوة إليه.

٢٢/ أعظم آثار الفساد على صاحبه؛ الضلال، وحبوط العمل.

٢٣/ إن اختلال الأمن، من أبلغ آثار الفساد في الأرض.

٢٤/ من سنن الله في المفسدين استدراجهم ثم أخذهم على غِرّة وهم لا يشعرون، وفي هذا تسلية للمصلحين وتثبيت لقلوبهم.

٢٥/ العقوبة والهلاك، وتغليظ العذاب؛ مصير محتوم للمفسدين.

٢٦/ المفسدون يبوءون بالحسرة والخسار، ومضاعفة الأوزار، في دار القرار.

هذا ما تيسر إراده، وتهيأ إعداده، في هذا البحث، فما كان فيه من صواب فمن الله تعالى، وما كان فيه من خطأ، فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنه كان غفوراً رحيماً.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلوات الله وسلامه، على خاتم النبيين، وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفَهَارِس

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الآحاديث

فهرس الآثـار

فهرس الأعلام

فهرس الأشعار

فهرس الأماكن والفِرَق

ثبت المصادر

فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآية	رقمها	الصفحة
الفاتحة	﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	٥	٣٨٩
الفاتحة	﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	٦	١٥١
البقرة	﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾	١٠	٤٨
البقرة	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا﴾	٢١:١١	٢١
البقرة	﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾	١٤	٢٣٢
البقرة	﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾	١٥	٤٧٠
البقرة	﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾	١٦	٤٥٩
البقرة	﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا﴾	١٧	١٥٩
البقرة	﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾	١٨	٤٥٩
البقرة	﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾	١٩	١٥٩
البقرة	﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾	٢٢	٤٦
البقرة	﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾	٢٤	٥٢٣
البقرة	﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾	٢٦	١٤٣
البقرة	﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾	٢٧	٢٣
البقرة	﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾	٢٨	٣١٣
البقرة	﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	٣٤	٣٠٩
البقرة	﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾	٤٢	٢٢٧
البقرة	﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾	٤٣	٣٧٧
البقرة	﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾	٤٥	٣٧٧
البقرة	﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ﴾	٥٥	٢٠٨
البقرة	﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ﴾	٥٧	٢٣٣
البقرة	﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا﴾	٥٩: ٥٨	٣٤٤
البقرة	﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾	٦٠	١٩
البقرة	﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾	٦١	٤٥٥
البقرة	﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾	٦٧	٢٢٢
البقرة	﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ﴾	٧٥	٢٢١
البقرة	﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ﴾	٨٧	٢١٤
البقرة	﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾	٨٩	٣٢٠
البقرة	﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾	٩٣	٤٠٥
البقرة	﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ﴾	٩٨ : ٧	٢١٣
البقرة	﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ﴾	١٠١	٢٤٥
البقرة	﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾	١٠٢	٢٤٢
البقرة	﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾	١٠٢	٣٣
البقرة	﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ﴾	١٠٣	٥٥
البقرة	﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا﴾	١٠٨	٢٢٣
البقرة	﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾	١٠٩	٣١٥

البقرة	﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾	١١٧	٦١
البقرة	﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾	١١٨	١٩٠
البقرة	﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾	١٢٠	٣٥٤
البقرة	﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ ﴾	١٢٦	٤٥٧
البقرة	﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾	١٣١	٥٢٣
البقرة	﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾	١٣٦	١٨٩
البقرة	﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾	١٤٣	٣٢٩
البقرة	﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾	١٤٥	٣٥٤
البقرة	﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا ﴾	١٤٦	٢١٩
البقرة	﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾	١٦٥	٣٨
البقرة	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا ﴾	١٦٨	٢٨٦
البقرة	﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن ﴾	١٦٩	١٢٩
البقرة	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ ﴾	١٧٠	١٩٥
البقرة	﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ ﴾	١٧١	١٥٥
البقرة	﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾	١٧٦	٤٠١
البقرة	﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ ﴾	١٧٧	١٢٦
البقرة	﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾	١٧٩	٧٥
البقرة	﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾	١٨٦	٣٨٤
البقرة	﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ ﴾	١٨٨	١٠٤
البقرة	﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾	١٩٠	٤٨٣
البقرة	﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾	١٩٣	٣٤٧
البقرة	﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾	١٩٧	٧٦
البقرة	﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾	٢٠٥	٢٧
البقرة	﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾	٢٠٥	٤٨٢
البقرة	﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾	٢١٢	٣٣٥
البقرة	﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾	٢١٣	٤٠
البقرة	﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ ﴾	٢١٧	١٣٨
البقرة	﴿ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾	٢١٩	١١٦
البقرة	﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾	٢١٩	١٠٩
البقرة	﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾	٢٢٠	١٣٩
البقرة	﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ ﴾	٢٢٢	١٤١
البقرة	﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾	٢٢٦	٤٧٩
البقرة	﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾	٢٢٩	١٣١
البقرة	﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ﴾	٢٣١	٣٤٢
البقرة	﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾	٢٣٥	١٤٢
البقرة	﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ ﴾	٢٤٥	٢٠٩
البقرة	﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾	٢٥٠	٣٨٦
البقرة	﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ ﴾	٢٥١	٢٦١
البقرة	﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾	٢٥١	٢٤
البقرة	﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم ﴾	٢٥٣	٤٠٣
البقرة	﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾	٢٥٧	١٦٠
البقرة	﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾	٢٥٨	٨١
البقرة	﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾	٢٦٨	١٧٩

البقرة	الذين يأكلون الربوا لا يقومون إلا كما	٢٧٥ : ٢٨٠	١٢٧
البقرة	يمحق الله الربوا ويربي الصدقت	٢٧٦	١٠١
آل عمران	هو الذي أنزل عليك الكتب منه ءايت	٧	٦٣
آل عمران	زين للناس حب الشهوت	١٤	٣٥١
آل عمران	شهد الله أنه لا إله إلا هو والملئكة	١٨	٣٤٢
آل عمران	إن الذين يكفرون بئايت الله	٢١	٤٥٧
آل عمران	وحصورا	٣٩	٤٤٤
آل عمران	لا يتخذ المؤمنون الكفرين أولياء من	٢٨	١٣٤
آل عمران	يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا	٣٠	٣٩٢
آل عمران	قل أطيعوا الله والرسول	٣٢	٤٥
آل عمران	فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا	٥٦	٤٩٣
آل عمران	والله لا يحب الظلمين	٥٧	٤٨٣
آل عمران	فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين	٦٣	١٣٩
آل عمران	قل يأهل الكتب تعالوا إلى كلمة سواء	٦٤	٣٧٣
آل عمران	ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم	٧٣	٢٢٩
آل عمران	يأهل الكتب لم تلبسون الحق	٧١	٢١٦
آل عمران	وقالت طائفة من أهل الكتب	٧٢	٢١٧
آل عمران	ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم	٧٣	٢١٨
آل عمران	ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتب والحكم	٧٩	١٩٣
آل عمران	وقالت طائفة من أهل الكتب ءامنوا	٨٢	٢٢٨
آل عمران	ومن يبتغ غير الإسلم دينا فلن يقبل منه	٨٥	٤٩٩
آل عمران	كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمنهم	٨٦	٤٨٦
آل عمران	إن الذين كفروا بعد إيمنهم ثم	٩٠	١٥٠
آل عمران	يأيها الذين ءامنوا إن تطيعوا فريقا	١٠٠	١٣٩
آل عمران	واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا	١٠٣	٤٠١
آل عمران	ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير	١٠٤	٤٢١
آل عمران	ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من	١٠٥:١٠٦	٦٣
آل عمران	ولو ءامن أهل الكتب لكان	١١٠	١٥٤
آل عمران	ليسوا سواء من أهل الكتب أمة	١١٣	٢٠٨
آل عمران	يأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا بطانة	١١٨	٢٤٠
آل عمران	ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون	١٣٥	٥٢
آل عمران	قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض	١٣٧ : ١٣٨	٣٦٥
آل عمران	ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون	١٣٩ : ١٤٠	٤٣٣
آل عمران	أم حسبتم أن تدخلوا الجنة	١٤٢	٤٣٣
آل عمران	وكأين من نبي قتل معه ربيون	١٤٦ : ١٤٨	٣٨٦
آل عمران	وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون	١٥٤	٢٢٨
آل عمران	أولما أصبتكم مصيبة قد أصبتم مثليها	١٦٥	٤٣٥
آل عمران	إنما ذلكم الشيطن يخوف أولياءه	١٧٥	١٧٤
آل عمران	ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم	١٧٨	٤٧١
آل عمران	ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه	١٧٩	٤٣٣
آل عمران	لقد سمع الله قول الذين قالوا إن	١٨١	٢٠٩
آل عمران	وإذ أخذ الله ميثق الذين أوتوا الكتب	١٨٧	٢١٧
آل عمران	فاستجاب لهم ربهم	١٩٥	٣٨٨

النساء	﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي﴾	٥	١١٥
النساء	﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾	١١	١١٦
النساء	﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ﴾	١٨	١٥١
النساء	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾	١٩	٧٨
النساء	﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾	٢٢	٩١
النساء	﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾	٢٩	١٠٩
النساء	﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾	٢٩	٧٦
النساء	﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾	٣١	١٣٣
النساء	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ﴾	٤٣	١١٨
النساء	﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ﴾	٤٦	٢٢٠
النساء	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ﴾	٤٨	٤٢
النساء	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ﴾	٥١	٥٩
النساء	﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾	٥٤	٣١٦
النساء	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾	٥٦	٥١٩
النساء	﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾	٥٨	٣٤٢
النساء	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾	٥٩	٤٠٣
النساء	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾	٦٠	٢٢٧
النساء	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾	٦١	٢٢٧
النساء	﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾	٦٢	٢٢٨
النساء	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾	٦٣	٢٢٨
النساء	﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾	٦٦ : ٦٨	٤٦٦
النساء	﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾	٦٩	٤٠٥
النساء	﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾	٧٦	١٧٤
النساء	﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ﴾	٨٣	٢٣٩
النساء	﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾	٩٢	٧٨
النساء	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾	٩٤	٨٠
النساء	﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾	٩٣	٧٣
النساء	﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾	١٠١	٣٤٧
النساء	﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾	١٠٤	٤٣٢
النساء	﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾	١١٥	٦٤
النساء	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ﴾	١١٦	٤١
النساء	﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾	١١٧	٣٢٤
النساء	﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا﴾	١١٨ : ١١٩	١٧٢
النساء	﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ﴾	١٢٠	١٧٨
النساء	﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾	١٢٣	١٤٠
النساء	﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ﴾	١٣٦	٤٨
النساء	﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ﴾	١٣٩	٢٣١
النساء	﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ﴾	١٤٠	٤٨
النساء	﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ﴾	١٤١	٢٢٣
النساء	﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾	١٤٢	٢٣٨
النساء	﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾	١٤٣	٢٣٢
النساء	﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ﴾	١٤٥	٤٧
النساء	﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا﴾	١٥٦	٢٢٧

النساء	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾	١٥٠	١٨٩
النساء	﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾	١٦٠	٣٤١
النساء	﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ﴾	١٦١	١١٣
النساء	﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾	١٦٥	١٨٨
النساء	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ﴾	١٦٧	١٥٠
النساء	﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾	١٦٠	١١٠
النساء	﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ﴾	١٦١	١١٨
النساء	﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا﴾	١٦٥	١٩٧
النساء	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا﴾	١٦٧	٤٦٥
النساء	﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾	١٧٢	٣١٠
النساء	﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾	١٧٣	٣١٠
المائدة	﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾	٥	٤٨
المائدة	﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا﴾	١٤	٤٠٠
المائدة	﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾	١٣	٢٨٠
المائدة	﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ﴾	٢٠	٢٠٨
المائدة	﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾	٢٠	٢٢٢
المائدة	﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾	٢١	٢٢٣
المائدة	﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا﴾	٢٢	٢٢٣
المائدة	﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾	٢٣	٢٢٣
المائدة	﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا﴾	٢٤	٢٢٣
المائدة	﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾	٢٦	٢٢٣
المائدة	﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾	٢٧ : ٣٠	٨٠
المائدة	﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾	٣٢	٨٠
المائدة	﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾	٣٢	١٥٣
المائدة	﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾	٣٣	٢٥٧
المائدة	﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا﴾	٣٤	٢٦٠
المائدة	﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا﴾	٣٨	٨٢
المائدة	﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ﴾	٤١	٢١٩
المائدة	﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾	٤٤	٢٢٤
المائدة	﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾	٤٥	٧٥
المائدة	﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ﴾	٤٩	١٦٨
المائدة	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾	٥١	٤٨٥
المائدة	﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ﴾	٥٢	٢٢٨
المائدة	﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾	٥٥	١٣٤
المائدة	﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا﴾	٥٨	١٥٧
المائدة	﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾	٥٩	١٥٤
المائدة	﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾	٦٤	٢١٠
المائدة	﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾	٦٤	٤٨٣
المائدة	﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾	٦٧	٢١٥
المائدة	﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ﴾	٧١	٢١٢
المائدة	﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾	٧٢	٤٣
المائدة	﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ﴾	٧٣	٢١٢
المائدة	﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا﴾	٧٧	١٥١

المائدة	﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾	٧٨ : ٧٩	٢٨١
المائدة	﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾	٧٨ : ٨١	٤٢٢
المائدة	﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً ﴾	٨٢	٣١١
المائدة	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ ﴾	٨٧	١٤٢
المائدة	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ ﴾	٩٠	١٠٨
المائدة	﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ﴾	٩١	١٠٨
المائدة	﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾	١٠٠	١٣٦
المائدة	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾	١٠٤	٤٣
المائدة	﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾	١٤٦	٣١٢
الأنعام	﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ ﴾	٨	٢١٦
الأنعام	﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ ﴾	١٧	٢٤٦
الأنعام	﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾	٢١	٥٦
الأنعام	﴿ ﴿ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ﴾	٢٤، ٣٢	٥٠٤
الأنعام	﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا ﴾	٢٧ : ٢٨	٥٠٤
الأنعام	﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾	٣١	٤٩٩
الأنعام	﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ ﴾	٣٣	١٩٤
الأنعام	﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾	٣٧	١٥٧
الأنعام	﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ ﴾	٤٢ : ٤٣	٢٨٥
الأنعام	﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾	٤٤	٣٩٠
الأنعام	﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾	٤٥	٤٦٩
الأنعام	﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾	٤٩	١٥٣
الأنعام	﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾	٥١	٣٩٣
الأنعام	﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ ﴾	٥٢	٢٦٥
الأنعام	﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ ﴾	٥٣	٢٦٤
الأنعام	﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ ﴾	٥٥	٤٠
الأنعام	﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ ﴾	٥٥:٥٦	٣٩
الأنعام	﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾	٥٩	٢٤٦
الأنعام	﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ﴾	٦٨	١٨٣
الأنعام	﴿ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾	٧١	٣٧١
الأنعام	﴿ ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ﴾	٧٤	٤٦٥
الأنعام	﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ ﴾	٨١	٤٥١
الأنعام	﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾	٨٢	٣٤٠
الأنعام	﴿ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾	٨٨	٤٣
الأنعام	﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾	٨٩،٩٠	١٣٣
الأنعام	﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ ﴾	١١٠	٤٦٦
الأنعام	﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا ﴾	١١٥	١٨٨
الأنعام	﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ ﴾	١٢١	١٧٣
الأنعام	﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ ﴾	١٢٢	٤٦١
الأنعام	﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا ﴾	١٢٣	٢٦٢
الأنعام	﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾	١٢٤	٢٦٣
الأنعام	﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞ ﴾	١٣٥	١٦٥
الأنعام	﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ﴾	١٣٧	٢٨٥
الأنعام	﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا ﴾	١٤٠	٧٩

الأنعام	﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾	١٤١	٤٨٣
الأنعام	﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ ﴾	١٤٥	٣٣
الأنعام	﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾	١٤٨	١٩٧
الأنعام	﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾	١٥١	٢٧
الأنعام	﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾	١٥١	١٤٤
الأنعام	﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾	١٥٢	١٤٤
الأنعام	﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾	١٥٣	٦٢
الأنعام	﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾	١٥٩	٤٠٣
الأنعام	﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾	١٦٠	٥١٠
الأنعام	﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾	١٦٢ : ١٦٣	٣٧٧
الأنعام	﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾	١٦٤	٥١٤
الأنعام	﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾	١٦٥	١٦١
الأعراف	﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا ﴾	٩	٤٩٩
الأعراف	﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾	١٢	٣١٧
الأعراف	﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ﴾	١٦،١٧	١٧٢
الأعراف	﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ ﴾	٢٠ ، ٢١	٢٨٣
الأعراف	﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ ﴾	٢٧	١٧٧
الأعراف	﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾	٢٨	٢٩٠
الأعراف	﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾	٢٩	٣٦٧
الأعراف	﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾	٣٠	١٥١
الأعراف	﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾	٣٢	١٢٦
الأعراف	﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾	٣٣	٨٧
الأعراف	﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم ﴾	٣٨	٥١٢
الأعراف	﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾	٥٥	٣٨٤
الأعراف	﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾	٥٦	١٢٦
الأعراف	﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾	٥٩	٤١
الأعراف	﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾	٦٠	١٩٤
الأعراف	﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾	٦٦	١٩٤
الأعراف	﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾	٧٣	٤٦٢
الأعراف	﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾	٧٥ : ٧٦	٣٠٩
الأعراف	﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾	٧٧ : ٧٩	٤٨٩
الأعراف	﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾	٨٠،٨١	٩٣
الأعراف	﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾	٨٢	٢١١
الأعراف	﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾	٨٤	١٤٩
الأعراف	﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾	٨٥ : ٨٦	٣٦١
الأعراف	﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ ﴾	٨٨	٢٠١
الأعراف	﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾	٩١ : ٩٢	٣٦١
الأعراف	﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾	١٠٠	٤٦٣
الأعراف	﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ﴾	١٠١،١٠٢	١٥٥
الأعراف	﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾	١٠٣	٣٤٤
الأعراف	﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن ﴾	١١٥	٢٤٨
الأعراف	﴿ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾	١١٦	٢٤٨
الأعراف	﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ ﴾	١٢٧	٢٧٠

الأعراف	﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾	١٣٠	٤٩٢
الأعراف	﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا ﴾	١٣٢	٣٨٦
الأعراف	﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ﴾	١٥٧	٤٢٥
الأعراف	﴿ ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ ﴾	١٣٨	٢٩١
الأعراف	﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي ﴾	١٢٤	٢٩٨
الأعراف	﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي ﴾	١٥٧	١٣٠
الأعراف	﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ﴾	١٥٧	١٢٩
الأعراف	﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ ﴾	١٦٦:١٦٣	١١١
الأعراف	﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾	١٦٧	٤٩٤
الأعراف	﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ ﴾	١٧٠	٣٨٢
الأعراف	﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ﴾	١٧٥	٣٥٤
الأعراف	﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ ﴾	١٧٦	١٦١
الأعراف	﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾	١٧٩	١٥٦
الأعراف	﴿ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ﴾	١٨١	١٥٢
الأعراف	﴿ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾	١٨٢	٤٦٨
الأعراف	﴿ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ﴾	٢٠٢	٤٨٥
الأنفال	﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ ﴾	٩	٣٨٧
الأنفال	﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾	١٣	٢٥٨
الأنفال	﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ ﴾	٢٣	٤٦٢
الأنفال	﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾	٢٥	٤٢٣
الأنفال	﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾	٢٨	٣٤٩
الأنفال	﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ ﴾	٣٠	٢٠٣
الأنفال	﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ ﴾	٣٥	١١٩
الأنفال	﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾	٣٩	٤٣٢
الأنفال	﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾	٤٨	٢٨٤
الأنفال	﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ ﴾	٥٣	٤٩٥
الأنفال	﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾	٥٤	٣٤٤
الأنفال	﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾	٥٥	٤٣
التوبة	﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ ﴾	٦	٧٩
التوبة	﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ ﴾	١٤ :١٥	٤٣٦
التوبة	﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ ﴾	١٦	٤٣٣
التوبة	﴿ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ﴾	١٩	١٢٦
التوبة	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ ﴾	٢٣	٣٤٥
التوبة	﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ ﴾	٢٤	٣٤٩
التوبة	﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ ﴾	٣٠	٢١١
التوبة	﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا ﴾	٣١	٢١٢
التوبة	﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا ﴾	٣١	١٣٢
التوبة	﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا ﴾	٣٥	٢٣٦
التوبة	﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ﴾	٣٧	٢٧٨
التوبة	﴿ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ ﴾	٤٢	٢٣٥
التوبة	﴿ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ ﴾	٤٥	٢٣٢
التوبة	﴿ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ ﴾	٤٦	٢٣٩
التوبة	﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا ﴾	٤٧	٢٣٩

التوبة	﴿ يبغونكم الفتنة ﴾	٤٧	٢٥١
التوبة	﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل ﴾	٤٨	٢٥١
التوبة	﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ﴾	٥٢	٢٣٣
التوبة	﴿ ولا يأتون الصلوة إلا وهم كسالى ﴾	٥٤	٢٣٨
التوبة	﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴾	٥٥	٣٣٥
التوبة	﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقت فإن أعطوا ﴾	٥٨	٢٣١
التوبة	﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون ﴾	٦١	٢٣٠
التوبة	﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا ﴾	٦٦،٦٥	٤٥
التوبة	﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمنكم ﴾	٦٦	١٥٥
التوبة	﴿ ويقبضون أيديهم ﴾	٦٧	٢٣٨
التوبة	﴿ فاستمتعتم بخلقكم كما استمتع ﴾	٦٩	٤٠٠
التوبة	﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ﴾	٧٠	٣٤٣
التوبة	﴿ والمؤمنون والمؤمنت بعضهم أولياء بعض ﴾	٧١	١٢٩
التوبة	﴿ يأيها النبي جهد الكفار والمنفقين ﴾	٧٣	٤٨
التوبة	﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة ﴾	٧٤	٢٣٥
التوبة	﴿ ومنهم من عهد الله لئن ءاتنا من ﴾	٧٦،٧٥	٢٣٨
التوبة	﴿ الذين يلمزون المطوعين ﴾	٧٩	٢٣٧
التوبة	﴿ وإذا أنزلت سورة أن ءامنوا بالله ﴾	٧٨: ٧٦	٤٦٣
التوبة	﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾	٩٢	٢٨
التوبة	﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم ﴾	٩٦	١٥٤
التوبة	﴿ والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا ﴾	١٠٧	٢٣٣
التوبة	﴿ لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس ﴾	١٠٨	٢٣٤
التوبة	﴿ العبدون الحمدون السئحون ﴾	١١٢	٤٢٢
التوبة	﴿ ثم انصرفوا ﴾	٢٧	٤٦٢
يونس	﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم ﴾	١٣	١٤٩
يونس	﴿ وإذا تتلى عليهم ءاياتنا بينت قال ﴾	١٥	٣٩٥
يونس	﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ﴾	١٨	٤٤
يونس	﴿ وما كان الناس إلا أمة وحدة ﴾	١٩	٤٠
يونس	﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ﴾	٢٢	٣٧١
يونس	﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾	٣٩	١٦٥
يونس	﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن ﴾	٤٠	١٣٩
يونس	﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن ﴾	٤٤	١١٥
يونس	﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم ﴾	٤٧	١٨٨
يونس	﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صدقين ﴾	٤٨	٥٠٤
يونس	﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب ﴾	٧٠،٦٩	٥٦
يونس	﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى ﴾	٧٥	١٤٩
يونس	﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه ءاباءنا ﴾	٧٨	١٩٣
يونس	﴿ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ﴾	٨١،٨٠	٣٣
يونس	﴿ فما ءامن لموسى إلا ذرية من قومه ﴾	٨٣	١٤٨
يونس	﴿ ربنا إنك ءاتيت فرعون وملأه ﴾	٨٨	٣٨٦
يونس	﴿ قال قد أجيبت دعوتكما ﴾	٨٩	٤٦٤
يونس	﴿ وجوزنا ببني إسرءيل البحر فأتبعهم ﴾	٩٠	١٦٤
يونس	﴿ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك ﴾	٩٢	١٧٤

هود	﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ﴾	٧	٢٠٠
هود	﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾	١٥ : ١٦	٤٧٩
هود	﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾	١٨	٣٤١
هود	﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٢٠	٥١١
هود	﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾	٢٤	١٦١
هود	﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ﴾	٢٧	٢٦٤
هود	﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾	٣١	٣٣٣
هود	﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾	٣٦	٣٨٦
هود	﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾	٣٧	٣٤٣
هود	﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾	٤٢	٢٩٨
هود	﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾	٤٤	٣٤٣
هود	﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾	٥٢	١٤٩
هود	﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ﴾	٥٣	١٩٦
هود	﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾	٦٧	٣٤٤
هود	﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾	٦٨	٩٤
هود	﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾	٧٢	٩٤
هود	﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾	٧٣	٩٤
هود	﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾	٧٨	٩٤
هود	﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ﴾	٧٩	٩٣
هود	﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾	٨٤:٨٦	١٠٧
هود	﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾	٨٩	٤٩٠
هود	﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾	٩١	٢٠٣
هود	﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾	٩٤	٣٤٤
هود	﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾	١١٢	٣٢٥
هود	﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾	١١٣	١٤٥
هود	﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾	١١٤	٣٧٩
هود	﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾	١١٦	٣٣٣
هود	﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾	١١٧:١١٨	٤٠٠
يوسف	﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ﴾	٤	٣١٩
يوسف	﴿يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾	٥	١٨١
يوسف	﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾	٩: ١٠	٣٢٠
يوسف	﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾	٢٤	٣٦٩
يوسف	﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾	٣٣ : ٣٤	٣٨٨
يوسف	﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾	٣٧	١٢٧
يوسف	﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا﴾	٧٣	٨٣
يوسف	﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن﴾	١٠٠	١٨١
يوسف	﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى﴾	١٠١	٢٦١
يوسف	﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾	١٠٣	١٧٨
يوسف	﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾	١٠٧	٣٩٣
يوسف	﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾	١٠٨	٤٢٦
يوسف	﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ﴾	١٠٩:١١٠	١٦٤
الرعد	﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾	١٩ : ٢١	٣٩٧
الرعد	﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾	٣١	٤٩٤

الحجر	﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴾	٧	٢٠٥
الحجر	﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾	٩	٢٢١
الحجر	﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ ﴾	٣٣	١٩٩
الحجر	﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾	٣٩ : ٤٠	٢٨٣
الحجر	﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾	٥٨،٥٧	١٤٨
الحجر	﴿ وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾	٦٧	٩٣
الحجر	﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾	٦٨	٩٣
الحجر	﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾	٧٢	٩٣
الحجر	﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾	٧٣	٩٣
الحجر	﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾	٧٤	٤٩٠
الحجر	﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾	٨٨	٣٥٦
إبراهيم	﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾	١	١٨٨
إبراهيم	﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ ﴾	٤	١٩٧
إبراهيم	﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا ﴾	٩	٢٠٦
إبراهيم	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ ﴾	١٣	٢٠٢
إبراهيم	﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّٰلِمِينَ ﴾	١٣	٢١٢
إبراهيم	﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾	١٧:١٥	٥٢٥
إبراهيم	﴿ وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾	٢٢	١٧٩
إبراهيم	﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾	١٨	١٤٣
إبراهيم	﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ ﴾	٢٥	١٤٢
إبراهيم	﴿ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾	٣٤	٤١٣
إبراهيم	﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾	٣٥	٣٨٧
إبراهيم	﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾	٥٠	٥٢٤
النحل	﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ ﴾	١٥	٥٩
النحل	﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾	١٦	٥٩
النحل	﴿ لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ﴾	٢٥	٥١٣
النحل	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ اللَّهُ ﴾	٣٥	١٩٧
النحل	﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾	٣٦	٤٠
النحل	﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾	٣٨	٢٠٠
النحل	﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾	٤٠	٤٢٩
النحل	﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾	٤٤	٦٥
النحل	﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾	٤٧	٣٩٢
النحل	﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّـَٔاتِ ﴾	٤٧: ٥٤	٣٩٤
النحل	﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾	٥٧	١٩٠
النحل	﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ ﴾	٥٩،٥٨	١١٥
النحل	﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾	٦٣	٢٨٤
النحل	﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَٰبِ ﴾	٦٧	١١٧
النحل	﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾	٧١	٩٧
النحل	﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَٰهُمْ ﴾	٨٨	٥١٨
النحل	﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا ﴾	٨٩	٣٥٩
النحل	﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَٰنِ ﴾	٩٠	١٢٩
النحل	﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَٰنِ الرَّجِيمِ ﴾	١٠٠:٩٨	٣٦٩
النحل	﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ ﴾	١٠٤	٤٨٥

النحل	﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾	١٠٦	٢٦٨
النحل	﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً ﴾	١١٢	٤٥٦
النحل	﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ ﴾	١١٥	١٣١
النحل	﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ﴾	١١٦	١٣٠
النحل	﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾	١٢٥	٤٢٦
الإسراء	﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾	٤	٢٥
الإسراء	﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ ﴾	٥: ٨	٢٥
الإسراء	﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾	١٥	٥٠١
الإسراء	﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً ﴾	١٦	٣٣٢
الإسراء	﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾	١٧	٣٣٢
الإسراء	﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾	٢٣	١٤٤
الإسراء	﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾	٢٦،٢٧	١٧٩
الإسراء	﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾	٣١	٧٨
الإسراء	﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾	٣٢	٩٠
الإسراء	﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾	٣٣	٩٠
الإسراء	﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾	٣٥	١٠٦
الإسراء	﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ ﴾	٣٦	٤٤٣
الإسراء	﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾	٤٩	٢٠٠
الإسراء	﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾	٥٣	١٨٢
الإسراء	﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾	٥٧	٣٧٤
الإسراء	﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾	٥٩	٣٤٤
الإسراء	﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ ﴾	٦٢	٣١٧
الإسراء	﴿ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾	٦٤	١٧٨
الإسراء	﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ﴾	٦٧	٣٧٢
الإسراء	﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾	٦٨	٤٩٠
الإسراء	﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ ﴾	٧٦	٢٠١
الإسراء	﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى ﴾	٨٨،٨٩	٢٠٤
الإسراء	﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا ﴾	٩٠،٩٣	٢٠٤
الإسراء	﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ﴾	٩٤	١٩٩
الإسراء	﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾	٩٣	١٥١
الإسراء	﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ ﴾	٩٥	٢٠٥
الإسراء	﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾	٩٧	٥٢٢
الإسراء	﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ ﴾	١٠٢	٥٠٥
الكهف	﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾	١	٣٥٦
الكهف	﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾	٨	٣٥٧
الكهف	﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾	٢٨	٢٦٥
الكهف	﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾	٢٩	٣٩٥
الكهف	﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ ﴾	٣٤: ٣٦	٣١٣
الكهف	﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾	٣٧	٣١٣
الكهف	﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾	٤٦	٣٤٨
الكهف	﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾	٤٩	٥١٥
الكهف	﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ ﴾	٥٠	١٥٣
الكهف	﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾	٥٩	٤٧٢

السورة	الآية	رقمها	الصفحة
الكهف	﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ﴾	٦٣	١٨٢
الكهف	﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٩٤	٣١
الكهف	﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾	١١٠	٤٦
الكهف	﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا﴾	١١٠	٤١
مريم	﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾	٢٠	٢١١
مريم	﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾	٢١	٢١١
مريم	﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾	٣٠	٢١٢
مريم	﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾	٣٥،٣٤	٢١٢
مريم	﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾	٤٠ : ٣٩	٣٩٤
مريم	﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾	٥١	٣٦٨
مريم	﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾	٧٣	٢٦٤
مريم	﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ﴾	٧٤	٢٦٤
مريم	﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾	٨٢	٥٠٦
مريم	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾	٨٣	١٧٦
مريم	﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾	٨٤	٤٧٣
مريم	﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾	٨٧	٥٢١
طه	﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ﴾	١٢	١٦٣
طه	﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾	١٤	٣٧٩
طه	﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾	١٦:١٥	٣٠٢
طه	﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ﴾	٦٥	٢٤٨
طه	﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ﴾	٦٩	٣٤
طه	﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾	٥٨،٥٧	٢٤٧
طه	﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾	٧٣	٢٦٦
طه	﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾	١٠١، ١٠٠	٥١٥
طه	﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾	١٢٠	١٨٣
طه	﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾	١٢١	٢٨٤
طه	﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾	١٢٧،١٢٦	١٤٨
طه	﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾	٦٩	٣٣
الأنبياء	﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ﴾	٣	٢٠٨
الأنبياء	﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾	١٣:١١	٣٣٦
الأنبياء	﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾	١٨	٢٠١
الأنبياء	﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾	٢٢	٢٤
الأنبياء	﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ﴾	٢٥	١٣٢
الأنبياء	﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾	٢٨	٥٢١
الأنبياء	﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾	٣٥	٣٤٧
الأنبياء	﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن﴾	٣٦	٢٦٣
الأنبياء	﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ﴾	٣٩	٣٩٦
الأنبياء	﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾	٥٤	٤٦٥
الأنبياء	﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ﴾	٧٤	١٥٤
الأنبياء	﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾	٧٤	٩٤
الأنبياء	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾	٩٠	٣٨٥
الأنبياء	﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾	٩١	٤٤٤
الحج	﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾	١١	٤٩٩

الحج	﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾	٢٠، ١٩	٥٢١
الحج	﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾	٢٢، ٢١	٥١٩
الحج	﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾	٣١	١٤٣
الحج	﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾	٣٩	٤٣١
الحج	﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ﴾	٤٠	٢٤
الحج	﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾	٤١	٤٢٣
الحج	﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ﴾	٤٤: ٤٢	١٨٩
الحج	﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ﴾	٤٦	١٥٧
الحج	﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾	٤٨	٣٤٢
الحج	﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ﴾	٥٤:٥٢	٣٥٣
الحج	﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ﴾	٧٢	٢٠٦
الحج	﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾	٧٨	٤٢٩
المؤمنون	﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾	١	٣٧٧
المؤمنون	﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾	٣٣	١٩٩
المؤمنون	﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾	٣٤	١٩٩
المؤمنون	﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا﴾	٤٤	١٨٨
المؤمنون	﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾	٤٧:٤٥	٣١٠
المؤمنون	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾	٥١	٢٨٠
المؤمنون	﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾	٦٠	٣٩٦
المؤمنون	﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾	٦٤	٣٣٦
المؤمنون	﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾	٧١	٢٥
المؤمنون	﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾	٩٥	٤٨٨
المؤمنون	﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾	٩٨،٩٧	١٨٥
المؤمنون	﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾	١٠٣	٥٠١
النور	﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾	٢	٤١٣
النور	﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟﴾	٤	٨٣
النور	﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾	٤	٨٤
النور	﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾	٥	٨٤
النور	﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ﴾	٩ :٦	٨٤
النور	﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾	١٠	٨٥
النور	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾	١١	٨٦
النور	﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾	١١	٨٧
النور	﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾	١٥	٢٤٠
النور	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾	١٩	٩٥
النور	﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ﴾	٢١	١٢٩
النور	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾	٢٥:٢٣	٨٣
النور	﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ﴾	٢٤	١٤٠
النور	﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾	٣٠	٤٣٩
النور	﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾	٣١	٤٤٠
النور	﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾	٣٢	٤٤٥
النور	﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾	٣٣	١٠٣
النور	﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾	٣٣	٩٠
النور	﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾	٣٤	٤٤٧

النور	﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾	٣٧	٣٩٧
النور	﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾	٤٧ : ٥٠	٤٠٥
النور	﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ﴾	٥١ : ٥٢	٤٠٤
النور	﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ﴾	٥٥	٤٣٥
النور	﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾	٦٣	٦٢
الشعراء	﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ ﴾	٥	٦٦
الشعراء	﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ ﴾	٢٩	٢٠٢
الشعراء	﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾	٧١ : ٧٤	٢٩٠
الشعراء	﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾	٩٦ : ٩٨	٤٢
الشعراء	﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾	١٠٥	١٨٩
الشعراء	﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾	١٠٦	١٨٩
الشعراء	﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾	١١١	٢٦٤
الشعراء	﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ﴾	١١٦	٢٠٣
الشعراء	﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾	١٢٣	٥١١
الشعراء	﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾	١٥٠	١٤٨
الشعراء	﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾	١٥١،١٥٢	١٥٣
الشعراء	﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ﴾	١٦٦	١٤٧
الشعراء	﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ ﴾	١٨٦	١٩٤
الشعراء	﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾	١٨٩	٤٩٠
الشعراء	﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾	٢١٥	٣٠٨
الشعراء	﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾	٢٢١،٢٢٢	٢٤٤
الشعراء	﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾	٢٢٣	٢٤٤
الفرقان	﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾	٢١	٢٠٥
الفرقان	﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾	٢٣	٤٧٥
الفرقان	﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾	٢٧: ٢٩	٥٠٧
الفرقان	﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾	٣١	٢٦٢
الفرقان	﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾	٤٣	٣٠٤
الفرقان	﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾	٥١	٤٣٠
الفرقان	﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ ﴾	٥٢	١٢٤
الفرقان	﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾	٦٨:٧٠	٧٥
النمل	﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾	١٤	٢٧٧
النمل	﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ﴾	٢٤	٢٨٤
النمل	﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾	٣٤	٢٨
النمل	﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ ﴾	٤٨	٢٧٧
النمل	﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾	٥١:٥٣	١٧٤
النمل	﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾	٦٠	١٣٧
النمل	﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾	٦٢	٣٨٧
النمل	﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ ﴾	٦٥	٢٤٦
القصص	﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا ﴾	٤	٢٦٥
القصص	﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ ﴾	٣٢	١٥٤
القصص	﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾	٣٦	٢٩٠
القصص	﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾	٣٩	٣١٠
القصص	﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾	٥٠	٣٠٣

القصص	﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾	٧٦	٢٧١
القصص	﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾	٧٧	٢٢
القصص	﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾	٧٨	٢٧٢
القصص	﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾	٧٩	٢٧٢
القصص	﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾	٨٠	٣٥٤
القصص	﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾	٨١	٣٦٣
القصص	﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ﴾	٨٣	٢٢
العنكبوت	﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا﴾	٢ :٣	٣٤٧
العنكبوت	﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾	١١	٥٠٥
العنكبوت	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا﴾	١٢	٢٧٨
العنكبوت	﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾	١٣	٥١٤
العنكبوت	﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾	٣٠	٩٤
العنكبوت	﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾	٣١	٩٤
العنكبوت	﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾	٣٤	١٥٤
العنكبوت	﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾	٣٨ :٤٠	٣٦٣
العنكبوت	﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾	٣٩	٣١٠
العنكبوت	﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾	٤٣	١٤٣
العنكبوت	﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾	٤٥	٣٧٧
العنكبوت	﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾	٥٠،٥١	١٩٧
العنكبوت	﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾	٣٨	٢٨٤
العنكبوت	﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾	٣٩ :٤٠	٤٦٣
العنكبوت	﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾	٦٩	٤٣٤
الروم	﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ﴾	٦	١٥٧
الروم	﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾	٧	١٥٨
الروم	﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ﴾	٩	١٧٤
الروم	﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ﴾	١٠	٣٦١
الروم	﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾	٢٧	٢٠٠
الروم	﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾	٣٠	٤٣
الروم	﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	٣١ :٣٢	٤٠١
الروم	﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾	٣٩	١٠١
الروم	﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ﴾	٤١	٢٧٩
الروم	﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾	٤٤	٥١٠
الروم	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾	٤٧	١٤٩
لقمان	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾	٦	١٨٣
لقمان	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾	١٢	١٢٨
لقمان	﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ﴾	١٣	٤٢
لقمان	﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾	١٦	٤٣٩
لقمان	﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾	١٧	٤٢٢
لقمان	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾	٢٠:٢١	٢٩٣
لقمان	تعالى ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾	٢٣، ٢٤	٥١٩
لقمان	﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾	٢٤	٤٧٣
لقمان	﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾	٣٢	٣٧٢
السجدة	﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ﴾	١٢	٥٠٧

الأحزاب	﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾	١٦	٣٩٦
الأحزاب	﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم﴾	١٢	٢٢٩
الأحزاب	﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ﴾	١٨	٢٣٨
الأحزاب	﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾	١٩	٤٥٢
الأحزاب	﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾	٢١	٢٨٨
الأحزاب	﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾	٣٢	١٤٥
الأحزاب	﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾	٣٥	٤٤
الأحزاب	﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾	٣٨	٤٢٩
الأحزاب	﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾	٥٣	١٣٦
الأحزاب	﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾	٥٧	٢٥٨
الأحزاب	﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾	٦٠: ٦١	٤٩٤
الأحزاب	﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾	٦٦	٥٠٧
الأحزاب	﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾	٦٧	٢٦٢
الأحزاب	﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾	٦٨	٢٦٢
الأحزاب	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ﴾	٦٩	٢١٥
الأحزاب	﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾	٦٩	٢٢٦
الأحزاب	﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾	٧٢	١١١
سبأ	﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ﴾	١٣	٢٦١
سبأ	﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾	١٥	٣٤٥
سبأ	﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾	١٦: ١٩	٤٥٤
سبأ	﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾	٣٣	٢٦٢
سبأ	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾	٣٤: ٣٥	٣٣٣
سبأ	﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾	٥٠	١٥٠
فاطر	﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾	٣	٣٨
فاطر	﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾	٦	١٣٦
فاطر	﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾	٨	٣٠٤
فاطر	﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾	١٨	٣٨٢
فاطر	﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ﴾	٢٧	٥٠٣
فاطر	﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾	٢٨	٣٥٤
فاطر	﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾	٣٢	٣٤١
فاطر	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ﴾	٣٦	٤٣
فاطر	﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾	٣٧	٥٠٣
يس	﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾	٤٠	٢٠٣
يس	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ﴾	٤٧	١٩٤
يس	﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾	٥٩	٥٠٢
يس	﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا﴾	٦٠: ٦٢	١٧٣
يس	﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾	٦٣: ٦٤	٥٠٣
يس	﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا﴾	٦٥	١٤٠
الصافات	﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾	٦١: ٦٤	٥٢٠
الصافات	﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾	٦٥	١٧١
الصافات	﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾	٦٦: ٦٨	٥٢٥
الصافات	﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾	١٤٩: ١٥٩	١٩٠
الصافات	﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾	١٦١: ١٦٢	٣٤٧

ص	وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ	٤	١٩٤
ص	أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ	٦،٥	١٩١
ص	إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ	١٤	٤٩٣
ص	يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ	٢٦	٣٠٢
ص	نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ	٢٨	١٦٣
ص	رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى	٣٥	٢٦١
ص	هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ	٥٥ : ٥٧	٣٩٦
ص	وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ	٥٨	٥٢٥
ص	قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ	٧٥	٣٠٩
ص	أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ	٧٦	٣٠٩
ص	قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ	٧٩	٣٨٤
ص	قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ	٨٢ : ٨٣	٣٦٨
الزمر	وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ	٣	٤٤
الزمر	مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ	٣	٢٩٢
الزمر	قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ	٩	٣٥٣
الزمر	قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ	١٣	٣٩٤
الزمر	قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى	١٤ :١٥	٣٩٦
الزمر	لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ	١٦	٣٩٢
الزمر	وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ	٤٥	٣٧٣
الزمر	قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ	٥٣	٧٤
الزمر	وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ	٦٥	٣٦٧
الزمر	وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا	٧١	٥٠٧
غافر	كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ	٥	٢٠٤
غافر	فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ	١١	٥٠١
غافر	ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ	١٢	٥٠٣
غافر	فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ	١٤	٣٧٣
غافر	وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ	١٨	٤٩٨
غافر	يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ	١٩	٤٤٠
غافر	أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ	٢١	١٦٦
غافر	وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ	٢٦	٣١
غافر	يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ	٢٩	٢٦٨
غافر	يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ	٢٩ : ٣٣	٣٦٤
غافر	تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ	٤٢	٣٩
غافر	ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا	٤٦	٥١٨
غافر	وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ	٦٠	٣٨٥
غافر	إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ	٥٦	٣١١
غافر	إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ	٧١	٥١٩
فصلت	فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ	١٥	٣١٠
فصلت	وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً	١٥	٤٨٩
فصلت	فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا	١٦	٤٩٠
فصلت	وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ	١٧	٤٦٠
فصلت	حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ	٢٠	٤٤٣
فصلت	وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا	٢١	٢٤

فصلت	﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ﴾	٢٣	٥٠٣
فصلت	﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ﴾	٢٦	١٩١
فصلت	﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾	٣٦	١٨٥
فصلت	﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾	٣٩	٢٠٠
فصلت	﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾	٤٠	١٦٥
فصلت	﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾	٤٦	٣٤٠
فصلت	﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾	٥٠	٥١٨
الشورى	﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾	١١	٣٨
الشورى	﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾	١٣	٤٠١
الشورى	﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾	٣٧	٨٩
الشورى	﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾	٤٠	٣٤١
الشورى	﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾	٤٢	٢٥١
الشورى	﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾	٤٥	٥٠٠
الشورى	﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾	٤٩	١١٥
الزخرف	﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾	٢٣،٢٢	٤٣
الزخرف	﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾	٢٤	٢٨٩
الزخرف	﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ ﴾	٢٣	٢٦٤
الزخرف	﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ ﴾	٣١	٢٦٣
الزخرف	﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ﴾	٣٢	٩٧
الزخرف	﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ ﴾	٣٦	١٤٣
الزخرف	﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾	٤٢:٤١	٤٨٨
الزخرف	﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ ﴾	٥٤:٥١	٣٣٣
الزخرف	﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ ﴾	٥٤	٢٦٩
الزخرف	﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾	٥٦:٥٥	٤٩١
الزخرف	﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾	٧٧	٥٢١
الزخرف	﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾	٧٨	٥٢٢
الدخان	﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾	١٠	٤٥٦
الدخان	﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾	٢٠	٢٠٣
الدخان	﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾	٣٧	١٤٩
الدخان	﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾	٣١،٣٠	٢٦٦
الدخان	﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾	٤٩	٥٠٤
الجاثية	﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ ﴾	١٦	٢٠٨
الجاثية	﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾	١٩:١٨	٢٩٩
الجاثية	﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ ﴾	٢١	١٦٣
الجاثية	﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ ﴾	٢٣	٣٠٥
الأحقاف	﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾	٦، ٥	٥٠٦
الأحقاف	﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾	٩	٦١
الأحقاف	﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ ﴾	١١	٢٦٤
الأحقاف	﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ ﴾	٢٦	١٥٦
الأحقاف	﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾	٣٣	٢١١
الأحقاف	﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ ﴾	٢٥	١٤٩
الأحقاف	﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾	٣٥	٤٧٣
مُحمَّد	﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾	١	٤٣

مُحَمَّد	ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ	٤	٤٣٣
مُحَمَّد	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ	٧	٤٥٣
مُحَمَّد	أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ	١٠	١٦٥
مُحَمَّد	ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ	١١	٣٦١
مُحَمَّد	وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ	١٥	٥١٢
مُحَمَّد	وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ	١٦	٤٦٤
مُحَمَّد	وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ	١٧	٤٦٦
مُحَمَّد	أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ	٢٤	٤٦٠
مُحَمَّد	إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ	٣٢	٤٧٥
مُحَمَّد	وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ	٣١	٤٣٣
مُحَمَّد	إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ	٣٤	٤٢
مُحَمَّد	فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ	٣٥	٤٣٣
الفتح	وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ	٦	٤٢
الفتح	بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ	١٢	٢٢٩
الحجرات	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ	٢	٤٧٨
الحجرات	إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ	٣	٤٧٨
الحجرات	وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ	١٠،٩	٢٥٤
الحجرات	وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ	١٢	١٣٧
الحجرات	إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ	١٣	٣٠٨
ق	أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ	٣	٢٠٠
ق	وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ	١٦	١٣٩
ق	مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ	٣٣	٣٦٤
ق	وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ	٣٧،٣٦	١٦٦
ق	وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ	٣٨	٢١١
ق	فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ	٤٥	٣٩٣
الذاريات	لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ	٣٤،٣٣	١٤٨
الذاريات	وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ	٤٦	١٥٣
الذاريات	كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ	٥٢	١٩٠
الذاريات	وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ	٥٥	٤٢٧
الذاريات	وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ	٥٦	٤١
الطور	إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ	٨: ٧	٤٨٨
الطور	يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا	١٣	٥٠٧
الطور	فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ	٢٩	١٩٤
النجم	وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى	٢٦	٤٤
النجم	إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم	٢٣	٣٠٥
النجم	ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ	٣٢	٨٩
النجم	وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ	٥٢	٣٤٣
القمر	وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ	٥	٤٨٨
القمر	تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ	٢٠	٤٩٠
القمر	أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ	٢٥	١٩٤
القمر	إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ	٣٤	٤٩٠
القمر	إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ	٤٨، ٤٧	٥١٢
الرحمن	هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ	٤٤، ٤٣	٥٢٥

الرحمن	﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾	٤٦	٣٩٧
الواقعة	﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾	٤١	٤٥
الواقعة	﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾	٤٢ : ٤٤	٥٢٥
الواقعة	﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴾	٥١ : ٥٣	٥٢٠
الحديد	﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾	٧	١٠٣
الحديد	﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾	١٣ : ١٥	٤٨
الحديد	﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾	٢٠	٣٦
الحديد	﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا ﴾	٢٥	١٣٧
الحديد	﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ﴾	٢٧	٢٢٤
الحديد	﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾	٢٧	٦١
المجادلة	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾	٥	٢٥٨
المجادلة	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾	١٤	٢٢٣
المجادلة	﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ ﴾	١٨	٢٣٦
المجادلة	﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ﴾	١٩	١٨٣
المجادلة	﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾	٢١	٤٣٥
المجادلة	﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ﴾	٢٢	١٣٤
الحشر	﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ﴾	٢	٤٧٠
الحشر	﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾	٧	٩٨
الحشر	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ﴾	١١	٢٢٣
الحشر	﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ ﴾	١٢	٢٤٣
الحشر	﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ ﴾	١٦	١٧٨
الحشر	﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ ﴾	٢١	١٤٢
الطلاق	﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾	٨ : ٩	٤٩٣
التحريم	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ ﴾	٩	٤٨
التحريم	﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾	١٢	٢١٦
الممتحنة	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى ﴾	١	٢٩٧
الممتحنة	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾	١٢	٨٢
الصف	﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى ﴾	٥	٣١٣
الصف	﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾	٨	٤٣١
الجمعة	﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾	٥	١٦٠
الجمعة	﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾	١١	٢٨
المنافقون	﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾	١	٤٨
المنافقون	﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾	٢	٢٣٤
المنافقون	﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾	٣	٢٤٠
المنافقون	﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾	٤	٤٧
المنافقون	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ ﴾	٥	٣١٢
المنافقون	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ ﴾	٩	٢٣٨
التغابن	﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾	٥	١٣٨
التغابن	﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ﴾	٧	٢٠٠
التغابن	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ ﴾	١٤	٣٥١
التغابن	﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾	١٥	٣٤٩
الملك	﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾	٨ : ١١	٥٠١
الملك	﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾	١٧	٤٩٠

الحاقة	﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ﴾	٧	٣٦٣
القلم	﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾	٨	١٢٨
القلم	﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾	٣٥،٣٦	١٦٣
القلم	﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾	٥١	٣٢٠
الجن	﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ﴾	٦	٢٤٣
الجن	﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾	٢٦،٢٧	٢٤٦
نوح	﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾	٧	٢٠٦
نوح	﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾	٢٢	٢٦٢
نوح	﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾	٢٣	٣٢٥
نوح	﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾	٢٤ :٢٥	٤٨٩
نوح	﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾	٢٦	٢٠٣
نوح	﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾	٢٧	٣٨٦
نوح	﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾	٢٨	٣٨٧
المزمل	﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾	١١	٣٣٢
المزمل	﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾	١٣	٥٢٠
المزمل	﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾	٢٠	٢٥٨
المدثر	﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾	١١ : ١٣	٢٧١
المدثر	﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾	١٤ :١٧	٤٧٢
المدثر	﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾	٤٩ : ٥١	١٦٠
الإنسان	﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾	٩	٣٧٤
الإنسان	﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾	١٠	٣٩٦
الإنسان	﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾	٢١	٣٧٥
المرسلات	﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾	١٦ : ١٨	١٦٥
المرسلات	﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾	١٥	١٣٨
المرسلات	﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾	٢٩ : ٣٤	٣٩٦
المرسلات	﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾	٣٦	٥٢٣
النبأ	﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾	٢٤، ٢٥	٥٢١
النبأ	﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾	٣٠	٥١٨
النازعات	﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾	٤٠ :٤١	٣٩٧
التكوير	﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾	٨	٧٩
الإنفطار	﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾	١٠	١٣٩
المطففين	﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾	١ :٥	١٠٥
المطففين	﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾	٢٩ :٣٢	٣٣٥
المطففين	﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾	٣٤ : ٣٦	٣٣٥
البروج	﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ﴾	١٠	٢٦٧
الطارق	﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾	١٧	٤٧٣
الأعلى	﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾	٩	٤٢٧
الأعلى	﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾	١١ :١٣	٥٢٢
الغاشية	﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾	٦، ٧	٥٢٠
الفجر	﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾	٩: ١٢	٢٧٨
الفجر	﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾	١٣ : ١٤	٢٧٨
الفجر	﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾	١٥ :١٦	٤٧٠
الليل	﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾	١٤	٤٨

العلق	﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾	٦ : ٧	٣٥٠
العلق	﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾	١٢	١٣٩
البينة	﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾	٥	٣٦٧
الزلزلة	﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾	٨	١٤٣
العاديات	﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾	٨	٣٥٠
العصر	﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾	١ : ٣	٤٢٤
الهمزة	﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾	١ : ٣	٣٥٠
قريش	﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾	٣ : ٤	٤٥٠
الكوثر	﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾	٢	٣٧٧
الفلق	﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾	٥	٣٢١
الناس	﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾	١	١٩٢
الناس	﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾	٤	١٨٣

فهرس الآحاديث

طرف الحديث	الراوي الأعلى	رقم الصفحة
آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب	أبو هريرة	٥٠
أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون	عبد الله بن عمر	٢٣٦
أتت اليهود النبي ﷺ حين	ابن عباس	٢٠٩
أتشفع في حد من حدود الله	أم المؤمنين عائشة	٤١٣
أدنه، فدنا منه قريبًا فقال: أجلس	أبو أمامة	٤٤٥
أربع من كنّ فيه كان منافقاً	عبد الله بن عمرو	٥٠
أفتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل	عمر بن الخطاب	٧٢
أفلا أكون عبداً شكوراً	المغيرة بن شعبة	٣٨٥
ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، ثلاثاً	أبو بكرة	٤٢
أما أهل النار الذين هم أهلها	أبو سعيد	٥٢٣
أوصيكم بتقوى الله والسمع	العرباض بن سارية	٦٥
أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة	ابن مسعود	٧٤
أو مخرجيَّ هم؟! قال: نعم، لم يأت	أم المؤمنين عائشة	٢٠١
أن تجعل لله نداً وهو خلقك	أبو بكرة	٤٢
أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ	ابن عمر	٣٦٥
إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا	أبو سعيد	٢٥٦
إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل	أبو سعيد	٤٩٨
إذا دخل الرجل بيته فذكر الله	جابر بن عبد الله	١٧٧
إذا رأيت الله تعالى يعطي العباد	عقبة بن عامر	٤٦٩
إن إبليس يضع عرشه على الماء	جابر بن عبد الله	١٨٢
إن أهل الكتاب افترقوا على	معاوية بن أبي سفيان	٦٤
إن بين الرجل وبين الشرك	جابر بن عبد الله	٣٩
إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبينهما		٢٥١
إن الدنيا حلوة خضرة	أبو سعيد	٣٥٢
إن الدين يسر	أبو هريرة	٢٢٢
إن الرقى والتمائم والتولة	ابن مسعود	٥٦
إن الشيطان قعد لابن آدم	سبرة بن أبي فاكه	١٧٣
إن الشيطان ليضع عرشه على الماء،	جابر بن عبد الله	٢٤٧
إن مما أخشى عليكم شهوات الغي		٣٠٣
إن الناس إذا رأوا الظالم فلم	أبو بكر الصديق	٤٢٤
إن الناس إذا رأوا الظالم فلم	أبو بكر الصديق	٤٤١
إن الله حرّم بيع الخمر والميتة	جابر بن عبد الله	١١٢
إن الله لا ينظر إلى صوركم	أبو هريرة	٢٦١
إن مما أخشى عليكم شهوات	أبو برزة	٣١٩

إن المفلس من أمتي مِن يأتِي	أبو هريرة	٨٤
إن موسى كان رجلا حيياً	أبو هريرة	٢١٦
إنما حبب إلي من دنياكم	أنس بن مالك	٣٥١
إنما جعل الاستئذان من أجل	سهل بن سعد	٤٤١
إنما الطاعة في المعروف	علي بن أبي طالب	٤٠٥
إنما كان هذا، لأن قريشاً	ابن مسعود	٤٥٦
إنه سينهاه ما يقول	أبو هريرة	٣٧٩
إني حرمت الظلم على نفسي		٣٤١
إياك والتنعُّم، فإن عباد الله	معاذ بن جبل	٣٢٩
إياكم والجلوس في الطرقات	أبو سعيد	٤٤١
إياكم والغلو، فإنما هلك	ابن عباس	٣٢٧
أي الذنب أعظم؟	ابن مسعود	٤١
إنهم ليسوا بشيء قالوا	أم المؤمنين عائشة	٢٤٥
اجتنبوا السبع الموبقات	أبو هريرة	٥٦
ارجعي إلى بيتك	رجل من الأنصار	٩٢
اسمعوا وأطيعوا، وإن	أنس	٤٠٥
انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم	ابن عمر	٣٧٢
بايعنا رسول الله ﷺ على	عبادة بن الصامت	٤٢٤
بايعوني على أن لا تشركوا الله	عبادة بن الصامت	٨٢
بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي	ابن مسعود	٢٧٠
بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا	أبو ثعلبة الخشني	٤٢٧
بُني الإسلام على خمس	ابن عمر	٣٧٧
البينة أو حدّ في ظهرك	ابن عباس	٨٥
تعرض الفتن على القلوب	حذيفة	٣٤٨
تعس عبد الدينار	أبو هريرة	٣٥٠
التمر بالتمر والحنطة بالحنطة	أبو هريرة	٩٩
حرمت الخمر ولم يكن	أنس	١٢٠
خيراً، ثم قالت: إن ابنه قيساً	رجل من الانصار	٩٢
الذهب بالذهب وزناً بوزن مثلاً	أبو هريرة	٩٨
سأل النبي ﷺ المرأة التي وضعت	أنس بن مالك	٢٢٥
سباب المسلم فسوق وقتاله كفر	ابن مسعود	٧٤
سبحان الله، هذا كما قال قوم	أبو واقد	٢٩٢
ستكون هناتن وهنات	عرفجة	٤٠٧
سمعت رسول الله يقرأ على المنبر	يعلى بن أمية	٥٣٩
سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا	ابن عباس	٢١٤
ضُربت مثلاً لعمل، قال عمر	ابن عباس	٤٩٧
عليكم من الأعمال ما تطيقون	أم المؤمنين عائشة	٣٢٧
العيافة والطيرة		٥٩
فأمرني أن أصرف بصري	جرير	٤٣٩
فإن اعترفت فارجمها	أبو هريرة وزيد بن خالد	٤٣٣
فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين	أبو سفيان	٥١٣

فمن زاد أو نقص، فقد	عبد الله بن عمرو	٣٤٠
فوالله ما الفقر أخشى عليكم	عمرو بن عوف	٣٣٨
فيم ترون هذه الآية نزلت	عمر بن الخطاب	٤٧٩
قال الله تبارك وتعالى: أنا	أبو هريرة	٤٦
قال الله تعالى:"وعزتي وجلالي لا أجمع	أبو هريرة	٣٩٨
قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً	أبو هريرة	٣٤٤
كان برجل جراح فقتل نفسه	جندب بن عبد الله	٧٧
كان ملك فيمن كان قبلكم،	صهيب	٢٦٧
كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر	حذيفة	٣٩٨
كفضل القمر ليلة البدر على سائر		١٨٣
كلاب النار (ثلاثاً)	أبو أمامة	٦٤
الكبر بطر الحق، وغمط الناس	ابن مسعود	٣٢٤
كيف تجد قلبك؟	عمار بن ياسر	٢٦٨
لما سأل هرقل ملك الروم، أبا سفيان	ابن عباس	٢٧٧
لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث	ابن عباس	١٠٥
لما نزلَت آية الصدقة كنّا نُحامل	ابن مسعود	٢٣٧
لما نزلت هذه الآية،قال أصحاَب	ابن مسعود	٤٥٢
لتتبعن سنن من كان قبلكم	أبو سعيد	٢٩٣
لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل	ابن عمرو	٧٤
لشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها	أبو مالك الأشعري	١١٢
لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي	عبد الله بن عمرو	١٠٤
لعن الله المحلل والمحلل له	ابن مسعود	١١٣
لمن عمل بها من أمتي	ابن مسعود	٣٨٠
لو أن أحدكم إذا أتى أهله	ابن عباس	١٧٧
لو أن قطرة من الزقوم قطرت	ابن عباس	٥٢٠
لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة	أبو موسى	١٢١
لولا ما مضى من كتاب الله، لكان لي		٨٤
ليس أحد، أو ليس شيء أصبر على	أبو موسى	٢١٣
ليس على خائن ولا منتهب		٢٥٣
ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد	أنس بن مالك	٣٢٦
اللهم اشدد وطأتك على مضر	أبو هريرة	٤٥٦
اللهم اهد دوساً وأت بهم	أبو هريرة	٣٨٨
ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من	أبو سعيد	٢٩٧
ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟	ابن عمر	٢٢٠
ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟	ابن عمرو	٤٣٠
ما تركت بعدي فتنة هي أضر على	أسامة بن زيد	٣٥٢
ما تقولون في الزنا؟ قالوا هو حرام حرمه	المقداد	٤٤٥
ما حسدتكم اليهود على شيء، ما	أم المؤمنين عائشة	٣٢١
ما حملك على ما صنعت؟ فقال	ابن عباس	٢٢٠
ما رأيت من ناقصات عقل، ولا دين	ابن عمر	٣٥٣
ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا	أم المؤمنين عائشة	٢١٥

ما ظهر في قوم الربا والزنا إلا أحلوا	ابن مسعود	٤٩٥
ما كان الله ليسلطك عليّ		٢١٥
ما من الأنبياء نبي إلا أعطي	أبو هريرة	١٩٦
ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي	جرير بن عبد الله	٤٢٤
ما من مولود إلا يولد على الفطرة	أبو هريرة	١٧٢
ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان	أبو هريرة	١٧٩
مثل القائم في حدود الله والواقع فيها	النعمان بن بشير	٤٢٣
معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن	ابن عباس	١٩٣
من أتاكم وأمركم على رجل واحد		٢٥٦
من أتى ساحراً أو كاهناً أو عرَّافاً	ابن مسعود	٥٦
من أحدث في أمرنا ما ليس منه	أم المؤمنين عائشة	٦٥
من أعطى إماماً صفقة يده، وثمرة فؤاده	عبد الله بن عمرو	٢٦٦
من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني	أبو هريرة	٤٣٧
من اقتبس علماً من النجوم اقتبس	قبيصة بن مخارق	٥٩
من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله	بريدة	٤٧٥
من حافظ عليها، كانت له نوراً وبرهاناً	عبد الله بن عمرو	٣٧٨
من حفظ عشر آيات من أول سورة	أبو الدرداء	٣٥٦
من خرج من الطاعة، وفارق	أبو هريرة	٤٠٦
من خلع يداً من طاعة	ابن عمر	٤٠٦
من رأى منكم منكرا فيلغيره بيده فإن	أبو سعيد	٤٢١
من شرب الخمر في الدنيا	عبد الله بن عمرو	١١٩
من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ	أم المؤمنين عائشة	٦٣
من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو	أبو موسى الأشعري	٤٣٦
من قتل نفسه بحديدة؛ فحديدته	أبو هريرة	٧٦
من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة	عبد الله بن عمرو	٨٠
المرأة عورة، فإذا خرجت	ابن مسعود	٣٥٢
الميسر القمار، كان الرجل في الجاهلية	ابن عباس	١٠٨
نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول	حنظلة الاسيدي	٥١
النظرة سهم من سهام إبليس	حذيفة	٤٤١
هذه نَعَم لنا، فاخرجوا فيها، فاشربوا ألبانها	أنس بن مالك	٣٠
هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا:الله ورسوله	زيد بن خالد	٥٨
هلك المتنطعون، قالها ثلاثاً	ابن مسعود	٣٢٦
واغد يا أنيس		٤١٦
وجعلت قرة عيني في الصلاة	أنس بن مالك	٣٨٢
والذي نفسي بيده إن لو تدومون على	حنظلة	٥١
وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع	جابر بن عبد الله	١٠٠
وفضل العالم على العابد، كفضلي على	أبو الدرداء	١٨٣
وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إلي	أبو هريرة	٤٨٢
ومن سنّ في الإسلام		٥١٤
ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل قد خبت	أبو سعيد	٦٧
وفضل العالِم على العابد	أبو الدرداء	١٩٢

وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال	أبو هريرة	١٨٤
ويلَك ومنْ يعدل إذا لم أَكن أعدل	أبو سعيد	٢٣١
لا أحد أغير منَ الله، فلذلك حرّم	ابن مسعود	٨٩
لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكة	أبو رافع	٤٠٤
لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر اقترب،	زينب	٢٦
لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين،فإني	أبو سعيد	٩٩
لا تبيعوا الذهب بالذهب، ولا تبيعوا الورق	أبو سعيد	٩٩
لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن	ابن عمر	٣٦٤
لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى	عمر بن الخطاب	٣٢٧
لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على	ابن مسعود	٧٢
لا، ولكن الرجل يصوم ويتصدق	عائشة	٣٩٧
لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن	ابن مسعود	٧٦
لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم	ابن عمر	٧٤
لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن	أبو هريرة	٩١
لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح	أبو هريرة	١٨٢
لا ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويصلي	أم المؤمنين عائشة	٤١٤
يأتي الشيطان أحدكم، فيقول	أبو هريرة	١٨٤
يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان	علي بن ابي طالب	٢٥٥
يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن	أبو نضرة	٤٠٢
يا أيها الناس، إن ربكم يستعتبكم	ابن مسعود	٤٨٩
يا عبد الله؛ ألم أخبر أنك تصوم النهار	ابن عمر	٣٤٥
ياعبد الله؛ ألم أخبر أنك تصوم النهار	ابن عمر	٣٢٨
يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟	عمرو بن العاص	٧٦
يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهنّ	ابن عمر	٧٢
يا معشر الناس اتقوا الزنى فإن فيه ست	حذيفة	٤٥٤
يا معشر اليهود، ويلكم، اتقوا الله	عبد الله بن سلام	٢١٨
يا مُقلِّبَ القُلوب ثبِّت قلبي على دينك	أنس بن مالك	٣٨٨
يخرج قوم تحقرون صلاتكم مع صَلاتهم	أبو سعيد	٢٥٥
يسروا ولا تعسروا	أنس بن مالك	٢٢٢
ينصب لكل غادر لواء		٥١٥

فهرس الآثـــار

الأثر	اسم القائل	رقم الصفحة
ابتلتم بفتنة السراء فصبرتم.	معاذ	٣٥٢
اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم	ابن مسعود	٦٩
أحدثتم والله، لئن عادت لأخرجن	عمر بن الخطاب	٤٠٨
أخاف عليكم اثنين: اتباع الهوى.	على بن أبي طالب	٣٠٣
أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل.	ابن عباس	٢٦٦
أخوف ما أخاف إذا وقفت بين يدي الله .	أبو الدرداء	٣٥٥
أراد بالقارعة: السرايا	ابن عباس	٤٩٤
أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ .	ابن أبي مليكة	٥٢
أين كاتبك، يقرأ هذا الكتاب	عمر بن الخطاب	٢٩٧
إخواننا بغوا علينا	علي بن أبي طالب	٢٥٥
إذا أخذوها عنوةً أخربوها .	ابن عباس	٢٨
اذهبي فابغينا شيئاً	عبد الله بن أبي	٩٠
أفسدهم الله بذنوبهم في بحر الأرض.	الحسن	٢٩٣
أنهما من الميسر	على بن ابي طالب	١٠٩
اقتلوا كلَّ ساحر .	عمر بن الخطاب	٥٧
إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل	عطاء بن أبي رباح	١١٧
إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم	ابن عباس	٤٧٩
إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل	ابن مسعود	٤٢٢
إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورؤوسهن	سعيد بن أبي الحسن	٤٤٩
إن الخلاف شرٌّ	ابن مسعود	٤٠٧
إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من آياته	قتادة	٥٠٨
إن صوته هو الغناء .	مجاهد	١٧٥
إن قبض الدراهم والدنانير من الإفساد .	سعيد بن المسيب	٢٩
انتهينا انتهينا	عمر بن الخطاب	١٣٧
انتهينا يا رب	عمر بن الخطاب	١١٨
إنفاق المال في غير حقه .	ابن مسعود	١٨٠
إنما زهد الناس في طلب العلم	على بن ابي طالب	٣٧٣
إنما كان هذا، لأن قريشاً لما استعصوا على	ابن مسعود	٤٧٩
أنهما من الميسر .	على بن أبي طالب	١٠٩
إياكم وأصحاب الرأي فإنهم .	عمر بن الخطاب	٦٩
إياكم وما يحدث الناس من البدع .	ابن مسعود	٦٩
بعث الله عليهم في الأولى جالوت	ابن عباس	٢٥
بغت القوم أمر الله	قتادة	٤٨٥
تلك علامة أهل الربا يوم القيامة	قتادة	١٠١

الجبت السحر	عمر بن الخطاب	٥٩
حرِّمت الخمر و لم يكن يومئذ للعرب	أنس	١١٩
حقٌّ على إمام أن يحكم بالعدل	على بن أبي طالب	٤٠٤
الحرث هنا الزرع	ابن عباس	٢٧
خطَّ رسول الله ﷺ خطاً	ابن مسعود	٦٢
دخل أبو بكر الصديق	ابن عباس	٢١٠
دينِ الله	ابن عباس	١٨٠
ذكِّرنا ربنا، فيقرأ وهمِ	عمر بن الخطاب	١٢١
رأيت فِي الجاهلية قِرْدَةً	عمرو بن ميمون	٤٢٩
عزيز عليَّ، أن تذيبَ الدنيا	أحمد بن حنبل	٣٥٥
فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه	أم المؤمنين عائشة	٦٣
فأما الذينَ أبيضت وجوههم فأهل السنة	ابن عباس	٦٤
فساد البَرّ: قتل ابن آدم أخاه	مجاهد	٢٩٣
فهُم من الذين أمنوا بموسى	ابن عباس	٢٨٠
فهؤلاء رجال أسلموا من مكة	ابن عباس	٣٦٩
فإن قال قائل: وكيف تنهى الصلاة	ابن عباس وابن مسعود	٣٧٩
الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية	ابن مسعود	٢١
قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين	عمر بن الخطاب	٣١٣
كان أحبار قُرَى عربية اثني عشر حبرًا	السدي	٢١٧
كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم	ابن عباس	٩٢
كان بين نوح وآدم عشرة قرون	ابن عباس	٤١
كان رجلٌ في غُنَيْمَة له فلَحقَه المسلمون	ابن عباس	٨٠
كان الرجل إذا توفيَ أبوه	مجاهد	١١٧
كان الرجل إذا مات أبوه	ابن عباس	١١٧
كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر	ابن عباس	٣٠٤
كان عبد الله بن أبيّ بن سلول يقول	جابر بن عبد الله	٩٠
كانت ملوكٌ بعد عيسى عليه السلام بدلوا	ابن عباس	٢٢٤
كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ	أبو العالية	٣٢٠
لستم تنصرون بكثرة	عمر بن الخطاب	٤٠٨
لم يترل على أهل النار آية أشد	عبد الله بن عمرو	٥١٨
لو أنفق الإنسان ماله كله في الحق	مجاهد	١٨٩
ليتني لم أكتب العلم	سفيان الثوري	٣٥٥
اللهم إني أعوذ بك أن أكونَ مُستَدْرَجاً	عمر بن الخطاب	٤٨٤
ما أنا بآخذ جهلي بيدي	العباس بن مرداس	١٢٠
ما ذكر الله هوىً في القرآن	ابن عباس	٣٠٢
ما شيء عندي أخوف من النساء	سعيد بن المسيب	٣٥٢
مرّ الملأ من قريش بالنبيّ ﷺ، وعنده	ابن مسعود	٢٦٥
مكث عنهم ألف سنة	ابن عباس	٥٢٢
من سره أن ينظر إلى وصية محمد	ابن مسعود	١٣١
من لم يطع صلاته؛ لم يزددً	ابن مسعود	٣٧٩
من وسّع الله عليه، فلم ير أنه يُمكر	الحسن البصري	٤٨٥

مُكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم	قتادة	٤٩٣
المكاء الصفير، والتصدية التصفيق	ابن عباس	١١٩
نعمت البدعة	عمر بن الخطاب	٦٦
نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار	ابن عباس	٣١١
الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب	ابن عباس	٤٥
لا، ولكنهم كانوا إذا أُمروا بشيء تركوه	حذيفة	٢٨١
هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف	ابن مسعود	٤٦١
هم يلون من أمورنا خمساً	الحسن البصري	٤٠٦
هو نقصان البركة بأعمال العباد	ابن عباس	٢٧٩
هو كل داعٍ دعا إلى معصية الله	ابن عباس	١٧٥
هي أجمع آيةٍ في القرآن	ابن مسعود	١٢٩
والذي لا إله غيره هو الغناء	ابن مسعود	١٧٥
لا بد للناس من إمارة، برَّة كانت	على بن أبي طالب	٤٠٦
لا... من الشرك فروا.	علي بن أبي طالب	٢٦٧
لا ولكنهم كانوا إذا أُمروا بشيء	حذيفة	٢٩٥
يا أيها الناس ، إن ربكم يستعتبكم	ابن مسعود	٥١٢
يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ	عبد الله بن عمر	٣٢٨
يا من أحب عباده إليه من سأله	سفيان الثوري	٤٠٢
يؤمنون بمحْكَمه، ويَضلون	ابن عباس	٦٣
يخادعون الله كأنما يخادَعون الصبيان	أيوب السختياني	١١٤
يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك	ابن عباس	٣٢٤

فهرس الأعلام

الاسم	رقم الصفحة
إبراهيم بن السّريّ بن سهل، الزجاج نسبة إلى خرط الزجاج	٢٨
إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي، الشهير بالشاطبي	٧٢
أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي أبو الحسين	١٨
أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني	٥٢
أحمد بن محمد بن إسماعيل، أبو جعفر النحاس،اللغوي	٣١
أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي	٩٩
إسماعيل بن عبد الرحمن السدي	٢٣
إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير	٢٤
أيوب بن أبي تميمة السختياني	١١٣
الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب	٢٧
بجالة بن عبدة التميمي العنبري البصري	٥٧
بختنصر بن نبوزر بن سنجاريف٠	٢٦
جالوت	٢٥
جرير بن عبد الله بن جابر البجلى القسرى	٤٢٤
حزور بفتح الحاء والزاي،وقيل:سعيد بن الحزور، صاحب أبي أمامة	٦٤
جندب بن عبد الله البجلي: له صحبة	٧٧
حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة	٢٩٥
حافظ بن أحمد الحكمي	٥٥
حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات القارىء	٣١
حزور بفتح الحاء والزاي، صاحب أبي أمامة	٦٤
حنظلة بن الربيع بن صيفي بن رياح بن الحارث التميمي	٥١
الحسن بن أبي الحسن البصري الأنصاري	٧٥
الحسين بن محمد أبو الحسين الدامغاني	٢١
الحسين بن محمد، أبو القاسم الأصفهاني، المعروف بالراغب	١٨
خلف بن هشام بن ثعلب	٨٠
زيد بن خالد الجهني	٥٨
سعيد بن أبي الحسن : يسار ، الأنصارى	٤٤٠
سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب	٢٩
سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي الكوفي	٣٢٩
شريك بن سحماء : وسحماء هي أمه	٨٥
طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت	٢٦
عاصم بن بهدلة ، وهو أبي النجود الأسدي الكوفي المقرئ	٣١
عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر الأنصاري	٨٢
عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي	٢٣

عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي الحنبلي ٦٥
عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج بن الجوزي ٢١
عبد الرحمن بن ناصر السعدي التميمي ٢٧
عبد الله بن أبي بن سلول ٨٩
عبدالله بن عبيد الله بن أبي مليكة، بالتصغير، أبو بكر القرشي ٥٢
عبد الله بن عامر بن يزيد بن تميم اليحصبي ٣٨٨
عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة،بالتصغير،ابن عبدالله بن جدعان ٥٢
عبد الله بن كثير الداري المكي أبو معبد ٣٦٩
عبد الله بن محمد بن اسماعيل الأنصاري الهروي الحلبي الصوفي ٣٨٦
عبدالله بن محمد بن اسماعيل الأنصاري الهروي ٣٦٧
عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري ١١٨
عثمان بن مظعون بن حبيب ١٢٩
عدي بن ثابت الأنصاري الكوفي ٩٢
عرفجة بن أسعد بن كرب التميمي العطاردي ٤٠٧
عقبة بن عامر الجهنى أبو حماد ٤٦٨
علي بن أحمد بن محمد الواحدي ٢٧
علي بن حمزة بن عبد الله الكسائي ٣١
علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري المعروف بـــ"ابن الأثير" ٤٢٩
عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بسيبويه ٥٢٤
عنترة بن شداد بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن ربيعة ٤٣٩
العباس بن مرداس السلمي ١١٩
قتادة بن دعامة السدوسي ٧٥
قس بن ساعدة بن عمرو، من بني إياد ٢٤٢
لبيد بن ربيعة، الشاعر المشهور، أدرك الإسلام ٣٧
مجاهد بن جبر المكي ، أبو الحجاج القرشي ٢١
محمد الأمين بن محمد المختار الجكني ، الشنقيطي ٤١
محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري ٢١
محمد بن الحسين البغدادي أبو بكر ٦٣
محمد بن صالح العثيمين ٥٧
محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبدالقادر بن عاشور ٣٢
مقاتل بن حيان النبطى ، أبو بسطام البلخى ٤٦١
مقاتل بن سليمان بن بشير البلخي أبو الحسن الأزدي ٢١
المهلهل بن ربيعة التغلبي واسمه امرؤ القيس ٤١٢
نفيع بن الحارث بن كلدة ٤٢
هلال بن أمية الواقفي، شهد بدراً ٨٥
ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ٢٠١
يحي بن زياد، أبو زكريا، الكوفي النحوي ٢٤
يحيى بن شرف بن مري النووي أبو زكريا الدمشقي الشافعي ٣٩
يحيى بن معاذ أبو زكريا الواعظ ٣٥٥
يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي. ٣٦٩
يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري أبو عمر ٤٢٩

الكنى

أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الملقب بسيبويه ٥٠٦
أبو بكر محمد بن الحسين البغدادي ٦٣
أبو السعود العمادي، أحمد بن محي الدين ٣٣
أبو رافع القبطي ١٩٣
أبو عبدالله محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبدالقادر بن عاشور ٣٣
أبو عمرو بن العلاء بن عمار التميمي المازني المقريء ٣٦٩
أبو قيس بن الأسلت ٩٢
أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون ٣١٣
أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ٥٢

فهرس الأشعار

أتاني هواها قبلَ أنْ أعرِفَ الهوى	فصادفَ قلباً خالياً فتمكّنا	٣٧١
أعمى يقـــود بصيراً لا أبا لكم	قد ضلّ من كانت العميان تهديه	١٩٦
أغض طرفي حين تبدو جارتي	حتى يواري جارتي مأواها	٤٣٩
أيام يدعونني الشيطان من غزل	وكنَّ يهوينني إذْ كنتُ شيطانا	١٧٠
أيما شاطن عصاه عكـــاه	ثم يلقى في السجن والأغلال	١٧١
إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى	إلى كل ما فيه عليك مقال	٣٠٦
إذا العلم لم تعمل به كان حجةً	عليك و لم تُعذر بما أنت حاملِ	٣٥٥
إلا الذي فوق السماء مكانه	فَلِوَجْهِهِ الإكـــرام والإجلال	٢٤٢
حب الكتاب وحب ألحان الغنا	في قلب عبد ليس يجتمعان	١٧٥
حتى إذا ألقت يداً في كافر	وأجنّ عورات الثغور ظلامها	٣٧
رأيتَ الذي لا كُلُّهُ أنتَ قادرٌ عليهِ	ولا عن بعضـــهِ أنت صابرُ	٤٤١
علم النجوم على العقول وبال	وطِـــلابُ شيءٍ لا ينال ضلال	٢٤٢
فإنْ تَنجُ مِنْها تنج مِنْ ذي عظيمةٍ	وإلاّ فَإنِّي لاَ إخَالُكَ ناجياً	٢٣٠
فإن كنت قد أبصرت هذا فإنما	يصدِّق قول المرء ما هو فاعل	٣٥٥
لولا الحياء وأن رأسي قد عثا	فيه المشيب لزرت أم القاسم	١٩
نَأَتْ بسعادَ عنك نوىً شَطونُ	فبانتْ والفــؤادُ بها رهـــينُ	١٧٠
هيهات ما أحد بغامضٍ فطنةٍ	يـــدري كمِ الأرزاق والآجال	٢٤٢
وكنت متى أرسلت طرفك رائدا	لقلبك يوما أتعبتك المناظر	٤٤١

فهرس الأماكن والفِرَق

اسم المكان	الصفحة
بابل	٥٢
تبوك	٤٨
الحرّة	٣٠
الحوزة	٢٥٦
الدَّسْكرة	٢٦٨
الفرما	٢٦٦
المدراس	٢٠٩

الفِرق	الصفحة
الجهمية	٦١
الخوارج	٦١
الرافضة	٦١
القرامطة	٧٠
الرأسمالية	١٠٣
الاشتراكية	١٠٣
المرجئة	٤٥
القرامطة	٧٠

ثبت المصادر

القرآن الكريم ٠

=اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي،ابن قيم الجوزية،،مكتبة ابن تيمية، مصر، الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

= أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي أبو بكرالجصاص، دار إحياء التراث العربي- بيروت ، ١٤٠٥ تحقيق: محمد الصادق قمحاوي٠

= أحكام القرآن، محمد بن عبد الله أبو بكر ابن العربي،دار الفكر- بيروت، تحقيق: محمد عبد القادر عطا

= الآداب الشرعية والمنح المرعية، أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي،تحقيق شعيب الأرنؤوط / عمر القيام، مؤسسة الرسالة- بيروت،سنة النشر ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

= أدب الدنيا والدين،أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي،الشهير بالماوردي، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت.

= أساليب المجرمين في التصدي لدعوة المرسلين وعاقبة ذلك في ضوء القرآن الكريم، محمد بن عبدالعزيز المسند، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط: الأولى ١٤٢٢هـ

= أسرار التكرار في القرآن، محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، دار الاعتصام — القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٦، تحقيق: عبد القادر احمد عطا

= أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر- بيروت- ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات.

= إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي، دار الكتب العلمية- لبنان - ١٤١٩هـ١٩٩٨م، ط: الأولى، تحقيق: أنس مهرة

= أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة. تأليف: حافظ بن أحمد الحكمي. ت: أحمد بن علي مدخلي. الناشر: مكتبة الرشد- الرياض. ط: الرابعة ١٤١٦هـ

= إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت

= إرشاد أولي البصائر والألباب النيل الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب، دار أضواء السلف. بعناية: أشرف عبد المقصود

= إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان،ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد سيد كيلاني، طبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٩٦١م

= اقتضاء العلم العمل. أحمد بن علي بن ثابت البغدادي أبو بكر الخطيب البغدادي، المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني

= الأهواء والفرق واالبدع، ناصر بن عبدالكريم العقل. دار الوطن- الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ

= الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الجيل- بيروت- ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، ط:الأولى، ت: علي محمد البجاوي٠

= الأمثال في القرآن الكريم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي،ابن قيم الجوزية، مكتبة الصحابة- طنطا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ - ١٩٨٦

= البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية - بيروت- ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م الطبعة:الأولى

= بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع علاء الدين الكاساني، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، سنة النشر ١٩٨٢م
= بدائع الفوائد،المؤلف:ابن قيم الجوزية، الناشر:مكتبة نزار مصطفى الباز- مكة المكرمة-١٤١٦-١٩٩٦،ط:الأولى، ت: هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي.
= بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. تأليف: مجد الدين محمد يعقوب الفيروزابادي. المكتبة العلمية- بيروت. ت: محمد علي النجار.
= البداية والنهاية، تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، مكتبة المعارف-بيروت.
= البرهان في علوم القرآن .المؤلف: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي الناشر: دار المعرفة بيروت ١٣٩١. ط: الثانية.تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
= البيان والتبيين، تأليف: الجاحظ، الناشر: دار صعب - بيروت، تحقيق: فوزي عطوي.
= تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي،دار الهداية، تحقيق:مجموعة من المحققين.
= تاريخ الطبري، تأليف: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية - بيروت.
= التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع- تونس - ١٩٩٧م
= تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن المباركفوري أبو العلا، دار الكتب العلمية - بيروت
= تذكرة الحفاظ، أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة: الأولى.
= تفسير البيضاوي، تأليف: البيضاوي، دار النشر: دار الفكر — بيروت.
= تفسير القرآن العظيم،إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، دار الفكر - بيروت - ١٤٠١
= تفسير القرآن العظيم ، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، المكتبة العصرية- صيدا، تحقيق: أسعد محمد الطيب
= تفسير القرآن العظيم، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مكتبة الرشد - الرياض- ١٤١٠، الطبعة الأولى، تحقيق: د.مصطفى مسلم محمد
= تلبيس إبليس، عبد الرحمن بن علي أبو الفرج ابن الجوزي ، دار الكتاب العربي - بيروت- ١٤٠٥-١٩٨٥، الطبعة:الأولى، تحقيق:د.السيد الجميلي
= تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار الفكر- بيروت- الطبعة الأولى، ١٤٠٤ — ١٩٨٤ م
= تهذيب الكمال، يوسف بن عبدالرحمن أبو الحجاج المزي، مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٠ - ١٩٨٠، الطبعة:الأولى، تحقيق:د.بشار عواد معروف.
= تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، دار إحياء التراث العربي- بيروت- ٢٠٠١م،الطبعة: الأولى، تحقيق:محمد عوض مرعب.
= توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، أحمد بن إبراهيم بن عيسى،المكتب الإسلامي- بيروت ١٤٠٦هـ، الطبعة:الثالثة، تحقيق:زهير الشاويش.
= تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي،مؤسسة الرسالة-بيروت-١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م ، ت: عبدالرحمن اللويحق.
= التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع- تونس- ١٩٩٧م
= التشريع الجنائي الإسلامي، مقارنا بالقانون الوضعي، عبدالقادر عودة، مؤسسة الرسالة-بيروت، الطبعة:الحادية عشر ١٤١٢هـ- ١٩٩٢ م
= التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتاب العربي- بيروت-١٤٠٥، الطبعة:الأولى،تحقيق: إبراهيم الأبياري.
= التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للفخر الرازي، تحقيق عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، مصر.

= التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، دار التفسير للطبع والنشر، الزقازيق، مصر، الطبعة العاشرة ١٩٩٢
= التنجيم والمنجمون وحكم ذلك في الإسلام، اسم المؤلف : عبد المجيد بن سالم المشعبي الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م
= جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، دار الفكر - بيروت — ١٤٠٥
= الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي،دار ابن كثير- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧— ١٩٨٧ ت:د.مصطفى ديب البُغا.
= الجامع لأحكام القرآن،أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي دار الشعب- القاهرة.
= جريمة قطع الطريق وأثرها في تشديد العقوبة، د.محمد إسماعيل أبو الريش، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى ١٤١١ ـــ ١٩٩٠
= الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الناشر:مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت
= حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع، جمع: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم.ط: الرابعة، ١٤١٠هـ
=الحجة في القراءات السبع، الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله، دار الشروق- بيروت- ١٤٠١، الطبعة: الرابعة، تحقيق: د.عبد العال سالم مكرم.
= الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار الفكر- بيروت ١٩٩٣م
= الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي، دار الكتب العلمية — بيروت.
= روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت
= الروض المربع شرح زاد المستقنع، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض - ١٣٩٠
= زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي -بيروت- ١٤٠٤، الطبعة: الثالثة.
= زاد المعاد في هدي خير العباد،ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة - بيروت- ١٤٠٧- ١٩٨٦، الطبعة: الرابعة عشر، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط.
= سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، دار الفكر- بيروت ت: محمد فؤاد عبد الباقي.
= سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.
= سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، مكتبة دار الباز-مكة المكرمة ١٤١٤ — ١٩٩٤ تحقيق : محمد عبد القادر عطا.
= سنن الترمذي ، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، تحقيق:أحمد محمد شاكر وآخرون.
= سنن الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، دار المعرفة- بيروت،١٣٨٦- ١٩٦٦ تحقيق : السيد عبد الله هاشم يماني المدني.
= سنن الدارمي. عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي.
= سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة-بيروت-١٤١٣، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي.

= السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني،الناشر: دار المعرفة.
= السيرة النبوية لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري. مكتبة دار المنار للنشر والتوزيع القاهرة.
= شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم. لأبي القاسم هبة الله اللالكائي تحقيق: سعيد عمران. دار الحديث بالقاهرة ٢٠٠٤م
= الشريعة. أبي بكر الآجري. تحقيق: محمد حامد الفقي.دار السلام-الرياض.ط:الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٢م
= شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي،ابن قيم الجوزية، دار المعرفة،بيروت، ،١٣٩٨هـ/١٩٧٨م
= الصحاح في اللغة، إسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة: الرابعة-١٩٩٠.
= صَحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي- بيروت، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي
= صيد الخاطر ،جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي .
= طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، الناشر:هجر للطباعة والنشر والتوزيع- ١٤١٣هـ: ط:الثانية، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، د.عبد الفتاح محمد الحلو.
= طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، دار المدني- جدة، ت: محمودمحمد شاكر.
= طبقات المفسرين، تأليف: أحمد بن محمد الأدنه وي، دار النشر: مكتبة العلوم والحكم – السعودية – ١٤١٧هـ– ١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي.
= طبقات المفسرين،عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مكتبة وهبة- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٦، تحقيق : علي محمد عمر
= العجاب في بيان الأسباب ، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني،ادار ابن الجوزي- الدمام- السعودية- ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م، ط: الأولى، ت: عبد الحكيم محمد الأنيس.
= علاج القرآن الكريم للجريمة. تأليف: د.عبدالله بن محمد الأمين الشنقيطي، الناشر:مكتبة العلوم والحكم –المدينة النبوية، ط: الأولى ١٤٢٣هـ
= غرائبَ القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري، دار الكتب العلمية – بيروت- ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى ، تحقيق: زكريا عميران
= فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة – بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب.
= فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن، عبدالرحمن السعدي. دار ابن الجوزي- الدمام. ط:الأولى١٤٢١هـ
= فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد. عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب. تحقيق:الوليد الفريان. دار الصميعي- الرياض. ط: الأولى ١٤١٥هـ
= الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني، دار المعرفة، بيروت، ت: حسنين محمد مخلوف.
= قواعد الأحكام في مصالح الأنام. عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، تحقيق: محمود بن التلاميد الشنقيطي. دار المعارف بيروت- لبنان
= القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة – بيروت.
= القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار البصيرة- الاسكندرية/ مصر.
= القول المفيد على كتاب التوحيد.محمد بن صالح العثيمين. دار ابن الجوزي- الدمام،ط:الأولى ١٤١٨هـ
=كتاب الكليات. أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، مؤسسة الرسالة – بيروت- ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م ، تحقيق: عدنان درويش- محمد المصري
= كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، دار الفكر – بيروت – ١٤٠٢ ، تحقيق: هلال مصيلحي مصطفى هلال

= كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٣ - ١٩٩٢
= الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي- القاهرة،الطبعة: الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م
= الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.
= الكشف والبيان. أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي النيسابوري. دار إحياء التراث العربي- بيروت- ١٤٢٢ هـ- ٢٠٠٢ م ط: الأولى، تحقيق: محمد الطاهر ابن عاشور.
=الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، مؤسسة الرسالة- بيروت - ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، تحقيق:عدنان درويش-محمد المصري.
= لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر- بيروت ط: الأولى.
= مباحث في علوم القرآن. صبحي الصالح. دار العلم للملايين.ط:الرابعة والعشرون٢٠٠٠م
= مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت١٤١٢ هـ.
= مجموع الرسائل. سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب. ت: د.الوليد بن عبدالرحن الفريان. دار عالم الفوائد-مكة . الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ
= المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية- ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، الطبعة: الأولى،تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد
= مختار الصحاح، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون بيروت، الطبعة ١٤١٥ - ١٩٩٥ تحقيق: محمود خاطر.
= مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية، محمد بن عبد الوهاب،الناشر:الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة - ١٣٩٦ ، تحقيق: محمود شكري الألوسي
= مسند الإمام أحمد بن حنبل المؤلف : أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني الناشر : مؤسسة قرطبة - القاهرة-الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها.
= مشكاة المصابيح،اسم المؤلف: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، دار النشر:المكتب الإسلامي- بيروت- ١٩٨، الطبعة:الثالثة، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني
= المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ، مكتبة الرشد - الرياض - ١٤٠٩، الطبعة: الأولى ، تحقيق: كمال يوسف الحوت
= معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي،تحقيق: محمد النمر - عثمان ضميرية - سليمان الحرش دار طيبة للنشر- الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م
= معاني القرآن وإعرابه، للزجاج. دار الحديث- القاهرة - ١٤٢٤هـ ت: عبدالجليل شلبي.
= معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، عالم الكتب- بيروت - ١٤٠٣، الطبعة: الثالثة، تحقيق: مصطفى السقا.
= معترك الأقران في إعجاز القرآن. جلال الدين السيوطي. دار الكتب العلمية- بيروت. ط: الأولى .١٤٠٨هـ/١٩٨٨م
= مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، محمد الخطيب الشربيني، دار الفكر - بيروت
= المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد،الراغب الأصفهاني، دار المعرفة- لبنان، تحقيق: محمد سيد كيلاني.
= مواقف إيمانية، جمع وترتيب الشيخ أحمد فريد، دار طيبة للنشر القاهرة.ط:الأولى١٤١٩هـ ١٩٩٨م
= موسوعة نظرة النعيم في مكارم وأخلاق الرسول الكريمﷺ،إعداد:مجموعة من المختصين، بإشراف:

د.صالح بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح،الناشر: دار الوسيلة-جدة.ط:الرابعة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م
= المبسوط ، شمس الدين السرخسي ،دار المعرفة - بيروت
= المجتبى من السنن، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، الناشر:مكتب المطبوعات الإسلامية — حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦ تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة.
= المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية — بيروت الطبعة الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
= المستصفى من علم الأصول، أبي حامد محمد الغزالي الطوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط:الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.،تحقيق:محمد بن سليمان الأشقر.
= المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي،المكتبة العلمية- بيروت.
= المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دار الحرمين- القاهرة ،١٤١٥، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد ،عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني.
= معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار الفكر - بيروت
= المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، مكتبة العلوم والحكم — الموصل، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ — ١٩٨٣ تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي.
= المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى/أحمد الزيات/حامد عبد القادر/محمد النجار، دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.
= المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي،دار الفكر- بيروت- ١٤٠٥، ط: الأولى
= مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت
= المفردات في غريب القرآن ، اسم المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني، الناشر: دار المعرفة - لبنان، تحقيق: محمد سيد كيلاني
= من لطائف التفسير، أحمد فرح عقيلان ٣٠٩/١ .دار اليقين،المنصورة، ١٩٩٨.
= نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمرالبقاعي، دار الكتب العلمية-بيروت-١٤١٥هـ-١٩٩٥م،تحقيق:عبد الرزاق غالب المهدي.
= نكت القرآن الدالة على البيان.للإمام محمد بن علي القصاب.ت:د.علي بن غازي التويجري، دار ابن القيم-الرياض، دار ابن عفان-القاهرة.الطبعة: الثانية ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م
= النكت والعيون أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، دار الكتب العلمية- بيروت
= نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، دار الكتب العلمية - بيروت- ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، الطبعة: الأولى
= النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري،المكتبة العلمية-بيروت- ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ت: طاهر أحمد الزاوى- محمود محمد الطناحي.
= النهي في القرآن الكريم، أساليبه — مجالاته- ثمراته — والإعجاز المتمثل فيه، رسالة ماجستير،إعداد: عبدالحميد علاء الدين سفانتون.المكتبة المركزية- جامعة الإمام بالرياض. ١٤٠٩/١٤٠٨هـ
= الوابل الصيب من الكلم الطيب،محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن القيم الجوزية، دار الكتاب العربي- بيروت،الطبعة الأولى ،١٤٠٥ - ١٩٨٥
= الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع.تأليف: عبد الفتاح القاضي الشركة الدولية للطباعة القاهرة. ٢٠٠٤ م

فهرس الموضوعات

المقدمة..٢

أهمية الموضوع وأسباب اختياره........................ ٦

أهداف البحث.......................................٧

خطة البحث...................................... ٩

منهج البحث......................................١٣

الباب الأول : مفهوم الفساد واطلاقاته ١٥

الفصل الأول : مفهوم الفساد ١٦

المبحث الأول : معنى الفساد في اللغة والاصطلاح..........١٧

المبحث الثاني : اطلاقات الفساد في القرآن.........٢٠

المطلب الأول : الفساد بعنى العصيان..................٢١

المطلب الثاني : الفساد بمعنى الهلاك..................٢٤

المطلب الثالث : الفساد بمعنى التخريب..................٢٧

المطلب الرابع : افلفساد بمعنى القتل..................٣١

المطلب الخامس : الفساد بمعنى السحر..................٣٣

الفصل الثاني : أنواع الفساد ٣٥

المبحث الأول : الفساد العقدي..........................٣٦

المطلب الأول: الكفر والشرك..........................٣٧

المطلب الثاني: النفاق...................................٤٧

المطلب الثالث: السحر..................................٥٣

المطلب الرابع: الابتداع في الدين.........................٦١

المبحث الثاني : الفساد العملي..........................٧١

المطلب الأول: الجنايات..............................٧٣

القتل أعظم الجنايات..................................٧٣

ومن الجنايات: السرقة........................ ٨١
ومن الجنايات: القذف........................ ٨٣
المطلب الثاني: الفواحش........................ ٨٨
محاربة القرآن الكريم للفواحش........................ ٩٥
المطلب الثالث: المعاملات والعادات........................ ٩٧
أولاً: فساد المعاملات........................ ٩٧
الربا........................ ٩٨
الرشوة........................ ١٠٤
التطفيف في الميزان........................ ١٠٥
القمار والميسر........................ ١٠٧
الحيل........................ ١١٠
ثانياً: فساد العادات........................ ١١٥
امتهان المرأة وازدرائها........................ ١١٥
شرب الخمر........................ ١١٧
التصفير والتصفيق........................ ١١٩
الفصل الثالث : أساليب القرآن في بيان الفساد ١٢٢
المبحث الأول :النهي عن الفساد........................ ١٢٥
صيغ النهي والتحريم ونفي الحل........................ ١٢٨
القصر المتضمِّن للنهي........................ ١٣٢
النهي بصيغة النفي........................ ١٣٤
الأوصاف الدالة على النهي........................ ١٣٥
الفعل المقرون بوعيد أو تهديد........................ ١٣٨
النهي عن قربان الشيء........................ ١٤٠
النهي عن المجاوزة........................ ١٤١
النهي بالمثال والتشبيه........................ ١٤٢
النهي عن الأدنى تنبيهاً على الأعلى........................ ١٤٤

المبحث الثاني: ذم أهله والتشهير بهم........................١٤٦
وصفهم بالإسراف.....................................١٤٧
"" الإجرام...١٤٨
"" بالضلال..١٤٩
"" الفسق..١٥٣
"" ضعف العقل والعلم...............................١٥٥
ضرب الأمثال الدالة على فسادهم وانحرافهم..............١٥٨
نفى المساواة بينهم وبين المؤمنين......................١٦١
المبحث الثالث : بيان عاقبته............................١٦٢
المبحث الرابع : ذكر من اتصف بالفساد..................١٦٧
المطلب الأول: الشيطان.................................١٧٠
فمن صور فساده : أمره بالكفر...........................١٧٢
وحيه لأوليائه بمجادلة أهل الحق..........................١٧٣
دعوته للتعري..١٧٧
الوعود الكاذبة والأماني الباطلة..........................١٧٨
بثه للعداوة بين الناس...................................١٨٠
التثبيط عن الطاعات...................................١٨٢
الوسوسة والنزغ..١٨٣
المطلب الثاني: مكذبو الرسل............................١٨٨
فمن فسادهم : الفرية على الله تعالى.......................١٩٠
الوصاية بالكفر والإعراض عن سماع الحق..................١٩١
إثارة الشكوك والشُبه لرد دعوة الرسل......................١٩٢
كثرة الاحتجاج لرد دعوة الرسل...........................١٩٥
إنكارهم للبعث..٢٠٠
الأفعال المنكرة أثناء الدعوة...............................٢٠٥
المطلب الثالث: أهل الكتاب.............................٢٠٨

من فسادهم : نسبتهم النقص إلى الله تعالى.............. ٢٠٩
عداوتهم للملائكة.................................. ٢١٣
قتل الأنبياء.. ٢١٤
الفرية والاتهام بالباطل.............................. ٢١٥
التلبيس والمغالطة.................................. ٢١٦
التعنت والتشدد.................................... ٢٢٢
المطلب الرابع:المنافقون............................ ٢٢٧
من فسادهم : الإعراض عن حكم الله تعالى........... ٢٢٧
سوء الظن بالله تعالى.............................. ٢٢٨
أذيتهم للنبي ﷺ.................................... ٢٣٠
تولي الكافرين...................................... ٢٣١
التربص بالمؤمنين................................... ٢٣٢
اتخاذ الأيمان الكاذبة............................... ٢٣٤
الاستهزاء... ٢٣٦
تثاقلهم عن الطاعات............................... ٢٣٨
المطلب الخامس: السَّحرة........................... ٢٤٢
فمن فسادهم : فسادهم في أنفسهم................... ٢٤٣
اتصالهم بالشياطين................................. ٢٤٤
منازعتهم لله تعالى في علم الغيب والنفع والضر........... ٢٤٦
تعليقهم القلوب بغير الله تعالى........................ ٢٤٨
المطلب السادس: البغاة والمحاربون.................... ٢٥١
الفرق بين الحرابة والبغي............................ ٢٥٣
المطلب السابع:الكبراء والأثرياء...................... ٢٦١
ومن صور فسادهم؛ إكراههم للناس على المعاصي......... ٢٦٦
ردّ الحق والإعراض عنه.............................. ٢٦٨

الباب الثاني : أسباب الفساد وموانعه ٢٧٣

الفصل الأول : أسباب الفساد ٢٧٤

المبحث الأول : الكفر والذنب.......................٢٧٦

المبحث الثاني : تزيين الشياطين.......................٢٨٢

المبحث الثالث : التلقيد المذموم.......................٢٨٧

المبحث الرابع : موالاة المفسدين واتباعهم.........٢٩٤

المبحث الخامس : اتباع الهوى.......................٣٠١

المبحث السادس : الكبر.......................٣٠٧

المبحث السابع : الحسد....................... ٣١٤

المبحث الثامن : الغلو.......................٣٢٣

المبحث التاسع : الترف.......................٣٣٠

المبحث العاشر : الظلم والعدوان.......................٣٣٩

المبحث الحادي عشر : الفتن الدنيوية.......................٣٤٦

الفصل الثاني :سبل مدافعة الفساد وعلاجه ٣٥٨

المبحث الأول : بيان عاقبة المفسدين.......................٣٦٠

المبحث الثاني : الإخلاص.......................٣٦٦

المبحث الثالث : الصلاة.......................٣٧٦

المبحث الرابع : الدعاء.......................٣٨٣

المبحث الخامس : التخويف بالله.......................٣٩١

المبحث السادس: السمع والطاعة ونبذ الإختلاف..............٣٩٩

المبحث السابع : إقامة الحدود والزاجر الشرعية.............٤٠٩

الغاية التي شرعت الحدود لأجلها.......................٤١١

المبحث الثامن : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.............٤٢٠

المبحث التاسع : الجهاد والمدافعة.......................٤٢٨

المبحث العاشر : الأمر بغض البصر.......................٤٣٨

الباب الثالث : أثار الفساد ٤٤٦

الفصل الأول: آثار الفساد في الدنيا ٤٤٨

المبحث الأول : اختلال الأمن........................٤٤٩

المبحث الثاني : الضلال والطبع على القلب.........٤٥٨

المبحث الثالث : الاستدراج..........................٤٦٧

المبحث الرابع : حبوط العمل.........................٤٧٤

المبحث الخامس: انتفاء محبة الله وتوفيقه.............٤٨١

المبحث السادس: العقوبة والهلاك...................٤٨٧

الفصل الثاني : آثار الفساد في الآخرة ٤٩٦

المبحث الأول : الخسارة والحسرة....................٤٩٧

المبحث الثاني : مضاعفة الأوزار والسيئات...........٥٠٩

المبحث الثالث : تغليظ العذاب.......................٥١٧

الخاتمة. ٥٢٦

الفهارس العامة: ٥٣٠

فهرس الآيات..٥٣١

فهرس الأحاديث.......................................٥٥٤

فهرس الآثار..٥٥٩

فهرس الأعلام..٥٦٢

فهرس الأشعار..٥٦٥

فهرس الأماكن والفرق..................................٥٦٦

ثبت المصادر...٥٦٧

فهرس الموضوعات......................................٥٧٣

ملخّص الرسالة

عنوان الرسالة: منهج القرآن الكريم في دفع الفساد – دراسة موضوعية.

المرحلـــة: الماجستير.

اسم الباحث: يوسف بن عبدالعزيز بن سليمان العقيلي.

اسم المشرف: د.حجاج عربي رمضان أحمد.

خطة البحث:

جعلت هذا البحث مشتملاً على مقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وهي كما يلي:

المقدمة: وفيها بيان أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهدافه، وحدوده، والدراسات السابقة فيه، وخطة البحث ومنهجي فيه.

الباب الأول: مفهوم الفساد وإطلاقاته. وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: معنى الفساد وإطلاقاته ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول: معنى الفساد في اللغة والاصطلاح.

المبحث الثاني: إطلاقات الفساد في القرآن الكريم، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الفساد بمعنى العصيان .

المطلب الثاني: الفساد بمعنى الهلاك .

المطلب الثالث: الفساد بمعنى التخريب والتدمير .

المطلب الرابع: الفساد بمعنى القتل .

المطلب الخامس: الفساد بمعنى السحر .

الفصل الثاني: أنواع الفساد، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الفساد العقدي، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول: الكفر والشرك.

المطلب الثاني: النفاق.

المطلب الثالث: السحر.

المطلب الرابع: الابتداع في الدين.

المبحث الثاني: الفساد العملي، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الجنايات.
المطلب الثاني : الفواحش.
المطلب الثالث: المعاملات والعادات.
الفصل الثالث: أساليب القرآن في بيان الفساد، وفيه أربعة مباحث:
المبحث الأول: النهي عن الفساد .
المبحث الثاني: ذمّ أهله والتشهير بهم.
المبحث الثالث: بيان عاقبته.
المبحث الرابع: ذكر من اتصف بالفساد، وفيه سبعة مطالب:
المطلب الأول: الشيطان .
المطلب الثاني : مكذبو الرسل .
المطلب الثالث: أهل الكتاب .
المطلب الرابع: المنافقون.
المطلب الخامس: السحرة .
المطلب السادس: البغاة والمحاربون.
المطلب السابع: الكبراء والأثرياء.
الباب الثاني: أسباب الفساد وموانعه، وفيه فصلان:
الفصل الأول: أسباب الفساد، وفيه أحد عشر مبحثاً:
المبحث الأول: الكفر والذنوب.
المبحث الثاني: تزيين الشيطان.
المبحث الثالث: التـــقليد المذموم.
المبحث الرابع: موالاة المفسدين واتباعهم.
المبحث الخامس: اتباع الهوى.
المبحث السادس: الكبر.
المبحث السابع : الحسد.
المبحث الثامن : الغلو.

المبحث التاسع : الترف.

المبحث العاشر: الظلم والعدوان.

المبحث الحادي عشر: الفتن الدنيوية.

الفصل الثاني: سُبل دفع الفساد وعلاجه، وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول: بيان عاقبة المفسدين.

المبحث الثاني: الإخلاص.

المبحث الثالث: الصلاة.

المبحث الرابع: الدعاء.

المبحث الخامس: التخويف بالله.

المبحث السادس: السمع والطاعة ونبذ الاختلاف.

المبحث السابع : إقامة الحدود والزواجر الشرعية.

المبحث الثامن : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث التاسع : الجهاد والمدافعة.

المبحث العاشر : الأمر بغض البصر وحفظ الفرج.

الباب الثالث: آثار الفساد، وفيه فصلان:

الفصل الأول: آثاره في الدنيا، وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول : اختلال الأمن.

المبحث الثاني : الضلال والطبع على القلب.

المبحث الثالث : الاستدراج.

المبحث الرابع : حبوط العمل.

المبحث الخامس: انتفاء محبة الله وتوفيقه.

المبحث السادس: العقوبة والهلاك.

الفصل الثاني: آثاره في الآخرة. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الخسارة والحسرة.

المبحث الثاني: مضاعفة الأوزار والسيئات.

المبحث الثالث: تغليظ العذاب.

الخاتمة: وفيها بيان نتائج البحث وتوصياته.

- **الفهارس:**

١) فهرس الآيات القرآنية. ٢) فهرس الأحاديث النبوية.

٣) فهرس الآثار. ٤) فهرس الأعلام.

٥) فهرس الأشعار. ٦) فهرس الأماكن والفِرق.

٧) ثبت المصادر والمراجع. ٨) فهرس الموضوعات.

أهم نتائج البحث:

اجتهدت في تحرير أبرز النتائج، وهي كما يأتي:

١/ شمولية القرآن الكريم في بيان الفساد، وكشف كل مفسدة بحسبها، وعلاجها بما يناسبها.

٢/ إعجاز القرآن الكريم، وعالمية رسالته للناس كافة، إذ إن منهجه في دفع الفساد؛ صالح لكل زمان ومكان؛ ومن ثمّ فأساليب النهي عن الفساد، هي المنهج الأمثل في دفع الفساد، فقد بلغت الغاية، في البلاغة والبيان، والحجة والبرهان، ومن ذلك؛ عنايته بتنوع الأساليب في علاج الفساد؛ ولذلك أثره الإيجابي في منهج الإصلاح.

٣/ إن دفع الفساد في الكتاب العزيز؛ يرتكز على عنايته بحفظ الضروريات الخمس: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال، فكل ما ألحق ضرراً بهذه الضروريات؛ فقد اعتُبر مفسدة، ورتَّب عليها الأحكام المناسبة لها.

٤/ إبراز الكتاب العزيز لمنهج الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام — في دفع الفساد،فهم القدوة في ذلك، فينبغي للمصلحين أن يلزموا نهجهم، ويقفوا آثارهم؛ لإصلاح الناس.

٥/ إن أعظم الفساد؛ ما أخلّ بالمعتقد، ورأس ذلك الإشراك بالله، وتكذيب رسله.

٦/ اليهود أعظم الأمم فساداً، ولذا فصّل القرآن في بيان فسادهم، تحذيراً لهذه الأمة عن مشابهتهم. كما أنّ أهل النفاق؛ هم أخطر أصناف المفسدين، ولذا كشف القرآن فسادهم، للحذر منهم، وردّ كيدهم.

٧/ إن الكفر بالله تعالى، سبب رئيس للفساد في الأرض.وكذا الكبر والحسد والغلو؛ لها آثارها البالغة في وقوع المرء في الفساد،فيلزم الحذر منها،ومجاهدة النفس في دفعها.

٨/ إن الفتن التي تعرِض للناس؛ سبب عظيم للانحراف عن الدين، والتمادي في الفساد.

٩/ إن الأزمات المالية والمشاكل الاقتصادية، نتيجة حتمية لإقصاء المنهج الإسلامي في المعاملات،

وتغييبه عن الواقع.

١٠/ إن معظم العادات الفاسدة التي يتلقفها الناس، الباعث عليها؛ التقليد المذموم واتباع الهوى.

١١/ من أخطر المفاسد العملية؛ إشاعة الفواحش، وتلك سُنّة للمفسدين عبر القرون.

١٢/ العناية بتحقيق الإخلاص لله تعالى، والمداومة على العبادات، ومن أجلها الصلاة والدعاء، من أعظم سبل الاستقامة ومجانبة الفساد.

١٣/ إن الصراع بين الحق والباطل ماضٍ إلى قيام الساعة،وعليه؛ فإن مجاهدة الكافرين والمنافقين ومدافعتهم؛ أمرٌ لازم، لئلا يغشى الفسادُ الناسَ كافة.

١٤/ أعظم آثار الفساد على صاحبه؛ الضلال، وحبوط العمل.كما أن اختلال الأمن، من أبلغ آثار الفساد في الأرض.

١٥/ من سنن الله في المفسدين استدراجهم، ثم أخذهم على غِرّة وهم لا يشعرون، وفي هذا تسلية للمصلحين وتثبيت لقلوبهم.

١٦/ العقوبة والهلاك، وتغليظ العذاب؛ مصير محتوم للمفسدين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلوات الله وسلامه، على خاتم النبيين، وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

Digest of the Thesis

Thesis Title: *The Way of the Koran in the payment of corruption - an objective study.*

Stage: *Master's degree.*

Name: *Yousef Bin Abdel Aziz Bin Suliman Al Ogailyi.*

Name of Supervisor*: Dr.. Hajjaj Arabi Ramadan Ahmed.*

Research plan:

This research is including Introduction , three parts and a conclusion, as follows:

Introduction: *a statement of the importance of the subject, the reasons for choosing it , its objectives, and limitations, previous studies, the research plan and systematic in it.*

Part I: ***the concept of corruption and its language uses***, *there are three chapters*:

Chapter I: ***the meaning of corruption and its language uses***, *and involves two issues:*

First topic: ***the meaning of corruption in the language and terminology.***

The second topic: ***The use of corruption in the Koran, in which five demands:***

The first requirement: *corruption in the sense of disobedience.*

The second requirement: *corruption in the sense of doom .*

The third requirement: : *corruption in the sense of ruin and destruction.*

Fourth requirement: *Corruption is the sense of killing.*

Fifth Requirement : *corruption in the sense of sorcery.*

Chapter II: ***Types of corruption, involves two issues:***

First topic: ***Corruption lumpy, with four demands:***

The first requirement: *atheism and polytheism.*

The second requirement: *hypocrisy.*

The third requirement: *sorcery.*

Fourth requirement: *innovation in religion.*

The second topic: ***corruption practice, in which three demands:***

The first requirement: *felonies.*

The second requirement: *fornication.*

The third requirement: *Transactions and customs.*

Chapter III: ***Methods of the Koran in a statement corruption, in which four topics:***

First topic: *Prevention of corruption.*

The second topic: *defamation and libel their family.*

The third topic: *Statement consequences.*

Fourth topic: *MALE characterized by corruption, in which seven demands:*

The first requirement*: the devil.*

The second requirement: *the Apostles disbelievers* .

The third requirement: *the people of the book.*

Fourth requirement: *hypocrites.*

Fifth Requirement *: witches.*

Sixth Requirement : *prostitutes and combatants.*

Seventh Demand *: Upper-class and the wealthy.*

Part II: causes of corruption and impediments, in which two classes:

Chapter I: ***The causes of corruption, in which eleven Mbgesa:***

First topic: *infidelity and sin.*

The second topic: *decorating the devil.*

The third topic: *the custom reprehensible.*

Fourth topic: *further spoilers and their followers.*

Fifth topic: *a passion.*

Sixth topic : *old age.*

Seventh topic: *envy.*

Eighth topic: *extremism*.

Ninth topic: *luxury*.

Tenth topic: *injustice and aggression.*

Eleventh topic: *worldly temptations*.

Chapter II: ways to move the corruption and treatment, it has ten topics:

First topic: *a consequence of the spoilers.*

The second topic: *loyalty*.

The third topic: *Prayer*.

Fourth topic: *invocation*.

Fifth topic: *fear God.*

Sixth topic: *Hearing and obedience and renunciation of the difference.*

Seventh topic: *the establishment of border checks and legitimacy.*

Eighth topic: *the Promotion of Virtue and Prevention of Vice.*

Ninth topic: *Jihad and advocacy.*

Tenth topic*: is turning a blind eye and save the vagina.*

Part III: the effects of corruption, in which two classes:

Chapter I: ***Implications in the world, in which six topics:***

First topic: *insecurity.*

The second topic: *misguided and printing on the heart.*

The third topic*: being Lured.*

Fourth topic: *nullifying work.*
Fifth topic: *the absence of God's love and compassionate.*
Sixth Topic: *the punishment and destruction.*

Chapter II: Implications in the Hereafter. In which three sections:

First topic: *the loss and grief.*
The second topic: *the doubling of burdens and bad deeds.*
The third topic: *aggravation of punishment.*

Conclusion: ***In a statement of research findings and recommendations.***

Indexes:

١) Index of Quranic verses.
٢) Index of the hadith.
٣) Index of the effects.
٤) Index of people.
٥) Index of the poems.
٦) Index of places and denominations.
٧) proved to sources and references.
٨) Subject Index.

Key results:
Worked hard in the liberation of the most prominent results, which are as follows:

١ / holistic Koran in a statement corruption, and detect all evil plead, and treatment with appropriate.

٢ / The Miracles of the Holy Koran, and the universality of his message to all people, as the method in the payment of corruption; valid for all Time and place; and then Vosalib discourage corruption, is the optimal approach in the payment of corruption, it Amounted to end, in the rhetoric and the

statement, argument and proof, and so on; attention in the diversity of methods Treatment of corruption; therefore a positive impact in the curriculum reform.

٣/ The payment of corruption in the Holy Book; based on attention to save the five basic necessities: religion, And soul, mind, and supply, and money, all this damage to the necessities; it was considered Mischief, and arranged by the appropriate provisions to them.

٤ / Highlight the Holy Book to the method of the Apostles clients - peace be upon them - in the payment of corruption, they example in that, it should be for the reformers to commit their approach, and stand them down; to reform the people.

٥ / The greatest corruption; the breach of belief, and the top of that involvement in God, and denial of his messengers.

٦ / Greatest Jews of the United corrupt, and therefore separation of the Koran in a statement corruption, a warning to this nation of imitating them. Also that the people of hypocrisy; are the most dangerous types of spoilers, and therefore detect the corruption of the Qur'an, to be cautious of them, Word Press guile.

٧ / The disbelief in God, the cause of the President of corruption in the land. As well as arrogance, envy, and chauvinism; have implications Critical in the occurrence of one in corruption, they shall be careful of them, and by applying self-pay.

٨ / The tribulations that have been subjected to people; a great reason to deviate from the religion, and the persistent corruption.

٩ / The financial crises and economic problems, the inevitable result of the exclusion of Islamic methodology in the transactions, And absent from reality.

١٠ / Most of the corrupt customs grasped people, motivated by; reprehensible tradition and a passion.
١١/ Of the most dangerous evil of the process; promote immorality, and those years for corrupt over the centuries.

١٢ /Care to achieve fidelity to God, and keep your worship, and for prayer and supplication, from The greatest ways of integrity and avoid corruption.

١٣/ The conflict between right and wrong to the past time, and it; strive against the unbelievers and the hypocrites and Mdafthm; is necessary, lest corruption overwhelms all people.

١٤ / Greatest impact of corruption on the owner; error, and Ahbut work. Disruption of security, told The effects of corruption in the land.

١٥ / Of the ways of God to draw the spoilers, and then took them by surprise and they do not feel, in this entertainment for the reformers and install to their hearts.

١٦ / Punishment and loss, and aggravation of punishment; inevitable fate of the spoilers.

Praise be to Allah who is righteous by his grace, and prayed to Allah and peace, on the Seal of the Prophets and the Imam of the Messengers and his family and companions and followers them in goodness until the Day of religion.